

إيزابيل أليندري

سفينة نيرودا

(بتلة بحر طويلة)



ترجمة: صالح علماني



إيزابيل أَليندي

سفينة فيرودا

(بتلة بحر طويلة)

رواية

ترجمة: صالح علماني

دار الآداب . بيروت



سفينة نيرودا (بتلة بحر طويلة)

إيزابيل أليسندي / كاتبة من التشيلي

رقم الإيداع: 2020 / 10576

ISBN 978-977-6633-29-2

LARGO PÉTALE DE MAR

@ ISABEL ALLENDE, 2019

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو ترجمته في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال. دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية المعمر - نهاية صهيون

بيروت، لبنان

هاتف: (01) 867633 - (03) 841632

فاكس: 009611861633

e-mail: runx@daraladab.com

info@daraladab.com



Daraladab



@Daraladab



daraladab.com

إلى أخي خوان ألييندي،
إلى فيكتور بيي كاسادو،
وبشارة أمل آخرين..

...أجانب، هذا هو،

هذا هو موطني،

هنا ولدت وهنا تعيش أحلامي.

پابلو نيرودا

وعودة ٤٤،

إبحارات وعودات

القسم الأول

حرب وتزوح



الفصل الأول

1938

استنعدوا أيُّها الشباب،
من أجل القتل مرة أخرى، والموت من جديد
ونغطية الدم بأزهار.

بابلو نيرودا
«دامية كانت أرض الإنسان كلها»،
البحر والأجراس

الجندي الصغير كان من دفعة قنبنة الرضاعة^(١)، دفعة الأطفال المجندين عندما لم يبقَ هناك رجال شبان ومتقدمون في السن من أجل الحرب. تلقاه فيكتور دالماز مع جرحى آخرين محبوبهم من عربة قطار شعر بلا كثير من التوقير، لأنَّ الأمر مستعجل، ومُددوهم متلاحقين كقطع حطب على أرضية الإسمنت والحجارة في محطة الشمال، بانتظار مجيء سيارات أخرى لنقلهم إلى مراكز استشفاء جيش الشرق. كان الفتى خامداً، ملامحه هادئة كمن رأى الملائكة ولم يَنُدْ هناك ما يخشاه. من يدري كم من الأيام أمضاها متأرجحاً من حمالة إلى أخرى ومن مركز علاج ميداني إلى آخر، ومن سيارة إسعاف إلى أخرى. حتَّى وصل إلى كاتالونيا في هذا القطار! وفي المحطة، كان عدد من الأطباء والعاملين الصحيين والمرضى يستقبلون الجنود الجرحى، ويرسلون،

(١) مجنّدو دفعة قنبنة الرضاعة Quinta del Diberón: في أواخر العام ١٩٣٧، أدّت النخسات المتزايدة إلى تقلّص أعداد الجنود المقاتلين في صفوف جيش الشرعيّة المدافع عن الجمهوريّة، فأصدر الرئيس ملوبل ألتافي، في نيسان/أبريل ١٩٣٨ مرسوماً بتجنيد الشبان الذين هم في السابعة عشرة، ولكنّ عمليات التجنيد طالت قنبناً أصغر سناً فكان هناك مجنّدون في الرابعة عشرة. وحين علمت وزيرة الصحة والرعاية الاجتماعيّة، الكاتبة فيديريكا مونسينا بذلك، قالت باستغراب: «سبعة عشر عاماً؟ ولكنّهم ما زالوا بحاجة إلى قنبنة الرضاعة».

على الفور، أشدّ الحالات خطورة إلى المستشفى، ويصتفون الآخرين بحسب مواضع جراحهم - الفئة «أ» إصابات في الأذرع، والفئة «ب» في السيقان، والفئة «ت» في الرأس.. وهكذا، وفق تسلسل أبجديّ - ثمّ يرسلونهم مع لوحة معلّقة حول أعناقهم إلى المكان المناسب لعلاجهم. كان الجرحى يصلون بالمتات؛ وكان لا بدّ من تشخيص الحالات واتخاذ القرار خلال دقائق، ولكنّ الصخب والضوضاء كانا في المظهر فقط. لم يكن هنالك من يبقى مهملاً، وليس هناك من يُفقد من يحتاجون إلى جراحة يذهبون بهم إلى مبنى سانت أندريو القديم في مائربسا، ومن يحتاجون إلى علاج يُرسلون إلى مراكز أخرى، وهنالك البعض من يُفضلون أن يبقوا حيث هم، لأنّه لا يمكن عمل أيّ شيء، لإنقاذهم. المتطوّعات يملّن شفاههم بالماء، ويكلّمهم بصوت خافت، ويهدّدن لهم كما لو أنّهم أبناؤهنّ؛ فهنّ يعرفن أنّ هناك، في مكان آخر، امرأة أخرى تسند ابنهنّ أو أخاهنّ. وبعد بعض الوقت، سيحملهم فريق خمسة الحمّالات إلى مستودع الجثث. كان هنالك ثقب في صدر الجنديّ الصّغير، وبعد أن فحصه الطبيب بصورة متعجّلة، من دون أن يجد فيه نبضاً، قرّر أنّه لم تُعدّ ثمة إمكانية لإنقاذه، وأنّه لم يُعدّ بحاجة إلى المورفين أو أيّ مهدّئ آلام آخر. كانوا في الجبهة قد غطّوا جرحه بخرقة، وجمعوا الجرح بطنق صفيحيّ مقلوب للحيلولة دون احتكاكه بالجرح، ولغّوا صدره كلّهُ بضمّاد، لكنّ ذلك حدث منذ عدّة ساعات أو عدّة أيّام، أو عدّة قطارات.. من الصّحال معرفة ذلك!

كان دالماو هناك كي يساعد الأطباء؛ وكان عليه الانصياع للأوامر بترك ذلك الفتى والاهتمام بالجريح التالي. لكنّه فكّر بأنّه إذا كان ذلك الجنديّ الصّغير لا يزال حيّاً بعد الإصابة، والنزيف والنفل

- ثم الوصول إلى هذا الرُصيف في المحطة، فلا بد أن لذية رغبة كبيرة
 في العيش والبقاء حيًا، وأنه من المؤسف أن يكون قد استلم أمام
 الموت في اللحظة الأخيرة. أراح القطع الغماشية بحذر، وتأكد بدهول
 من أن الجرح كان مفتوحًا ونظيفًا جدًا، كما لو أنه قد رُسم على الصدر.
 لم يستطع أن يفتر كيف حطمت الرصاصات الأضلاع وجزءًا من عظم
 الفص من دون أن تمزق القلب. فخلال ما يقارب الثلاث سنوات من
 الممارسة في الحرب الأهلية الإسبانية، في جبهات مدريد وترويل أول
 الأمر، وبعد ذلك في مستشفى الإخلاء في مانريسا، كان فيكتور دالماو
 بطر أن قد رأى كل شيء، وأنه قد حصل على مناعة ضد التأثير بمعاناة
 الآخرين، ولكنه لم يكن قد رأى من قبل قط قلبًا حيًا. وبانبهار، شهد
 الخفقات الأخيرة وهي تصبح أشدَّ بطأً وتباعداً، إلى أن توقفت تمامًا،
 وانتهى الأمر بالجندى الصغير إلى الموت بلا أي زفرة أخيرة. ولبرهة
 قصيرة، ظل دالماو متحمداً بلا حراك، يتأمل الفجوة الحمراء حيث لم
 بقذ هناك أي شيء ينبض. من بين كل ذكريات الحرب، ستكون هذه
 هي الذكرى الأشدَّ إلحاحًا وتواترًا: فذلك الطفل الذي في الخامسة
 عشرة أو السادسة عشرة من عمره، والذي لا يزال أمرًا، متخفًا من
 المعركة ومن الدم الجاف، ممدداً على قطعة مشمع وقلبه مكشوف. لم
 يجد دالماو أبدًا أي تفسير أو سبب لإدخاله ثلاثة من أصابع يده اليمنى
 في الجرح المخيف، أحاطت أصابعه بذلك العضو وضغط عدة مرّات،
 بحركة إيقاعية، وبأقصى قدر من الهدوء والتلقائية، ولوقت من المحال
 تذكر مداه، ربما ثلاثين ثانية، وربما لوقت أبدي. أحس عندئذ بأن
 القلب يتعشى بين أصابعه، في البدء بارتعاش تكاد تكون غير محسوسة،
 وسرعان ما صار القلب ينبض بقوة وانتظام.

- يا فتى.. لو أنني لم أرَ بعيني بالذات لما صدقت الأمر أبداً، قال أحد الأطباء بنبرة وقورة، وكان قد اقترب من دون أن يلححه دالماو.

استدعى الطبيب خنلة الحُمالات بصرختين، وأمرهم بأن ينقلوا الجريح فوراً وبأقصى سرعة، لأنه حالة خاصة.

- أين تعلّمت هذا؟ نوجه بالسؤال إلى دالماو، فور انتهاء عناصر الحُمالات من حمل الجندى الصغير الذي ما زال بلون الرُماد، ولكن مع قلب ينبض.

فأخبره فيكتور دالماو، وهو رجل قليل الكلام، بجمليتين النبتين، أنه تمكّن من دراسة الطّب مدة ثلاث سنوات في برشلونة قبل التحاقه بالجبهة كممرض.

- وأين تعلّمت ذلك؟ كرّر الطبيب.

- لم أتعلّمه في أيّ مكان، ولكنني فكّرت بأنه ليس ثمة ما يُمكن حصارته...

- أرى أنك تعرج.

- إصابة في عظم الفخذ الأيسر. في ترولبل. لقد شفي الجرح.

- حسن. منذ الآن، ستعمل معي، فأنت تضيق وقتك هنا. ما اسمك؟

- فيكتور دالماو، يا رفيق.

- لا شيء من التعامل معي كرفيق. التعامل معي بلقب دكتور فقط، ولا يخطرُ لك رفع الكلفة معي. اتفقنا؟

- اتفقنا، يا دكتور. وليكن الاحترام متبادلاً. يمكنك أن تدعوني بالسيد دالماو، ولكن الرفاق الآخرين سيُشعرون بذلك كما لو أنه رصاصة.

ابتسم الطبيب ابتسامة متكثمة. وفي اليوم التالي، بدأ دالماو التدريب في المهنة التي ستحدد مصيره.

عرف فيكتور دالماو، مثلما عرف جميع العاملين في مستشفى سانت أندريو وفي مستشفيات أخرى، أنَّ فريق الجراحين قد أمضوا ست عشرة ساعة في محاولة بعث جندي ميّت، وأنهم قد نجحوا بإعادته إلى الحياة في غرفة العمليات. إنَّها معجزة، قال كثيرون. وخالفهم من تخلَّوا من الإيمان بالربِّ والقديسين قائلين إنَّه التقدُّم في العلم وبنية الشاب البدنيَّة الحصانيَّة المنيعة. وقد نوى فيكتور أن يزوره أينما كان المكان الذي نقلوه إليه، ولكن مع تسارع أحداث تلك الأزمنة، صار من المُحال تحقيق حسابات اللِّقاء والفرق، والحضور والغياب، والأحياء والأموات. وبدأ، لبعض الوقت، أنَّه قد نسي ذلك القلب الذي أمسكه بيده، لأنَّ منزور حيانته تعقَّدت كثيرًا، وشغلته أمورٌ أخرى مستعجلة، ولكنَّه بعد سنوات من ذلك، وفي الجانب الآخر من العالم، رآه في كوابيسه: ومنذ ذلك الحين، صار طبيب الفتى يزوره بين حين وآخر، شاحبًا وحزينًا، وحاملًا قلبه الخامد على طَبَق. لم يكن دالماو يتذكَّر اسمه، أو ربَّما لم يعرف اسمه قط، فأطلق عليه لقب لاثارو لأسباب جليَّة، ولكنَّ الجندي الصغير لم ينسَ أبدًا اسم منقلبه. فما إن تمكَّن من الجلوس وشرب الماء بنفسه، حتَّى أخبروه بمأثرة ذلك الممرَّض في محطة الشمال، المدعو فيكتور دالماو، الذي استعاده من عالم الموت، وحاصروه بالأسئلة؛ فجميعهم يريدون أن يعرفوا إذا كانت الجنة والحجيم موجودتين حقًّا أم أنَّهما من اختراع الأساقفة لبيِّت الخوف في النفوس! استعاد الفتى عافيته قبل انتهاء الحرب. وبعد سنتين من ذلك، في مرسيليا، وثَّم على صدره اسم فيكتور دالماو، تحت ندبة الجُرح.

شائبة من الملبشيا، تضع القُبعة مائلة في محاولة للتعويض عن قبح البدلة العسكرية، انتظرت فيكتور دالماو عند باب غرفة العمليات، وعندما خرج، بذقن لم تُخلق منذ ثلاثة أيام وبرداء ملطّخ، أعطته ورقة معلومة عليها رسالة من عاملات الهاتف. كان دالماو قد أمضى ساعات طويلة واقفاً على قدميه، وكانت ساقاه تؤلمانه. وانتهى به الأمر إلى الانتباه، بفعل قرقرة الكهف في معدته، إلى أنه لم يأكل شيئاً منذ الفجر. لقد كان العمل جديراً ببغلة، ولكنه كان يحمد فرصة التعلّم ضمن المقرّبين من أحد أفضل الجراحين في إسبانيا. ففي ظروف أخرى، ما كان يمكن لطالب مثله أن نتاح له إمكانية الاقتراب منهم، ولكن عند ذلك المستوى الذي بلغته الأمور في الحرب، كانت الدراسة والشهادات أقلّ قيمة من الخبرة والتجربة؛ وهذا ما صار لديه فائض منه، مثلما قال مدير المستشفى عندما سمح له بالمساعدة في العمليات الجراحية. وفي تلك الأثناء، كان بمقدور دالماو العمل لأربعين ساعة متواصلة من دون نوم، معتمداً على التبغ وقهوة الهندباء، من دون أن يولي اهتماماً لعنافة ساقه. هذه الساق التي كانت قد حرّرت من الجبهة؛ وبفضلها صار بإمكانه خوض الحرب في المؤخّرة. لقد انضم إلى الجيش الجمهوري منذ العام 1936، مثلما فعل جميع الشبان تقريباً، من هم في مثل سنّه؛ وانطلق مع فوجه للدفاع عن مدريد التي احتلّ جزءاً منها «القوميون»، بحسب التسمية التي أطلقوها على قواتهم المتمردة ضدّ الحكومة، حيث كان يجمع الشهداء، لأنّه بدراسته للطب كان أكثر فائدة من حمله بندقية في الخنادق. وقد نقلوه بعد ذلك إلى جبهات أخرى.

في شهر كانون الأوّل/ديسمبر 1937، أثناء معركة تروبل، وفي أجواء جليدية باردة، كان فيكتور دالماو يتنقّل في سيارة إسعاف بطوليّة،

نقدّم إسعافات أوليّة للجرحى، بينما السائق آيتور إيبازا، وهو باسكي عصيّ على الموت، يترنّم بلا توقف ويضحك بصخب كي يخادع الموت، ويتدبّر أمر الصياقة في دروب مدّثرة. وكان دالماو يثق بأنّ حسن حظّ سائقه الباسكي الذي خرج سليماً من ألف حادثة مفاجئة، سيكون كافياً لكليهما. ولكي يتجنباً القصف، كانا يتنقلان ليلاً في أغلب الأحيان؛ وإذا لم يكن هنالك قمر، يقوم شخص بالشير أمام السيارة، مزوّداً بمصباح يدويّ، كي يضيء الطريق لآيتور، إذا كان ثمة طريق هناك، بينما يقوم فيكتور بإسعاف الرجال الجرحى داخل السيارة بوسائل ضئيلة جدّاً، وعلى ضوء مصباح يدويّ. كانا يتحدّيان الأرض المليئة بالعواقل، والحرارة التي ننخفض إلى عدّة درجات تحت الصفر، نتقدّمان ببطء الدبدان على الجليد، ويقوصان في الثلج؛ بدفعان سيّارة الإسعاف كي يرتفعا أكاماً أو ليخرجاها من مخاضات وحل أو من حُفر انفجارات، ويتجاوزان كتل حدائد ملتوية وجثث يقال متحتجرة، تحت رمايات رشاشات الجانب القوميّ وقنابل طائرات قبلق الكوندور^(١) التي نمرّ محلقة قريباً من سطح الأرض. لم يكن هنالك ما يشغل بال فيكتور دالماو الذي يركّز اهتمامه على إبقاء الجرحى أحياء، وهم ينزفون بغزارة، كان مصائباً بعدوى صلابة آيتور إيبازا، الذي يقود السيّارة بلا تأثّر، وبرواية نكتة طريقة لكلّ مناسبة.

ومن سيّارة الإسعاف، انتقل دالماو إلى المستشفى الميدانيّ الذي أقيم في كهوف ترويل، لحمايته من القصف، حيث كانوا يعملون

(١) جيش أو يلقى الكوندور: قوّة من الجيش الألمانيّ الهتلري شاركت في الحرب الأهليّة الإسبانيّة بصفة متطوّعين إلى جانب قوّة فرانكو. وكانت هذه القوّة في الغالب من الطيارين والقوّة الجوية.

مستضيفين بالشموع، وفتائل مضمّخة بزيت المحرّكات ومصاييح كيروسين. يقارعون البرد بمجامر موضوعة تحت مناخذ الجراحة، لكنّ ذلك لم يكن يحول دون أن تظلّ الأدوات المتجمّدة ملنصقة بالأيدي. كان الأطباء يُجرون عمليات جراحة سريعة لمن يستطيعون ترقبهم قبل قليل من إرسالهم إلى مراكز العلاج، وهم يعلمون أنّ كثيرين منهم سيموتون في الطريق. أمّا الآخرون، من تجاوزوا أيّ إمكانية استفادة من المساعدة، فينتظرون الموت متحفلين الآلام بجراحات مورفين، عند توافرها، ولكنّ بتقنين شديد على الدوام، وكان الأثير كذلك معقّناً. وإذا لم يتوافر أيّ شيء آخر لمساعدة الرجال ذوي الجراح القظيمة ممن يثبّون من الألم، فإنّ فيكتور يعطيهم قرص أسبرين، ويقول لهم إنّه دواء أميركي مهذّب للآلام وشديد الفعاليّة. كانت الضمادات تُغسل بجليد وتلج مذاب لإعادة استخدامها. أمّا أشدّ المعهّات مفقّاً، فكانت إشعال المخطّبة لحرّق البقان والأذرع المبتورة؛ ولم يستطع فيكتور أن يعتاد قطّ على رائحة ذلك اللحم المحروق.

هناك، في نرويل، عاد لرؤية إليزابيث إيدنبز، وكان قد تعرّف عليها في جبهة مدريد، حيث كانت قد جاءت كمستطوعة مع جمعيّة مساعدة الأطفال في زمن الحرب. إنّها معرّضة سويسريّة في الرابعة والعشرين، لها وجه عذراء من عصر النهضة، وشجاعة محارب مجرّب. كان فيكتور نصف مغرّم بها هناك في مدريد، وكان يمكن له أن يصير مغرّماً بالكامل لو أنّها أتاحت له أدنى فرصة، ولكنّ لم يكن هنالك ما يحرف تلك الشابة عن مهمّتها: التخفيف من معاناة الأطفال في أزمّة الغطائع الرهيبة. وخلال تلك الشهور الماضية التي لم يرها فيها، كانت السويسريّة قد فقدت براءتها الأولى التي كانت عليها عند وصولها إلى

إسائبا. فقد تصلّبت شخصيّتها النضاليّة ضدّ البيروقراطية العسكريّة
«ماء الرجال»؛ وحافظت على رحمتها وعدّوتها مع النساء والأطفال
الذين تولّت مسؤوليّة رعايتهم. خلال فترة هدوء بين هجومين معاديين،
النفي بها فيكتور أمام إحدى شاحنات التزوّد بالمؤن. «مرحبًا يا فتى،
هل تتذكّرني؟»، قالت له إليزابيث محبّة يأسًا، إنّها العُترعة بأصوات
«ملغّبة» من الألمانية. وكيف لا يتذكّرها! لكنّ رويّتها أفقدته القدرة على
الكلام. بدت له أكثر نصوّجًا وجمالًا ممّا كانت عليه من قبل. جلسا
على كتلة أنقاض بينونيّة. هو يدخن، وهي تشرب شايًا من زمرميّة.

«ما أخبار صديقك أيتور؟ سألته الفتاة.

«ما زال هناك، تحت رمابات الرّشاشات دومًا. ومن دون أن يُصاب

بأبي خدش.

«إنّه لا يعرف الخوف. انقل إليه تحيائي.

«وماذا لديك من خطط لما بعد انتهاء الحرب؟ سألتها فيكتور.

«الذهاب إلى حربٍ أخرى. فهناك حرب على الدوام في مكان

ما. وأنت؟

«إذا كنت توافقين، يمكننا أن نتزوّد؛ اقترح عليها وهو مرتبك

من الخجل.

فضحكت للحظة، وعادت تبدو كأنسة من عصر النهضة، مثلما

كانت في أزمنة أخرى.

«لن أفعل حتّى لو كنت مجنونة يا فتى، فأنا لا أفكر في الزواج،

سواء بك أو بأيّ شخصٍ آخر. لا وقت لديّ للمحب.

«ربما ستبدلين رأيك. أنتظّرين أئنّا لن نعود للقاء مرّة أخرى؟

- بل سنلتقي بكل تأكيد، إذا ما ظلنا أحياء. ويمكنك أن تعتمد عليّ يا فيكتور في أي شيء أستطيع المساعدة فيه...
- وأنا أقول لك الشيء نفسه. أستطيع تفصيلك؟
- لا.

في كهوف ترويل تلك تصليبت مائة أعصاب فيكتور، واكتسب المعارف الطبية التي ما كان يُمكن لأيّ جامعة أن توفرها له. تعلّم أنّه يُمكن للمرء أن يعتاد على كلّ شيء تقريبًا: على الدماء، الكثير من الدماء! على الجراحة من دون تخدير، على رائحة الغرغريناء، على القذارة، على تدفق السيل غير المتناهي من الجنود الجرحى، ومن النساء والأطفال أحيانًا، وعلى إنهاك فرون من الزمان ينخر الإرادة.. والأسوأ من ذلك، الاعتياد على تقبّل الإرادة المخادعة بأنّه يمكن لكلّ تلك التضحيات الكبيرة أن تكون بلا جدوى. وهناك، بينما هو يسحب موتى وجرحى من بين أنقاض إحدى عمليات القصف، سقط عليه حدار مُنداع، فكسر ساقه اليسرى. عالجه طبيب إنكليزيّ من الفرق الأرمية. لو أنّه كان طبيبًا آخر لاختار إجراء عملية بتر سريعة، لكنّ ذلك الإنكليزيّ كان قد بدأ وددئته للتو بعد أن استراح عدّة ساعات. رطّل ببعض الأوامر للممرضة، وتأبّب لإعادة وضع العظام في مكانها. فأت محظوظ أيّها الشاب، يوم أمس وصلت إمدادات من الصليب الأحمر، وسوف نخدرك ونجعلك ننام، قالت له الممرضة وهي تُقَرَّب من وجهه قناع الأثير.

عزا فيكتور الحادثة إلى واقع عدم وجود أيّ ثور إيبازا معه لحمايته بنجمة الطيّب. وكان أيتور هو من اقتاده إلى القطار الذي حمله إلى

سببا مع عشرات الجرحى الآخرين. فكان بمضي سباق لا يستطيع
 جريهما، بسبب ألواح خشبية مثبتة بأصمدة لاصقة، ذلك أنهم لم
 يستطيعوا تثبيتها بالجبس بسبب الجراح، وكان ملفوفاً ببطانة، يُنهكه
 البرد والحمى، ومعذباً مع كل اهتزاز في القطار، ولكنه معترّ كذلك،
 لأنه في ظروف أفضل من معظم الرجال الراقيين معه على أرضية
 العرب. كان آينور قد أعطاه آخر ما لديه من سجائر، وجرعة من المورفين
 ثم تعليمات بعدم استخدامها إلا في حالة الضرورة القصوى، لأنه لن
 يحصل على جرعة أخرى.

هناؤه في مستشفى بلنسيا على العمل الجيد الذي قام به الطبيب
 الإنكليزي، وأخبروه أن ساقه ستعود كما لو أنها جديدة، ما لم تحدث
 ساعفات وتعقيدات غير متوقعة، ولكنها ستكون أقصر قليلاً من الساق
 الأخرى. وما إن بدأت جراحه تلتئم، وتمكن من الوقوف مستنداً على
 عكاز، حتى أرسلوه إلى برشلونة وهو لا يزال بجيرة الجبس. وبقي هناك
 ثم بت أبويه يلعبه أدوار شطرنج لامتناهية مع أبيه، إلى أن صار قادراً
 على الحركة بلا مساعدة. عندئذ، عاد إلى العمل في أحد مستشفيات
 المدينة، التي تُقدم الخدمات للسكان المدنيين. بدا له ذلك كما لو أنه
 في إجازة، لأنه أشبه بفردوس من النظافة العالية بالمقارنة مع ما عاشه
 في الجبهة. ظل هناك حتى الربيع، حين أرسلوه إلى مستشفى سانت
 اندرو، في مانيسا، فودع والدته وروزز برونغرا - وهذه تلميذة موسيقى
 إراها أبوا دالماو في بيتهما، وتوصل هو إلى محبتها كأخت له خلال
 أسابيع نقاهته. تلك الشابة المتواضعة واللطيفة التي تُضي ساعات
 من متاهة في التمارين على البيانو، كانت المرافقة التي يحتاج إليها
 الراجان مارسيل لويس وكارمي دالماو منذ أن غادرهما ابنهما.

فتح فيكتور دالماو الورقة التي قدّمتهما إليه فتاة الميليشيا،
وقرأ رسالة أنه كارمي. لم يرها منذ سبعة أسابيع، على الرغم من أن
المستشفى لا يبعد أكثر من خمسة وسنين كيلومترًا عن برشلونة، لكنّه
لم يجد يوم فراغ واحد ليذهب في الحافلة لزيارتها. أمّا هي، فكانت
تتصل به هاتفياً مرّة كلّ أسبوع، في يوم الأحد دومًا، وفي ساعة محدّدة.
وكانت ترسل إليه في هذا اليوم أيضًا هديّة ما، كقطعة شوكولاتة من
التي يأتي بها عناصر الفرق الأممية، أو بعض السجق، أو قطعة صابون
نحصل عليها من الشوق السوداء، أو ترسل إليه في بعض الأحيان
السجائر التي تعتبرها كنزًا ثمينًا، لأنّه لا يستطيع العيش بلا نيكوتين.
كان ابنها يتساءل كيف تستطيع أنّه الحصول على تلك الأشياء! لقد
كان التبغ مطلوبًا وثمانين، إلى حدّ أن الطائرات المعادية اعتادت أن تُلقي
به من السماء مع أرغفة خبز، للسخرية من جوع الجمهوريين، والتلميح
إلى الوفرة السائدة لدى القوميين.

رسالة من أمّه في يوم خميس، لا يُمكن لها إلا أن تكون إنذارًا
بأمر طارئ ومُتّجّل: «سأكون في مركز الهاتف، اتّصل بي». قدّر ابنها
أنّها تنتظر هناك منذ ساعتين تقريبًا، وهو الوقت الذي أمضاه في غرفة
العمليات قبل أن يتلقّى الرسالة. نزل إلى المكاتب في القبو، وطلب من
إحدى عاملات الهواتف أن تتصل بمكتب الهاتف في برشلونة.

أخذت كارمي الخطّ، وتكلّمت بصوت متقطّع بسبب نوبة سُعال،
أمرت ابنها الأكبر بأن يذهب إلى البيت، لأنّه لم يبقَ لأبيه إلا القليل
من الحياة.

ما الذي جرى له؟ لقد كان أبي سليمًا وبحالة جيّدة! هتف فيكتور.

لـ لم يُعد قلبه قادرًا على المزيد. أخيرًا أخاك، كي يأتي أيضًا لوداعه، لأنه قد يغادر ما بين إغماضة عين وفتحها.

احتاج ثلاثين دقيقة لتحديد مكان أخيه في جبهة مدريد. وعندما مكنا أخيرًا من التواصل عبر جهاز الإرسال، وسط خليط أصوات وصبر فلكي، شرح له أخوه أنه من المُحال أن يتمكن من الحصول على إذن للذهاب إلى برشلونة. وكان صوته يُسمع نائيًا جدًا ومنعًا، لم نستطع فيكتور التعرف عليه.

كل شخص قادر على إطلاق النار من سلاح لا يُمكن الاستغناء عنه، أنت تعرف ذلك جيدًا يا فيكتور. الفاشيون يتفوقون علينا بالعديد من التسليح، ولكنهم لن يمرؤا. قال له وليام. مرّذا الشعار الذي أَساعته ولوريس إيباروري، والمعروفة على نطاق واسع بلقب باسبوناريا لغدرتها على إلهاب مشاعر الحماسة المتعصبة في صفوف الجمهوريين.

كان العسكريون المتمردون قد احتلوا الجزء الأكبر من أراضي إسبانيا، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على مدريد التي كان الدفاع اليائس عنها شارعًا شارعًا وبيتًا بيتًا قد حولها إلى رمز للحرب. وكانوا يعتمدون على قوَّات متعمرتهم في مراكز من المورو المهرابين، وعلى مساعدة مهمة يقدّمها إليهم كل من موسوليني وهتلر، لكنّ مقاومة الجمهوريين أوقفتهم عند أطراف العاصمة. في بداية الحرب، كان وليام دالماو قد قاتل في مدريد ضمن لواء دوروتي. أمّا في هذه اللحظات، فكان الجيشان يتواجهان في المدينة الجامعية، وكلّ منهما قريب جدًا من الآخر، بل إنّ ما كان يفصل بينهما في بعض المواقع هو عرض شارع فقط؛ يمكنهم رؤية وجوه بعضهم بعضًا، وتبادل الشباب من دون حاجة

إلى الصراخ كثيرًا. وبحسب قول وليام المتمرس في أحد المباني، كانت طلقات الغدائف تنقب جدران كلية الفلسفة والأدب، وكلية الطب، وبيت بيلانكيت، ولم تكن هنالك من طريقة للحماية من المقذوفات، ولكنهم كانوا قد قدروا أن ثلاثة مجلدات من كتب الفلسفة تحمي من الرصاص. وقد تصادف وجوده قريبًا من المكان الذي مات فيه الفوضوي الأسطوري بيونابيتورا دوروتي، الذي جاء للقتال في مدريد مع جزء من فرقته بعد أن شر الثورة، ومثّل وجودها في إقليم لراغون. وقد قُتل برصاصة عن قرب في الصدر، في ظروف غير واضحة وجرى القضاء على الفرقة، وقُتل أكثر من ألف رجل ميليشيا، وكان وليام بين الناجين، وأحد القلة الذين خرجوا سالمين. بعد نحو ستين من ذلك، وبعد أن قاتل في جبهات أخرى، أعادوا إرساله مجددًا إلى مدريد.

- أبوك يتغهم إذا كنت غير قادر على المجيء، يا وليام. نحن في البيت بانتظارك. تعال عندما تستطيع. حتى لو لم تتمكن من رؤية المعجوز حيًا، فحضورك سيكون مشجعًا جدًا لحالة أنا.

- أتوقع أن روزر معهما.

- أجل.

- انقل إليها تحياتي. قل لها إن رسائلها ترافقتي، ولنامحي لأنني لا أريد على رسائلها بصورة متواصلة.

- ستكون بانتظارك، يا وليام. انتبه لنفسك جيدًا.

تبادلا الوداع بعبارة تحية مقتضبة، وظل فيكتور يشد يقبضته على بطنه متوسلًا بقاء أبيه حيًا لوقت أطول قليلًا، كي يرجع أخوه سليمًا، وكي تنتهي الحرب نهائيًا وتنجو الجمهورية.

والد كلُّ من فيكتور ووليام، البروفسور مارسيل لويس دالماو،
 مئى خمسين سنة من حياته يُدرّس الموسيقى، وأُسّر بنصميمه
 اسراره أوركسترا برشلونة السمفونية الشبابة وقادها بشغف؛ وألّف
 «أماو عشرات مقطوعات الكونشيرتو التي لم يُنْذَ هناك من يعزفها مذ
 «أماو الحرب، وألحان عدّة أغنيات هي في هذه السنوات بالذات بين
 «أصلبات جنود الميليشيا. تعرّف على كارمي، امرأته، حين كانت لا تزال
 «أهفة فتيّة في الخامسة عشرة، محشورة في زبّها المدرسيّ الصارم، وكان
 «أستاذ موسيقى شاباً، أكبر منها بانثني عشرة سنة. كانت كارمي ابنة
 «أماو في الميناء، تلميذة إحصان لدى الرهبان، وتُكُنُّ بهيئتها منذ صغرها
 «أب كراهية، ولم يسامحها لتركها الدير وذهابها للعيش مع تنبل ملحد
 «أماو. ورثما ماسوني أيضاً، بسخر من رابطة الزواج المقدّسة! عاش
 «أماو لويس وكارمي حياة الخطيئة عدّة سنوات، إلى أن صار وشيكا
 «أماو فيكتور، ابنهما الأوّل، عندئذ تزوجا كي يجنّبا الطفل وصمة كونه
 «أماو الزنا، وهذه الوصمة، في تلك الأزمنة، كانت لا تزال تُشكّل عفة
 «أماو في الحياة. «أنا أنجنا ابنينا الآن لما اضطررنا إلى الزواج، لأنّه لا
 «أماو في الجمهورية لمن يسمّون أبناء الزنا»، أعلن مارسيل لويس دالماو
 «أماو لحظة إلهام في بداية الحرب. فرّدت عليه كارمي: «هذا يعني أنّي
 «أماو ساحيل وأنا عجوز، وأنّ ابنيك سيكونان الآن بالحفّاضات».

تلقى كلُّ من فيكتور ووليام دالماو تعليمهما في مدرسة علمانية،
 «أماو عا في بيت صغير بحيّ رابال، منزل أسرة من الطبقة الوسطى
 «أماو المجتهدة، حيث موسيقى الأب وكتب الأمّ يحلّان محلّ الدين. لم
 «أماو الزوجان دالماو في أيّ حزب سياسي، ولكنّ عدم ثقة كليهما
 «أماو السلعة، وبأيّ نوع من الحكم، جعلهما يصطفّان إلى جانب الغوضيّة.

وفضلاً عن الموسيقى بأشكالها المتعددة، كان مارسيل لويس بفرس في
 ابنيته الفصول إلى العلوم وحب العدالة الاجتماعية. فشجعت الأولى
 فيكتور على دراسة الطب، وكانت الثانية هي الفكر المثالي بالمثل
 لوليام الذي اعتاد، منذ طفولته، أن يمضي غاضباً من العالم، مبشراً
 بالمواعظ المناهضة للإقطاعيين والتجار والصناعيين والأرستقراطيين
 والكهنة، وبخاصة القسيسين، بحماسة غيبية أكثر مما هي حجج عقلانية.
 كان مرخاً وصاحباً، متين البنية، مفضلاً من الفتيات اللاتي يتحرقن
 لهفة لإغوائه من دون طائل، إذ إنه لم يكن يهتم كثيراً بالتأثير الذي
 يخلقه فيهن، وكان يكرس نفسه جسداً وروحاً للرياضة، وارتداد البارام
 والاهتمام بالأصدقاء. وقد نحدى أبويه، بانضمامه وهو في التاسعة عشرة
 من عمره إلى أول الميليشيات العمالية التي نُظمت للدفاع عن الحكومة
 الجمهورية، وضد الفاشيين المتمردين. كانت لديه ميول جندي، كمن
 وُلد ليمتثل أسلحة ويقود رجالاً أقلّ تصميمًا منه. أمّا أخوه فيكتور
 بالمقابل، فكان يبدو شاعرًا، بعظامه الطويلة، وشعره المتمرد ووجهه
 القلق، والصامت الذي يحمل في يده كتاباً على الدوام. في المدرسة،
 كان فيكتور يتحمل المضايقات المتعادية من الضحية الآخرين؛ «فلنر
 إذا ما كنت ستصبح كاهناً، أيها المخلص». عندئذ، كان وليام يتدخل،
 وهو أصغر بثلاث سنوات، ولكنه أكثر قوة من أخيه، ومستعد على الدوام
 للشجار وتبادل الضرب من أجل أسباب عادلة. احتضن وليام الثورة
 كما لو أنها عروس؛ ووجد فيها القضية التي تستحق أن يقدم حياته من
 أجلها.

المحافظون والكنيسة الكاثوليكية الذين وظفوا أموالاً ودعاية
 ومواعظ قيامية من فوق المنابر، هُزموا في الانتخابات العاشرة سنة

1916 أمام الجبهة الشعبية، المؤلفة من تحالف أحزاب يسارية. إمبرانيا التي عاشت حالة من التشنج منذ فوز التوجه الجمهوري لخمسة سنوات، انقسمت، كما لو أن ضربة فأس عنيفة قد شققتها إلى نصفين. وبحجة فرض النظام في أوضاع قدروا أنها فوضى، مع أنها أهد ما يكون عن ذلك في الحقيقة، بدأت قوى اليمين بالتأمر على الأمور مع العسكريين من أجل هزيمة الحكومة الشرعية المؤلفة من الرأيين واشتراكيين وشيوعيين ونقابيين، مع دعم واسع من العمال، الملاحين والشغيلة والغالبية العظمى من الطلاب والمثقفين. كان أمام قد أنهى دراسته الثانوية بمشقة، وكان يتمتع، بحسب رأي المحب للتوريات، بجسد رياضي، وجرأة مصارع ثيران، ودماع أمل مخاطي في الثامنة من العمر. لقد كان الجو السياسي مثاليا وليام الذي ينتهز أي فرصة للصراع بالقبضات مع حصومه، حتى لو كان يجد صعوبة في صياغة مؤغاته الأيديولوجية، وسبطل بجد حاد الصموبة إلى أن انضم إلى صفوف الميليشيات، حيث التوجيه السياسي لا يقل أهمية عن الأسلحة. كانت المدينة منقسمة، ولا تنفي الطرفان المتنازعان إلا لئباغت أحدهما الآخر بالهجوم. فكانت مالك بارات، وحفلات رقص، ولقاءات رياضية، وحفلات لقوى اليسار، وأخرى مثلها لليمين. وقبل أن يصبح وليام ميليشياويًا، كان يحوض في مشاجرات. وبعد كل واحدة من تلك المواجهات مع فتية معتمين جريئين، يرجع وليام إلى البيت تغطيه الكدمات والرضوض، ولكنه سعيد. ولم يكن لدى أبويه أدنى شك في أنه يخرج لإحراق المحاصيل وسرقة المواشي من مزارع الإقطاعيين، ولبضرب ويحرق ويخرب.. إلى أن جاء ذات يوم ومعه شمعدان من الفضة. انتزعته

منه أنه بسرعة خاطفة، وانتهالت به عليه؛ ولو أنها كانت أضل قامة، لهشمت رأسه، ولكن الشمعدان أصاب وليام في منتصف ظهره. أجبرته كارمي على الاعتراف بما كان يعرفه آخرون، لكنها كانت ترفض ثقّله حتى تلك اللحظة: أن ابنها يمضي، وسط حماقات أخرى، في انتهاك حرمة كنائس ومهاجمة كهنة وراهبات.. وهذا يعني، أنه يرتكب بالضبط ما تؤكد دعاية القوميين. دُرب غربائنا فتقتلع لك عينيك! سوف نُميتني مجلّة بالعار، يا وليام! الآن فوزا سوف تذهب لتعيده، أنسمعي؟ صرخت به. فخرج وليام خافضا رأسه وهو يحمل الشمعدان ملفوفا بورق جرائد.

في شهر حزيران 1936، تمرّد العسكريون على الحكومة الديمقراطية. وسرعان ما ترأس ذلك التمرد الجنرال فرانكو، مظهره الضيل التافه كان يخفي طبعه البارد والانتقامي والوحشي. وكان حلمه الأكثر طموحا أن يعيد إلى إسبانيا أمجاد ماضيهما الأمبراطوري، وهدفه المباشر هو القضاء النهائي والمُبرم على فوضى الديمقراطية، والحكم بيند من جديد عن طريق القوات المسلّحة والكنيسة الكاثوليكية. كان العسكريون المتمردون يأملون باحتلال البلاد خلال أسبوع، فوجدوا أنفسهم أمام مقاومة غير متوقّعة من الشفيلة المنظمين في قوات ميليشيا، والمصمّمين على الدفاع عن الحقوق المكتسبة من خلال الجمهورية. عندئذ، بدأت مرحلة الحقد المنفلت من عقاله، والانتقام والرعب الذي سيكلّف إسبانيا مليون ضحية. كانت استراتيجية الرجال الذين يقودهم فرانكو تقوم على سفك أقصى ما يُمكن من الدماء، وزرع الخوف، باعتبارها الطريقة الوحيدة لاستئصال أي أثر للمقاومة لدى الأهالي المهزومين. في تلك الأثناء، كان وليام دالماو جاهزا للمشاركة

الكاملة في الحرب الأهلية. فالأمر لم يُقدَّر يتعلق بسرقة شمعانات، إنما بحمل البندقية.

إذا كان وليام يجد في السابق ذرائع للقيام بتجاوزات، فإنه لم يُقدَّر من الحرب، بحاجة إلى تلك الذرائع. لقد توقَّف عن اقتِراف الغنائم، لأن المبادئ التي جرى تلقينها في بيته تمنعه من ذلك، ولكنه لم يرفع في الوقت نفسه عن الضحايا - وهم في معظم الأحيان أبرياء - من أعمال رفاقه الانتقامية. جرى اقتِراف آلاف الاغتيالات، وبصورة خاصة من الكهنة والراهبات؛ مثلاً اضطرَّ أناساً كثيرين من اليمينيين إلى البحث عن ملجأ آمن في فرنسا للهروب من الشراذم الحمراء، كما كانت سبيلهم الصحافة. وسرعان ما أصدرت أحزاب الجمهوريين السياسية لبيانات بوقف أعمال العنف تلك، لأنها مناقضة للمثل الثورية، ولكن دونها تواصل. أما بين حنود فرانكو، بالمقابل، فكانت الأوامر معاكسة تماماً: الشبورة والعقاب بالنار والدم.

في أثناء ذلك، كان فيكتور، العنكت على دراسته، قد بلغ الثالثة والعشرين من العمر وهو يعيش في بيت أبويه، إلى أن جرى تجنيده في الجيش الجمهوري. وخلال معيشته مع أبويه، كان يستيقظ في الفجر، وقبل أن يذهب إلى الجامعة يجهِّز لهما الفطور، وهي ماضته الوحيدة في السمات المنزلية؛ ويرجع في وقت متأخر ليأكل مشاً تركه له أمه في المطبخ - خبز، سردين، وطماطم وقهوة - ويواصل دراسته. كان يُبقي نفسه على هامش ميول أبويه السياسية وحماسة شقيقه المندفع. «إننا نصنع تاريخاً. سوف نُخرج إسبانيا من مجتمع الإقطاع الذي استمر قرونًا، إننا نشكِّل نموذجًا يُحتذى لأوروبا، وردًا على فاشية هتلر وموسوليني» - هذا ما كان مارسيل لويس دالعاو يحظ به ابنه

ورفاقه من رؤاد «الروسينانتي»⁽¹⁾، وهذه حانة مظلمة في المظهر وسامية روحياً، يجتمع فيها يومياً الزبائن أنفسهم ليلعبوا الدومينو ويشربوا نبيذاً رخيصاً. ويضيف دالماو مؤكداً: «سوف نقضي على امتيازات الكنيسة والإقطاعيين وبقية مستغلي الشعب، علينا أن ندافع عن الديمقراطية ونحميها، يا أصدقائي! ولكن تذكروا أنه يجب ألا يكون كل شيء سياسة. فمن دون العلوم والصناعة والتقنية لن يكون بالإمكان تحقيق أي تقدم، ومن دون الموسيقى والفن لا وجود للروح». في البدء، كان فيكتور مثقفاً مع أبيه، ولكنه يحاول الهروب من خطاباته الحماسية، لأنها هي نفسها، تتكرر دوماً مع بعض التغيرات الطفيفة. كما أنه لم يكن يتكلم مع أمه أيضاً حول هذا الموضوع: كانا يكتفيان بمحو الأمتية مع آخرين من عناصر الميليشيا في قبو مشرب للبيئة. فقد كانت كارمي، لسنوات طويلة، معلمة لتلاميذ المرحلة التحضيرية، وهي ترى أن التعليم لا يقل أهمية عن الخبز، وأنه يجب على كل شخص يعرف القراءة والكتابة أن يعلم آخرين. وكانت ترى أن الدروس التي تلقى على عناصر الميليشيا لبست سوى روتين محض، ولكنها في نظر فيكتور تبدو تعذيباً. «إنهم حمير»، ينتهي إلى القول محبطاً بعد أن يكون قد أمضى ساعتين في تعليمهم حرف الهجاء الأول (A). فترة عليه أمه: «لا، ليسوا حميراً بأي حال. هؤلاء الفتيان لم يروا من قبل أي لوحة لحروف الهجاء، فلنر كيف يمكن لك أنت أن تتدبر أمورك وراء محراث».

ويبحث منها - إذ كانت تخشى رأيه وقد تحول إلى ناسك، وتعظه بضرورة التعايش مع بقية البشرية - تعلم فيكتور في وقت مبكر عزف

(1) روسينانتي Rocinante: هو اسم فرس دون كيشوته في رواية لريمانتي الشهيرة.

الحنان أغنيات رانجة على الجيتار. كان له صوت نينور مُداعب، على بعض بنيتة الجسدبة الخرقاء وملامحه الصارمة. يحتمي وراء جيتاره مداريًا حياء، ويتجسب تبادل الأحاديث المبتذلة التي تضايقه وتستثير عبقه، ويعطي الانطباع بأنه يشارك في الجماعة. الفتبات يهملنه جانبًا، ولا يلتفتن إليه إلى أن يسمعه يغني. عندئذ، يبدآن بالاقتراب منه، وينتهي بهن الأمر إلى الترقم معه. وبعد ذلك، وسط وشوشات هامة، يغزرن أن ابن آل دالماو الأكبر يبدو جيدًا بما يكفي، على الرغم من أنه لا يمكن مقارنته، طبعًا، بأخيه وليام.

عازفة البيانو الأبرز، بين تلاميذ الموسيقى لدى الأستاذ دالماو، هي دورو بروغيراء فتاة من قرية سانتافه، والتي لولا تدخل سانتياغو غوثمان لكانت رابعة ماعز. فقد كان عثمان من أسرة بارزة، ولكنها افتقرت خلال أجيال من السادة الكسولين النخاملين الذين بددوا ثروة طائلة وأراضي زراعية شاسعة. وكان يقضي سنواته الأخيرة منعزلًا في بيته الريفي، في أرض تلال وحجارة جرداء، ولكنها مليئة بذكريات عاطفية. وكان يحتفظ بنشاط فعال على الرغم من تقدمه في السن، فقد كان أستاذ كرسبي تاريخ في الجامعة المركزية في زمن الملك ألفونسو الثاني عشر. وكان يخرج يوميًا، تحت شمس شهر آب/أغسطس الحارقة، أو رباح كانون الثاني/يناير الجليدية، ليمشي طوال ساعات حاملًا عصا الحاج التي يستند إليها، ويضعته الجليدية المهترئة، يرافقه كلبه السلوقي. وكانت امرأته العالقة في متاهات الغثة الشيخوخة تقضي أيامها تحت الحراسة داخل بيتها، تصنع أشكال مسوخ من ورق ودبابيس. فكانوا يطلقون عليها في القرية لقب المجنونة الوديدة، وقد كانت كذلك بالفعل! لا تثير أي مشاكل، باستثناء ضياعها في مشيها باتجاه الأفق، وظلاء جدران بيتها

بيرازها. كان عمر روزر سبع سنوات تقريبًا، على الرغم من أن أحدًا لم يكن يتذكر تاريخ ميلادها، عندما رآها دون سننياغو لدى خروجه للمشي ذات مرة، وكانت ترقى بعض المعز الضامرة؛ وكان يكفيه تبادل بضع عبارات معها كي يدرك أنه أمام عقل متيقظ وفضولي. نشأت بين الأستاذ الجامعي والراعية الصغيرة صداقة غريبة تستند إلى دروس الثقافة التي يقدمها هو، والرغبة في التعلّم التي تُبديها هي.

وذاًت يوم سنناني، وجدها لا بدة في حفرة مع عنزاتها الثلاث، كانت ترتجف، مبتلة بالمطر ومحمرة الوجه من الحُشْي، ربط دون سننياغو العنزات وحمل الفتاة على كتفه كما لو أنّها كيس، وحمد حسن الحظ لأنّها ضئيلة جدًّا وخفيفة الوزن؛ ومع ذلك كاد الجهد المبذول أن يمزق قلبه. وبعد خطوات قليلة، تخلّى عن محاولته؛ فتركها هناك بالذات، وذهب لاستدعاء أحد عمّاله الذي حملها حتّى البيت. أمر طاهيته بأن تقدّم طعامًا للطفلة، وأمر الخادمة بأن تُعدّ خَمَلًا وسريرًا، وأمر خادم الحظيرة بأن يذهب أولاً إلى ساننافه لاستدعاء الدكتور، وأن يأتي بعد ذلك بالعزات كيلا تُسرق.

حدّد الطبيب أنّ الفتاة مصابة بالرُّشح، وأنّها سيئة التغذية بصورة حادة. كما أنّها مصابة بالجرب ولديها قمل. ولأنّ أحدًا لم يأتِ إلى ملكبة غوثمان للمشّال عنها، لا في ذلك اليوم ولا في الأيام التالية، اعتبروا أنّها بنّمة إلى أن خطر لهم أن يسألوها هي نفسها، فأوضحت أنّ لها أسرة في الجانب الآخر من الجبل. وعلى الرغم من ضآلة جسدها الذي كجسد عصفور دوري، فقد استعادت الطفلة عافيتها بسرعة، إذ تبشّن أنّها أقوى ممّا كانت تبدو عليه. سمحت بحلاقة شعر رأسها كلّ بسبب القمل، ونحّلت العلاج بالكبريت للشفاء من الجرب من دون أن تُبدي أيّ مقاومة؛ وكانت

أكل بهم، وقُدِّمت أدلة على أنَّها تتمتع، بصورة لا يُمكن تبريرها، بطبع
مُزَن، بالنظر إلى ظروفها المحزنة. خلال الأسابيع التي أمضتها في ذلك
البيت، تعلَّق الجميع بها، ابتداءً من السيِّدة الهاذية وحتى الخادم الأخير
لم تنواجد طفلة من قبل في هذا البيت الكبير الحجريِّ الكالِح، حيث
حُوم قَطَط شبه متوحشة وأشباح من عصور أخرى. وكان أكثرهم افتتانًا
بها هو الأستاذ الجامعيُّ الذي كان يتذكَّر بطريقة حَيَّة امتياز تعليم عقل
نهم؛ ولكنَّ مكوث الطفلة معهم لا يمكن له أن يستمرَّ بصورة لانهائية.
انظر دون سنثياغو إلى أن تشفى تمامًا، وتكتسب بعض اللُّحم على
عظامها، قبل أن يذهب إلى الجانب الآخر من الجبل بحثًا عن ذبَنك
الأبوين المتهاونين، ومواجهتهما ببعض الحقائق. ألقى البنت مدبَّرة جيِّدًا
في سيارته، وصمَّ أذنيه عن توشلات زوجته، ومضى بها.

وصلا إلى بيت فقير من الطين خارج القرية، بالغ اليأس كغيره
من بيوت المنطقة. الفلاحون يعيشون على مداخيل شحيحة لا تقي من
الجوع، يعملون في الأرض كعبيد في ملكيات السادة أو الكنيسة. نادى
الأستاذ الجامعيُّ صارخًا، فخرج إلى الباب عدَّة أطفال مرعوبين، تبعهم
جُبة ترتدي السواد، لم تكن جدَّة روزر، مثلما توفَّع هو نفسه، وأثما أمَّها.
أولئك الناس لم يتلقَّوا من قبل زيارة في سيارة، وسيطر عليهم الوجوم
عندما ترجَّلت روزر من السيارة مع ذلك السيِّد الوجيه جدًّا. «جئت
للمحديث بشأن هذه الطفلة»، أعلن دون سنثياغو بالنسرة الفوقبة التي
تجعل طلابه في الجامعة يرتجفون؛ ولكنه قبل أن يتمكن من إضافة
المزيد، شدَّت المرأة روزر من شعرها، مؤنِّبة إياها بالصراخ والصفعات،
لأنَّها تركت المنزلات. فأدرك عندئذٍ عدم جدوى أيِّ لوم لتلك المرأة
العاتقة، وصاغ على الفور النخطة التي سبَّطُها مصير البنت.

أمضت روزر بقية طفولتها في بيت آل غونسان، تحت تسمية الأيواء رسميًا، وكخادمة شخصية للسيدة، ولكن كتلميذة لدى السيد أيضًا. فمقابل مساعدة الخدمات وبعث البهجة في أيام العجوبة المودعة، حصلت على الإقامة والتعليم. تقاسم المؤرخ معها قسماً لا بأس به من مكتبته، وعلمها أكثر مما كان يمكن لأي مدرسة أن تعلمها إياه، ووضع تحت تصرفها البيانو الكبير الذي كان لزوجته التي لم تعد تذكر لأي شياطين ينفع ذلك الهيكل الخشبي الأسود المزعج. أما روزر التي أمضت السنوات الست الأولى من حياتها من دون أن تسمع من الموسيقى سوى أكورد يونات الكار في ليلة سان خوان، فقد نبين أنها تتمتع بفدرات استماع استثنائية. كان هنالك في البيت فونوغراف بأسطوانة، ولكن عندما تأكد دون ستيانغو من أن محبته قادرة على عزف الألحان على البيانو بعد أن تسمعها مرة واحدة، أوصى على غراموفون حديث من مدريد مع مجموعة أسطوانات. وخلال وقت قصير، صارت روزر بروغيرا التي لا تصل قدمها إلى دواسات البيانو، تعزف موسيقى الأسطوانات وهي مغمضة العينين. ولشدة سعادته، خصص لها معلمة بيانو في سانافه. وصار يرسلها إلى الدروس ثلاث مرات في الأسبوع، ويتابع بنفسه تدريباتها. أما روزر التي كانت قادرة على عزف أي لحن من الذاكرة، لم تجد أي مغزى لتعلم قراءة النوتة الموسيقية، والتدرب لساعات طويلة على السلم نفسه، ولكنها كانت تفعل ذلك احتراماً لمرشدها.

في الرابعة عشرة من عمرها، تفوقت روزر بفارق كبير على معلمتها في العزف على البيانو. وعند بلوغها الخامسة عشرة، وفر لها دون ستيانغو منحة تقدم لآنسات كانوليكيئات في برشلونة، كي تدرس الموسيقى. كان

« ع في استيفائها إلى جانبه، ولكنه فضل واجبه في تربيته وتعليمها على مشاعره الأبوية. كانت الفتاة قد تلقت من الرب موهبة خاصة، وكان دوره في هذه الدنيا يتلخص في مساعدتها على تطويرها، هذا ما قرره. في تلك الأثناء، كانت المجنونة الوديعه قد أخذت بالانطفاء، ثم ماتت أخيراً بلا صخب. أما ستيغور غوثمان، فبدأت السنوات تثقل عليه بصورة جذية باعتكافه في بيته فقط، واضطر إلى التخلي عن مشاويره حاملاً عكاز الحاج، وحصار يقضي الوقت جالساً يقرأ قبالة مدقاة الحطب. وقد مات كلب صيده كذلك، ولم يشأ إحضار كلب بديل، كيلا يموت هو نفسه قبله ويترك الكلب بلا سيد.

ساء طبع العجوز بصورة حاسمة مع قيام الجمهورية الثانية عام 1931. فما إن عُرفت نتائج الانتخابات، وكانت لمصلحة اليسار، حتى عادر الملك ألفونسو الثالث عشر إلى المنفى في فرنسا. ورأى دون ستيغور، المؤيد للنظام الملكي والمحافظ المتطرف والكاثوليكي، أن عالمه ينهار. لن يتسامح أبداً مع الحمر، ولن يتمكن من التأقلم مع حلاقتهم: فهؤلاء الأشرار هم عملاء للسوفييت، وسينمادون في إحراق الكنائس وإعدام الكهنة. ويؤكد أن هذا الذي يُقال عن أننا جميعاً متساوون يمكن التعلل به كتشذقات نظرية، أما عملياً، فهو ضلال وانحراف: فنحن أمام الرب غير متساوين، لأن الرب نفسه هو من أوجد طبقات اجتماعية وفوارق أخرى بين البشر. صادر الإصلاح الزراعي أراضي، وهي ضئيلة القيمة، ولكنها كانت ملك أسرته منذ الأزل. وبين يوم وآخر، صار الفلاحون يتحدثون معه من دون أن يخلعوا قبعتهم، ومن دون أن يبطئون رؤوسهم ويخفضوا أبصارهم. كان تكثير من هم أدنى منه مكانة يؤلمه أكثر من خسارته أراضي، لأنها إهانة مباشرة لكرامته وللمكانة

التي كان يتبناها على الدوام في هذا العالم. سرّح الخُدم الذين عاشوا طوال عقود تحت سقفه، وأمر بتوضيب مكتبته ومقتنياته من الأعمال الفنيّة، ومجموعاته وذكرياته، وأغلق مداخل المنزل بالأحجار والطين. ملأت الحمولة ثلاث شاحنات، لكنّه لم يستطع حمل قطع الأثاث كبيرة الحجم ولا البيانو، لأنّ بينه في مدريد لا يتسع لها. بعد شهر من ذلك، قام عمدة سانتا في الجمهوريّة بمصادرة البيت ليحوّله إلى ملجأ للأيتام.

بين خيبات الأمل الخطيرة وأسباب الغضب الكثيرة التي عانى منها دون ستيغاغو في تلك السنوات، هناك التحوّل الذي طرأ على محميّته. فتحت تأثير المتمرّدين الخبيث في الجامعة، وبصورة خاصّة البروفسور المدعوّ مارسيل لويس دالماو، الشيوعيّ أو الاشتراكيّ أو الفوضويّ، لا فرق في نهاية المطاف؛ فهو بلشفيّ فاسد وخبيث، راحت صغيرته روزر تتحوّل إلى حمراء. فقد عادت نزل الأنسات ذوات العادات الحميدة، وذهبت للعيش مع فاجرات يرتدين زيّ الجنود ويمارسن الحبّ الحرّ. مثلما كانوا يسوّون آنذاك الاختلاط، وقلة الحياء وعدم الاحتشام. ولكنّه يقرّ، وهذا صحيح، أنّ روزر لم تسبّ احترامه قطّ، لكنّها سمحت لنفسها بتقبل آراء خصومه، فكان من الطبيعيّ أن يوقف مساعدته لها. ومن خلال رسالة، شكرته الفئاة من أعماق روحها على كلّ ما فعله من أجلها، ووعدته بأن تحاول البقاء دومًا على الطريق القويم بما يتفق مع مبادئها، وأوضحت له أنّها تعمل ليلاً في مخبز، بينما تواصل في النهار دراسة الموسيقى.

أمّا دون ستيغاغو غوثمان الذي استقرّ في شقّة فاخرة بمدريد، حيث يكاد لا يستطيع التحرك بسبب كميّة الأثاث والأغراض، ويعيش منفصلاً عن ضجيج الشارع وابتذاله بفضل ستائر سميكّة من مخمل

ابن دم الثور، ومعزولاً اجتماعياً بسبب ضميمته وعجرفته المتמادية، لم يلم كيف كانت تزدهر أشد الصفائف رهبة في بلاده، صفائف كانت تغذى منذ قرون على بؤس البعض وهيمنة آخرين. وقد مات وحيداً، عاصباً في شفته بحري سلمنكا، قبل أربعة أشهر من تعرّد قوات فرانكو. «طلّ واعياً ومترنّاً حتى اللحظة الأخيرة، ومنقبلاً للموت، بل إنّه رتب معه صحيفة تقية، لأنّه لم يشأ أن يتولّى شخص جاهل نشر أمور مزيفة عنه. لم يودّع أحداً، ربّما لأنّه لم يبق أحد من المقربين منه في هذا العالم، ولكنّه تذكّر روزر بروغيرا، وفي إيماء مصالحة نبيلة، ترك لها تميّرات البانو الضخم الذي كان لا يزال محفوظاً في صندوق تعليبه من إحدى حجرات ميتم سانتا فه.

سرعان ما استطاع البروفسور مارسيل لويس دالماو تمييز روزر بين من سواها من طُلاب وطالبات. وفي سعيه لتعليم تلاميذه ما يعرفه من الموسيقى وعن الحياة، كانت تتسرّب منه أفكار سياسية وفلسفية، تؤثر فيهم من دون شك أكثر ممّا يتوقّعه هو نفسه؛ وقد كان سانتياغو مومنان محقّقاً في هذه النقطة فمن خلال تجربته، كان دالماو لا يثق بالطُلاب الذين يجدون سهولة مفرطة في تعلّم الموسيقى، وقد اعتاد أن يردّد بكثرة، أنّه لم يمرّ عليه أيّ موزارت بعد. لقد رأى من قبل حالات مثل روزر؛ شبّاناً لديهم قدرة استماع جيّدة تتيح لهم العزف على أيّ آلة موسيقية، فيتحولّون إلى كآلى مقتنعين بأنّ ذلك سيكون كافياً لانتقائهم المهنة، وبأنّه يمكنهم الاستغناء عن الدراسة والانضباط. كثيرون منهم انتهى بهم الأمر إلى كسب عيشهم من العمل في جوقات شعبية، يعزفون في حفلات، وفي فنادق ومطاعم، متحوّلين بذلك إلى موسيقيّين حفلات رفاه، مثلما يسمّيهم هو نفسه. لكنّه فرّر إنقاذ روزر بروغيرا من مثل تلك

التكية، فاحتضنها تحت جناحه. وحين علم أنها وحيدة في برشلونة، فتح لها أبواب بيته. وعندما علم أنها ورثت جهاز بيانو، وليس لديها مكان تضعه فيه، أفرغ صالون بيته من الأثاث ليضع البيانو فيه، ولم يُبد أي اعتراض على تردد الغتاة المتواصل التي كانت تزورهم يوميًا بعد انتهاء دروسها. وكانت زوجته كارمي تقدم لروزز سرير ابنها وليام، الذي يشارك في الحرب، كي تنام بضع ساعات قبل أن تذهب إلى عملها في المخبز الساعة الثالثة فجرًا، من أجل إعداد خبز الصباح. وهكذا، لكثرة ما نامت على وسادة ابن الزوجين دالماو الصغير، واستنشقت أثر رائحته كرجل شاب، أحبته من دون أن يصرفها عن ذلك البعاد أو الزمن أو الحرب.

صارت روزز، من دون انتباه منها، جزءًا من الأسرة كما لو أنها من الدم نفسه؛ تحولت إلى الابنة التي طالما تمنى آل دالماو إنجابها. كانوا يعيشون في بيت متواضع، كئيب بعض الشيء، ومترد إلى حد كبير، بسبب سنوات طويلة من الاستخدام من دون إصلاح أو ترميم، ولكنه بيت فسيح. عندما ذهب الابنان إلى الحرب، عرض مارسيل لويس على روزز أن تعيش معها. وهكذا، يمكنها تفليص ثقاتها، والعمل لساعات أقل، والتدرب على البيانو عندما تشاء، وفي أثناء ذلك تساعد زوجته في أعمالها المنزلية. لقد كانت كارمي تشعر بأنها منقذة بما يكفي في العمر، وإن يكن أقل من زوجها بكثير، لأنها تعضي شبه مختنقة وتلهث بشدة، بينما هو لديه فائض من الحيوية. فكانت كارمي تشهد قائلة: «قوي تكاد لا تكفي لأكثر من نحو أمة أعضاء الميليشيا، وعندما لا يعود عملي هذا ضروريًا، لن يبقى لي مفر من الموت». في السنة الأولى من دراسته الطب، شخص ابنها حالتها بأن رتبها أشب بالقرنبيط. «يا للجنة، يا كارمي، إذا كنت ستعتين، فإن التدخين هو السبب»، كان زوجها يؤنبها حين

...مهما تفعل، من دون أن يحسب حساب التبغ الذي يستهلكه هو
...ه. ومن دون أن يتخيل أن الموت سيصل إليه قبلها!

وهكذا، حدث أن روزر بروغيرا المتعلقة بآل دالماو، كانت إلى
ماب البروفسور في أيام نوبته القلبية. تخلت عن الذهاب إلى الدروس،
لكنها واصلت العمل في المطبخ؛ وكانت تتناوب مع كارمي لمساعدته
في قضاء حاجاته الضرورية. وفي ساعات الراحة، كانت تليّه بمعزوفات
نوشيرتو على البيانو، تملأ البيت بالموسيقى ونظمين المحنصر. ولأنها
ثابت هناك، فقد شهدت وصايا البروفسور الأخيرة لابنه الأكبر.

- عندما لا أعود موجوداً، يا فيكتور، ستكون أنت المسؤول عن
أمك وعن روزر، لأنّ وليام سيصوت وهو يقاتل. لقد خسرتنا الحرب، يا
بي. - قال له مع فواصل توقفت طويلة لالتقاط أنفاسه.

- لا نقل هذا، يا أبتنا.

- لقد عرفت ذلك في شهر آذار، عندما قصصوا برشلونة. كانت
الامارات الإيطالية وألمانية. إن الحق بجانبنا، ولكن ذلك لن يحول دون
الهزيمة. إننا وحدنا، يا فيكتور.

- يمكن لكل شيء أن يتبدل إذا ما تدخلت فرنسا وإنكلترا
والولايات المتحدة.

- دعك من الولايات المتحدة، فهي لن تساعدنا بأي حال. قبل
لبي إن إيلانور روزفيلت حاولت أن تقنع زوجها كي يتدخل، ولكن الرئيس
بواجه رأياً عاماً مضاداً له.

- ولكنه ليس إجماعاً، يا أبي، فأنت ترى أن هناك شعباً كثيرين في
لواء انكلولن قد جازوا مستعدين للموت معنا.

- إنهم مثاليون، يا فيكتور. وهؤلاء قلة في العالم. كثير من الفئابل التي سقطت علينا في شهر آذار كانت أميركية الصنع.

- أبنائه، فاشية هتلر وموسوليني ستمتد في أوروبا ما لم تقطع دابرهما هنا في إسبانيا. لا يمكننا خسارة الحرب؛ لأن خسارتها تعني نهاية كل ما حققه الشعب والعودة إلى العاصي، إلى اليأس الإقطاعي الذي عشناه قرونًا.

- لن يأتي أحد لمساعدتنا. فكر بما أقوله لك، يا بني، حتى الاتحاد السوفيتي تخلى عنا. فإسبانيا لم تُعدّ نهم ستالين. عندما تقطع الجمهورية سيكون القمع مرعبًا. لقد فرض فرانكو طريقته في التطهير، هذا يعني: أقصى ما يمكن من الرعب، الحقد الشامل، الانتقام الأكثر دموية. لن يفاوض ولن يعفو. قوّاته تنترف فظاعات لا يُمكن وصفها... ونحن أيضًا، ردّ فيكتور الذي كان قد رأى الكثير.

- كيف تجرؤ على المقارنة! سيكون هناك حمام دم في كاتالونيا. ولن أعيش لعماناه، يا بني، ولكنني أريد أن أموت مطمئنًا. عليك أن تعدني بأن تأخذ أمك وروزر إلى الخارج. الفاشيون سيمثلون بكارمي، لأنها شاركت في محو أمة الجنود؛ إنهم يعدمون الناس لأسباب أقل من هذه بكثير. وسيستقرون منك، لأنك تعمل في مستشفى للجيش، وسيمثلون بروزر لأنها شابة فتية. أتدري ما الذي يفعلونه بالفتيات، ألا تعرف؟ إنهم يعطونهن للمورو. لقد خططت للأمر. ستذهبون إلى فرنسا إلى أن تستقر الأحوال وتتمكنوا من الرجوع. ستجد في مكتبي خريطة وبعض النقود التي ادخرتها. عاهدني أن تفعل ذلك.

- أعاهدك، يا أبي، أجابه فيكتور، من دون أن تكون لدبّه نوايا حقيقة بالتنفيذ.

- تفهم، يا فيكتور، أن ذلك ليس جُبْنًا، وإنما من أجل البقاء على
بعد الحياة.

لم يكن مارسيل لويس دالماو هو الوحيد الذي تخافه الشكوك
بأن مستقبل الجمهورية، ولكن لم يكن هناك من يتجرأ على التعبير
من ذلك، لأن أسوأ خيانة هي إشاعة اليأس أو الرعب بين سكان
مستفيدين، عانوا وتحملوا الكثير.

في اليوم التالي، دفنوا البروفسور مارسيل لويس دالماو. أرادوا أن
يملأوا ذلك بتكثف، لأن الأزملة لم تكن مناسبة لأحزان جداد خاصة،
ولكن الخبر شاع، وحضر إلى مقبرة مونجويك أصدقائه من رؤاد حانة
«سيناتي»، وزملائه في الجامعة وبعض التلاميذ السابقين المتقدمين
في العمر، لأن من هم أكثر شبابًا كانوا في جبهات القتال أو تحت التراب.
كانت كارمي، بملابس الجداد الكاملة، من الخمار حتى الجوارب
السوداء، على الرغم من حز حزيران، وقد سارت وراء نعش رجل حياتها،
مستندة إلى فيكتور وروزو. لم تكن هنالك صلوات ولا خطابات ولا
دموع. طلابه ودعوه يعزف الحركة الثانية من الحماسية الوطنية لشوبان،
فكأبتها تتوافق مع المناسبة. وبعد ذلك، غنوا إحدى أغنيات قوات
الميليشيا التي كان البروفسور نفسه هو من وضع موسيقاها.

الفصل الثاني

1938

«نسي»، ولا حتى التصبر،
...محو ثقب الدم الرهيب.

بابلو نيرودا
«أراض غاضبة»
«إسبانيا في القلب»
الإقامة الثالثة

عاشت روزر بروغيرا حبها الأول في بيت البروفور دالماو،
 ١٠٠ دعاها هو نفسه للشكر معهم بحجة مساعدتها في دراستها، مع
 ١٠١ كليهما كان يعرف أنها مائة إحصان أكثر منها تعليمية. كان الشك
 ١٠٢ البروفور في أن تلميذته المفضلة تأكل أقل من القليل، وأنها
 ١٠٣ اح إلى أسرة. ونحن بصورة خاصة إلى شخص مثل كارمي التي لا
 ١٠٤ اهتماماتها الأمومية إلا القليل من الصدى لدى فيكتور، ولا شيء
 ١٠٥ لدى وليام. كان تلك هي السنة التي أحشت فيها روزر بالضجر
 ١٠٦ ظلام الشكنة العكوبة الشائد في بينيون الأنات المحترقات،
 ١٠٧ هبت للعيش في برشلونة، بحي صيادي السمك، في الحجرة الوحيدة
 ١٠٨ استطاعت الحصول عليها بسعر في متناول يدها، مع ثلاث بنات
 ١٠٩ الميليثيات الشعبية. كان عمرها تسعة عشر عامًا، وكانت الفتيات
 ١١٠ الأخريات يكبرنها سنًا بأربع أو خمس سنوات، ولكنهن يكبرنها عشرين
 ١١١ سنة في التجربة والتفكير، فتيات الميليثيا اللاتي كنّ يحشن في عالم
 ١١٢ مختلف جدًا عن عالم روزر، كنّ يلقبنها «المبتدئة»، وكنّ في معظم
 ١١٣ الأحيان يستبعدنها جانبًا بصورة كاملة. يتقاسمن معها في الحجرة أربعة
 ١١٤ أسرة من طبقين - تنام روزر في أحد السريرين العلويين؛ وكرسيين،
 ١١٥ ومفصلة، وغاية ماء ومبولة، وموفد كيروسين، ومسامير في الجدران

لتعليق الشباب، وحماساً مُستمرّاً يخدم بضعة وثلاثين متأجراً. كنّ نساء،
مرحات وجريشات، يستمنعن على هواهن بحريّة أزمّة الاضطرابات تلك،
كنّ يرتدين الزيّ النظامي، وكذلك الأحذية والفُجعة النظاميّة، لكنهنّ
يطلّين شفاههنّ ويجعّدن شعورهنّ بحديدة تُسخن على موقد حمار فحم
يتدبّر بعصيّ خشبيّة أو بِنادق مستارة، وبطمحن في الذهاب إلى
الجهة واللقاء بالعدوّ وجهاً لوجه، بدل قيامهنّ بأعمال النقل والشّوين
والطبخ والشّريض التي خُصّصت لهنّ بذريعة أنّ الأسلحة السوفييتيّة
والمكيكّة تكاد لا تكفي الرجال، وأنّه سيّء استخدامهما في الأيدي
الأنثويّة. بعد بضعة شهور من ذلك، عندما احتلّت القوات القوميّة لثني
إسبانيا وواصلت تقدّمها، حقّقت الفتيات رغبتهنّ بالتواجد في الطليعة.
اثنتان منهنّ تعرّضتا للاغتصاب والذبح في هجوم للقوات المراكشيّة.
وظلّت الثالثة على قيد الحياة خلال سنوات الحرب الأهليّة الثلاث،
وبعد ذلك خلال سنوات الحرب العالميّة الثانيّة السّت، متشرّدة في
الظلّ من مكان إلى آخر في أوروبا، إلى أن تمكّنت من الهجرة إلى
الولايات المتّحدة في عام 1950. وانتهى بها المعطاف في نيويورك،
حيث تزوّجت من مثقّف يهوديّ، كان قد قاتل في إسبانيا ضمن لواء
لنكولن، ولكنّ هذه قصّة أخرى.

كان وليام دالماو أكبر بنة واحدة من روزر بروغيرا. وبينما كانت
الفتاة تُشرف لقب المبتدئة بأنوابها الصارمة التي مضى زمن رواجها،
كان هو منياً ومُتحدّثاً، يرى نفسه سيّداً للعالم. أمّا هي، بالمقابل، فكان
يكنيها أن تكون معه في مناسبتين اثنتين فقط كي تُدرك أنّه تحت مظهره
المتعطرس يخبئ قلباً طفوليّاً، مضطرباً أو رومنسباً. وفي كلّ مناسبة
يعود فيها وليام إلى برشلونة، كان يبدو أكثر تركيزاً؛ ولم يكن قد تبقي

.. أي شيء من ذلك المصير الأرعن الذي كان يسرق شععدانات النخبة. لقد صار رجلاً ناضجاً، مقطب الجبين مع شحنة رهيبية من الغمف المكبوت، والجهاز للانفجار عند أدنى استفزاز. كان ينام في النكنة، ولكنه اعتاد المجيء لقضاء ليلتين كل أسبوع في بيت أبويه، ذلك من أجل احتمال أن يلتقي بروزر قبل أي شيء آخر. وكان يهني نفسه لتجنبه الارتباطات العاطفية التي تسبب الكثير من الغم للجنود المعبدين عن الخطيئة أو الأسيرة. كانت الحرب تستغرقه بالكامل ولا سمح بأي شروء ذهن، ولكن تلميذة أبيه لم تكن تمثل خطراً على استقلاليتها كعازب؛ فهي ليست أكثر من تلبية بريئة. يمكن لروزر أن يكون جذابة، وذلك بحسب الضوء وزاوية الرؤية، ولكنها لم تكن تفعل أي شيء لتبدو كذلك؛ وكانت بساطتها تلك تلمس وتزأ سرّاً في روح ولبام. لقد كان معتاداً على التأثير الذي يمارسه على النساء بصورة مافقة، ولم يغيب عنه أنه يمارسه كذلك على روزر، بالرغم من أنها كانت عاجزة عن القيام بأي محاولة غزو. الفتاة مغرمة به، وكيف لا تكون ذلك، ما دامت المسكينة لا تعرف من الحياة سوى البياض والمخبز، وسوف تتجاوز ذلك، كان يفكر. لكن أباه كان قد نبهه: «حذار، يا ولبام، هذه الصغيرة مقدسة، وإذا ما صبطت في أي أساءة احترام...» كيف يخطر لك مثل هذا الخاطر، يا أبتاه! روزر بمقام أختي». ولكنها لم تكن كذلك، لحسن الحظ. وبالحكم من خلال طريقة اهتمام أبويه بها، لا بد أن روزر كانت عذراء، واحدة من الأخيرات القليلات اللاتي يفين عذراوات في إسبانيا الجمهورية. لا سبيل إلى تجاوز الحدود معها، ولا بأي حال. ولكن، لا يمكن لأحد أن يؤتبه على قليل من الحنان، على ملامسة للركبتين تحت المنضدة، على دعوة إلى السينما للمها

في الظلام، بينما هي تبكي مع القبلم، وترنجف من النجمل والشهوة.
ومن أجل ملامسات أكثر جرأة، يعتمد على بعض رفيقاتها من أعضاء
الميليشيا المتحررات، المناهيات وذوات الخبرة.

بانتها، إجازته القصيرة في برشلونة، رجع وليام إلى الجبهة بنيت
أن يركز فقط على البقاء حياً والانتصار، ولكنه كان يجد صعوبة في
نسيان وجه روزر وروغيرا الجزع ونظرتها الصافية. لم يكن يتقبل حتى
في أعماق صمت قلبه كيف أنه بحاجة إلى رسائلها وعلب حلوياتها،
والجوارب واللفافات التي تحوكنها له. لديه صورة لها، الصورة الوحيدة
في محفظة جيبه. تقف فيها روزر بجانب بيانو، ربما خلال حفلة موسيقية،
بثوب فاتم، بسيط، ثورته أطول مما هو معهود، وكشاه قصيران، وبافته
مخرّمة، فستان تلميزة سخييف يخفي نكوراتها. على قطعة الكرتون تلك،
التي بالأبيض والأسود، تبدو روزر نائبة وصبايئة، امرأة بلا رشفة، بلا
سنّ محدّدة، بلا ملامح؛ لا يدّ من لمح التصاد ما بين عينيها اللّتين
يلون الغنير وشعرها الأسود، وأنفها المستقيم كأنف تمثال، وحاجبيها
المُعيرين. وأذنيها البارزتين، وأصابعها الضويلة، ورائحتها الصابونية..
نفاذيل تستثير لهفة وليام، نداهمه فجأة، تنفضّ عليه وهو نائم. كانت
بذه التفاصيل هي السهو الذي يمكن له أن يكلفه حياته.

بعد تسعة أيام من جنازة أبيه، في مساء يوم أحد، وصل وليام
دالماو إلى بيته من دون إشعار مبق، في سيارة عسكريّة مترجرجة.
خرجت روزر للقاءه وهي تمسح يديها بخرقة مطبخ من دون أن تتعرّف،
للهولة الأولى، على الرجل الشحيل وبارز العظام الذي يسنده اثنان من
رجال الميليشيا من ذراعيه. كانت قد مضت أربعة أشهر من دون أن
نراه، أربعة أشهر وهي تغذّي وهمها بالعبارات القليلة التي يبعث بها إليها

من أوقات متباعدة، ويشير فيها إلى الأحداث في مدريد، بلا أي كلام عاطفي، رسائل أشبه بالنفارير، على أوراق منتزعة من دفتر، ومكتوبة بخط مدرسي. كل شيء هنا على حاله، لا بد أن تكوني قد علمت كيف تقوم بالدفاع عن المدينة، الجدران كلها مليئة بالثقوب بفعل قذائف الهاون، الانقراض في كل مكان، الفاشيون يعتمدون على ذخائر إيطالية وألمانية، إنهم قريبون منا إلى حد أننا نستطيع أحياناً أن نشم رائحة النبع الذي نخونه، يا لهؤلاء التعساء! نسمعهم يتبادلون الحديث، يصرخون بنا لاستغزائنا، ولكنهم مخدرون بالخوف، باستثناء المورو الذين هم أشبه بالضباع ولا يخافون شيئاً، يفضّلون سكاكين الذبح التي يحملونها على البنادق، والقتال جسداً لجسد، ورائحة الدم؛ التعزيزات تصلهم كل يوم، ولكنهم لا يتقدمون متراً واحداً؛ نفتقد هنا الماء والكهرباء، كما أن الطعام شحيح جداً، ولكننا نتدبر أمورنا؛ إنني على ما يرام. نصف المباني تحولت إلى أنقاض على الأرض، لا يستطيعون جمع الأجساد، تنشى ملقاة على الأرض حيث تسقط، حتى اليوم التالي، عندما يمر المسؤولون عن مستودع الجثث. لم يتمكنوا من إخلاء جميع الأطفال.. لو أنك ترين مدى عناد بعض الأمهات، إنهن لا ينصعن، يرفضن الذهاب أو الانفصال عن أبنائهن، من يستطيع أن يفهمهن. كيف حال البيانو؟ ما هي أخبار أبيي؟ قل لي لأمي ألا تقلق علي.

- يا يسوع! ما الذي حدث لك، يا وليام، بحق الرب! صاحت روزر عند العنبة عائدة إلى صيف الكلام الكاثوليكية الجاهرة.

لم يُجب وليام. كان رأسه يتدلى على صدره، ساقاء لا تحملانه. وفي هذه اللحظة ظهرت كارمي، آتية من العطش أيضاً، وصعدت الصرخة من فمها، ووصلت إلى حنجرتها، وجعلتها تنحني في نوبة سعال.

- الهدوء، يا رقيقات. ليس جريحًا. إنه مريض، قالت بثبات واحدة من عناصر الميليشيا.

- من هنا، أشارت لهم روزر، واقتادتهن مع حملتهن إلى الغرفة التي كانت لوليام من قبل، وتشغلها هي الآن. مددته المراتان على السرير وانحنى، ولكتهما رجعتا بعد قليل تحملان جعبة وليام وبطائنته وبندقيته، ثم انصرفن مع عبارة وداع مقتضبة والتمنيات بالصحة الجيدة. وبينما كانت كارمي لا تزال تسعل بيأس، خلعت روزر جزمته العسكرية المعزقة وجواربي المريض التين، باذلة جهدها للسيطرة على الغثيان الذي تستثيره فيها تنانته. لا يمكن مجرد التفكير في نقله إلى المستشفى الذي صار مركزًا لنقل عدوى الالتهابات، أو محاولة الحصول على طبيب، لأن جميع الأطباء كانوا مشغولين بجرحى الحرب.

- يجب غسله، يا كارمي، إنه مغطى بالفقارة. حاولي أن تجعليه يشرب ماء. سأذهب طيارًا إلى مركز الهاتف للاتصال بفيكيتور، قالت الفتاة التي لا تريد رؤية وليام عاريًا، وغارقًا في برازه وبوله. وعبر الهاتف، أوضحت روزر الأعراض لفيكيتور: حرارة مرتفعة جدًا، صعوبة في التنفس، إسهال.

- يشن عندما نلمسه. لا بد أنه يعاني آلامًا شديدة، أظن أن آلامه في البطن، ولكن في بقية الجسم أيضًا.. أنت تعرف أن أخاك لا يحب الشكوى!

- إنه اليفوس، يا روزر. هنالك جائحة بين العقائتين! ينقلها القمل، والبراغيث، والمياه الملوثة والفقارة. سأحاول الذهاب لرؤيته

١١. ولكن من الصعب جدًا عليّ أن أترك موقع عملي، المستشفى.
 • ملين تمامًا، في كل يوم يصلنا عشرات الجرحى الجدد. أول ما يجب
 • الماء الآن هو إعطاؤه السوائل وتخفيض حرارته. لقيء بمناشف مبللة
 • ماء بارد، واجعله يشرب ماء مغليًا مع قليل من السكر والملح.

أمضى وليام دالماو أسبوعين تحت رعاية أمه وروزر، وكان يتابعه
 من مانريسا أخوه الذي تتصل به روزر يوميًا، لتخبره بحالته، وتتلقى
 تعليمات لتجنب العدوى. كان عليهم القضاء على القمل في الملابس،
 • مكان أفضل حلّ هو حرقها، وغسل كل شيء بمحلول الصودا، واستخدام
 • أوعية خاصة بوليام، وغسل الأيدي بعد كل تعامل معه. كانت الأيام
 الثلاثة الأولى حرجة. فقد ارتفعت حرارة وليام حتى أربعين درجة،
 • كان يهذي، ويتسبّح من آلام الرأس والغثبان، ويهزّ سعال جاف، وكان
 رازر سائلًا ضاربا إلى الخضرة أشبه بحساء البازيلاء. في اليوم الرابع،
 انخفضت حرارته، ولكنهم لم يتمكنوا من إيقافه. فأشار عليهم فيكتور
 بأن يهزّوه لإجباره على شرب الماء، وأن يتركوه بقية الوقت نائمًا، لأنّه
 بحاجة إلى السكينة والراحة.

ألقيت العناية المباشرة بالمريض على كاهل روزر، لأنّ كارمي،
 سبب نفذمها في السنّ وحالة رثبها، كانت أكثر عُرضة للعدوى. وبينما
 كانت روزر تقضي اليوم في البيت، تقرأ وتُخيط إلى جانب سرير وليام،
 كانت كارمي تخرج لمحو أمة الأميين، وللوقوف في صفوف الدور أمام
 المتاجر. واصلت روزر العمل في المنخبز ليلاً، لأنهم يدفعون لها أجرها
 حيزًا. حصص العدس تقلصت إلى نصف فنجان للشخص في اليوم،
 ولم يبقَ هناك قطط للطبخ المكمور ولا حمام للمسلوق، وكان خبز
 روزر كقطعة آجر قاتمة له طعم نشارة الخشب، وقد تحوّل الزيت إلى

تُرف، فكانوا يخطونه بزيت المحركات لتكثيره. وكان الناس يزورون
خضروات في أحواض الاستحمام أو على الشرفات. ويجري تبادل
مقتنيات عائلية قديمة ومجوهرات مقابل بطاطا وأرز.

ومع أن روزر لم تكن ترى أسرتها، إلا أنها كانت تحتفظ بعلاقات
مع بعض فلاحي المنطقة، فكانت تحصل بذلك على خضروات،
أو قطعة من جبن المعاز، أو على قطعة سجن في المناسبات التي
يذهبون فيها خنزيرا. لم تكن ميزانية كارمي تكفي للشراء من السوق
السوداء، حيث لا يوجد سوى القليل من المأكولات، ولكنها كانت
الملاذ الأخير للحصول على السجائر والصابون. وأمام ضرورة تعزيز
قوى وليام الذي يبدو أشبه بهيكل عظمي، مدت كارمي يدها إلى
المدخرات الضئيلة التي تركها زوجها، وأرسلت روزر إلى سانتا فه
لشراء أي شيء متوافر لصنع حساء. كانت تعرف أن مارسيل لويس
قد خصص تلك النقود من أجل إرسال الأسرة بعيدا عن إسبانيا،
ولكن الحقيقة أن أيًا منهم لم يكن يفكر جذبا في الهجرة. ما الذي
سيفعلونه في فرنسا أو في أي مكان آخر؟ لا يمكنهم أن يتركوا بيوتهم،
حبهم، لختهم، أقرباءهم وأصدقاءهم. احتمالات كسب الحرب كانت
تنضال أكثر فأكثر، وقد استسلموا بصمت لاحتمال التوصل إلى
سلام متفاوض عليه، وتحتل قمع الفاشيين، ولكن يظل هذا أفضل
من المنفى. فمهما كان فرانكو قاسيا وعديم الرحمة، لا يمكن له أن
يعدم السكان الكتالانيين عن بكرة أبيهم. وهكذا استثمرت روزر
النقود في شراء دجاجتين حيتين، وسافرت معهما من سانتا فه،
مخبأتين في كيس حزمته على بطنها تحت الثوب، كيلا ينتزعهما منها
شخص يائس أو يصادرهما الجنود. وظلنا من الناس أنها حبل، تخلوا

أما عن مقعد في الحافلة، حيث استقرت وهي تخفي الحزمة بأفضل ما نستطيع، وتتضرع ألا يبدأ الطائران بالحركة. غطت كرامي أرضية إحدى الحجرات بورق جرائد، ووضعت الدجاجتين هناك. وصارت هي وروزر تغذيانهما بقثث خبز وفضلات باتين بها من بار روسياتي، بعض الشعير والشيلم، تنشلها روزر من المنحز. تجاوزت الدجاجتان عب الحبس في الكيس، وسرعان ما صار وليام يجد بيضة أو اثنتين على الفطور.

وبعد أيام قليلة، نحنت حال المريض، وبدأ مستعداً للعودة إلى الحياة، ولكن طاقته لم تكن تكفي لأكثر من جلوسه في السرير والاستماع إلى روزر وهي تعزف على البيانو في الصالة، أو تقرأ له بصوت عالٍ روايات بوليصة. لم يكن في أي وقت من الأوقات فارغاً جيداً، ففي سمره كان يستقل من فصل مدرسي إلى آخر بصعوبة وبفضل أمه، إذ كانت تراجع واجباته المدرسية، وبفضل فيكتور الذي كان يكتبها له في معظم الأحيان. أما في جبهة مدريد، حيث كانت تتوافر له فرصة الضجر في الانتظار الأبدي من دون حدوث أي شيء. كان يمكن لتواجد روزر أن يكون رائعاً لتقرأ له. لقد كان هناك فائض من الكتب، ولكن الحروف كانت تراقص معه على الصفحات. في وقفات عن القراءة، كان يحدث روزر عن حياته كجندي، عن المتطوعين القادمين من أكثر من خمسين بلداً للقتال في حرب ليست حربيهم، وعن المقاتلين الأميركيين، مناصر لواء لتكولن، الذين كانوا على الدوام في الطليعة وكانوا أول من يسقطون. يقال إنهم أكثر من خمسة وثلاثين ألف رجل وبضع مئات من النساء، من جاؤوا للقتال من أجل إسبانيا ضد الفاشية. إلى هذا الحد مهمة هذه الحرب، يا روزر! كان يحدثها عن افتقاد الماء

والكهرياء والمراحيض، عن الشوارع المليئة بالأنقاض، عن القمامة، عن فئات الزجاج المهشم. وفي ساعات الراحة، كنا نُعلم ونتعلم. يمكن للأُم أن تكون في سعادة محو أُمِّيَّة الشبان الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة؛ كثيرون منهم لم يذهبوا إلى المدرسة قطًة. ولكنه لم يكن يقول شيئاً لروزر عن الفئران والقمل، وعن البراز، عن البول والدم، عن الرفاق الجرحى الذين ينتظرون لساعات وساعات وهم ينتفون، قبل أن يتمكن المصحون - حاملو النقالات من الوصول إليهم، عن الجوع وقصصات الفاصولياء اليابسة والقهوة الباردة، عن شجاعة البعض المتهورة وغير العقلانية ممن يعرضون أنفسهم بلا مبالاة للرصاص، وعن رعب آخرين، لاسيما الأصغر سنًا، من يصلون حديثًا، فتيان دفعة قُتينة الرضاغة الذين لم يكن أحدٌ منهم لحسن الحظ ضمن رفاقه. لأنه كان سيموت حزنًا عليهم. ولم يكن يتقبل الحديث أمام روزر عن عمليات الإعدام الجماعية التي بغترفها رفاقه بالذات، وكيف كانوا يقيدون أسرى العدو اثنين اثنين، وبأخذونهم في شاحنة إلى أرض خلاء، وبعد موتهم بكل بساطة، ويدفنونهم في حفر جماعية. أكثر من ألفي شخص في مدريد وحدها.

كان الصيف قد حلَّ. وصار بدء الليل يتأخر، والنهار يمتد لساعات حارة ومتأقلة. وكان وليام وروزر يمضيان وقتًا طويلًا معًا، وأصبح كلُّ منهم يعرف الآخر بعمق. ولكثرة ما تقاسما من القراءات وتبادلًا من أحاديث، صارت تمتد بينهما فترات صمت طويلة، يسود خلالها إحساس من الحميمية العذبة. بعد العشاء، تستلقي روزر في السرير الذي تقاسمه الآن مع كارمي، وتنام حتى الساعة الثالثة فجراً. وفي هذا الوقت، تذهب إلى المطبخ لتحضير الخبز الذي يوزع، مقننًا، عند شروق الشمس.

كانت أخبار المذيع، والجرائد ومكبرات الصوت في الشوارع ماثلة كلها. وتصدح في الهواء أغنيات الميليشيا وخطابات باسيوناريا⁽¹⁾ الملهية، بأن نموت واقفين خير لنا من العيش راكعين. لم يكن الإمكان تقبل تقدم العدو، فكان ذلك يسمى تراجعاً تكتيكياً. ولم من هنالك أيضاً أي ذكر للتقنين وشح كافة الأشياء تقريباً وندرتها، ما من الأغذية وحتى الأدوية. فكان فيكتور دالماو يقدم لأسرته رواية أنظر واقعية مثا تقوله مكبرات الصوت. كان بمقدوره الحكم على وضع الحرب من خلال قطارات الجرحى وأعداد الموتى التي كانت تزايد صورة مأساوية في مستشفى. «يجب أن أعود إلى الجبهة»، هذا ما كان له وليام، ولكنه يتوصل إلى احتمال جزمته قبل أن ينهار مستنفذا في «مراسي»

طقوس العناية اليومية بوليام من يؤس الشفوس، وغسله بإسفنجة، إخراج المبوله، وتغذيته بملاعق صغيرة من عصيدة أطفال، والسهل على نوعه وإعادة غسله، وإخراج المبوله، وتغذيته بملاعق صغيرة.. «ونين بلا نهاية من التوجس والمحبة، رُسخت لدى روزر القناعة أنه الرجل الوحيد الذي يُمكن لها أن تحبه. لن يكون هنالك رجل آخر، كانت واثقة من ذلك. في يوم النقاة التاسع، ولدى رؤيتها أنه نحسن بما يكفي، أدركت روزر أنه لم يُعد لديها ذريعة لاستبقائه»

(1) باسيوناريا (La Pasionaria): لقب المناضلة الشيوعية دولوريس إيباروري (1895 - 1939). ولدت في بيشكايا بإقليم الباسك. واشتهرت بخطاباتها الحاصية. عُرفت خلال حصار مدريد بشعاراتها الداعية إلى الصمود «لن يمروا» ونموت واقفين ولن نركع. بعد هزيمة الجمهورية الإسبانية، انتقلت إلى الاتحاد السوفيتي، وشاركت في الدفاع عنه في مواجهة التفرقة، وسقط ابنها في معارك ستالينغراد. تولت رئاسة الحزب الشيوعي الإسباني عند 1942 حتى 1960.

في الفراش، حيث يمكنها الاحتفاظ به كاملاً لها وحدها. ففرياً جداً. سيكون على وليام أن يعود إلى الجبهة. لقد كانت الإصابات كثيرة جداً في السنة الأخيرة، حتى إن الجيش الجمهوري صار يجند مراهقين ومسنين وسجناء سبتي السيرة والمظهر، ممن يُعرض عليهم الاختيار بين الذهاب إلى جبهات القتال أو التعفن في السجن. أخبرت روزر وليام بأن ساعة النهوض قد حانت، وأن الخطوة الأولى ستكون حتماً جيّداً. سخّنت ماء في أكبر قدر في المطبخ، ووضعت وليام في طست غسل الملابس، دلّكته بالصابون من شعره حتى قدميه، ثم شطفه بالماء، ونشّفته إلى أن خلّفته وردياً لامعاً. لقد كانت تعرفه جيّداً، بحيث لم يكن عليها التحقق من عريه. وكان وليام من جهنه قد فقد الحياء معها؛ فكان يعود إلى الطفولة وهو بين يديها. «سوف أتزوجها بعد انتهاء الحرب»، هذا ما كان يقوله في أعماقه في لحظة امتنان عصبى. فحتى ذلك الحين، لم يكن في تفكيره ما هو أبعد من الاستقرار في مكان ما والزواج. لقد أنقذه الحرب من التخطيط لمستقبل محتمل. كان يفكر: «لم أخلق للسلام، من الأفضل للمرأة أن يكون جندياً وليس عاملاً، وما هو الشيء الآخر الذي يمكن عمله بلا دراسة ويطبع مثل طبعي النزق والمتهور»! ولكن روزر، بطراجتها وبراءتها، بطبيعتها الراسخة، كانت قد تغلّغت تحت جلده؛ صورتها ترافقه في الخنادق، وكلّما تذكّرها أكثر يحتاج إليها أكثر، وتبدو له أجمل. لقد كانت جاذبيتها خفية، مثل كل شيء فيها. وفي أسوأ أيام التيفوس، عندما كان يغرق في مخاضة من الألم والخوف، كان يشبّث بروزر بيأس كي يظلّ طاقياً. وفي تشوّشه، كانت البوصلة الوحيدة هي وجهها المتأهب اللطيف المنحني فوقه، والمرساة الوحيدة كانت عيناها الضاربتان اللتان لا تلبثان أن تتحوّلا فجأة إلى حالمتين وديعتين.

بهذا الاستحمام الأول في طست غسيل الملائم، عاد وليام
 .. مالم الأحياء، بعد معاناة طويلة من الاحتضار والشرق. اتبع حيا
 .. من الخرق المصنعة بالصابون، بالرغوة في شعره، بدلاء الماء
 .. امن، وببدي روزر على جسده، يدي عازقة يبانوا قويتين، خفيفتين،
 .. ين. اسلم بالكامل محتا. نشت بدنه، ألبه إحدى بيجمات
 .. حلفت ذقنه، وقصت شعره وأظفاره التي نمت كمخالب. كان حذا
 .. ام لا يزالان مبللين وعيناه محمّرتين، ولكنّه لم يقد أشبه بفزاعة
 .. صافير تلك حينما جيء به محمولاً على أيدي اثنين من رجال
 .. المشيا. سخنت روزر بعد ذلك بقايا قهوة الفطور، وسكبت له فيها
 .. من الكونياك لتبعث فيه الحماسة

- إثنى جاهز للذهاب إلى حفلة، ابتسم وليام حين رأى نفسه في

- إنك جاهز للعودة إلى السرير، قالت له روزر وهي تقدّم له فنجاناً!

م أضافت: معي.

- ما الذي قلبه؟

- ما سمعته.

- لا نقولي إنك تفكرين في...

- في ما لا بد أنك تفكر فيه أنت أيضاً، ردت عليه، وهي تنزع عنها

..ها من رأسها.

- ما الذي تفعلينه، يا امرأة؟ يمكن لأمي أن ترجع في أي لحظة.

- اليوم هو الأحد. لا بد أن كارمي ترقص السردانا في الساحة،

١- وف تذهب بعد ذلك للوقوف في الدور في مركز الهاتف، كي تتكلم

م فيكتور.

- من الممكن أن أنقل إليك عدوى مرضي ...

- إذا كانت العدوى لم تنتقل إلي من قبل، فمن الصعب أن يحدث ذلك الآن. يكفي أعضاؤا. تحرك، يا وليام. أمرته روزر وهي تخلع عنها حمالة الصدر وسروالها الداخني، وتدفعه كي تندس في فراشه.

لم تكن قد تمررت قط أمام رجل من قبل، ولكنها كانت قد تجاوزت خفّرها خلال تلك الفترة من العيش بالنقنين، وفي حالة دائمة من التأهب، والشك بالجيران والأصدقاء، وبالحضور الدائم لملاك الموت. فالغذائية، باللغة الأهلية في مدرسة الزاهبات، كانت تُنقل عليها كعامة وهي في العشرين من العمر. لم يكن هنالك أي شيء مؤكد، وليس ثمة وجود للمستقبل، ليس لديهما سوى هذه اللحظة للتمتع بها قبل أن تنتزعها الحرب منهما.

حُسم أمر الهزيمة في معركة نهر الإيرو التي بدأت في شهر تموز/يوليو 1938؛ وكانت قد استمرت أربعة أشهر، وأوقعت ثلاثين ألف قتيل، بينهم وليام والماو الذي سقط قل قليل من المزوج الجماعي للمهزومين. كانت أوضاع الجمهوريين حرجة جدًا؛ والأمل الوحيد أمامهم يتمثل بدخول فرنسا وبريطانيا العظمى الحرب إلى جانبهم، ولكن الأيام كانت تمر من دون ظهور أي بارقة تشير إلى إمكانية حدوث ذلك. ومن أجل كسب الوقت، ركّزوا الجهود، وحشدوا معظم القوات لاجتياز نهر الإيرو، والتوغّل في أراضي العدو واحتلالها، والسيطرة على عتاده وذخائره، والإثبات للعالم أنهم لم يخسروا الحرب، وأن إسبانيا، إذا ما نلقت المساعدة الضرورية، ستمكّن من هزيمة الفاشية. جرى نقل ثمانين ألف رجل خفية في الليل إلى الضفة الشرقية للنهر، بمهمة

١. ذلك النهر ومواجهة القوات المعادية، المستفوقة عدداً وتسليحاً.
 ٢. ولما ضمن الكتابب المختلطة في الفرقة الخامسة والأربعين
 المائة، إلى جانب متطوعين إنكليز وأميركيين وكنديين، إنها القوات
 مائة، قوة الصدام التي كانوا هم أنفسهم يستأونها لحجم المدافع،
 ٣. نقاتل في أرض وعرة وفي صيف قاس لا يرحم، مع وجود العدو
 ٤. هم والنهر من ورائهم، والطائرات الألمانية والإيطالية فوقهم.

الهجوم المفاجئ منح الجمهوريين مزية مفيدة إلى حد ما. ففي
 ٥. الذي كانوا يصلون فيه إلى الجبهة، كان المقاتلون يجتازون النهر
 ٦. أكبر مرتجلة وهم يجزؤون بنال الحسولة المرعوبة. كان المهندسون
 ٧. جسوراً طافية، وبالسراعة نفسها التي تُقصف بها تلك الجسور
 ٨. بعد ترميمها ويتأوها ليلاً. ومع قوات الطبيعة، كان على وليام أن
 ٩. ألباناً بلا طعام وبلا ماء عندما تفشل عمليات التوزيع، وأمضى
 ١٠. من دون استحمام، ينام على الحجارة، مصاباً بضربة شمس
 ١١. وهو معرض طوال الوقت لفضائل العدو، وهجمات الناموس
 ١٢. إن التي تأكل ما تجده وتنقض على القتلى. وفضلاً عن الجوع
 ١٣. وتلوي الأمعاء والإنهاك، كان يضاف قيظ الصيف الشديد.
 ١٤. حسمه يفتقد السوائل إلى حد لم يُقد معه ينعرق، وصار جلده
 ١٥. مشققاً وأسود، مثل جلد حردون. في بعض الأحيان، يقضي
 ١٦. وهو بلبد كامناً والبندقية في يده، يشد على أسنانه، وكل ليلة
 ١٧. مشدودة ومتوترة، ينتظر الموت.. وبعد ذلك، لا تعود قدماء
 ١٨. أن تستجيبان له. توقع أن تكون حصى التيفوس قد أضعفته، وأنه
 ١٩. مثلما كان في السابق. كان رفاقه يتساقطون بإيقاع مرعب، بينما
 ٢٠. يساءل متى سيأتي دوره! كان إخلاء الجرحى يجري ليلاً وفي

سيارات بلا أنوار تجتنباً لرشاشات الطائرات؛ بعض المصابين بجراح
 بلغة يتوسلون أن تطلق عليهم رصاصة رحمة، لأنَّ احتمال سقوطهم
 أحياء في أيدي العدو أسوأ من ألف ميتة. الجثث التي لم يكن بالإمكان
 سحبها قبل أن تبدأ بالتعفن تحت الشمس القاسية، كانت تُغطى
 بأحجار أو تُحرق، مثلما يفعلون بجثث الخيول والبغال، لأنَّه من الفحاح
 حفر قبور في تلك الأرض الصخرية ذات التربة الصلبة كالإسمنت
 كان وليام يتعرض للرصاص والزمانات اليدوية من أجل الوصول إلى
 الأجساد لتحديد هوية أصحابها، واستخراج أثر شخصي منها لإرساله
 إلى عائلات القتلى.

لم يكن هناك بين المقاتلين من يفهم استراتيجيّة الموت على
 ضفاف نهر الإيبرو، لأنَّه لا جدوى من محاولة التقدّم في أراضي فرانكو.
 وكلفة الحيوانات من أجل الحفاظ على المواقع كانت عبثية، ولكنَّ إيذا
 عدم الرضى بصوت عالٍ سيُنظر إليه على أنّه تصرف جبان أو عمل
 خياني، يُدفع ثمنه غالباً. كان من نصيب وليام ضابط أميركي ينعن
 بشجاعة أسد، وكان طالباً جامعياً في كاليفورنيا، انضمَّ إلى لواء لشكولن
 ومن دون أن تكون لديه خبرة عسكرية سابقة، أثبت أنّه قد ولد للحرب،
 وكان جندياً خالصاً ويعرف كيف يُصدر الأوامر؛ يحظى باحترام رجاله
 وتقديرهم. لقد كان وليام أحد أوّل المتطوّعين في ميليشيات برشلونة.
 عندما كانت تسود فكرة المساواة الاشتراكية التي نشرتها الثورة في
 كافة ميادين المجتمع، بما في ذلك الجيش، حيث لا أحد أعلى مرتبة
 من أحد، ولا أحد يملك أكثر من أحد؛ الضباط يعيشون جنباً إلى جنب
 مع بقية القوّات من دون أيّ امتيازات، يأكلون الطعام نفسه، ويرتدون
 الملابس نفسها. لا شيء من التراتبية والمرتب، ولا من البروتوكول.

فوف باستعداد من أجل أداء النجدة، لا شيء من الخيام أو
 أو السيّارات الخاصة بالضباط، لا شيء من الأحذية الملثّمة،
 وإن الشخصيتين والطهات، كما في الجيوش التقليدية وكما في
 رانكو. هذا تبدّل في السنة الأولى من الحرب، عندما حدثت
 كبير الحماسة الثورية. وقد شهد وليام، باشمتراز، كيف
 تعود خفية في برشلونة أساليب التعايش البرجوازية، والطبقات
 بعية، والنفوذ القويّ للبعض والامتهان لآخرين، والإكراميات،
 وامتيازات الأثرياء، ممّن لا ينقصهم أي شيء، لا الغذاء ولا
 الملابس الدارجة، بينما بقية الأهالي تعاني من شح المواد
 . ورأى وليام كذلك تحولات بين العسكريين. فالجيش
 المؤلف من خلال التطوّع، استوعب الميليشيات التطوّعية
 الثرائية والانضباط التقليديين. ومع ذلك، واصل الضابط
 في إيمانه بانتصار الاشتراكية؛ فالمساواة بالنسبة إليه ليست
 حكمة وحسب، وإنما هي حتمية لا يمكن تجنّبها، ويمارسها كما
 . فإنه. فالرجال الذين تحت إمرته يتعاملون معه كرفيق، ولكنهم لا
 أوأمرة العسكرية أبدًا. كان الأميركي قد تعلّم ما يكفي من اللغة
 به كي يترجم الإيضاحات التي اعتاد توجيهها بالإنكليزية حول
 لايبرو. فالأمر يتعلّق بنأمين الحماية لبلنسيا، وإعادة توصلها مع
 المنفصلة عن بقية المناطق الجمهورية بقطاع عريض سيطر
 نوميون. كان وليام يحترمه ومستعدًا للسير معه إلى أي مكان،
 تقديمه تفسيرات أو من دون تقديمها. في منتصف شهر سبتمبر،
 الأميركي لصليّة رشاش من الخلف، وسقط إلى جانب وليام من
 ، شكوى. وواصل تشجيع رجاله وهو ملقى على الأرض إلى أن

فقد الوعي. حملته وليام وجنود آخرون فيما بينهم، ومزدوده وراءه من الأنقاض لحمايته حتى محيى الليل، عندما يصبح بإمكانه حركات الإسعاف الاقتراب من المكان ونقله إلى مركز إسعافات أو بعد أيام من ذلك، سمع وليام أنه في حالة إنقاذ حياة المتطوع الأميرة فإنه سبطل مشلولاً، فتمنى له من أعماق قلبه ميتة سريعة.

سقط الأميركي قبل أسبوع من إعلان الحكومة الجمهورية انسحاب المقاتلين الأجانب من إسبانيا، على أمل أن يقدم فرانكو إلى يعتمد على قوات ألمانية وإيطالية، على التصرف بالمثل. ولكن إذا لم يحدث. جرى دفن الضابط الأميركي بسرعة في قبر بلا شهادة، يتمكن من الاستعراض مع رفاقه المتطوعين في شوارع برشلونة، وثلاث هتافات التحية من شعب معتز في احتفالات حاشدة، سيذكر طوال ما تبقى من حياتهم. أبرز كلمات الوداع التي لن تُنسى هي التي قالتها الباسيوناري، التي كانت حماسها المتأججة ترفع معنوي الجمهوريين طوال تلك السنوات. أطلقت عليهم نسبة صليبي الح الأبطال، المثاليين، الشجعان والمنضبطين، من تركوا بلدانهم وبيوتهم وجاؤوا لتقديم كل شيء من دون أن يطلبوا شيئاً سوى شرف الم في سبيل إسبانيا. وانتهت إلى القول لهم إنهم سيعودون إلى إسبانيا الانتصار، حيث سيجدون وطنًا وأصدقاء.

كانت دعاية فرانكو تدعو المقاتلين إلى الاستسلام بمكبر الصوت، ويمشورات تلقى من الطائرات عارضة عليهم الخبز والوا الحربية، ولكن الجميع كانوا يعرفون أن الانشقاق يعني رمي عظام في السجون، أو في قبور جماعية سيكون عليهم أن يحفروها بأنفسهم كانوا قد سمعوا أنه في الغري التي يحتلها فرانكو، يجري إجبار الأر

«ثلاث من يجري إعدامهم يدفع ثمن رصاصات الإعدام. وكانت
 «إد المحكومين بالإعدام تصل إلى عشرات الآلاف؛ كل تلك
 «الأمم كانت تراق، حتى إن الفلاحين، في العام التالي، كانوا يؤكّدون
 «الصل كان ينمو أحمر، وأنهم يجدون أسناناً في البطاطس. ومع ذلك،
 «إد عوابة الانتقال إلى صفوف العدو في سبيل الحصول على رقيق
 «ر جعلت أكثر من شخص ينشق، وكان هؤلاء، عموماً من المجنّدين
 «معاد السن. وفي إحدى المناسبات، كان على وليام أن يسيطر بالقوّة
 «على فتى من بلنسيا فقد عقله، مرعوباً؛ فسوّب السلاح إلى رأسه، وأقسم
 «أنه سيقتله إذا ما تحرك من مكانه. وقد احتاج لأكثر من ساعتين من
 «الهدنة، وفعل ذلك من دون أن يعلم أحدٌ بالأمر. وبعد مرور ثلاثين
 «دقيقة على ذلك، قُتل الفتى.

ووسط ذلك الجحيم، حيث لم يكن بالإمكان الحصول على
 «أي المؤن الأساسية، كانت تظهر بين حين وآخر سيّارة إسعاف وفيها
 «نسي برید. كان أيتور إبيازا هو من فرض على نفسه هذه المهمة من
 «أجل رفع معنويات المقاتلين. لقد كانت المراسلات الخاصة إحدى
 «الأولويات الأخيرة في جبهة الإبيرو؛ والحقيقة أنّ قلّة من الرجال كانوا
 «للفون رسائل، فالمتطوّعون الأجانب لا يتلقونها، لأنهم بعيدون جداً عن
 «وبهم؛ وكثيرون من الإسبان، لاسيّما من هم من جنوبي البلاد، لأنهم
 «يحدرون من عائلات أميّة. لقد كان لدى وليام دالماو من يكتب إليه.
 «مكان من عادة أيتور المزاح بالقول إنه يجازف بحياته من أجل إيصال
 «رسائل إلى مرسل إليه وحيد. في بعض الأحيان، يسلمه حزمة سمكة
 «من عدّة رسائل مربوطة بخيط. وتكون هناك على الدوام رسالة من أم
 «وليام ومن أخيه، ولكن معظم الرسائل تكون من روزر، التي تكتب له

كلّ يوم فقرة أو فقرتين، إلى أن يصل ما تكتبه إلى صفتين، فتدسهما في مغلف تحمله إلى البريد العسكري وهي تتروّم بأغنية الميليشيا الأوسع انتشاراً: «إذا ما أردت الكتابة إليّ، فأنت تعرفين مكانتي: /الغرفة الثالثة المختلطة،/ على خطّ النار الأول». لم تكن تعرف أنّ إيبازا ينادي إلى نحية وليام بالأغنية نفسها، أو أخرى مشابهة عند تسليمه الرسائل. لقد كان الباسكي يغني حتى في أحلامه كي يُبعد الخوف عنه، ويغوي ساحرته التي تجلب له الغال الطيب.

كانت قوات فرانكو تنقّدم من دون هوادة، بعد أن سيطرت على معظم أجزاء البلاد، وكان واضحاً أنّ كاتالونيا سوف تسقط أيضاً. راح الذعر يسطر على المدينة، وبدأ الناس يستعدّون للهروب، وكان كثيرون قد فعلوا ذلك. في منتصف كانون الثاني/يناير 1939، وصل أينور إيبازا إلى مستشفى ماتريسا وهو يقود شاحنة محلّعة فيها تسعة عشر رجلاً مصابين بجراح بليغة. عند انطلاقه، كان عددهم واحداً وعشرين جريحاً، ولكنّ اثنين منهم ماتا خلال الطريق، وبقي جسداهما في الشاحنة. كان عدد من الأطباء المدنيين قد غادروا مواقعهم، ومن تبقّوا كانوا يحاولون الحيلولة دون انتشار الهلع بين مرضى المستشفى. كما أنّ أعضاء الحكومة الجمهورية اختاروا المنفى، مع فكرة أنّهم سيواصلون إدارة الحكم من باريس، وهذا ما أدّى إلى خلخلة معنويات الأهالي المدنيين. ففي تلك الأثناء، كان القوميون على بُعد أقلّ من عشرين كيلومتراً عن برشلونة.

كان إيبازا قد أمضى خمسين ساعة بلا نوم. سلّم حموات المحزنة، وانهار خائر القوى بين ذراعي فيكتور دالماو الذي خرج لاستقبال الشاحنة، وقد رافقه هذا إلى مقصورته الملكيّة، مثلما يسمّي السري العسكري ومصباح الكيوسين والعبولة التي يضّمها ملأه. كان

مر الإقامة في المستشفى من أجل توفير الوقت. بعد ساعات من
 ١٠ عند فترة توقف قصيرة في الشاطئ المحموم في غرفة العمليات
 ١١ حية، حمل فيكتور لصديقه قصعة حياء عدس، وقطعة سجن جافة
 ١٢. انها آتة إليه هذا الأسبوع، وإيريق قهوة هندية. وجد صعوبة في
 ١٣، ما أتور. تناول الباسكي المنهك تلك الوجبة بشراسة، وبدأ يروي
 ١٤ أحداث معركة الإيرو بالتفصيل، وكان فيكتور قد أطلع على الخطوط
 ١٥، مصصة لتلك الأحداث من أفواه الجرحى خلال الشهور السابقة.
 ١٦ جرى هناك تمزيق الجيش الجمهوري، ولم يبق، بحسب قول إبيازا
 ١٧ في الاستعداد لتلقي الهزيمة النهائية. وأضاف الباسكي «في القتال
 ١٨ في اسنم مئة وثلاثة عشر يومًا مات أكثر من عشرة آلاف رجل من
 ١٩، لا أدري كم هو عدد الآلاف الذين وقعوا في الأسر، ولا عدد
 ٢٠ إصابات بين المدنيين في القرى التي تعرضت للقصف. ولن نحصى
 ٢١ عدد القتلى في الحانب المعادي». لقد حسروا الحرب، مثلما كان
 ٢٢ «ووسور مارسيل لويس دالماو قد فذر قبل موته. ولن يكون هنالك
 ٢٣ لأم يجري التفاوض عليه، مثلما كانت تنوي القيادة الجمهورية. لن
 ٢٤، بل فرانكو منهم سوى الاستسلام غير المشروط. «لا تصدق إلا عاية
 ٢٥، انهم انكوبه، لن تكون ثقة رحمة ولا عدالة. سيكون حمام دم، مثلما
 ٢٦ جرى في بقية أنحاء البلاد. لقد نخزقنا».

بالثبة إلى فيكتور الذي كان قد تقاسم لحظات مأساوية مع
 ٢٧ إبارا من دون أن يتخلى هذا الأخير عن ابتسامته المتحدية، وأنشده
 ٢٨ مزاحه، يذت ملامح وجه هذا الأخير المكفهرة أكثر بلاغة من كلماته.
 ٢٩ أخرج صديقه من جعبته زجاجة خمر صغيرة، سكب محتواها في القهوة
 ٣٠ لشره الماء، وقدمها لفكتور. «خذ، سنحتاج إليها»، قال له. كان يبحث
 ٣١ منذ بعض الوقت عن الطريقة الأكثر ملائمة لينقل إلى فيكتور دالماو

الخبر المشؤوم عن أخيه، ولكنه لم يتمكن من أن يقول له أكثر من
وليام قد مات يوم الثامن من تشرين الثاني /نوفمبر.

- كيف؟ كان هذا هو كل ما تمكن فيكتور من قوله.

- سقطت قبلة في الخندق. اعدرنني، يا فيكتور، أفضل عام.

التحدث عن التفاصيل.

- أخبرني كيف؟ كرر فيكتور.

- لقد مررت القبلة عدة أشخاص. لم يكن هنالك شيء من

الوقت لجمع أسلحة كل شخص. دفننا الأسلحة كلها معاً.

- لم يستطيعوا تحديد هويتهم إذاً.

- لم يستطيعوا تحديد هويتهم بدقة، يا فيكتور، ولكن كانوا يعرفون

من هم الذين في الخندق. وكان وليام واحداً منهم.

- ولكن لا وجود لما هو يقيني ومؤكداً، أليس كذلك؟

- أخشى أن يكون الأمر مؤكداً. قال آينور، وأخرج من جعبه

محفظة شبه محروقة.

فتح فيكتور المحفظة التي بدت على وشك التفتت، وأخرج

منها وثيقة هوية وليام العسكرية، وصورة فوتوغرافية ظلت سليمة بصورة

إعجازية، وفيها صورة فتاة تقف إلى جانب بيانو كبير. ظل فيكتور دالمار

جالساً على الأرض أمام السرير العسكري، إلى جانب صديقه، من دون

أن ينطق بكلمة خلال عدة دقائق. لم ينجز آينور على معانقته، مثلما كان

يرغب، وبقي ينتظر إلى جانبه جامداً وصامتاً.

- إنها خطيبته، روزر بروغيرا. كنا سيترؤسان بعد الحرب، قال

فيكتور أخيراً.

أشاعرك الحزن. يا فيكتور. سيكون عليك أنت أن تحبها .
 إنها حبيبي. أمشيها في الشهر السادس أو السابع. لا يمكنكني
 . ما قبل أن أتأكد من أن وليام قد مات .
 . وأني تأكد آخر نريده، يا فيكتور؟ لم يرح أحد حثا من ذلك

- ربما لم يكن موجودا هناك .

- في هذه الحالة، يجب أن تكون محفظة في جيبه. وأن يكون
 ١٠ في مكان آخر. وأن تكون قد عرفنا شيئا عنه. لقد انقضى شهران. ألا
 أن المحفظة دليل كاف؟

في نهاية ذلك الأسبوع، ذهب فيكتور إلى المار إلى برشلونة. إلى
 أمه. وكانت تنتظره بوجبة أرز أسود أعدتها بسحاح من الرز جعلت
 . من متاجري التهريب، وبضعة فصوص من الثوم وأحطبوط دفعت
 في الميناء ساعة زوجها. كانت محاصيل الصيد تُصادر من أجل
 والكثيرة القليلة التي توزع على السكان المدنيين تذهب
 إلى المستشفيات ومراكز رعاية الأطفال، مع أنه كان معروفا
 لا تغيب عن موائد السياسيين أو فنادق البرجوازيين ومطاعمهم .
 ما رأى أمه تحبلة وضئيلة وهرمة إلى ذلك الحد من الأحزان والقلق .
 روزر مشرقة ببطن بارز وبنور الحبلى الداخلي، لم يستطع فيكتور
 سارهما بموت وليام؛ كانا لا تزالان في الجداد على مارسيل لويس .
 أول عذبة مرأت أن يخبرهما، لكن الكلمات كانت تتجعد في صدره،
 الانتظار إلى أن تضع روزر مولودها أو أن تنتهي الحرب. فمع وجود
 المثل الوليد بين ذراعيهما، سيكون ألم كارمي على فقدان ابنتها، وروزر
 على فقدان حبها أقل وطأة هكذا فكر .

الفصل الثالث

1939

.. أيام قرن وتوالت الساعات
١٠. نخرجك إلى المنفى...

بابلو نيرودا

«أرتيفاس»، النشيد للشامل

في هذا اليوم من أواخر كانون الثاني/يناير في برشلونة، عندما
 ، أ الخروج الكبير الذي أطلقوا عليه تسمية الانسحاب، طلع الصباح
 ارذا جدًّا، حتى إنَّ الماء تجمَّد في الأنابيب، وظلَّت السيارات والدوابُّ
 ١٠ صقة بالثلج، أمَّا السماء المغطَّاة بغيوم سوداء، فكانت في حالة جداد
 ١١ ن. لقد كان أحد أشدَّ الشتاءات فسوة في الذاكرة الجماعية. كانت
 ١٢ ات فرانكو تنزل عبر مضبة التيبيدابو، فاستولى الذعر على الأهالي.
 ١٣ ات من أسرى الجيش القومي أخرجوا من زنازينهم وأُعدِّموا في الساعة
 الأخيرة. وانطلق جنود، بينهم كثير من الجرحى، في مسيرة باتجاه الحدود
 ١٤ م هرسا، وراء آلاف وآلاف المدنيين؛ عائلات بكاملها: أجداد، أمهات،
 أطفال، رُضع، وكلُّ منهم يحمل ما هو قادر على حمله، بعضهم في حافلات
 أو شاحنات، آخرون على دراجات هوائية، وفي عربات، وعلى أحصنة أو
 ١٥ مال، والأغلبية السَّاحقة سيرًا على الأقدام، يجرِّرون ممتلكاتهم في
 أكياس؛ موكب يالسين مشير للأسى. يخلفون وراءهم البيوت المقلَّعة
 وأشباههم العزيزة. الحيوانات الأليفة تتبع أصحابها لبعض الوقت، لكنَّها
 ١٦ سرعان ما تُضيع في دوامة الانسحاب وتبدأ التخلُّف عنهم.

كان فيكتور دالماو قد أمضى اللَّيل وهو يُخفي الجرحى الذين
 يمكن نقلهم في الأكثيات القليلة المتوافرة، في شاحنات وقطارات. وفي

حوالي الساعة الثامنة صباحاً، أدرك أن عليه العمل بحسب أوامر أبيه، وأن ينفذ أمه وروزر، لكنه لا يستطيع ترك مرضاه. تمكن من العثور على أينور إيبازا، وأقنعه بأن يحمل المراتين. كانت لدى الباسكي دراجة نارية ألمانية قديمة مزودة بمقعد جانبي، وكانت تلك الدراجة هي كسر، الأعظم في أزمنة السلام، لكنه لم يستخدمها منذ ثلاث سنوات لعدم توافر الوقود. ويحتفظ بها بأمان في مرآب صديق له. وبسبب الظروف، قدر أن الوضع يتطلب إجراءات فاصوي، فسرق بيدوني بنزين من المستشفى. وقد سُرقت الدراجة النارية التكنولوجية التونسية الفاحرة، فمع المحاولة الثالثة، دار محركها كما لو أنها لم تكن مدفونة قط في مرآب. في الساعة العاشرة والنصف، حضر أينور يدراجته النارية إلى بيت آل دالعاو وسط دوي صاحب وسحابة دخان يتقدم مصعوبة في مسار متعرج بين الحشود التي تملأ الشوارع في ذلك الهروب. كانت كارمي وروزر تنتظران، لأن فيكتور تدبر أمر إبلاغهما. وكانت أوامره واضحة: التثبيت بأينور إيبازا، واجتياز الحدود، ثم الاتصال، في الجانب الآخر من الحدود، بالصلب الأحمر للوصول إلى إليزابيث إيدنيز، وهي ممرضة موثوقة. وستكون صلة الوصل عندما يصبحون جميعهم في فرنسا.

كانت المراتان قد وضبتا ملابس سمبكة، والقليل من المؤن وصوراً عائلية. وقد ظلت كارمي حتى اللحظة الأخيرة منشككة بشأن ضرورة الرحيل، فكانت تتعلل بالقول إنه لا وجود لشر يستمر مئة عام، وربما يمكنهم الانتظار لرؤية كيف ستجري الأمور؛ وإنها لا تجد نفسها قادرة على بدء حياة جديدة في مكان آخر، ولكن أينور قدم لها أمثلة حيّة عما سيحدث عندما يصل الفاشيون إلى المدينة. أولاً، سيشربون رباتهم في كل مكان، وسيقيمون فذاً مهيباً في الساحة

١٠٠ رى، وسيكون حضوره إجباريًا. المنتصرون سيستقبلون بهنقات
 مائها حشد من أعداء الجمهورية، مثل ظلوا متخفين في المدينة
 اوال ثلاث سومات، وآخرون كثيرون غيرهم يعمون بدافع الخوف
 اوال التودد والإيحاء بأنهم لم يشاركوا في الثورة أبدًا. وسيقولون: نحن
 اس بالرب، نؤمن بإسبانيا، نؤمن بفرانكو. نحب الرب، نحب إسبانيا،
 ن ب الجنرال فرانسيסקو فرانكو. بعد ذلك، يبدأ التطهير. فأولًا، وقبل
 أن شي، يعتقلون المناضلين، إذا ما عثروا عليهم، مهما كانت الحال
 ابي هم عليها، وكذلك الأشخاص الذين يشي بهم آخرون على أنهم
 اركوا، أو يُشبهه بأنهم شاركوا في نشاطات تعتبر معادية لإسبانيا أو
 -مادية للكاثوليكية؛ وهذا يشمل أعضاء النقابات، والأحزاب اليسارية،
 -مارسي ديانات أخرى، ولاأدريين، وماسونيين، ويهودًا، وعجزة...
 هكذا، تتواصل اللأنة اللامتناهية.

- عمليات القمع همجية، يا سيادة كارمي. أوتعلمين أنهم ينتزعون
 الأنساء من أمهاتهم، ويضعونهم في دور أبنام تشرف عليها راهبات من
 اجل نشتهم على الذبابة الحقيقية الوحيدة وعلى قيم الوطن!
 - ابناي كبيران على مثل هذه الأمور.

- هذا مثال فقط. فما أريد قوله إنه لم يبق لك مخرج سوى
 المجيء معي، فهم سيعدمونك رميًا بالرصاص، لأنك تقومين بمحو أمة
 الثوريين، ولأنك لا تذهبين إلى القُدَّاس.

- انظر، أيها الشاب، إثنى في الرابعة والخمسين، ولدي شعاع
 لاني مصابة بالشل. لن أعيش طويلًا. أي حياة تنتظرني في المنفى؟
 الفضل الموت في بيتي، في مدينتي، بوجود فرانكو أو بدون وجوده.

أمضى أيتور خمس عشرة دقيقة إضافية في محاولة غير مجدية
لإقناعها، إلى أن تدخلت روزر.

- تعالي معنا، يا دونيا كارمي، لأننا أنا وحفيدك بحاجة إليك
وخلال بعض الوقت، عندما نستقر ونعرف كيف هي الأمور في إسبانيا،
يمكنك أن ترجمي إذا أردت.

- أنت أكثر قوة وقُدرة مني، يا روزر. ستتدبرين أمورك على خير ما
يرام وأنت وحدك. لا تبتكِ، يا امرأة...

- كيف لا أبكي؟ ما الذي سأفعله بدونك؟

- حسن، ولكن عليك أن تعرفي أنني سأفعل ذلك من أجلك
ومن أجل الصغير. لو كان الأمر بيدي لبقيت هنا، فلا بد من مواجهتها
الزمن الرديء بوجه بشوش.

- يكفي أيتها السيدة، يجب علينا أن نغادر، ألح أيتور.

- وماذا عن الدجاجات؟

- أطلقبها، وسيلتقطها أحدهم. هيا بنا، لقد حان موعد ذهابنا.

أرادت روزر السفر معتمدة المقعد وراء أيتور، لكن كارمي وأيتور
أقنعاها بأن تجلس في المقعد الجانبي، حيث الخطورة أقل على الطفل
أو إمكانية حدوث إجهاض. ارتدت كارمي عدة سترات وعباءة قشائنة
من الصوف الأسود، ورداء واقية من المطر وثقيلاً مثل سجادة، وجلست
على المقعد الخلفي. لقد كانت خفيفة الوزن إلى حد يمكن لها أن
تطير عن الدراجة لولا ذلك الرداء الثقيل. كانوا يتقدمون ببطء شديد
متجاوزين الناس، ومركبات أخرى وحيوانات جرد، منزلقين على الطريق

المعطى بالصفيع، ومدافعين عن أنفسهم من اليائسين الذين يحاولون
أدب الدراجة النارية بالقوة.

كان الخروج من برشلونة أشبه بمشهد من جحيم دانتي لآلاف
الكائنات المرتجفة من البرد، في هروب مندفع راح يتحول شيئاً فشيئاً
إلى موكب بطيء يتقدم على وقع خطوات المبتورين والجرحى، والشيوخ
والأطفال. وكان مرضى المستشفيات القادرون على الحركة ينضمون
إلى النزوح، بينما يُنقل آخرون في قطارات إلى حيث يمكن للقطارات
الوصول؛ أما المتبقون، فيكون عليهم مواجهة سكاكين المرور وحرايمهم.
سرعان ما صارت المدينة وراءهم، ووجدوا أنفسهم في ميدان فسيح
متوح. من القرى الصغيرة، كان الفلاحون يخرجون، بعضهم مع ماشينهم
أو مع عربات صغيرة متزعة بحُزم الأمتعة، ويختلطون بالجدد المتحرك.
لديهم شيء ثمين، يستبدلونه بمكان في وسائل النقل القليلة. لم
يكن للنقود أي قيمة. البغال والخيول تنوء تحت ثقل العربات، وكثير منها
يسقط متحسراً؛ عندئذ، يربط الرجال أنفسهم مكان البهائم ويخترقون
العربات، بينما النساء يدفعنها في الخلف. وعلى الطريق: كانت تبقى
الأشياء التي لم يُقد هناك من يستطيع حملها، ابتداءً من حقائب متنوعة
وحتى قطع أثاث؛ وكان الموتى والجرحى يبقون كذلك حيث يسقطون،
لأن أحداً لم يكن يتوقف لنجدتهم. لقد تلاشت القدرة على الرحمة،
وصار كل شخص يهتم فقط بنفسه وبذويه. وكانت طائرات فيلق الكندور
تعلق على ارتفاع منخفض لتزرع الموت، وتخلّف لدى مرورها نثاراً من
الدم مختلطة بالوحل والثلج. كثير من الضحايا كانوا أطفالاً. كان الطعام
يناقص. أشد المحتاطين حرصاً كانوا يحملون مؤناً تكفيهم ليوم واحد أو
يومين، بينما يعاني آخرون الجوع. وكان هناك على الأقل بعض الفلاحين
المستعدين لمقاومة الأغذية. وقد لعن أيتور نفسه، لأنه ترك الدجاجات.

مئات آلاف اللاجئين الخائفين كانوا يهربون من فرانكو، حيث كانت تنتظرهم حملة من الخوف والعداء. لا أحد يريد هؤلاء الأجانب، الحمر، إنهم كائنات مفرقة، قذرون، هاريون، يالسون، متحرفون، مثلاً. كانت تسميهم الصحافة، وسوف ينشرون الأوبئة، ويقترون السرفة والاعنصاب والتحرّض على ثورة شيوعية. منذ ثلاث سنوات تقريباً، كان قد بدأ بالوصول تنقيطاً إسبان هاريون من الحرب، وقد استقبلوا بقليل من التعاطف، ولكنهم نفروا في البلاد، وكانوا غير مرتين تقريباً. ومع هزيمة الجمهوريين، كانت التوقعات أن يتزايد التدفق؛ وكانت السلطات تتوقع أعداداً غير محدودة، قد تصل إلى عشرة آلاف أو خمسة عشر ألفاً كحد أقصى، وهو رقم يشير دُعر قوى اليمين الفرنسية. لم يتخيّل أحد أنّه سيكون هناك خلال ألبام قليلة قرابة نصف مليون إسباني في أقصى حالات الاضطراب والرعب والبؤس، يتزاحمون على الحدود. كان ردّ الفعل الفرنسي الأول إغلاق المعابر الحدودية، ريثما تتوصل السلطات إلى الاتفاق على طريقة لمعالجة المشكلة.

أرعى الليل سدوله باكراً. هطل المطر لوقت قصير، ما يكفي ليبلل الشباب ويحوّل الأرض إلى مخاضة وحل. بعد ذلك، انخفضت الحرارة إلى عدّة درجات تحت الصفر، وبدأت تهبّ رياح كأنّها خناجر تنغرس في العظم. اضطرّ من يمضون إلى التوقّف، لم يُقدّ بمقدورهم مواصلة المسير في الظلام. استلقوا متكورين على أنفسهم أينما استطاعوا، متدنّرين ببطاطين مبلّلة، الأمتّات يحتضنّ أبناءهم، الآباء يحاولون حماية أسرهم، المَنُون يُصلّون ويتضرّعون. رُتب آيتور إيبازا جلوس المرأتين في مقعد الدراجة النارية الجانبية، مع تعليمات بأن تنتظراه، وانتزع أحد أسلاك التوصل من الدراجة النارية كيلا يُسنولى عليها، ثمّ

١٠. فلبلاً عن الطريق بحثاً عن مكان يستريح فيه؛ كان يعاني الزحار منذ
١١. مثلما هي تقريباً حال جميع من كانوا في الجبهة. أنساء مصباحه
١٢. وني، ورأى بغلة خامدة في حفرة في الأرض؛ وثما كانت قوائمها
١٣. سورة، أو أنها قد انهارت لثموت من التعب. لقد كانت حيّة. أخرج
١٤. وأطلق النار على رأسها. صوت الرصاصية المعزول، المختلف
١٥. صوت رشاشات العدو، اجتذب بعض الفضوليين. كان آيتور مدوّناً
١٦. تلقى الأوامر، وليس على إصدارها، ولكن في تلك اللحظة تفشحت
١٧. بصورة غير متوقّعة، موهبة القيادة وإصدار الأوامر، فنظّم الرجال من
١٨. محل تقطيع البهيمه، ونظّم النساء من أجل شواء اللحم في مواقع صغيرة
١٩. دامت انتباه الطائرات. انتشرت الفكرة على طول الجموع وعرضها،
٢٠. ما صار تسمع أصوات طلقات رصاص متفرقة هنا وهناك.
٢١. إلى كارمي وروزز قطعيتين كبيرتين من ذلك اللحم المتينس،
٢٢. كان ماء لكلّ منهما، كان قد سخّنه على أحد المواقع فتخيّلاً أن
٢٣. الشراب هو قهوة مع قليل من الكونياك، ولا ينقصه سوى البُن،
٢٤. لهما وهو يسكب جرعة كونياك في كلّ فنجان. خبأ شيئاً من اللحم،
٢٥. أنفاً من أن البرد سيحفظه، ونصف رغيف من الخبز الشميك، حصل
٢٦. مقابل نظارة طيار إيطالي كان قد سقط بطائرته. وكان قد توقّع أن
٢٧. النظارة لا بد أن تكون قد انتقلت من يد إلى يد أكثر من عشرين
٢٨. قبل أن تصل إلى يديه، وأنّ الأيدي متواصل تبادلها إلى أن تنفثت.
٢٩. رفضت كارمي تناول اللحم، قالت إن أسنانها ستتكتسر وهي
٣٠. مصغ نعل الخُفّ ذاك، وقُدّمت قطعة اللحم الخاصّة بها إلى روزز.
٣١. كانت قد بدأت تقلّب فكرة انتهاز ظلام الليل للهرب والاختفاء. كان
٣٢. الرد يحول دون قدرتها على التنفّس، فكلّ شهيق يسبّب لها نوبة سعال،

تسرع معها بألم في صدرها وباحتناق. فدمدمت: «لينيئي أصاب يذاب الرئة دفعة واحدة وأنتهي». فردت عليها روزر، وقد سمعتها: «لا تقول لي هذا الكلام، يا سيّدة كارمي، فكّري بابنيك». في حالة عدم توازن إصابه بذات الرئة، يكون الموت تجمّداً هو الخيار الأفضل. أضافت الـب.ب. كارمي بينها وبين نفسها. وكانت قد قرأت أنّ المسنين في القطب الشمالي ينتحرون بهذه الطريقة. يروق لها أن ترى الحفيد أو الحفيدة، وقد صارت الولادة وشيكة، ولكن هذه الرغبة كانت آنحذة بالتلاشي من ذهنها مثل حلم. فكلّ ما كان يهتمها هو أن تصل روزر سليمة ومعافاة إلى فرنسا، وأن تضع مولودها هناك، وتلتقي بوليام وفيكتور. أمّا هي، فلا تريد أن تكون عبثاً على الشباب؛ فبعد بلوغها هذه السن، صارت تشكل عبقة، وبدون وجودها سيصلون أبعد وبسرعة أكبر. لا بدّ أنّ روزر قد تنبّئت إلى نواياها، لأنّها ظلّت تراقبها إلى أن غلبها التعب، ونامت متكوّرة على نفسها. لم تسرع بكارمي عندما ابتعدت عنها، بتكنّم سينور

كان آيتور هو أوّل من اكتشف غياب المرأة، عندما كان الظلام لا يزال مُخيّماً؛ ومن دون أن يوقظ روزر، خرج للبحث عنها وسط كثلة البشريّة المعبّدة تلك. كان يضيء الأرض بمصباحه اليدوي كي يرى أين يضع قدمه من دون أن يدوس على أحد؛ قدّر أن كارمي قد وجدت صعوبة أيضاً في التقدّم، ولا يُمكن لها أن تكون قد ابتعدت كثيراً. فاجأته أضواء الفجر الأولى وهو يهيم على وجهه بين جموع الناس وحُرّم الأمتعة، ينادي باسمها بين آخرين يصيحون منادين بأسماء أقربائهم. نشبت ساقه طفلة في حوالى الرابعة، مبحوحة الصوت من كثرة البكاء، مبلّلة، وبشرتها مزرقّة من البرد. مسح آيتور مخاطها، وشم بالحرّة، لأنّه لا يملك ما يدفئها به، ووضعها فوق كتفيه حيث قد يتمكّن أحدهم من التعرف عليها، ولكن

«م يكن هناك من ينتبه إلى مصير الآخرين. «ما اسمك، يا جميلتي؟»
 «يا»، تلحمت الصغيرة، فأخذ يشغل اهتمامها بالترنم بأغنيات شعبية
 «أغاني الميليشيا، والتي كان الجميع يعرفونها عن ظهر قلب، وكانت لا
 «مارق شفتيه منذ شهور. «غثي معي، يا نوريا، لأن الغناء يبعد الأحزان»
 «ال لها، لكنّ الطفلة واصلت البكاء. مشى وهو يحملها على كتفيه لوقت
 «لأسى به، يشق طريقه بصحوة ومناديًا باسم كارمي، إلى أن واجه شاحنة
 «موقفة في خندق على جانب الطريق، حيث كانت راهبتان توزعان حلبيًا
 «حبرًا على جماعة من الأطفال. أخبرهنّ أنّ الطفلة تبحث عن أهلها،
 «فردوا عليه بأن يتركها معهنّ، وأنّ الأطفال الذين في الشاحنة هم من
 «الصائعين عن ذويهم أيضًا. بعد ساعة من ذلك، ومن دون أن يكون قد
 «ر على كارمي، بدأ أيتور العودة إلى المكان الذي ترك فيه روزر. عندئذ،
 «لها إلى أنّ كارمي قد ذهبت من دون أن تأخذ معها العباءة القشتالية.

مع بدء النهار، بدأت الحشود اليائسة الشجرك كالطخنة قاتمة هائلة
 «بطيئة. الإشاعة عن أنّهم قد أغلقوا الحدود، وأنّ مزيدًا ومزيدًا من
 «الناس قد تجتمعوا أمام مراكز الجور، صارت تستقل من قم إلى قم، صفا
 «عاقم من الهلع. كانوا قد أمضوا ساعات طويلة بلا طعام، وكان الأطفال
 «المسئون والجرحى يزدادون ضعفًا وإنهاكًا. مئات وسائل النقل، ابتداء
 «من العربات العادية وحتى الشاحنات، كانت تقبع مهجورة على جانبي
 «الطريق، لأنّ حيوانات الجر لم تُمدّ قادرة على المواصلة، أو بسبب افتقار
 «الوقود. قرّر أيتور ترك الطريق، حيث كانوا متوقفين بسبب كثرة الحشود،
 «والمغامرة بالتوجّه نحو الجبال بحثًا عن ممزّ أقلّ حراسة. رفضت روزر
 «الذهاب من دون كارمي، ولكنّه أقنعها بأنّ كارمي متصل بكلّ تأكيد
 «إلى الحدود مع بقية الحشود، وأنّهم سيعودون للاجتماع بها في فرنسا.

أمضيا وقتا لا بأس به في الجدال، إلى أن فقد أينور صبره، وهدهدها بأنه سيذهب ويتركها مرمية. فصذقته روزر، لأنها لم تكن تعرفه. في صباه، كان أينور يمضي مع أبيه عبر الجبال، وفكر في هذه اللحظة أنه مستعد لتقديم أي شيء مقابل أن يكون أبوه معه. لم يكن وحده من لديه هذه الفكرة: كانت هناك جماعات قد بدأت الشير بأثجاء الجبال. إذا كان الطريق سيبدو شاقاً لروزر، يبسطها الضخم كحيلي، وقدميها المنخفضتين وآلام عرق النساء، فإنه سيكون أسوأ بالنسبة إلى العائلات التي لديها أطفال أو جذبن مستئين، أو بالنسبة إلى المقاتلين متوري الأطراف أو المضمّدين بضمادات دامية. لقد أفادتهم الدراجة النارية في الأمكنة التي توجد فيها دروب معقدة فقط، وكان يشك في قدرة روزر، وهي في حالتها تلك، على مواصلة التقدّم شيئاً على الأقدام.

ومثلما قدر الباسكتي. حملتهم الدراجة النارية نحو الجبال، وصعدت، وهي تسعل. وتطلق دخاناً إلى حيث يمكنها الصعود، ثم توقفت أخيراً. سيكون عليهم ابتداء من هذه اللحظة الصعود شيئاً على الأقدام. وقبل أن يغيب دراجته النارية بين بعض الشجيرات، قبل أينور تلك الآلة قبله وداع، لأنها أكثر وفاء من زوجة طيبة، وعاهد نفسه أن يعود إليها ليأخذها. ساعدته روزر على ترتيب حزم الأمتعة التي ربطاها إلى ظهرئهما وتوزيعها. كان عليهما أن يتخلّيا عن القسم الأكبر والاكتفاء بحمل ما هو أساسي فقط: ملابس دافئة، حذاء احتياطي، الأغذية القليلة المتوافرة والنقود الفرنسية التي أعطاها فيكتور، الحريص دوماً، لابتور. ألقت روزر على نفسها العباءة القشالية، ولبست في يديها زوجتين من القفازات، لأنه لا بدّ لها من الاهتمام بيديها إذا كانت تفكر في العودة إلى العرف على البيانو. ثم بدأ الصعود. كانت روزر تتقدّم ببطء، ولكنّ بتصحيح

.. دون توقف، يدفعها أو يسحبها أيتور في بعض أجزاء الطريق، وهو
 .. مارحها ويغني لها لتشجيعها، كما لو أنهما في نزعة. المرتحلون الغليون
 .. ابن اختاروا هذا الطريق، ووصلوا إلى ذلك الارتفاع، كانوا يمشون
 .. وما ويواصلون طريقهم بعد تحية مقتضبة. وسرعان ما صاروا وحيدتين.
 .. انتهى درب الماعز الضيق، وصار زلقًا بسبب الثلج. كانت الأقدام
 .. موص في الثلج، يتقدمان متجاوزين صخورًا وجذوعًا ساقطة، ويتقدمان
 .. محاذاةً حادة. خطوة واحدة خاطئة وينتهيان إلى السقوط والارتطام
 .. إلى عمق متر في الأسفل. جزمة أيتور، وهي مثل نظارته، كانت من
 .. ملكات ضابط معادٍ قُتل في معركة، وكانت مهترئة، لكنها توفر له حماية
 .. اسمل من حذاء المدينة الذي تشتمله روزر. بعد وقت قصير، لم يُقد أي
 .. هما يشعر بقدميه. كان الجبل الهائل، شديد الانحدار، الأبيض بالثلج،
 .. حسب متوعدًا في مواجهة السماء النفسجيّة. خشي أيتور أن يكونا قد
 .. إلى الطريق، وأدرك أنهما سيجتاحان، في أفضل الحالات، عذّة أيام
 .. الوصول إلى فرنسا، ولن يتوصلا إلى ذلك ما لم يتمكنّا من الانصمام
 .. إلى إحدى الجماعات. لكن بصمت اللحظة التي فكّر فيها بترك الطريق
 .. أمام، ولكنه ظمأن روزر مؤكّدًا لها أنه يعرف تلك الأرض مثل راحة يده.
 .. عند الغروب، رأيا في البعيد بريقًا خافتًا. وببذل آخر جهد بالأس،
 .. مكنا من الاقتراب من معسكر صغير. مبنا من بعيد وجود هياث بشرية،
 .. هفر أيتور أن يجازف حتى لو كانوا من القوميين، لأنّ البديل الآخر هو
 .. مساء الليل مدفونين في الثلج. ترك روزر خلفه، واقترب متسلًا إلى
 .. أن تمكن من أن يرى، على ضوء موقد صغير، أربعة أشخاص نحيفين،
 .. لمحين، يلبسون أسمالًا، وأحدهم مضمد الرأس. لم تكن لديهم أحصنة
 .. ولا جزمات عسكرية ولا خيام ميدانية، لقد كانوا أشخاصًا مهلهلين، لا

يبدو عليهم أنهم جنودٌ معادون، ولكن يمكن لهم أن يكونوا لصومًا أو قطاع طرق. وعلى سبيل الاحتياط، جهّز مدّسه المختبأ تحت معطفه، وهو «لوجير» ألماني الصنع، يُعتبر كنزًا حقيقيًا في تلك الأزمنة، وكان قد حصل عليه قبل شهر في إحدى مقايضاته العجيبة. ونفّذ بحركات مسالمة. أحد الرجال الأربعة، وكان مسلحًا ببندقية، تقدّم للقائه، يتبعه على بعد خطوات اثنان آخران لحماية ظهره ببندقيتين، وكانا حذرين ومرتابين مثله هو نفسه. راز كلٌّ منهما الآخر عن مسافة معينة. وفي إيماءة هاجس قلبي، كلّمهما أيتور بالكتلاتية والأوسكيرا (الباسكية): «*Bona nit! Kaixo! Gabon!*». ساد صمتٌ بدا له ألدّ، ثم رُحِبَ به من بدا أنه القائد بعبارة مفتضية: «*Ongi etorri, burkide!*». فأدرك أيتور أنهم من رفاقه، وأنهم منشقون عن الجيش بكل تأكيد. تراخت ركبته من الراحة. اقترب الرجال منه، أحاطوا به، وعند رؤيتهم بملوكة المسالم حيّوه بالتربيت على ظهره. «أنا إيكبي، وهذا هما إيراز وشقيقه جولين»، قال من يحمل البندقية. وبدوره، قدّم أيتور نفسه، وأوضح لهم أنه يمضي برفقة امرأة حبلى، هرافقوه للبحث عن روزر. اقتادها اثنان منهم شبه محمولة إلى مخيمهم البائس، ولكنه بدا مترفًا للقادمين الجدد، لأنّ هناك سقفًا من قماش خيمة، وضوءًا وطعامًا.

منذ تلك اللحظة، صار وقتهم يمضي في تبادل الأخبار السيئة ونقاسم محتويات غلب حمّص يستخونها على النار، والقليل من الخمر المتبقّي في زمرية أيتور الذي قدّم لهم أيضًا لحم البغلة وفُطع خبز كانت في جعبته. «احتفظ بمؤنّتك، لأنكما ستكومان بحاجة إليها أكثر منّا»، قرّر إيكبي. لكنّ أيتور أصبّر على المساهمة في الضيافة المسخية، فقدّم إليهم تبغ. في السنتين الأخيرتين، لم يَكنْ هنالك من يدخّن السجائر، التي تأتي مهربة، سوى الأثرياء والقادة السياسيين؛ أمّا الآخرون فكانوا

،كنتمون بخلطة من الأعشاب الجافة وعرق السوس، وكانت تلك السجائر
 سلاشى في سجة واحدة. تلقى أولئك الرجال كيس نيج أبتور بوقار
 دني. لثقوا سجائر منه ودخنوا بانشاء، وبصمت. أثا روزر، فقدموا إليها
 حبة من الحمص، وتركوها تستريح في الخيمة المرتجلة، ومعها قارورة
 ماء ساخن لتدفئة قدميها شبه المتجمدين. وبينما هي تستريح، حدث
 انور مضيقه عن الهزيمة الروسية للجمهوريّة، وعن فوضى الانسحاب.
 تلقى الرجال الخبر من دون أن يبوا بيت شقة، لأنهم كانوا
 متوقعون ما حدث. فقد خرجوا أحياء من غيرنيكا التي فصقتها طائرات لواء
 دوندور المرهوبة، والتي دمرت البلدة الباسكية التاريخية، مخلقة الموت
 والخراب، وقد نجوا كذلك من النيران التي سببتها القنابل الحارقة في
 العابات القريبة التي التجأوا إليها. لقد فالتوا حتى اليوم الأخير ضمن
 جماعة جيش أوزكادي الباسكية أثناء معركة بيلباو. وقبل سقوط المدينة
 في يد العدو، نظمت القيادة العليا الباسكية عملية إجلاء المدنيين نحو
 فرنسا، بينما واصل الحنود خوض الحرب موزعين في عدة كتائب. بعد
 عام من هزيمة بيلباو، علم إيزان وجولين أن أباهما وشقيقهما الأصغر،
 السجيين في سجون فرانكو، قد أعدما رميًا بالرصاص، وأنهما الشخصان
 الوحيدان الناجيان من أسرة كبيرة العدد. عندئذ، قررا الانشقاق عن
 الجيش فور توافر الفرصة لهما؛ لقد فقدت الديمقراطية والجمهوريّة
 والحرب معانيها، ولم يعودا يعرفان لماذا يقاتلان. هاما على وجهيهما في
 نابات وجبال وعرة، من دون أن يتوقفا سوى بضعة أيام قليلة في المكان
 صه، تحت إشراف إبكي المتكتم، والذي يعرف جبال البيرنيه جيدًا.
 في الأسابيع الأخيرة، ومع اقتراب النهاية الحتمية للحرب، التقوا
 رجال آخرين هاربين. لم يكن ثمة نجاة في أي مكان. ففي فرنسا، لن

يعاملوهم بالتقدير الواجب كجيش مهزوم أو كمقاتلين منسحبين، بل إنهم لن يعاملوا كذلك كلاجئين، وإنما كمنشقين. سيجري اعتقالهم وترحيلهم إلى إسبانيا، إلى يدي فرانكو. ولأنه ليس ثمة مكان يستطيعون الذهاب إليه، كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر في جماعات صغيرة، بعضهم يخبئ في كهوف أو في أراضٍ عصية لا يمكن ارتيادها، للنجاة، ريثما تعود الأوضاع إلى طبيعتها؛ وبينما أصروا آخرون بتصميم انتحاري على مواصلة القتال في حرب عصابات ضد قوة الجيش المنتصرة، كانوا يرفضون الاعتراف بالهزيمة النهائية للمثل الثورية التي ضحوا طويلاً في سبيلها، ولا يمكن لهم بأي حال كذلك أن يتقبلوا أن تلك الأفكار والمثل لم تكن سوى أضغاث أحلام. ومع ذلك، لم تكن هذه هي حال أولئك الرجال الذين في الجبل، من فقدوا الأمل في كل شيء، ولا حال إيكبي الذي لم تغد يهته شيء سوى البقاء على قيد الحياة، ليجتمع شمله ذات يوم مع امرأته وأبنائه.

الرجل ذو الرأس المصعّد، والذي يبدو فتياً جذاً، ولم يكن يشارك في الحديث، تبين أنه أستوري أدت جراحه إلى إصابته بالصمم والاضطراب الذهني. وبين ملاحزة وأخرى، كان الآخرون يوضحون لآيتور أنهم لا يستطيعون التخلص منه، مثلما هي رغبتهم، لأنه يتمتع بقدرة رائعة في الرماية، ويمكن له أن يصيب أرنباً برتاً بطلقة واحدة وهو مغمض العينين، لا يضع طلقة واحدة دون جدوى. وبفضله، يستطيعون تناول اللحم بين حين وآخر. ولديهم، عملياً، بضعة أرانب جاهزة لمقايضتها بمؤن أخرى مع الجبلي الذي سيصل في اليوم التالي. لم يفت آيتور ملاحظة الرقة الفظة التي يعاملون بها الأستوري، كما لو أنه صبي أبله. وقد افترضوا أن آيتور وروزر زوجان، فأجبروا آيتور على أن

«... مكانًا في الحيمة إلى جوار امرأته؛ مما أبغى اثنان منهم في العراء.
«الـ١٠. «سوف نتناوب». ورفضوا كذلك أن تكون هنالك مناوبة لأيتور،
«الذين. أي نوع من الضيافة ستكون هذه إذًا!

استلقى أيتور إلى جانب روزر، فتكثرت هي على نفسها، محاولة
«... إانة بطنها، ونام وراءها مختنئًا إياها لصحها بعض الدفء. كانت
«... طامه تؤلمه، وكان مخدّرًا من البرد، ويحشى على أمن، بل وعلى حياة
«... الأم المستقبلية. لقد كان مسؤولًا عنها، مثلما وعد فيكتور دالماو. في
«... الصعود الثاني في الجبل، أكّدت له روزر أنّ لديها قانصًا من القوة،
«... إلى عليه أن يلقى بسببها! «لقد ترعرت في منطقة جبلية، يا أيتور،
«... أن أرمي الماعز في الشتاء والصف. إنني معتادة على سوء المناخ.
«... عطش أنني أتعب بسهولة». لا مدّ أنها استبغت إلى ذعره، لأنها أمسكت
«... ووضعنها على بطنها كي يشعر بالحركة. وقالت وهي تشاءب: «لا
«... إلى. يا أيتور، هذا الطفل في مأمن وفي أقصى سعادة ممكنة». عندئذ
«... انذ من ذلك الباسكيّ العرج والشجاع، الذي رأى الكثير من السرور
«... المعاناة، والكثير من العنف والحبث، إلا أن انخرط في البكاء خفية
«... به بخين وجهه في قذال تلك الشابة التي لن ينسى رائحتها. بكى من
«... إاه، لأنها لم تكن تعرف بعد أنها أصبحت أرملة، وبكى من أجل ولبام
«... ي لن يعرف ابه أبدًا، ولن يعود لمعانقة عروسه، وبكى من أجل
«... الذي التي ذهبت من دون أن تؤدّع، وبكى على نفسه، لأنه كان متعبًا
«... إذًا، وفي شكّ لأوّل مرّة في حياته بخسن طالع.

في اليوم التالي، جاء الجبليّ الذي كانوا ينتظرونه في وقت مبكر،
«... سل بخطى بطيئة على صهوة حصان هرم. قدّم نفسه باسم آنخل،

رهن أوامرهم، ثم أضاف أن الاسم يناسب تمامًا، لأنه ملاك الهارب، والمنشقين. وكان يحمل معه المؤن الضرورية، وبعض الخرطوش من أجل البارودة وزجاجة خمر، تنفع في تخفيف الضجر، وتنظيف جروح الأسنوري. عندما استبدلوا ضماداته، رأى أبور أن هناك حرجًا عميقًا. وأن الجمجمة غائرة. وفكر في أن البارودة الشديدة هي التي أدت إلى التهاب الجرح؛ ولا بد أن هذا الرجل من حديد ليتمكن من البقاء حيًا وهو على تلك الحال. أكد لهما الجبلي خبر أن فرنسا قد أغلقت الحدود، وأن ذلك حدث منذ يومين، وأن هناك مئات آلاف اللاجئين المحتجزين، ينتظرون وهم أشبه بالموتى من البرد والجوع، وأن حُرمانًا مسلحين يمنعونهم من المرور.

قال أنخل إنه يعمل راعيًا، ولكن أبور لم يُخدع بكلامه؛ إذ كان له مظهر مُهرَّب، مثلما كان أبوه، وهذه مهنة ندرًا أربابًا أكثر من رعاياه الماعز. وبعد توضيح هذه النقطة، تبين أن الجبلي يعرف إيلزا الأم، وقال إن جميع أبناء المهنة في هذه الأنحاء يعرفون بعضهم بعضًا. فالممرات الجبلية قليلة، والمصاعب كثيرة، والمناخ مخيف جدًا مثل السلطات على جانبي الحدود. وفي مثل هذه الظروف، يكون التضامن أمرًا لا بد منه. «لسنا مجرمين، إثننا نقدم خدمة ضرورية، مثلما لا بد أن يكون أبوك قد بين لك، ثم أضاف: إنه قانون العرض والطلب». أكد لهما أنه كان من المحال الوصول إلى فرنسا من دون دليل، لأن الفرنسيين قد عززوا الحراسة على الممرات الحدودية، وأنه عليهما الآن أن يسلكا دربًا سرّيًا وخطيرًا في جميع الأوقات، ولكنه يكون أشد سوءًا في الشتاء. هو يعرف الطريق جيدًا، لأنه استخدم هذا الطريق عند بدء الحرب لافتياد متطوعين أمميين إلى إسبانيا. «لقد كانوا شبانًا جيّدين أولئك الأجانب، لكن كثيرين منهم كانوا فتية مدللين من أبناء المدن، وقد تخلف بعض

دست أقودهم وصلّوا في الطريق. فمن يتخلف أو يستقط منذ المبداءة،
 «إن هناك». عرض عليهما أن بقودهما حتى الجانب الآخر، ووافق على
 ما فعلا به بالعملة الفرنسيتة. وقال لأيتور: «يمكن لأمرائك أن نمضي
 إلى حصاني، ونراقفها نحن مشبعا على الأقدام».

وعند الضحى، بعد تناولهم مشروبا يديلا عن القهوة، ودّع أيتور
 الرجل، وواصل رحلتهم. تبهما الدليل إلى أن المبرر يستمر
 «الما هناك ضو»، وإذا ما تحفلا من دون توقّف أكثر ممّا هو ضروري،
 «يكون بإمكانهم قضاء الليل في ملجأ للرعاة. كان أيتور يراقبه بحد،
 «سنة أن يسطو عليهما. ففي تلك العزلات، في أراضٍ مجهولة. يمكن
 أن يذبح كليهما وكانت الغنمة الأثمن من النقود هي مدسه،
 «تبه منعقدة الاستعمالات، وجرمنه. والعبادة القسائنية. ساروا
 «أفات وساعات. مبللين. يعانون البرد، مستغدي القوى، غاطسين في
 «البحر وكانت زوزر تمشي كذلك لمسافات طويلة من أجل التخفيف
 من الحصان الذي كان صاحبه يهتم به كما لو أنّه قريب عجوز. توقّفوا
 «س للراحة، وكانوا يشربون ثلجا مذابا، ويأكلون مقابا من لحم البقلة
 «الحبز. عندما بدأ الصّلام يخيم، وانخفضت درجة الحرارة إلى حدّ ما
 «مادوا قادين معد على فتح عيونهم بسبب الصقيع على أجنانهم. أشار
 «دحل إلى صخرة عالية في البعيد. إنه المطبخ الذي حدّتهم عنه.

تبين أنّها فتحة صخرية طويلة كما لو أنّها من أجزء، لها فتحة ضيقة بلا
 «أ. أدخلوا إليها الحصان بالقوة للحيلولة دون تجسّده في الخارج. كان
 «المراع في الداخل دائريًا ومنخفض السقف، وأكثر اتساعًا ودفئًا ممّا يبدو
 «أله من الخارج. وكانت هناك صمغ قطع من الحطب، وأكوام من القش،
 «دلو كبير فيه ماء، وأمان ووضع أوان مطبخية. أشعل أيتور نارًا لطبخ

أحد أرزني أنخل، كما أخرج من جرابه بعض اللحم المقدّد، وجنّا قاسنا، وخبزًا أسمر وبابًا، ولكنّه أفضل من خبز الحرب الذي كانت تخبزه روزر في المخبز بيرشلونة. بعد أن تناولوا الطعام وعلقوا الحصان، استلقوا على القشّ متدثرين بالأغطية، ومستضيئين بالنار. «غداً، عندما يغادر هذا المكان ستركه مثلما وجدناه. يجب أن تقطع حطبًا، ونملأ الدلو بالثلج وهناك أمر آخر، أيّها الغوداري⁽¹⁾، لا حاجة بك إلى السلاح، يمكنك أن تنام مطمئنًا. فأنا مهزّّب، ولكنني لست قاتلًا»، قال أنخل.

استمرّ اجتياز جبال البيرينيّه نحو فرنسا ثلاثة أيّام طويلة لبليالها، ولكنّهم لم يضلّوا الطريق بفضل أنخل، ولم يضطّروا إلى النوم في الحراء. فمير كلّ يوم كان ينتهي بمكان يقضون الليل فيه. اللّيلة الثانية، كانت في كوخ يسكنه فحّامان وكلب له مظهر المذنب. المرجلان اللذان يكسبان عيشهما من جمع الحطب ليصنعا منه فحمًا كانا جلفين وغير مضباقيين. ولكنّهما استضافاهم مقابل أجر. «حذار من هذين الشخصين، أيّها الغوداري. إنّهما إيطاليّان»، قالها أنخل منبّها آيتور على انفراد. فكان ذلك نبيّها للباسكيّ للتواصل معهما من خلال نصف دسته الأغنيات الإيطاليّة التي يعرفها. وبعد أن تمّ تجاوز الارتباب الأولي، أكلوا وشربوا وبدأوا يلعبون بأوراق لعب مهترئة جدًّا. تبين أنّ روزر لاعبة لا تنافس، إذ كانت قد تعلّمت لعبة التوتي، وأساليب الغش في مدرسة الراهبات. وقد بدا ذلك ظريفًا جدًّا لمضيفيهما اللذين عسرا بطيبة خاطر قطعة لحم مقدّد يابسة راحنا عليها. نامت روزر مستلقية على أكياس موضوعة على الأرض، وأنفها مدفون في وبر الكلب القاسي، وكان الكلب قد تكوّر على

(1) غوداري gudari: الكلمة باللفّة الباسكيّة، وتعني: جندي أو مقاتل.

حانها بحثاً عن الذئب، وعندما استيقظت في الصباح، قتلت
 مئاس من وجهيهما ثلاث مِرات. مثلما هو الوداع الحثيفي، وقالت
 إنها ما كانت تشعر بعزل هذه الراحة حتى لو نامت على فراش
 الرمش. وقد رافقهم الكلب لمسافة لا بأس بها، ملتحقاً بكفي روزو.
 من مساء يوم المير الثالث، أحبرهما أنخل أنه عليهما ابتداء من
 المكان أن يواصل التقدّم بمفردهما، وأنهما صاراً في مأمن، وأن بقية
 من سي تكون بزولاً. «واصل الشير على الحافة الجبلية. وسنجدان أفاض
 رمي. يمكنكما قضاء الليل هناك». أعطاهما بعض الخبز والجبن،
 ثم أحره نقداً، وتبادلوا الوداع بعناق مغضب. «امراتك تساوي وزنها
 .. ألبا القودازي، حافظ عليها. لقد عملت دليلاً لساعات الرحال، ابتداء
 من مجربين حتى أشخاص مجربين، ولكنني لم أجد من يتحمل
 دون أي شكوى مثلاً. وهي بهذه البصيرة. وهذه ميزة أكبر لها».

عند اقترابهما من البيت المهذّم، بعد ساعة من المسير، خرج
 مئاس من بعيد رجل مسلح ببنقفة. فتوقفا هادئين، وحسباً أنفاسهما. كان
 يرتدي العسكس مجهّزاً وراء ظهره. وخلال لحظات بدت لانهائية،
 «كلُّ منهما يتأمل الآخر، تفصل بينهما مسافة خمسين متراً تقريباً،
 أن تقدّمت روزو خطوة إلى الأمام، وصاحت قائلة: إنهما لاجثنان.
 «ابتدأ، أخفض الرجل سلاحه بعد أن تأكد أنها امرأتان، وأن القادمتين
 العديدين مرعوبتين أكثر منه، وناداهما بالكتلائية «*Venit, venit, nos*
 «*aus furem rei*». ثم قال لهما إنهما ليا أول ولا آخر لاجثنين يمرّون
 هناك، ثم أضاف أن ابنه قد ذهب أيضاً في ذلك الصباح بالذات

«العبارة بالكتلائية: «نعم، نعم»، لأن السبب لكما أتى أدنى».

إلى فرنسا خوفاً من أن يفيض عليه أتباع فرانكو. اقتادهما إلى -
خرب، أرضيته ترابية وبنيته نصف سقفة، وقدم لهما فضلات مؤفة.
واستطاعا أن يستلقيا على فراش باليس، لكنه نظيف. حيث كان يتم إيه
بعد ساعات قليلة من ذلك، وصل ثلاثة إسبان آخرين، وقد استقبلوه
أيضاً ذلك الرجل الضيق. وعند العجزة، قدم لهم ماء ساخنًا مع ملح
وقطع بطاطا، وبعض الأعشاب التي تساعد، بحسب قوله. على تحمّل
البرد. وقبل أن يذللهم على الضيق الذي عليهم أن يظلوا فيه، قدم إلى
دور حصة مكعبات من السكر. هي آخر ما لديه. لتحلية رحلة القتل

انضمت الجماعة بقيادة أينور وورر، وبدأت المسير باتجاه الحدود
مسيرهم حيلة النهار. ومثلهم أخير هم ذلك الكتلتاني الذي قدم لهم
المأوى. وصلوا عند انغروب إلى قمة ظهرت لهم سها فحاة بعض البيو -
المضادة، فعرفوا أنهم صاروا في فرنسا. لأن لا أحد في إسبانيا يشعل أنارا
محافة لتعرض لنصف الطائرات. وصلوا فنزلوا في ذلك الاتجاه حتى
بلغوا طريقاً عاماً، وما إن ساروا مسافة قصيرة حتى ظهرت لهم شاحنة صغيرة
نايعة لقوة الحرس الرئاسي الفرنسي. فسلموا أنفسهم لهم بكل رضى. لأنهم
صاروا في فرنسا المتضامنة. فوال الحرية والمساواة والأخوة. فرنسا التي
فيها حكرمة يسارية يرأسها اشتراكي. فنشهم الشرطيون بنظافة. وانتزعوا
من أينور المسدس والسكين متعددة الاستخدامات، والفتيل القليلة
المتبقية معه. لم يكن إلا سبال الآخرون يحملون أسلحة. اقتادوهم إلى
مستودع. عنبر مطعنة حبوب يستخدمونه كمأوى للأجبيين الذين كانوا
ينوافدون بالمشات. كان المكان مكتظاً بالناس رجال ونساء وأطفال
يتزاحمون خائفين، جالعين، محتقنين لعدم وجود تهوية، وبسبب غبار
طحن الحبوب الذي يطفو في الجو. ومن أجل إطفاء الظلم، كانت هناك

هذه بيوتات ماء مشكوك في نظافته. وبدلاً من المراحيض، كانت توجد
 -مر خارج العنبر حيث عليهم أن يفرصوا تحت الحراسة. النساء كن
 -يكبن من المهانة، بينما الحراس يسخرون منهن. أصر أبوتور على مرافقة
 -وزر. وحين رأى الحراس بطنها يهتز متأرجحاً، سمحوا لهما. وبعد ذلك،
 -سماهما يفرصان في أحد الأركان، تقاسما قطعة الخبز الأخيرة واللحم
 -المفدّد المتبّس الذي حصلوا عليه من الإيطاليين، بينما هو يحاول
 -ممايتها من الحشد، ومن نوبات اليأس التي تنفجر فجأة بين المحتجزين.
 -سرت شائعة بأن هذا المكان موقع انتقال، وعمّا قريب سيجري اقتيادهم
 إلى مركز تجميع إداري. لكنّهم لم يعرفوا ما الذي يعنيه ذلك!

في اليوم التالي، حملوا النساء والأطفال في شاحنات عسكرية
 -تت مشاهد هلع بين العائلات، فكان على الجندمة أن يفصلوا بينهم
 -بالصرب بالهراوات. عانقت روزر أبوتور، وشكرته على الكثير الذي فعله
 -من أجلها، أخذت له أنها ستكون على ما يرام، وخرجت مشحمة نحو
 -الشاحنة بالطمأنان. «سوف أبحث عنك، يا روزر، هذا وعد»، تمكّن أبوتور
 -من القول لها صارخاً قبل أن يخرّ على ركبتيه عاصباً، ومطلقاً اللعنات.

بينما كانت أعداد كبيرة من السكان المدنيين تهرب كيغما
 -استطيع باتجاه الحدود مع فرنسا، تتبعهم بقايا الجيش المهزوم،
 -وان فيكتور دالماو والأطباء لا يزالون في مراكز عملهم، وكان بعض
 -المنطّوعين ينقلون الجرحى من المستشفى في قطارات وسيّارات
 -إسعاف وشاحنات. كانت الظروف حرجية ومضطربة إلى حدّ أنّ المدير،
 -الذي كان لا يزال على رأس قيادة المستشفى، اضطرّ إلى اتخاذ القرار
 -الذي لم يترك المرضى الذين في حالة حرجية، لأنهم سيموتون على أيّ
 -حال في الطريق، وإفراح مكان في السيارات لأولئك الذين لديهم

أمل بالبقاء على قيد الحياة. وقد نُقلوا مكذّسين في عربات فضاء لشحن
 الماشية وفي سيارات متخلّعة، مطروحين على الأرض، متحمّدين من
 البرد؛ مُرعزين، وبلا أغذية. أمّا المقاتلون الذين أُجريت لهم عمليات
 جراحية للنز، والجرحى، والعميان، وميتورو الأعضاء، والمحمومون
 بالنيغوس أو الديزنطاريا أو الفرغريثا، فغادروا. العاملون في الجهاز الضيّق
 الذين لم تُعدّ لديهم وسائل لتخفيف المعاناة، ولم يعودوا قادرين على
 تقديم ما هو أكثر من الماء، أو كلمات مواساة أحياناً، إذا ما طلب منهم
 أحد المحنضين أن يُصلّوا من أجله.

لقد أمضى فيكتور أكثر من سنتين وهو يعمل جنباً إلى جنب مع
 الأطباء، أوسع منه خبرة؛ وقد تعلّم الكثير في جبهات القتال، وتعلّم أكثر
 من ذلك في المستشفى، حيث لم يُفدُ هناك من يسأله عن مؤخراته،
 الدارسية، مما كان يؤخذ في الاعتبار هناك هو الانكباب على العمل. بل
 إنّه هو نفسه كان ينسى أحياناً أنّه لا تزال تنقصة سنوات دراسية من أجل
 التخرج، ويتظاهر بين المرضى بأنّه طبيب كي يمنحهم إحساناً بالأمور.
 لقد رأى جراحاً فظيعة، وشهد عمليات بنز من دون تخدير، وساعد
 عددًا من المصابين عائري الحظّ على الموت، وكان يظنّ أنّه صار له
 جلد تمساح لقدورته على تحمّل كل ذلك العنف وتلك المعاناة. ولكن
 ذلك الطريق المأساوي في عربات القطار الذي كلفوه به حطّم حزمه
 كانت القطارات تصل حتّى خيرونا، وتتوقّف هناك بانتظار وسائل نشر
 أخرى. وبانقضاء ثمان وعشرين ساعة بلا طعام ولا نوم، وأثناء محاربه
 تقديم ماء الشرب لفتى مرّاق كان يُحتضر بين ذراعيه، انفجر شيء في
 صدر فيكتور. فدمدم «لقد انشطر قلبي». في تلك اللّحظة، أدرك المعنى
 العميق لهذه الجملة، وتخيّل إليه أنّه سمع صوت زجاج ينكسر، وأخبر
 بأنّ جوهر كيانه ينسكب ويتحوّل إلى خواء، بلا ذاكرة من الماضي، وبلا

مي للحاضر، وبلا أمل بمستقبل. وتوصل إلى أنه لا بد أن يكون هذا
 هو الذهاب في الدم، مثلما حدث لرجال كثيرين لم يتمكن من إنقاذهم.
 ١٠ من الألم، كثير من الدنائة والخشنة في هذه الحرب بين الأخوة؛
 أربعة أفضل من مواصلة القتل والصوت.

كانت فرنسا تراقب بدع كيف كانت تتجمع على الحدود حشود
 عائله محيطة، نازحون نكاد نعجز عن كبجهم بعكرتها الملحين
 ، حدود، مستعمراتها المخيفين من سنغاليين وجزائريين، على الخيول،
 ، انهم وينادفهم وسياطهم. كانت البلاد قد فاضت بذلك النروح
 : جماعي غير المرغوب فيه، مثلما جرى تصنيفهم رسميًا. في اليوم
 . ا.ث. وحيال الصخب الدولي، سمحت الحكومة الفرنسية بمرور
 . ا. والأطفال والمسنين. بعد ذلك، راح يدخل من تبقى من
 ، بين، وأخيرًا دخل المقاتلون الذين كانوا يعزّون في آخر حالات
 : دوع والإنهاك، ولكنهم كانوا يصدحون بأغنياتهم وهم يرفعون قبضاتهم
 : ا. بعد أن تركوا أسلحتهم. تشكلت نلال من البنادق على جانبي
 "مارني. وجرى اقتبادهم شيئًا على الأقدام، في ميرات إجبارية،
 : "ربيعهم على عدة معسكرات تجميع مرتحلة، أقيمت على عجل من
 : ا.ل كبح الإسبان. وكان الحراس على الخيول يحثّونهم: "Allez! Allez!
 : "Allez!، يتوعدّ وشتائم وضرب بالسياط.

وعندما لم يُعد هناك من يتذكّرهم، راحوا يحضرون الجرحى
 : ا. القين أحياء. وكان معهم فيكتور وقلة من الأطباء والممرضين الذين
 : ا.هم إلى هناك. وقد دخلوا إلى فرنسا بسهولة أكبر من موجات
 : ا. اثنين الأولى، ولكنهم لم يجدوا احتضانًا أفضل. فكثيرًا ما كان

١٠٠ بالفرنسية في الأصل، ونعني: هيا، تعزّك... بسرعة

البحر حتى يمالجون بصورة سيئة في مدارس ومحطات قطارات، وحتى في الشوارع، لأنَّ المستشفيات المحلّية لم تكن كافية، ولم يكن هناك من يريدهم فيها. لقد كانوا أشدَّ المحتاجين بين الجموع «غير المرغوب» فيها، سمحوا ليفكتور بالبقاء للعناية بالرجال الذين كانوا تحت رعايته. وهكذا، استطاع التمتع بحرية نسبية.

بعد الفصل بينها وبين أيتور إيبازا، جرى اقتياد روزر مع نساء أخريات وأُطلقا إلى منخيم أرجيليه - سور - مارا، على بُعد خمسة وثلاثين كيلومتراً من الحدود، حيث كان قد وصل عشرات آلاف الإسبان. كان المكان عبارة عن شاطئ مبيج، وخاضع لحراسة الجندرية وفوات من السنغاليين. رمال وبحر وأسلاك شائكة. أدركت روزر أنّهم أسرى مهجورين لمصيرهم، وصمّمت على العيش بأيّ حال؛ فإذا كانت قد تحمّلت مشقة اجتياز الجبال، فسوف تتحمّل ما سوف يأتي، من أجل الطفل الذي تحمله في أحشائها، ومن أجلها هي نفسها، ومن أجل الأمل بالاجتماع بوليام. كان اللاجئون يظّلون في المراء، معرضين للبرد والمطر، ومن دون أدنى شروط النظافة؛ لم تكن هناك مراحيض ولا ماء يصلح للشرب. فمن الأبار التي يحفرونها كان يخرج ماء مالح، عكر وملوث بالبراز والبول وبالجثث التي لا يتمّ سحبها بسرعة. كانت النسوة يجتمعن في جماعات مترامصة للدّفاع عن أنفسهنّ من الاعتداءات الجنسيّة التي يقوم بها الحراس وبعض اللاجئتين، فبعد أن فقدوا كلّ شيء، لم يُعَدّ لديهم حتّى الوفاة. حفرن روزر حفرة بيديها لنام فيها وتحتمي من ريح الشمال، وهي ربيع جليده، تحمل معها رمالاً نمرّق الجلد، وتسمي العيون، وتدخل في كلّ مكان. وتسبّب قروحاً لا تلبث أن تلتهب. كانوا يورّعون مرّة في اليوم حماء عديم. كثير الماء، ويقدمون في بعض الأحيان قهوة باردة، أو قُفُر شاحنة يرمون

.. وأرغفة خبز. فكان الرجال يتصارعون حتى الموت من أجل الإمساك
 . مع منها؛ وتتلقى النساء وكذلك الأطفال بعض القنات إذا ما تقاسم
 حصص رحيمة حصته معهم. كثيرون كانوا يموتون؛ ما بين ثلاثين وأربعين
 حصصاً كل يوم، بداية كان الأطفال يموتون بالديزنتاريا، وبعدهم يموت
 . استون بذات الرئة، وبعد ذلك بفترة اللاجئيين شيئاً فشيئاً بسبب شح
 . الموارد. وخلال الليل، يقوم البعض بالتناوب من أجل إيقاظ آخرين كل
 دهر دقائق أو خمس عشرة دقيقة كي يتحركوا ويحولوا بذلك دون موتهم
 حينئذ. إحدى النساء، وكانت قد حفرّت جحرها بالقرب من روزر، طلع
 . إليها الصباح وهي تحتضن جثة ابنتها ذات الخمسة شهور. فقد انخفضت
 . حدة الحرارة في الليل إلى ما دون الصفر. حمل لاجئون آخرون جثمان
 . مملوء لدفنه على الشاطئ، في مكان بعيد بعض الشيء. أمضت روزر
 . ذلك اليوم برفقة الأم التي ظلت صامتة، من دون بكاء، ونظرها مصوّب نحو
 . الأمام في تلك الليلة بالذات، ذهبت المرأة حتى ضفة الماء وتوغّلت في
 . البحر إلى أن ضاعت. لم تكن الوحيدة. بعد وقت متأخر جداً، سيستخلص
 . «المالم الحبابات المفروضة» لقد مات قرابة خمسة عشر ألف شخصاً في
 . مخيمات الجوع والحرمان وسوء المعاملة والأمراض الفرنسية تلك. تسعة
 . من كل عشرة أطفال ماتوا.

وأخيراً، نقلت السلطات النساء والأطفال إلى مكان آخر على
 . الشاطئ، مكان منفصل عن الرجال بحاجز مزدوج من الأسلاك الشائكة.
 . كانت قد بدأت بالوصول مواد من أجل إقامة براكات، تولّى اللاجئون
 . أنفسهم بنائها، وأرسلوا عدة رجال لبناء سقف للنساء. طلبت روزر أن
 . تُلهم إلى الضابط العسكري المسؤول عن المخيم، وأقنعت بضرورة
 . «توزيع الأغذية القليلة المتوافرة، كيلا تضطرّ الأمهات إلى التجار

من أجل بعض أرغفة الخبز لأبنائهن. وفي هذه الأثناء، وصلت ممرضتان من الصليب الأحمر لتوزيع لقاحات ومسحوق حليب، مع تعليمات بتصفية الماء بخزق قماشية، وجعله يغلي بضع دقائق قبل استخدامه في تحضير قوارير الرضاعة. وقد أحضرنا كذلك بطانيات، وثباتا سميكة للأطفال، وأسماء عائلات فرسيّة مستعدة لتوظيف إسبانيات كعاملات منزليات أو في صناعات منزليّة. وفي هذه الحالة، بفضلوتهنّ بلا أطفال. ومن خلال الممرضتين، أرسلت روزر خبيرًا إلى إليزابيث إيدنيز، على أمل أن تكون في فرنسا. «أخبروها بأنّي زوجة أخي فيكتور دالماو وأنني حلي».

كانت إليزابيث قد رافقت، في البدء، العقائتين في الحبهة وبعد ذلك، عندما صارت الهزيمة وشيكة، رافقت جموع الهاربين في طريقهم إلى المنفى. اجتازت الحدود بثوبها الأبيض وقبعتها الزرقاء من دون أن يتمكن أحد من توقيفها. تلقت رسالة روزر وسط مئات طلبات المساعدة، وربما لم تكن لتمنحها الأسبقية لو لم تقتن باسم فيكتور دالماو. إنها تتذكّره بنوع من العذوبة، باعتباره الرجل الخجول الذي يحزف الجينار، ويريد الرواج منها. في اليوم التالي لتلقيها الرسالة ذهبت إلى أرجيليه - سور - مار للبحث عن روزر مروجيرا. كانت مطلعة على الظروف المؤسفة في مخيمات التجميع، ولكنها تأثرت بشدة عندما رأت تلك المشاة مشعّثة الشعر والمشخة الشاحبة، مع دوائر ضاربة إلى الزرقة حول عينيها الملتهيتين بفعل الرمل، والنحيلة إلى حدّ يبدو معه أنّ البطن مندلق من الهيكل العظمي. وعلى الرغم من مظهرها، قدّمت روزر نفسها بقامة منتصبّة، وبصوت متماسك وباعتدادها الدائم بنفسها. لم تكشف أيّ كلمة ممّا قالته عن غمّ أو استسلام، كما لو أنّها في حالة سيطرة مطلقة على ظروفها.

- لقد أعطانا فيكتور اسمك، يا آنسة، قال إنه يمكن لحضرتك أن تساعدنا في التواصل كي نجمع شملنا.

- من معك الآن؟

- إنني وحيدة حاليًا، لكن فيكتور وأخاه وليام سيأتيان، ووليام هو والد ابني، ولنا صديق يدعى أبتور إبيازا، وربما والدته فيكتور ووليام أبقيا، السيدة دالماو. عندما يصلون أخبرهم بمكان وجودي، أرجوك. امل أن يعثروا عليّ قبل الولادة.

- لا يمكنك البقاء هنا، يا روزر. إنني أحاول مساعدة النساء الحوامل ومن لديهن أطفال رضع. لا يمكن لأي مولود أن يبقى على قيد الحياة في هذه المخيمات.

أخبرتني أنها قد فتحت بيتًا لاستقبال من سيصرون أمهات، ولكن نطلبات كثيرة والمكان محدود. لهذا، وضعت عينها على قصر مهجور في إيلن، حيث نحلم بإقامة دار أسرة لائقة، تكون واحدة للنساء وأطفالهن وسط كل هذا البلاء والمحن. لا بد من إعادة بعث البناء من الدمار. وهذا يستغرق شهرًا.

- ولكنك لا تستطيعين الانتظار، يا روزر، يجب أن تخرجي فورًا من هنا.

- كيف؟

- المدير يعرف أنك ستذهبن معي. الحقيقة، أن الشيء الوحيد الذي يريدونه هو التخلص من اللاجئين، إنهم يحاولون إجبارهم على العودة إلى موطنهم. وكل من يتمكن من الحصول على حماية أو على عمل، يصبح حرًا. هيا بنا.

- هنا يوجد الكثير من النساء والأطفال، وهناك حوامل بينهن.

- سأفعل ما أستطيعه. سأعود بمزيد من المساعدة.

في الخارج، كانت تنتظرهما سيارتا تحمل شعار الصليب الأحمر قرّوت إليزابيث أنّ ما تحتاج إليه روزر، أولاً وقبل أي شيء آخر، هو وجبة طعام ساخنة، وأخذتها إلى أوّل مطعم ظهر لهما في الطريق. الزبائن القليلون الذين كانوا يتواجدون في ذلك الوقت لم يُخفوا استمزازهم من هذه المنسوّلة كريهة الرائحة التي ترافق الممرضة النظيفّة والمرتبّة أكلت روزر كلّ الخبز الموجود على المنضدة قبل أن يصل الفروج المطهو كمراً في بُعّاره. كانت الممرضة السويسريّة الشابة تقود السيّارة كما لو أنّها درّاجة، نعّضي في مسار متعرج بين السيّارات، وتصعد على الأرصفة متجاهلة بتكبر تقاطعات الطريق وإشارات المرور التي تعتبرها مسألة اختياريّة! وهكذا، وصلنا خلال وقت قصير جداً إلى بيرمينان. أوصلت روزر إلى دار تُستخدم كمركز للأومة، حيث كانت هناك ثمانى نساء شابات، بعضهنّ في شهور الحمل الأخيرة، وأخريات يحملن بين أذرعهنّ صغارهنّ حديثي الولادة. استقبلوها بذلك النّأثر الخالي من تصنّع المشاعر الذي يميّز الإسيان. قدّمن لها منشفة، وحاسوباً وشامبو ووجهوها نحو الدوش لتستحمّ، وانهمكن أثناء ذلك في الحصول لها على ملابس. بعد ساعة من ذلك، مثلت روزر أمام إليزابيث نظيفة، بشعر مبّلل، ترتدي تنّورة سوداء، وحلباناً قصيراً من الصوف يغطّي بطنها. وحذاء ذا كعب. وفي تلك اللّيلة بالذات، أخذتها إليزابيث إلى حيث يوجد زوجان من الكويكرز الإنكليزيّ، كانت قد تعاملت معهما في جبهة مدريد، للحصول على أغذية وملابس وحماية للأطفال ضحايا النزاع.

- متبقيين معهما هنا طوال الوقت الضروريّ، يا روزر، إلى أن تضعي وليدك على الأقلّ. وبعد ذلك، سنرى. إنهم أناس طيّبون. الكويكرز يتواجدون دوماً حيث تكون نعمة حاجة إليهم. إنهم قدّيسون. القدّيسون الوحيدون الذين أحترمهم.

الفصل الرابع

1939

«...في بعضائل صفار البرجوازيين
...الفسواحي
...اللههم.....»

پابلو نيرودا
«ضواحي»، القلب الأصفر

.

تو ایستاده ای و من ایستاده ام
و تو ایستاده ای و من ایستاده ام
و تو ایستاده ای و من ایستاده ام
و تو ایستاده ای و من ایستاده ام

.

غادرت «ملكة الباسفيك» ميناء بالبارايسو التشيلي في بدايات
 شهر أيار/مايو لترسو في ليغربول بعد سبعة وعشرين يوماً. كان الربيع
 في أوروبا يتراجع ليخلي المكان لصيف غير مؤكد، نتوَّعه طول
 حرب لا سبيل إلى تجنبها. قل بضعة شهور من ذلك، كانت القوى
 ملهى الأوروبية قد وقعت اتفاقيات ميونخ التي لم تكن لدى هتلر
 رايوايا للالتزام بها. كان العالم الغربي يراقب مشلولاً تنفُّد النازيين
 «أولمبي». أمّا على متن «ملكة الباسفيك»، فكانت أصدااء النزاع الذي
 حرب تُكتم مع ذلك، بسبب بُعد المسافة وضجيج محركات الديزل
 التي تدفع تلك المدينة الطافية، والتي تزن 17702 طنًا عبر محيطين
 اثنين. بالنسبة إلى مسافري الدرجة الثانية - وعددهم 162، ومسافري
 الدرجة الثالثة الـ 446، كان مدّة الرحلة تبدو طويلة؛ أمّا مسافرو الدرجة
 الأولى، فكانت إزعاجات الإبحار تتلاشى في الأجواء الراقية، حيث
 من الأيام طيرانًا، وحيث لا يُمكن لدافع الأمواج أن يؤثّر على متعة
 الرحلة. في الطبقة العليا، تكاد لا تُسمع ضجّة المحركات؛ فهناك تهيم
 على الجو أنغام موسيقى الخلفيّة اللطيفة، والأحاديث المتبادلة بلغات
 ألماني وثمانين مسافرًا، وحركة ذهاب البحارة والضباط ومضيفهم
 الألبس من الرأس حتى القدمين، وعُمال الخدمة بزيمهم الموحد ذي

الأزوار المذهبة، وفرقة أوركسترا، ورباعي آلات وترية، والرتين المتواصل.
لكؤوس الكريستال، وأواني البورسلين وأدوات المائدة الفضية. وام
يكن المعطخ يهدأ إلا في أشد ساعات الظلمة التي تسبق الفجر.

في الجناح المؤلف من حجرتين، وحمامتين، ومسالمة وشرية.
كانت لورا دل سولار تثر وتناؤه وهي تحاول أن تحشر نفسها في مساحة
مطاطية مرن، بينما بدلة الرقص تنتظرها فوق الفراش. إنها مختصص
لهذه الليلة بالذات، الليلة ما قبل الأخيرة في المرحلة، حيث يتباه
ركاب الفرجة الأولى بما هو أشد أناقة في صناديق أمتعتهم، وتتباه
نساؤهم بعجوهرانهم. ثوب لورا ذو الثنيات، تصميم شانيل، موصى عليه
من بوبس أيرس، وقد عمدت خياطتها في سنتياغو إلى إضافة سبعة
ستترات عند حذ الخياطة، ولكن بعد عدة أسابيع من الإبحار، ضاع
عليها. وفي المرأة التي من زجاج مشدود الحواف، كان زوجها إيسيدرو
دل سولار، يضبط وضع ربطة العنق البيضاء على بدلة الإينكيت بمزاج
راض. إنه أقل شراهة وأكثر انضباطاً منها، يحافظ على وزنه، ويبدو وسيماً
وهو في التاسعة والخمسين. لقد تغير قليلاً فقط خلال السنوات التي
مضت على زواجهما، خلافاً لحالها، إذ إنها تشوهت بفعل الأمومة
واكتارها من الحلوى. جلست لورا منمومة على المتكأ المتجدد بقماش
الغوبلان المنسوج يدوياً، برأس منح وتفتين منهذلين.

- ماذا جرى، يا لوريتا؟

- أيضاً يترك إذا أنا لم أرافقك هذه الليلة، يا إيسيدرو؟ رأسي يؤلني

انتصب زوجها أمامها بملامح استياء يتوصل بها على الدوام إلى
هزيمة لورا.

- تناولني قرصني أسبرين، يا لورينا. اليوم هو يوم العشاء مع
الطاهن. لدينا منضدة مهتمة، لقد كانت مأثرة كبيرة تُمكنني من رشوة
الخدم للحصول عليها. إننا ثمانية أشخاص، وغيابك سوف يلاحظ
هذا

- أشعر بأنني لست على ما يرام، يا إيسيدرو...

- ابذلي جهدًا. هذا عشاء عمل بالنسبة إلي. سوف نتقاسم
المصدة مع السيناتور ترويبا ورجلي أعمال إنكليزيين مهتمين بشراء
الضرف مني. أتذكرين أنني حدثتك عنهما؟ ولدي عرض من مصنع
لات عسكريّة في هامبورغ، ولكن من الصعب التفاهم مع الألمان.

- لا أظن أن السيدة زوجة السيناتور ترويبا سوف تحضر.

- هذه المرأة غريبة جدًا، يقولون إنها تتكلم مع الموتى، قال إيسيدرو.

- الناس جميعًا يتكلمون مع الموتى بين حين وآخر، يا إيسيدرو.

- يا للحماقة التي نفونينها، يا لورينا!

- لم يقد الشوب بشع لي.

- وما أهميّة بضعة كيلوغرامات إضافية؟ ارتدي ثوبًا آخر. أنت

أنتين جميلة دوماً، قال بيرة من كرر ذلك الكلام نفسه من قبل مئة مرة.

- كيف لمن أسمن، يا إيسيدرو؟ فالشيء الوحيد الذي فعلناه على

هنا السفينة هو الأكل والأكل، ولا شيء سوى الأكل.

- حسن، كان بإمكانك ممارسة بعض النمارين، السباحة في

المسبح مثلاً

- كيف يخطر لك أنني سأقبل الظهور بملابس الاستحمام!
- لا يمكنني إجبارك، يا لوراء، ولكنني أكرر إن حضورك هذا
العشاء مهم جدًا. لا تسبني لي الخرج. سوف أساعدك في تبكيل
الثوب. ضعي عقد الباقوت، سوف يبدو بديعًا.
- إنه فاجر جدًا.

- لا شيء من هذا. إنه عقد متواضع، بالمقارنة مع المجوهرات
التي رأيناها لدى نساء أخريات هنا، في السفينة - جسم إيسيدرو الأمر
وهو يفتح صندوق خزانة بالمفناح الذي يحمله في جيب صدره.

شعرت بالحنين إلى شرفة أزهار الكاميليا في بيتها بسنتياغو،
والى ليوناردو وهو يلعب في ذلك الملاذ الحميم، حيث يمكن لها
أن تحوّل وتصلّي بطمأنينة، محمية من مفاجآت زوجها ونزوات زهوه
الصاخبة. لقد كان إيسيدرو دل سولار هو قدرها، ولكن الزواج يشغل
عليها وكأنه إكراه. لقد اعتادت أن تحسد أختها، تريسا العذبة، الراحة
في دير مغلق، والمتعولة بالتأمل والقراءات الروحية الرحيمة، والتطير
لهرائس المجتمع الرافي. حياة مكروسة للرب، من دون المشاغل التي
نعاني هي منها، وبلا قلق مليوداميات الأبناء والأقارب، والصراع مع
عاملات منزليات، وتبديد الوقت في زيارات، وقيام بالواجب كزوجة
منكرة لذاتها. لقد كان إيسيدرو كلّي الحضور، الكون بأسره يدور حوله.
وفق رغبته ومطالبه. هكذا، كان جدّه وأبوه... وهكذا، هم الرجال جميعًا.

- ادفعي معنوياتك، يا لورينا، قال إيسيدرو بينما هو يحاول
إطباق القفل الدقيق جدًا للجلية التي وضعها حول عنقها. أريد لك أن
تستمعي بالوقت، وأن تظلي هذه الرحلة ذكرى دائمة لا تنسى.

ذكرى خالدة لا تُنسى كانت الرحلة التي قاما بها قبل بضع
وان في عابرة المحيطات نورماندي، التي كانت قد دُشنت للتو،
أمامها الرئيسية التي تُشع لبعثة مدعو، ومصايح ومصادر
أصوات من تصميم لالبيك، وديكور آرت ديكو، وحديقتها الشتائية مع
أصناف الطيور الإكزوتية. وخلال خمسة أيام فقط بين فرنسا ونيويورك،
عاش الزوجان دل سولار ترفاً غير معروف في تشيلي، حيث القناعة
نفس فضيلة. وكلما امتلك أحدهم أموالاً أكثر، يكون أكثر حذراً في
أمر ذلك، والتسبب عليه. كان المهاجرون العرب المعتنقون من التجارة
هم وحدهم من يتباهون بترائهم، ولكن لورا لم تعرف على أحد منهم؛
أولئك الناس كانوا خارج دائرتها، وسيكونون كذلك دوماً. كانت تسافر
عابرة المحيطات نورماندي، تسافر مع زوجها في شهر عسل ثانٍ، بعد
الأطفال الخمسة مع جدتيهما والعرش الإنكليزية والخادمة. وكانت
أحبة المفاجئة هي حبل آخر، في وقت لم تكن تتوقعه. كانت متأكدة
أنهما في تلك الرحلة البحرية القصيرة قد تشبا في الحبل بليوناردو،
والبريء، المسكين، صغيرها! الطفل الذي وُلد بعد عدة سنوات من
ألمها التي كانت حتى ذلك الحين أصغر أفراد الأسرة.

لا يمكن لعابرة المحيطات ملكة الباسفيك أن تُقارَن بنرف
نورماندي وفخامتها، ولكنها ليست سيئة على أي حال. كانت لورا تتناول
المطبخ في الفراش، مثلما هي عاداتها دائماً، وترتدي ملابسها في حوالى
الساعة العاشرة صباحاً من أجل القداس في كنيسة السفينة، ثم تصعد
إلى الشطح العلوي لتشم الهواء، على كرسي الشواطئ المخصص لها،
حتى يأتي نادٍ بحساء لحم جاموس وسندويشات؛ ومن هناك تذهب
إلى مائدة الغداء، أربعة أطباق على الأقل، تلي ذلك ساعة تناول الشاي

مع معجنات وحلويات. نكاد لا تجد وقتاً لنوم القبلولة ولعب بضعة أدوات «كنسة» قبل أن نرتدي ثيابها من أجل الكوكشيلا والعشاء، حيث يكون عليها أن نبسم بلا رغبة، وأن تتظاهر بأنها تستمع لأراء الآخرين بعد ذلك، كان الرقص إجبارياً، لأن إيسيدرو خفيف القدمين وجيد السماع. أمّا هي، فتجرك بتافل فقمع على الرمل. في وجبة منتصف الليل الخفيفة، أثناء توقّف الأوركسترا عن العزف، تُقدّم شطائر فواجر، وكافيار وشمانيا وحلوى. وكانت تمتنع عن تناول الأصناف الثلاثة الأولى، ولكنها لا تستطيع مقاومة تناول الحلويات. في الليلة السابعة، كان كبير الطباخين في السفينة، وهو فرنسيّ بطرف، قد قدّم تشكيلة حلويات شوكلاتة متعدّدة الأشكال، تصلّوها نافورة عجيبة تسيل منها شوكلاتة سائلة من خلال فم سمكة من الكريستال.

لقد كانت هذه الرحلة، بالنسبة إليها، مفروضة عليها من زوجها فلو أنّها إجازة راحة، لفصلت الذهاب إلى إقطاعيتها في الجنوب، أو إلى بيتها على شاطئ بينا دل مار، حيث تمرّ الأيام متخافلة وكسلى مشاوير مشي طويلة، شايف مي ظلّ الأشجار، قدّاس عائلي مع الأطفال وعمل الخدمة. هذه الرحلة إلى أوروبا كانت بالنسبة إلى زوجها فرصة من أجل تعتين علاقات اجتماعيّة، وغرس بذور صفقات تجارية جديدة. كانت لديه روزنامة كاملة لكلّ عاصمة سيزورونها. وكانت لووا تشعر بأنّها قد خُدعت، فالرحلة في الواقع ليست إجازة بأيّ حال. لقد كان إيسيدرو رجل رؤية مستقبلية، مثلما يحدّد شخصيّته هو نفسه. وهذا أمر مشير للرؤية عند أسرة لورا؛ فهولة كسب المال في مغامرات تجارية هي مسألة خاصّة بالأثرياء الجُدد، بمحدثي النعمة، الوصوليين. وهم يفضّون النظر عن نقيصة إيسيدرو هذه، لأنّه ليس هناك من يشكّك

١٠. طلب أصول سلالة القشتالية - الباسكية، من دون أي أثر من الدم
 العربي أو اليهودي في عروقه. فهو يتحذر من أحد فروع سلالة دل سولار
 ١١. لا تشوب مكانتها وعراقتها أية شائبة، اللهم إلا من جهة أبيه، إذ
 مع هي سني نفوجه في غرام معلمة مدرسة متواضعة، وأنجب منها
 ابن قبل أن تُكتشف فعلته. أسرته واسعة الامتداد، وعائلات أخرى
 من الطبقة نفسها، تضامنت في إغلاق السبل أمام تلك الزوجة وابنتها
 من الشرعيين. أمّا هو، فرفض التخلي عن عشيقته وهجرها. فأغرقت
 المصيبة. كان عمر إيسيدرو آنذاك خمسة عشر عامًا. لم يقد إلى
 ربة أبيه الذي واصل العيش في المدينة نفسها، ولكنه انحدر حوالى
 رحين في الترابية الصارمة للطبقات الاجتماعية، واختفى من محيطه
 ١٢. لا أحد يأتي الآن على ذكر تلك الدراما، ولكن الجميع يعرفونها.
 ربة الزوجة المهجورة ساعدوها براتب حد أدنى، ووظفوا إيسيدرو، أكبر
 الأبناء، الذي كان عليه أن يترك المدرسة والبدء بالعمل. تبين أن الفتى
 أكثر ذكاءً وشاطرًا من كل أقرانه مجتمعين، فقد توصل بعد سنوات
 قليلة إلى وضع اقتصادي يلبى بكنيته. وكان قادرًا على التفاخر بأنه لا
 يدين لأحد بأي شيء. وعند بلوغه التاسعة والعشرين من العمر، تقدّم
 لطلب يد لورا بيكازا، مدعومًا بسمعته الجيدة، وبعدة أعمال تجارية
 مقبولة في وسطه الاجتماعي: تربية أغنام في باتاغونيا، واستيراد آثار
 قديمة من الإيكوادور والبيرو، وامتلاك إقطاعية توفر القليل من الأرباح،
 لكنها مشهورة جدًا. أمّا عائلة العروس، العتحدة من دون بيدرو دي
 بيكازا، الحاكم المنتدب للمستعمرة في القرن السادس عشر، فكانت
 عصابة كاثوليكية، محافظة متطرفة، غير مثقفة ومغلقة على نفسها؛ يعيش
 أفرادها، ويتزوجون ويموتون فيما بينهم، من دون اختلاط بأناس آخرين،

أو الاهتمام بمعرفة أفكار العصر الجديدة. كانوا محضين ضدّ العلم والفنون والآداب. وقد قبل إيسيدرو لديهم، لأنّه كسب التعاطف العام. واستطاع أن يُثبت أن له علاقة مصاهرة مع آل بيشكازا من جهة أمّه.

على متن ملكة الباسفيك، أمضى إيسيدرو دل سولار أيام الإبحار البضعة والعشرين في تعزيز اتصالاته وممارسة الرياضة: كان يلعب البينغ بونغ، ويتلقّى دروساً في المبارزة. يبدأ يومه بالركض متقاماً عدّة جولات على سطح السفينة، وينتهي في ما بعد منتصف الليل مع أصدقاء معروفين، في البار وفي قاعة المدخّنين، حيث لا ترحب بالبُذات. فالسادة يتبادلون الحديث حول صفقات الماضي التجارية، بلامبالاة منصّعة، لأنهم يرون في إبداء الكثير من الاهتمام سلوكاً مـ مستحب، ولكنّ الموضوع السياسي كان يستثير الشجون. كانوا يعلموا بالمستجدّات من الجريدة التي تصدر على متن السفينة، عبارة عن ورقتين تتضمّنان أخباراً تصل بالظراف، وتوزّع على المسافرين ثم الصباح. وفي المساء، تكون الأخبار قد فُقدت صلاحيتها؛ فكلُّ شيء كان يتغيّر بطريقة دوريّة، والعالم المعروف كان يمضي مغلوباً رأساً على عقب. وكانت تشيلي، بالمقارنة مع أوروبا، جنة متخلّفة ونائية لحسن الحظّ صحيح، أنّه كان لديها في ذلك الحين حكومة يسار الوسط، وكان الرئيس من الحزب الراديكالي، وماسونياً مكروهاً من اليمين، اسمه لا يُذكر في أوساط العائلات الراقية، ولكنه لن يستمرّ في الرئاسة إلّا لفترة قصيرة. فالبسار، بواقعيتها الموقّية وترانيتها، كان بلا مستقبل؛ ولو يتولّى سادة تشيلي تحقيق ذلك. كان إيسيدرو يجتمع بزوجته في موع تناول الضعام ومن أجل عروض المساء. فهم بقدمون في السفينة عروس سينما، ومسرح، وموسيقى، وسيرك، ومتكلمين من بطونهم، ومحاضرات.

«ممن مغناطيسيين ومُبْصُرِينَ، يستثيرون افتتان السيدات وسخرية الرجال. وكان إيسيدرو المنفتح على الحياة ومحِبَّ الشراب، يحتفي بالضيء وهو يمسك السيجار في يده وكأس الشراب في اليد الأخرى، دون أن يتأثر من سلوك زوجته التي تُبدي استكارها حيال تلك عادة المفتعلة، والتي تبعث منها رائحة الخطيئة والتهتك».

نظرت لورا إلى المرأة وهي تكبح دموعها، فهي تفكر في أن الثوب «و بلايا على امرأة أخرى، أما هي فلا تستحقه، مثلما لا تستحق أي شيء تقريبًا مما تملكه. كانت مُدركة لوضعها المنعزل، ولحسن حفظها ولادتها في أسرة آل فيشكازا، وزواجها من إيسيدرو دل سولار ومنافعها. سارات كثيرة أخرى تحصل عليها بصورة غامضة، من دون أن تبذل جهد أو تخطيط مسبق من جهتها. لقد كانت تنعم بالحماية والخدمة والى الدوام. وقد أنجبت ستة أبناء من دون أن تضطر إلى تبديل حفاصة أمدة لهم، أو تحضير زجاجة رضاعة؛ فهذه أمور تتولاها خوانا الطيبة، وأنها المسؤولة عن متابعة الممرضات والخادِمات. فخوانا هي من تولت رعاية الأطفال، بمن فيهم فلبيه الذي سيكمل عامًا قريب التاسعة والعشرين من عمره. لم يخطر للورا أن تسأل خوانا عن عمرها، أو عن عدد السنوات التي مضت عليها وهي تعمل في بينها، كما أنها لا تتذكر كيف وصلت إلى البيت. لقد منحها الرب الكثير. لماذا منحها هي الدنان؟ ما الذي يطلبه منها مقابل ذلك؟ لا يخامرها أي شك، فهذه الأيون للآله تعذبها. لقد أطلت وهي في النورماندي، يدافع الفضول، أم أفة الحياة في طبقة الدرجة الثالثة، خارقة بذلك التعليمات بعدم الاحتلاط مع مسافرين من درجة أخرى لأسباب صحيّة، مثلما يقول السبب المعلق على باب الجناح، لأنه إذا ما نَسِب سوء الحظ بحدوث

حالة تدرُّن رئوي، أو أي مرض معدٍ آخر، يمكن أن ينتهي الأمر بوضع الجميع في الحجر الصحي، هذا ما شرحه لها الضابط الذي دعاها إلى التقيد بالنظام. لقد تمكّنت لورا من رؤية ما يكفي، وتأكّدت ممّا لاحظت، عندما كانت تذهب مع عضوات جمعية السيدات الكاثوليكيّات لتوزيع الصدقات في المناطق الهامشيّة؛ الفقراء لهم لونٌ آخر، ورائحتهن غريبة، بشرتهن أشدّ قتامة، وليس لشعرهم بريق، وثيابهم حائلة الألوان من هم أولئك الذين يسافرون في الدّرجة الثالثة؟ لا يبدو أنّهم مهلهلون يرتدون ثياباً رثة، أو بانسون، مثلما هي حال السكّان الأصليين في مدينة سنّياغو، ولكنّ لبشرة وجوههم اللون الرماديّ نفسه. لماذا هم وأنا لا؟، كانت لورا تتساءل في هذه المناسبة بعزيج من الإحساس بالراحة والشعور بالعار. ظلّ الشّوال يطفو في الذهن مثل ضجّة لجوجة كان الفصل بين درجات المسافرين في ملكة الباسفيك مشابهاً لما هو عليه في نورماندي، ولكنّ التضادّ كان أقلّ دراماتيكيّة، لأنّ الأزمه كانت قد تغبّرت، وكانت السفن البخاريّة أقلّ ترفاً. فسافرو الدّرجة السباحيّة، وهي التسمية التي تطلق الآن على مسافري الطابق السفلي الذين يصعدون إلى السفينة في تشيلي والبيرو وموانئ أخرى على الباسفيك، هم من المستخدمين والموظّفين والطلّاب وصغار التجار والمهاجرين الذين يرجعون لزيارة عائلاتهم في أوروبا. وقد لاحظت لورا أنّهم يقضون وقتهم بطريقة أفضل بكثير من مسافري الدّرجة الأولى، في جوّ من التساهل والاحتفال مع غناء ورقص وشرب بيرة، ومسابقات وألعاب؛ لا أحد يرتدي بدلة من نسيج التويد من أجل الغطور، ولا من الحرير من أجل تناول الشاي، ولا يتقبّد ببدة الإتيكيت من أجل العشاء.

في هذه الليلة ما قبل الأخيرة من الرحلة، قبالة المرأة، وهي
محشورة في ثوب الرقص، معطرة، ونضع حول عنقها العقد الموروث
من أمها، لم تكن لورا ترغب إلا بكأس نبيذها مع بضعة قطرات من
الماردين، والاستلقاء في سريرها والنوم لشهور، حتى نهاية الرحلة،
وحتى نجد نفسها وقد رجعت إلى بيتها وإلى برودة حجرانها، إلى
أحوائها، ولأن تكون مع ليوناردو. إنها تشتاق إليه، وتعاني العذاب في
فصاء شهور عديدة بعيداً عن ابنها؛ ربما لن يستطيع التعرف عليها عند
«دتها»، فذاكرته ضعيفة، مثلما هو كل شيء فيه. وماذا لو مرض؟ من
الأفضل عدم التفكير في هذا الاحتمال. لقد منحها الرب خمسة أبناء
مباركين. وكملحق إضافي بهم، أرسل إليها هذا البريء، هذه الروح
«مئة» النوم، لو كان بمقدورها النوم! الإحباط يحرق معدتها، تشعر
بـ «جيرة» محبوسة في صدرها. وفكرت: «سأكون أنا من عليها أن تتنازل
«وما»، وأن تفرض عليّ إرادة إيسيدرو، فهو أولاً، وهو ثانياً، وهو ثالثاً، هذا
«ما يكرهه لي، كما لو أنها ظرافة، وأنا أنقبّل ذلك. كم أريد في أن أصير
«أمة» عليها أن تقاوم هذه الخواطر التي تراودها بالصلوات والتكفير
«النوبة». فتعني الموت لشخص آخر خطيئة ممبته؛ إيسيدرو شخص
«بين المزاج، ولكنه زوج وأب استثنائي، لا يستحق مثل هذه الرغبة
«الحبيسة» من زوجته بالذات، وهي المرأة التي أقسمت له على الوفاء
«الطاعة» عندما تزوجا. لقد أقسمت على ذلك أمام المذبح. «إنني
«محبوبة، فضلاً عن كونني بدينة»، قالت منهدة، وسرعان ما بدت لها
«النتيجة» مسلية. لم تستطع كبح ابتسامة ابتهاج، فسرّها زوجها على
«أها» إشارة رضى. «هكذا تعجبيني، يا جميلتي»، وتوجّه نحو الحمام
«مرئياً».

دخلت أوفيليا إلى جناح أبيوتها من دون أن تطرق الباب. فهي د التاسعة عشرة، ولا تزال فتاة مهحلة وغير مبالية. متى ستنضج! يعلم أبوها بلا فتاة، لأنها هدبته المحببة، الوحيدة التي تشبه بين أبنائه. فهي جريئة وعيدة مثله، من المحال شي إرادتها. لم تكن الفتاة غا حقت نجاحا في المدرسة، وقد تخرجت فقط لأن الرهابات كن وأغبات في إزاحتها عن كاهلهم. لم تتعلم سوى القليل جدًا خلال سنواتها المدرسية الاثنتي عشرة، ولكنها كانت تعرف كيف تداري جهلها باللطاف وخفة الروح، بغريزة الصمت وقوة الملاحظة. ذاكرتها الجيدة، لم تتوصل إلى تجاوز فصلها الدراسي للتاريخ أو حفظ جدول الضرب. ولكنها كانت تحفظ كلمات كل الأغاني التي تُبث من المذياع. وكانت شاردة الذهن، متفجئة وجميلة، وحشي وافر الجمال، كان أبوها يخشى أن تكون فريسة سهلة لرجال بلا وازع أخلاقي. جميع ضباط السفن ونصف المسافرين المذكور، يحسن فيهم المتقدمون في السن، وضعوا أعينهم عليها، لقد كان واثقا من ذلك. فأكثر من واحد منهم علّق أمامه حول المواهب التي تتمتع بها ابنته، مشيرين إلى اللوحات المائية التي ترسمها أوفيليا على سطح الشفينة، ولكنهم لم يكونوا يحومون حولها إعجابًا بلوحاتها النافذة، وإنما لأسباب أخرى. كان إيسيدرو يأمل برؤيتها متزوجة في أسرع وقت، فتنتقل هكذا لتصبح من مسؤوليّة ماتياس إيتاغبري. أي أنها تصبح «طحين ضعة أخرى»، كما يقولون في الأمثال. ويمكنه عندئذ التشر باطمئنان، ولكن سيكون من الأفضل أيضًا الانتظار قليلًا، لأنها إذا ما تزوجت وهي صغيرة، مثل أخواتها، فسوف تتحول خلال سنوات قليلة، مثل أخواتها، إلى متقدمة في السن، نزقة وغاضبة.

الرحلة إلى أوروبا أتية من تشيلي، في أقصى جنوبي أميركا، هي
 «سنة طويلة ومكلفة لا يمكن إلا لعائلات قليلة تحملها. آل دل سولار
 من نسبون ضمن أكبر الأثرياء التشيليين، ربها يكون منهم أبو إيسيدرو
 «ترك في إرثه ما تلقاه هو منه، وأنفقه كله قبل أن يفادر الأسرة، ولكنهم
 «أولاً قريبين جداً من أكبر الأثرياء. لكن الحالة الاجتماعية لم تكن
 «محد، على كل حال، على كثرة الأموال بقدر اعتمادها على النسب
 «السائلة. وخلافاً لكثير من العائلات الثرية، ولكن على غرار العقليّة
 «الرميّة، كان إيسيدرو يرى أنّه لا بد من رؤية العالم. فقد كانت تشيلي
 «مررة نحدّها من الشمال صحراء فسيحة مقفرة، ومن الشرق سلسلة
 «سبال الأنديز العصبية على الاختراق، ومن الغرب المحيط الهادئ ومن
 «الحوب قارّة أنتاركتيكا الجليديّة. وقد كان التشيليّون محقّقين عندما كانوا
 «سبون وهم يتفحصون سُرّتهم، بينما كان القرن العشرون في ما وراء
 «ودهم ينطلق خبيّاً. فكان السفر، بالنسبة إلى إيسيدرو، استثماراً
 «سروريّاً. لقد أرسل ابنه الذكّرين إلى الولايات المتّحدة وأوروبا عندما
 «مارا في سنّ مناسبة، وكان يرغب في توفير الشيء نفسه لسنّاته، لكنّه
 «زوجن قبل أن يجد اللّحظة المناسبة لسفرهنّ. وكان يسعى إلى تجنّب
 «لك الإهمال مع ابنته أوفيليا؛ ويرى أنّه عليه إخراجها من جوّها المغلق
 «والمناق في سنّياغو، ومنحها مساحة ثقافيّة. كان يبيّث الفكرة السريّة.
 «ولم تكن زوجته نفسها تعلم بها في تلك الأثناء. بترك أوفيليا في مدرسة
 «الانصات في لندن بعد الانتهاء من جولتهم. فقضاء سنة أو سنتين من
 «السّي التريّة البريطانيّة ستكون مناسبة؛ وستتمكّن كذلك من تحمسين
 «لغتها الإنكليزيّة التي تعلّمها منذ الصغر، مثل بقية إخوتها، باستثناء
 «ليوناردو طبّقاً. إذ يمكن للإنكليزيّة أن تكون لغة المستقبل، إلّا إذا

تمكنت ألمانيا من السيطرة على أوروبا. فما نحتاج إليه ابنته هو...
في لندن، قبل أن تتزوج من مانياس إيناغيزي، خطيبها الأبدي، الذي
سيتزوج وهو يبني مستقبلًا بعمله في الشك الدبلوماسي.

كانت أوفيليا تشغل الحُجرة الثانية في الجناح، لا يفصل سوى بار
بينها وبين حُجرة أبوتها. وخلال أيام قصيرة، دُبَّت الفوضى في قُمرها
صناديق، وحفائب، ومظلات مفتوحة، وملابس، وأحذية، ومستحضرات
تجميل مبعثرة، ومضارب تنس، ومجلات أزياء على الأرض. فالفئة التي
تقوم خادِمات على خدمتها في البيت، كانت تمضي في الدُنيا ناشرة
الفوضى، من دون أن تتساءل من سيرتب فوضاها ويُنظفها! فمع فرح
جرس يدويٍّ أو كهربائيٍّ، هنالك من يظهر بصورة سحرية لخدمتها في
هذه اللُيلة، أنفذت من تلك الفوضى ثوبًا خفيفًا ومُحكَّمًا على جسدها،
مما استثار استياء أبيها، الذي صرخ بها:

- من أين أخرجت ثوب النساء الخبيثات هذا؟

- إنه اللباس الرائج الآن، يا أبي. أتريد أن تراني ثوب الرُعب
الذي تلبسه الخالة تيريسا؟

- دعك من الوقاحة. ما الذي سيقوله مانياس إذا ما رآك بهذه

الحال؟

- سيقف فاعزًا فمه، مثلما هو فمه دومًا، يا بابا. لا توقع نفسك في

الأوهام، فأنا لا أفكر في الزواج منه.

- يجب ألا تجعله ينتظر إذًا.

- إنه متدين.

- أتفضل أن يكون ملحدًا؟

- لا أريده أصلح ولا يباروكثين، يا أبي. لقد جئت لأستعير منك،
 أناء عقد الجدة، ولكنني أرى أنك تضعينه. يبدو بديقا عليك.
 - ضعيه أنت، يا أوفيليا، سيبدو وهو عليك أفضل مما هو علي،
 يا أم الأتم إلى القول، وهي تضع يدها على فقل العقد.
 فقاطعها زوجها بنشد:

- ولا بأي حال، يا لورا! ألم تسمعي حين طلبت منك أن تضعيه
 .. الليلة؟

- وما أهميّة ذلك، يا إيسدرو، إنه يبدو أجمل على الصغيرة.
 - إنه مهم بالنسبة إليّ! وكفى. وأنت، يا أوفيليا، ضعي شالا أو
 شي ستر، فهذا الذي تلبسينه يكشف صدرك كثيرا. أمرها منذ كرا
 - ملات العار التي مرّ بها في حفلة التتكر في السفينة، عند احتياز خط
 - استواء، حين ظهرت أوفيليا بزيّ جارية محظية، واضعة خمارا على
 - مهها، ومرندية بيجاما كاشفة.

- نظاهر بأنك لا تعرفني، يا أبي. لحسن الحظ، أنني لست مضطرة
 إلى الجلوس على منضدتك مع أولئك المسمنين المملّين. أأمل أن يكون
 - ثاني مع أشخاص جيدي المظهر.

- لا تكوني تافهة! صاح بها أبوها قبل أن تخرج مغادرة بحركة
 - النصة فلامنكو.

بدأت الدعوة للعشاء مع القبطان أهدية بالنسبة إلى كل من لورا
 وأوفيليا دل سولار. وبعد تناول الحلوى، كان هناك بركان مثلجات
 أميرغني مع شعلة مضاءة في الوسط، انسحبت الأتم إلى فمرتها في

الجنّاح بعد أن شعرت بالألام رأس حادّة، وانتقمت الابهة في الصالون
برقصة سوينغ على إيقاع ترومبيلات متقنة. تجاوزت الحدود بتناول
الشمبانيا، وانتهى بها الأمر في أحد أركان سطح السفينة يتبادل الفيلار.
مع ضابط أسكتلندي له شعر بلون الجزر، ويدان جريشيان، ومن هناك،
سحبها أبوها. وبالله عليك، ما كلّ هذه الإزعاجات التي تُسببها لي!
ألا تعلمين أن الإشاعات والنقولات تضرر محلقة؟ سوف يعلم مانياس
بهذا كلّ قبل أن نرسو في ميناء ليغربول. وسوف تربن!

في سنباغو، في بيت شارع مار دل بلانا، العائلة تنفّست
الصعداء بعد رحلة طويلة وشاقّة. أصحاب البيت أمضوا رحلة استغرقت
أربعة أسابيع، ولم يُعد حتّى الكلب المنزلي يندكّرهم، ويشاق إليهم
غيابهم لم يؤثر على الروتين ولم ينخف من واجبات الخدم، ولكنّ ليس
هناك من يتمجّل كثيرًا أجهزة المدياع تصدح بالتمثيلات الإذاعية،
وأغنيات البوليرو. ومباريات كرة القدم، وهناك متسع من الوقت لنوم
قبولة طويلة. حتّى ليوناردو المتعلّق بأتمه يبدو سعيدًا، وقد توقّف عن
الشؤال عنها. إنها المرّة الأولى التي يبتعد أحدهما عن الآخر. وبعيدًا
جدًا عن التّحسر، كان الضّغير يستغلّ الفرصة ليستكشف الأماكن
المحظورة ويرتادها في هذا البيت ذي الثلاث طيقات، والقبو، ومرآب
العربة، ومستودع المؤن، وغرفة السطح. وكان الابن الأكبر، فيليب، ينوئ
مؤولة البيت ومؤولة أخيه الأصغر، يؤدّي دوره بصورة سطحيّة، لأنّه
يفتقد الميل إلى قيادة أسره، ولأنّ بين يديه فضيّه أكثر أهميّة. فالسياسة
تشتغل متأججة بقضيّة اللّاجئين الإسبان، ولهذا لم يكن يهمّه إذا
كان ما يُقدّم على المائدة مجرّد حساء كثير الماء، أم كركند، أو إذا ما
كان الضّغير نائمًا مع الكلب أم في السرير، ولم يكن يراجع حسابات

بحر، وإذا ما طلبوا منه تعليمات يردُّ عليهم بأن يقوموا بما اعتادوا أن
«علوه دوماً».

خوانا ناسكوتشيو، خلاسية من أم كربولية وآب مابوتشي من
١٠. خان الأصليين في أقاصي الجنوب، من الصعب تحديد عمرها،
«صرفة القامة ومثينة مثل الجدوع القديمة في غاباتها الأصلية، لها جذبة
لململة وبشرة صفراء مائلة إلى الخضار، تتصرف بأساليب فظة، لكنّها
«أنه بحكم العادة، كانت تتراأس الإدارة البيئية منذ أزمنة لا ترقى إليها
«الكرة. تعود بإيماءة متجهمة الخادومات الثلاث، والطاهية، والغسالة،
«السنائي، والرجل الذي يتولّى جلاء خشب الأرضية بالشمع، ويعزّز
«حطب والفحم، ويتولّى رعاية الدجاجات ويقوم بالأعمال الصعبة؛ لبس
«ال من يتذكّر اسمه، وهو بكلّ بساطة «الرجل الذي يلثي الطلبات».
«حصى الوحيد المتحرّر من رقابة خوانا هو الشائق الذي يعيش في
«رفه فوق الكراج، ويتبع مباشرة للسادة المالكين، مع أنّ ذلك، بحسب
أهله، يجعله يُقدّم على كثير من النجاوزات؛ ولهذا تراقبه، لأنّه غير
«نزيه، ويُدخل نساءً إلى حُجّرتِه. إنّها متأكّدة من ذلك. «هنالك فائض
«من العاملين في هذا البيت»، هذا ما اعتاد قوله إيسيدرو دل سولار.
«ماطعه هي: «من الذي نفكر إذا في صرفه من العمل، أيّها السيّد». «ولا
«أعد، أقول هذا المجرّد الكلام»، يتنصّل من قوله فوراً. عندئذٍ تؤكد خوانا
«ها وبين نفسها: «لا بدّ أنّ لديّه بعض الحق»؛ كان الأطفال قد كبروا،
«أبنت هناك غرف عديدة مغلقة. الابنتان الكبيرتان تزوّجتا، وصار لهما
«أولاد، والابن الثاني يمضي في دراسة التبدّلات المناخية في منطقة
«أريبي، ومع أنّه لا وجود لما يُدرس في هذا الأمر، وكلّ ما هنالك أنّه
«هنا نحمل تلك التبدّلات وحسب»، تؤكد خوانا، وفيليبه يعيش في

بيته العاشر. ونبقى الصغيرة أوفيليا التي ستروج من الشاب ماتياس،
اللطيف جدًا، والشهم جدًا، والعاشق جدًا، أُمّا فالبيبي، فهو ملائكتها
الصغير الذي سبقى معها إلى الأبد، لأنه لن يكبر.

لقد سافر أسبادهما من قبل، عندما كان الأبناء أصغر سنًا، قبل
ولادة ليوناردو، وبقيت هي آنذاك كسيدة للبيت. وقد أنجزت في تلك
المناسبة واجباتها من دون أن تتلقى أي تأنيب، أُمّا في هذه المرة، فقد
خطر للمادة المالكين أن يكلفوا فيليه بتلك المسؤولية، كما لو أنها
هي مجرّد بلهاء بلا فائدة. وكانت تفكر: كلّ تلك السنوات الطويلة في
خدمة الأسرة كي تكون مكافأتها هذه الكارثة. كانت لديها الرغبة في
جمع ملابسها والمغادرة، ولكن ليس لديها مكان تذهب إليه. لقد كان
عمرها سنّ أو سبع سنوات عندما قدّموها هدية إلى بيستي بيثكارا،
والد لورا، مقابل جميل كان قد قدّمه لهم. حدث ذلك في الزمن الذي
كان فيه السيد بيثكارا يتاجر بأخشاب ثمينة، ولكن لم يبقَ شيء من
تلك الأخشاب في غابات منطقة مابوتشي الشاذّة، لقد هُزمت العباب
في مواجهة الفأس والمنشار؛ واستبدلت الآن بأشجار عادية مزروعة
في صفوف متوازية، مثل العساكر، من أجل صناعة الورق. كانت خوانا
آنذاك مجرّد طفلة مخاطبة حافية، نكاد لا نفهم إلا بعض الكلمات
بالإسبانية، فقد كانت لغتها هي الماوبدونغوين، لغة السكان الأصليين
وعلى الرغم من مظهرها كمخلوقة متوحشة، تقبلها بيثكارا كهديّة،
لأن رفضها كان سيُعتبر إهانة رهية للعديد له. أخذها إلى متباغو،
وسلمها لزوجته التي نقلتها بدورها إلى خادومات البيت كي يدرّبها
على الأعمال الأساسية، وما تبقى تعلّمته خوانا بنفسها، بلا أيّ مدرسة
سوى قدرتها على السماع، ومشيتها في الطاعة والانصياع. عندما

ذمت لورا، وهي إحدى بنات عائلة بيثكارا، من إيسيدرو دل سولار،
 لورا خوانا لخدمتها. وقد قدّرت خوانا أنّها كانت في ذلك الحين في
 - في الثالثة عشرة من عمرها، مع أنّ أحدًا لم يسجل متى ولدت،
 لذلك تُعتبر غير موجودة قانونيًا. منذ البدء، كلّها كلّ من إيسيدرو
 ولورا دل سولار بأن تكون مديرة البيت؛ وكانا يوليانها ثقة عمياء. وفي
 ١٠٠ الأيّام، تجرأت على السؤال مثلعمّة عمّا إذا كان يمكن للتّيديين
 ١١ بدفعها لها قليلًا من المال، لبس كثيرًا، «وأرجو المَعذرة، لأنّي
 ١٢ لست ذلك». لقد كانت بحاجة إلى بعض النفقات، بعض الحاجات
 «الضروريّة...» ولكنّ، باللّهُ عليك، إذا كنت من الأسرة، كيف سندفع
 ١٣؟ كان هذا هو الرّد. «أرجو المَعذرة، ولكنني لست من الأسرة، أنا
 ١٤ أمة وحسب». ولأوّل مرّة في حياتها، بدأت خوانا تانكوتشيو تنطق
 ١٥، تنفقه في شراء الحلويّات للأطفال، ومن أجل شراء ثوب جديد
 ١٦ إمام، وتدفّع ما ينبغي. لم يكن هنالك من يعرف كلّ فرد من
 ١٧ العائلة أفضل منها، لقد كانت حافظة الأسرار. عندما ولد ليوناردو
 ١٨، واضحا أنّه مختلف عن الآخرين، بعذوبة وجهه الغمرّي، وتأهّبت
 ١٩ «وانا لتعيش ما هو ضروريّ من الزمن لتعني به حتّى يومه الأخير.
 ٢٠ إن الطفل يعاني من مشاكل في القلب، وهو لن يعيش طويلًا بحسب
 ٢١ رأي الأطباء. لكنّ غريزة خوانا وحنانها يرفضان ذلك التّشخيص.
 ٢٢ ولمنه بصير وحذب كيف يأكل وحده، وكيف يستخدم المراحيض.
 ٢٣ مائلات أخرى كانت تختبئ الأطفال الذين في مثل حالته، يخجلون من
 ٢٤ ردهم، كما لو أنّهم عقاب من الرب، ولكنّ حالة «الببّي» لم تكن
 ٢٥ لك بفضئها. وعندما يكون نظيفًا ولا يصرخ أو يرفض، يقدّمه أبواه
 ٢٦ لوحيد آخر من الأبناء.

كان فيليبه، ابن الأسرة الأكبر، هو نور عيني حوانا مانكوتش. وظلّ كذلك بعد ميلاد ليوناردو، لأنه حبّ من نوع مختلف. كانت تربية فيليبه دعائمها، العكاز الذي ستمسند إليه في شيخوختها. فقد ناز على الدوام صبيًا طيِّبًا، وما زال كذلك بالنسبة إليها. صار محاميًا، ولكن بالاكراه، لأنّ هواه وميله هو الفنّ، وتبادل الحديث والأفكار، لا شيء مما هو نافع في هذا العالم، مثلما اعتاد أبوه أن يقول. وكان فيليبه هو من علّم حوانا القراءة والكتابة والحساب بالابتناء الذي هو يتعلّم به من المدرسة الدّينية، حيث يتولّون تعليم أبناء أشدّ العائلات محافظة ووجاهة في البلاد وقربيتهم. لقد ربط ذلك بينهما في تواطؤ راسخ. فحوانا تخصّص على شيطانها، بينما يُبقيها هو على اطلاع. «ما الذي نقرأه الآن، أيّها الصّغير فيليبه؟» «انتظري إليّ أن أنهي من قراءة الكتاب، وسوف أروي القصة لك، إنّه عن القراصنة، أو ربّما: «لا شيء» مثلاً بهمك، يا حوانا، إنّه كتاب عن الفينيقيّين الذين عاشوا منذ قرون عديدة، وليس هالك الآن من بهمه ذلك. لا أدري لماذا تعلّمنّا القُصَبون هذه البلاغات!» كان فيليبه قد كبر بدناً وسُءاً، ولكنّه واصل رواية قراءاته لها وشرح شؤون العالم؛ وساعدها فيما بعد في توظيف مدخراتها في بعض أسهم البورصة، مثل الأسهم نفسها التي كان يشتريها إيسدرو دل سولار وكانت له حركات لطيفة معها، فهو يدخل خفية إلى حُجرتها ليترك لها نقوداً أو سكاكر تحت الوسادة. وكانت هي دائمة القلق على حالة فيليبه الصّحّيّة، فقد كان ضعيف البنية، بصيبه الرشح يفعل تيّارات الهواء، ويعاني آلام البطن بتأثير الانزعاج والمأكولات الثقيلة. ولمسوء الحظ، أنّ صغبرها فيليبه كان بريئاً وساذجاً مثل ليوناردو، وغير قادر على إدراك زيف الآخرين وغدرهم. فكانوا يسفّثونه «المثاليّ». أضف إلى ذلك أنه

الأمر المشهود، يضع منه كل شيء؛ وكان ضعيف الشخصية، يستغله
 الآخرون. فهو يقدم ديوناً نقدية لأي شخص، ولكن لا أحد منهم يرد إليه
 تلك الديون. ويساهم في فصايًا نبيلة تعتبرها خوانا غير مجدية، لأن هذا
 العالم لا خلاص له. وكان محققاً في أنه لم يتزوج، فأين هي المرأة التي
 يمكن لها أن تتحمل نزوانه تلك التي لا تليق إلا بالقديسين، ولكن
 من سيد عاقل، مثلما كانت تقول. ولم يكن إيسيدرو دى سولار يقدر
 ذلك سخاء ابنه الذي يعمد إلى ما هو أبعد من دوافعه الإحسانية،
 يؤثر على وضوح تفكيره. فكان ينتهز قائلًا: «سيأتي يوم يأتي فيه إلينا
 -أملًا حبرًا- مستجدًا بأنه قد صار شيوخًا». كان الجدال بين الأب
 وابنه رهيبًا. ينتهي بهما إلى صفق الأبواب، ودائمًا لأسباب لا علاقة
 لها بالعائلة، مثل حالة البلاد والعالم، والتي ليست بحسب رأي خوانا
 من مسؤوليات أي منهما. في واحدة من تلك المواجهات، اختار قبلية
 الذهاب إلى بيت مستأجر على بعد ستة شوارع. فتعالى صراخ خوانا
 من السماء، لأن الابن الصالح لا يترك بيت أبيه إلا عندما يتزوج،
 وليس قبل ذلك بأي حال، ولكن بقية أفراد الأسرة تقبلوا ذلك الأمر
 من دون إثارة أي نوع من الدراما. لم يختفِ قبلية تمامًا، بل كان يأتي
 لساوول الغداء كل يوم، وكان لا يذ من إعداد وجبة جميته الخاصة،
 ومل ملابسه وكيها بالطريقة التي تروق له. وكانت خوانا تذهب إلى
 منته لتراقب عمل خادmates، وهما هندیان ضعيفتان ووسختان، بحسب
 أهلها. وباختصار، مزيد من العمل. وكان الأفضل لو أنه ظل في حجرته
 عازب، على حد قول خوانا. كان الخلاف بين قبلية وأبيه مرشحًا لأن
 يحون أبلديًا، ولكن أزمة كبدية حرجية أصابت السيدة لورا أجبرتتهما على
 المصالحة.

خوانا نندكر سب ذلك النزاع. فمن المحال نيانه، لأنه م
البلاذ، وما زال الحديث يدور عنه في المذيع. لقد وقع الخلاف في
خريف السنة الفاشية، في فترة الانتخابات الرئاسية. كان هناك ثلاثة
مرشحين. ومرشح إيسدرو دل سولار المفضل هو مليونير محافظ.
مشهور كمضارب في البوصة؛ وآخر من الحزب الراديكالي، فريد
ومحام وسيناتور، وهو من كان يريد فيليه التصويت له؛ وجنرال مارس
الرئاسة من قبل كديكتاتور، يلتمس دعم قوى من بينها حزب النازيين
وهذا لم يكن يروق لأحد من الأسرة. لقد كان لدى فيليه في طفولته
مجموعة دمي جنود من الجيش البروسي مصنوعة من الرصاص، ولكنه
فقد كل ما لديه من تعاطف تجاه الألمان مذ وصل هتلر إلى السلطة
هل رأيت النازيين، يا خوانا وهم يستعرضون أنفسهم بزيهم الرمادي
وأذرعهم المرفوعة عاليًا في وسط ستيغاغو؟ يا للمشهد المضحك
أجل، لقد رأيتهم وهي تعرف شيئًا عن شخص يدعى هتلر، لأن فيلب
كان قد أخبرها بذلك.

- أبوك متأكد من أن مرشحهم هو من سيفوز.

- أجل، لأن اليمين هو من يفوز هنا دائمًا. أراد مؤيدو الجنرال
الحيلولة دون كسبه الانتخابات بافتعال حركة انقلابية، ولكنهم فشلوا.

- يقولون في المذيع إنه جرى قتل بعض الشبان كالكلاب.

- لقد كانوا حفنة من النازيين الاستفزازيين، يا خوانا. احتلوا
مبنى جامعة تشيلي، وتظاهر آخرون أمام القصر الرئاسي. وقد قسمهم
رجال الدرك والعسكريون بسرعة. اسنسلعوا ورفعوا أيديهم عاليًا، وكما
غير مسلحين، ولكنهم قتلوه مع ذلك بالرصاص. كانت لديهم أوار
بالأ يبقوا أحدًا منهم حيًا.

أبوك قال إنهم يستحقون الموت، لأنهم أغبياء قميئون.

لا أحد يستحق الموت، يا خوانا. وعلى أبي أن يكون أكثر

أنا في آرائه. لقد كانت مجزرة لا يلقى افترافها بتشلي. وقد كسب

حانات بيدرو أغيري ثيردا، كما نعلمين. لدينا الآن رئيس رديكالي.

ومن هو هذا؟

إنه رجل أفكار تقدمية. وهو من اليسار بحسب رأي أبي. فكل

لا يفكر مثل أبي يعتبره يساريًا.

أما اليسار واليمين بالنسبة إلى خوانا، فكانا اتجاهين في الشوارع،

للأشخاص؛ واسم هذا الرئيس لا يعني أي شيء. فهو ليس من

معروفة!

كان بيدرو أغيري ثيردا يمثل الجبهة الشعبية، المشكلة من

الوسط واليسار، مشابهة لتتي ظهرت في إسبانيا وفي فرنسا.

لرئيس ما شرحته لك عن الحرب الأهلية في إسبانيا؟

أي أنه... يمكن حدوث الشيء نفسه هنا.

أمل أن لا يحدث ذلك، يا خوانا. لو كان بإمكانك التصويت،

نصوت لأغيري ثيردا. سيأتي يوم تتمكن فيه النساء من التصويت

في الانتخابات الرئاسية، أعدك بذلك.

وأنت لمن صوتت، يا صغيري فيليب؟

لأغيري ثيردا. إنه المرشح الأفضل.

وهذا السيد لا يروق لأبيك.

ولكنه يروق لي، ولك أيضًا.

أنا لا أعرف شيئًا من هذا كله.

- أمر سيّ الأ نعرفي، يا امرأة. الجبهة الشعبية تمثّل العمّال والفلاحين، وعشال مناجم الشمال، الأشخاص الذين مثلك.
- أنا لا أنتمي إلى أيّ من هؤلاء الذين ذكرتهم، وأنت كذلك.
خادمة منزليّة.

- أنت تنتمين إلى الطبقة العاملة، يا خوانا.
- ما أعرفه هو أنّك سيّد صغير، ولا أفهم لماذا تُصوّت للطبقة العامّة.
- أنت بحاجة إلى تثقيف. الرئيس يقول إنّ الحكم تثقيف وتعليم.
إنّه تثقيف وتعليم مجانيّ لجميع أطفال تشيلي. والصحة العامّة للجميع
وتقديم أجور أفضل. وتعزيز التقايّات. ما رأيك؟
- أنا لا فرق لديّ.

- كم أنت جاهلة، يا خوانا! كيف تقولين لا فرق عندك؟
بحاجة كبيرة للذهاب إلى المدرسة.

- أنت تلقّيت الكثير من التّعليم، يا صغيري فيليبي، ولكنك لا
تعرف كيف تنفّ أنفك. وأنتهز الفرصة لأقول لك هنا مائدة الأّ نحد.
لي أناشأ إلى البيت من دون أن تخبرني مسبقاً. فالطّاهية تغضب وأنا
لا أريد الوقوع في مشاكل. وأن يذهب الزائرون ليقولوا إنّنا لا نعرف
هنا كيف نستقبل الضيوف كما يجب! لقد تلقّى أصدقاؤك الكثير من
التّعليم أيضاً، ولكنهم يشربون قواريّر خمر السيّد من دون طلب إذن
انتظر عودة أبك، وسترى ما الذي سيقوله عندما يرى النقص في
مستودع خمره.

كان السبت ما قبل الأخير من الشهر، يوم الاجتماع غير الرسمي
لنادي الغاضبين، جماعة أصدقاء فيليبي، مثلما تسميهم خوانا نانكوتشو

١. الأزمنة العادية، يجتمعون حيث يُقيم فيليب، ولكن منذ غياب أبويه،
 ٢. إليه يستقبلهم في بيت شارع مار دي بلاتا، حيث وجبات الطعام
 ٣. وعلى الرغم من الازعاج الذي كان أولئك الأشخاص يسبونه
 ٤. كانت حوانا تسعى جاهدة للحصول لهم على أصداف بحرية
 ٥. مده، ونقدم لهم أفضل أطباق شبعها، فهي امرأة سيئة الطباع، ولكنها
 ٦. التنبيل والطبخ. وكان أصدقاء فيليب أعضاء في نادي الاتحاد،
 ٧. هم جميع ذكور طبقتهم الاجتماعية؛ وهناك كانوا يتباهون بأحوالهم
 ٨. والفهم الشخصية، سواء المادية أو المتعلقة بسياسات البلاد، ولكن
 ٩. الصالونات الكثيرة بألواحها الخشبية القاتمة، وثرثرات إضاءتها
 ١٠. المصاييح الخافتة، وأرائكها التي لا توفر إلا القليل لمجاذلات
 ١١. السين الفلسفة الحامية، أصف إلى ذلك أن نادي الاتحاد كان
 ١٢. حال فقط، فعادًا سيكون من شأن لقاءات المسامرة من دون الحضور
 ١٣. لمب لبعض النساء العازبات والمتحزرات، الكائنات، المغامرات
 ١٤. القيمة التوعفية، بينهم أمازونية ذات لقب عائلي كرواني نسافر
 ١٥. مردها إلى أمكنة لا تذكر على الخريطة! وكان الموضوع الأكثر تداولًا
 ١٦. ال السنوات الثلاث الأخيرة هو الوضع في إسبانيا؛ وفي الشهور
 ١٧. مصر اللاجئين الجمهوريين الإسبان الذين ينهارون ويموتون
 ١٨. شهر كانون الثاني/يناير في معسكرات التجميع في فرنسا. النزوح
 ١٩. صناعي للناس من كاتالونيا باتجاه الحدود الفرنسية تزامن مع الزلزال
 ٢٠. هز تشيلي بأسرها في شهر يناير، أسوأ زلزال في التاريخ. وعلى
 ٢١. من أن فيليب كان يفاخر بأنه عقلاني حتى النخاع، إلا أنه رأى في
 ٢٢. التزامن دعوة إلى التراحم والتضامن. لقد خلف الزلزال حصيلة
 ٢٣. مئ بئصة وعشرين ألف قتيل، ومدن بكاملها قد سويت بالأرض،

ولكن بالمقارنة مع حرب إسبانيا، حيث خلقت مئات آلاف القتلى والجرحى واللاجئين، كانت مأساة إسبانيا أكبر بكثير.

في تلك الليلة، كان لديهم ضيف خاص، إنه بابلو نيرودا، الذي صار يعتبر، وهو في الرابعة والثلاثين، أفضل شعراء جيله، وهذه مازة. لأن الشعراء في تشيلي يتكاثرون مثل الأعشاب الضاربة. وقد تحول بعض قصائد ديوانه «عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة» إلى جزء من الفلكلور الشعبي، حتى إن الأميين كانوا يرددونها عن ظهر قلب. وكان نيرودا رجلاً من الجنوب، من أراضي الأمطار والأشجار، ابن عامل في سكة الحديد، اعتاد أن يلقي أشعاره بصوت أجش، ويصف نفسه بأنه صلب في الأنف وضئيل في العينين. شخصية مثيرة للجدل. ولكن بسبب شهرته وتعاطفه مع اليسار، ولاسيما الحزب الشيوعي الذي سباض في صفوفه مستقبلاً، جعله يتولى منصب قنصل في الأرجنتين، وبيرمانيا، وسيلان، وإسبانيا، وبعد زمن طويل من ذلك، في فرنسا، لأن الحكومات المتعاقبة كانت تفضل إبقاءه بعيداً عن البلاد. على حد قول خصومه السياسيين والأدبيين. ففي مدريد، تواجد قبل اندلاع الحرب الأهلية، وعقد هناك صداقات مع مثقفين وسياسيين. منهم فيديريكو غارسيا لوركا الذي اغتاله الفرانكويون، وأنطونيو ماتشادو الذي مات في فرنسا، في قرية قريبة من الحدود أثناء الانسحاب من إسبانيا. وكان نيرودا قد نشر نشيداً في تمجيد المناضلين الجمهوريين بعنوان «إسبانيا في القلب»، خمسمئة نسخة مرقمة طبعها رجال ميليشا جيش الشرق في أبرشية مونتيررات، في أوج الحرب، بورق مصنوع بما هو متوافر في متناول اليد، ابتداء من قمصان مضروجة بالدم وحتر. رايات العدو. وقد نشرت القصيدة كذلك في تشيلي في طبعة عادته.

من العجز والزواج واليهود، وحتى من تُطلق عليهم تسمية الشرقيين. وهذا مصطلح غامض يحتمل تفسيرات متعددة! ويضاف الآن إلى هذه المخاوف الشوفينية العنصر السياسي، لا شيء من الشيوعيين، ولا الاشتراكيين ولا الفوضويين، ولكن بما أن ذلك كله لم يكن قد حُددَ خطبًا بعد في التعليمات للفنّاصِل، فإنّ هنالك هامشًا للتصرف لقد كانت بانتظار نيرودا مهمة جبارة: عليه أن يُموّل سفينة ويهيئها، وأن يختار المهاجرين، ويحصل لكلّ منهم على المبلغ المالي الذي نطال به الحكومة لضمان إعالتهم، في حالة عدم وجود أقارب لهم أو أصدقاء. يستقبلونهم في تشيلي. وكان المبلغ المطلوب ثلاثة ملايين من العملة التشيلية، يجب أن يودع في البنك المركزي قبل الإبحار.

- كم عدد اللاجئين الذي يجري الحديث عنهم؟ سأله فيليبه.
- فلنقل إنهم حوالي ألف وخمسمئة، ولكنهم سيكونون أقل، لأننا سنأتي بالرجال، ونترك هناك نساءهم وأطفالهم.

- ومنى سيصلون إلى هنا؟

- في أواخر شهر آب / أغسطس أو بدايات شهر أيلول / سبتمبر.

فقال فيليبه:

- هذا يعني أن لدينا ثلاثة أشهر تقريبًا من أجل تنظيم مساعدات اقتصادية، والحصول لهم على مسكن وعمل. وسيحتاج الأمر حملة لمواجهة الدعاية البمينية، وتحريك الرأي العام لمصلحة هؤلاء الإسبان. سيكون هذا سهلًا. فالتعاطف الشعبي يقف مع الجمهوريين الأغلبية العظمى من الجالية الإسبانية في تشيلي، الباسكيون والكتالانيون مستعدون للمساعدة.

تبادل الفاضلون الوداع عند انتصاف الليل، وذهب فيليبه بسيارته
المورد ليوصل الشاعر إلى البيت الذي يقيم فيه. وعندما رجع، وجد
خوانا بانتظاره في الصالون وقد أعدت أبريش فهوة ساخنة.

- ماذا جرى، يا خوانا؟ يجب أن تكوني نائمة.

- كنت أسمع ما يقوله أصدقائك.

- أنتجشمين علينا؟

- أصدقائك يأكلون كالماجين، ولا حاجة للقول كيف يشربون!
هؤلاء النسوة بعيونهن الملونة يشربن أكثر من الرجال. إنهم جماعة من
المبذلين، لا يحثون ولا يقدمون الشكر.

- لا أستطيع أن أصدق أنك انتظرتني كي تقولي لي هذا وحسب.

- انتظرتك كي توضح لي لماذا هو مشهور ذلك الشاعر. لقد بدأ
بالقاء الشعر ولم يَعد يتوقف! بلاهة بعد أخرى عن أسماك بسمترات
وعون غسقية.. كيف يمكن لإحدانا أن تعرف أي مرض هو هذا؟

- إنها توريات، يا خوانا. هكذا هو الشعر.

- فليذهب ويسخر من جذته، لترقد روحها بسلام. كيف يمكن

ألا أعرف ما هو الشعر، إذا كانت المايودونغون⁽¹⁾ شعراً خالصاً. أراهن
أنك لا تعرف ذلك! ولا شك أن هذا النيرودا، لا يعرف ذلك أيضاً. منذ
مسوات طويلة، لم أعد أسمع لغتي، ولكنني ما زلت أتذكر. الشعر هو ما
يبقى في الرأس، ولا ينسى.

(1) المايودونغون mapudungon: لغة هنود المايونشي جنوبي تشيلي. وهم أنفسهم من
أطلق عليهم الفزاة الإسبانية تسمية الأراوكانيين. وما زالت لغتهم قائمة الاستعمال.

- أجل . والموسيقى هي ما يُمكن الرقص بها، أليس كذلك ؟
- أنت قلتها، أيها الصُغير فليبه .

تلقى إيسيدرو دل سولار برقية ابنه فليبه في اليوم الأخير من إقامته في فندق سافوي، بعد أن أمضى شهراً كاملاً مع زوجته وابنته من بريطانيا العظمى . ذهبوا إلى الأماكن السياحية الإجبارية في لندن، وإلى التسوق، وإلى المسرح، وإلى حفلات موسيقية وسباقات خيل . وكان سفير تشيلي في إنكلترا، وهو ابن عم آخر من أبناء عمومة لورا بيشكارا، قد وضع تحت تصرفهم سيارة رسمية كي يجولوا في الريف، ويوزروا كلّيات أكسفورد وكامبردج . وقام كذلك بالساعي من أجل دعوتهم لتناول الغداء في قلعة دوق أو مركيز، لم يكونوا متأكدين من اللقب، لأنّ ألقاب النبالة في تشيلي قد أُلغيت منذ زمن طويل، ولم يعد هناك من يتذكّرها . قدّم لهم السفير توجيهاتٍ عن أحكام وأنظمة السلوك والملبس : عليهم أن يتظاهروا بأنّه لا وجود للخدم، ولكنّ من المناسب تحية الكلاب؛ الامتناع عن التعلّق بشيء حول الطعام، ولكنّ يجب إبداء الافتتان بالزهور؛ ارتداء ملابس بسيطة وقديمة قدر الإمكان، لا شيء من الثياب المكشكشة ولا ربطات العنق الحريرية، لأنّ طبقة النبلاء تلبس ببساطة أشبه بالفقر وهي في الريف . ذهبوا إلى أسكتلندا، حيث كان إيسيدرو قد عقد صفقة لبيع أصواف مواشيه في بتاغونيا، كما ذهبوا إلى الغال، حيث كان يفكر بصفقة مماثلة، ولكنها لم تتحقّق .

ومن وراء ظهر امرأته وابنته، زار إيسيدرو مدرسة إنهاء *hinish* *ing school* قديمة للأنسات يعود تأسيسها إلى القرن السابع عشر، وهي دارة فخمة قبالة قصر وحدائق كنسينغتون . هناك تعلّمت أوفيليا

الأسكبت، وفن إقامة العلاقات الاجتماعية، واستقبال الضيوف بطريقة لائقة، وإعداد قائمة طعام معيّنة، وأصاليب السلوك، وكيفية الجلوس، الصورة الشخصية وديكور المنزل، إضافة إلى مهارات أخرى ضرورية. دأ. وفكر إيسيدرو: من المؤسف أن زوجته لم تتعلم شيئاً من ذلك. له! ولا بد أن إقامة مؤسسة مماثلة في تشيلي ستكون صفقة جيدة، من أجل تهذيب كثير من الأناس اللواتي ما زلن في الحالة الخامية في هذه الأثناء. سوف يدرس هذا الاحتمال. إنه يخفي خططه حتى الآن من أوفيليا، لأنها سوف تستشيط غضباً وتفسد ما تبقى من أيام الرحلة. سوف يخبرها بذلك في النهاية، عندما لا يبقى ثمة متسع للفرس والنزق.

كانوا في قاعة القبة الزجاجية في الفندق، إنها سمفونية بياض. حب وعاجي، أثناء شاي الخامسة الذي لا بد منه، بفنجانتي خزف. اثنين برسم أزهار، عندما حضر عامل في الفندق يرتدي زي أميرال يحمل برقية فيليه. «منفيو الشاعر يشغلون غرفاً. خوانا لا تفلت المفاتيح. أرسل تعليمات». قرأ إيسيدرو البرقية ثلاث مرّات، وقدمها إلى لورا وأوفيليا.

- ما الذي يعنيه هذا الهمذر؟
- أرجوك، لا تتكلم بهذه الألفاظ أمام الصغيرة.
- أمل ألا يكون فيليه قد أسرف في تناول الشراب - دمدم.
- ماذا سترد عليه؟ سأله لورا.
- أن يذهب إلى الجحيم.
- لا تغضب، يا إيسيدرو. من الأفضل ألا ترد عليه، فالأمر في معظم الأحيان تحل من تلقاء ذاتها.

- ما الذي يعنيه أخوتي؟ سألت أوفيليا.

- ليست لدي أي فكرة. لا شيء يهمني. رد أبوها.

برقية أخرى مطابقة تمامًا وصلت إليهم وهم في الفندق بباريس كان إيسيدرو قادرًا على قراءة جريدة الفيغارو بصعوبة، لأنه تعلم شيئًا من الفرنسية في المدرسة، ولكنه لم يكن يعرف شيئًا من الإنكليزية، ولهذا لم يطلع على الأخبار وهو في إنكلترا. وقد عرف من خلال الجريدة كلاً من الحزب الشيوعي الفرنسي ومصلحة إجلال اللاجئين الإسبان قد استأجروا سفينة شحن، السفينة وينيفغ، وأنهم يعملون على تأهيلها لإرسال أكثر من ألفي منفي إسباني إلى تشيلي. أوشك على أن يصاب بالسكتة. فهذا هو ما كان ينقصه في زمن المصائب هذا، قالها مزمجرًا. فأولًا، رئيس للجمهورية من الحزب الراديكالي، وبعد ذلك زلزال قياسي، وهم يريدون الآن أن يملأوا البلاد بشيوعيين! وانكشف له مضمون الرسالة بكل ما تتضمنه من معاني الشؤم: فما يريد ابنه ليس أقل من إدخال أولئك الحفراء إلى بيته بالذات. فلتبارك خوانا التي لا تتخلّى عن المفاتيح.

- اشرح لي، يا أبي ما هي مسألة المنفيين هذه. ألحّت عليه أوفيليا.

- انظري، أينها الجميلة، حدثت ثورة قام بها أشرار في إسبانيا، شيء فظيع. فتمرد الحسكريون، وقاتلوا في سبيل القيم الوطنية والأخلاقية وقد كسبوا بالطبع.

- ما الذي كسبوه؟

- الحرب الأهلية. أنفذوا إسبانيا. والمنفيون الذين يتحدث عنهم فيليب هم الجناء الذين هربوا، واستقروا في فرنسا.

- ولماذا هربوا؟

- لأنهم خسروا، وعليهم أن يتحملوا النتائج.

- يُجنَّب إليَّ أنْ هناك الكثير من النساء والأطفال بين اللاجئين،
!إسبدرو. الجريدة تقول إنهم مئات الآلاف... تدخلت لورا بحياء.

- مهما يكن الحال. ما دخل تشيلي في ذلك؟ إنها قضية يتحمل
، مؤلَّتها نيرودا! ذلك الشيوعي! ليس لدى فيليبي أدنى قدر من
الوعي، لا يبدو أنه ابني. سوف يكون لي معه توضيح للأمور، ووضع
النقاط على الحروف عندما نرجع.

تشبَّعت لورا بتلك الأحداث كي تقترح أنه سيكون من الأفضل
ا. هودوا إلى ستياعو، قبل أن يُقدم فيليبي على تصرُّف جنوبي، ولكنَّ
الجريدة تشير إلى أنَّ السفينة ستخرج في شهر آب/أغسطس. مازال
!نهم فائض من الوقت للذهاب إلى حفَّات المياه الحارَّة في إيفان،
، هارة مدينة لورد الفرنسية، ومعبدا سان أنطونيو دي بادوا في إيطاليا
! سديد نذور لورا كلَّها، والذهاب إلى الفاتيكان لتلقِّي المباركة الخاصَّة
، البابا الجديد بولس الثاني عشر، والتي كلَّفتها الكثير من النفوذ
النفوذ، قبل العودة إلى إنكلترا. وهناك، تُترك أوفيليا في مدرسة الإنهاء
النفوذ إذا اقتضى الأمر، والإبحار بعد ذلك مع زوجته للعودة إلى تشيلي
في السفينة ملكة الباسفيك. وباختصار، إكمال رحلة متقنة.

القسم الثاني

متنّى وغراميّات وفراق

الفصل الخامس

1939

« حفظ الغضب، والألم والدموع،
احملوا الفراغ الكثيب .
« انتدكر المعركة / الموقف في الليل
صباح النجوم المتوقفة .

پابلو نيرودا

« نحوسيه ميغيل كاريرا (1810) »

التشبيه الضاحك

تاریخ و تمدن

۱

أمضى فيكتور دالماو عدة شهور في مخيم أرجيليه - سور - مار لجميع اللاجئين، من دون أن يدور في خلدّه أن روزر موجودة هناك أيضاً. لم يحصل على أيّ أخبار من أيتور، لكنّه كان يتوقّع أن يكون قد أنجز ما كُلّف به بإخراج كل من أمّه وروزر من إسبانيا. في أثناء ذلك، كان معظم من يقيمون في المخيم هم عشرات آلاف الجنود الجمهوريين الخاصين للجوع والبؤس والضرب والإهانات الدائمة من فل سيجانيهم. كانت الظروف لا تزال غير إنسانية، ولكن أسمى مراحل الشتاء كانت آخذة بالانقضاء على الأقل. نظم الأسرى أنفسهم للبقاء على قيد الحياة من دون أن يُصابوا بالجنون. كانوا يعقدون اجتماعات يومية، منقسمين وفق انقسام أحزابهم السياسية، مثلما كانوا أثناء الحرب. يفتنون، ويقرأون ما يصل إلى أيديهم، ويمحون أُميّة من هم بحاجة إلى ذلك، ويصدرون جريدة - ورقة مكتوبة بخط اليد تنتقل من يد قارئ إلى آخر - ويحاولون الحفاظ على الوفاق بقصص شعورهم وتبادل انتزاع القمل من رؤوس بعضهم بعضاً، والاعتسال وغسل الملابس بمياه البحر الجليدية. قُسموا المعسكر إلى شوارع تحمل أسماء سياسية، اختلقوا هذيان ساحات ورميلات على الرُّمل والطِّين بتسميات برشلوئية. اخترعوا وهم أوركسترا بلا أدوات موسيقية كي يعزفوا

موسيقى كلاسيكية وشعبية؛ وأقاموا مطاعم مأكولات غير مرئية، بقدّم لها الطهارة وصفًا تفصيليًا، ويتلذذ بها الآخرون بعيون مغمضة. وبالمواد القليلة التي يتمكّنون من الحصول عليها، أقاموا عتابر ويزاكات وأكواح كانوا يعيشون متعلّقين بأخبار العالم الذي يقف على حافة حرب أخرى، وبإمكانية خروجهم أحرارًا. كان بعضهم، أفضلهم تأهيلًا، يجدون عملاً في الحقول أو في الصناعة، لكنّ أغلبيتهم، قبل أن يصبحوا جنودًا، كانوا مزارعين وحطّابين ورعاة وصيّادي أسماك، وباختصار، ليس لهم مهنة مفيدة في فرنسا. يتحقّلون ضغوط السُلطات المتواصلة لإعادتهم إلى بلادهم، وفي بعض الأحيان يحملونهم بالخداع إلى الحدود الإسبانية.

بقي فيكتور مع جماعة صغيرة من الأطباء والمرضى، لأنّ لديه مهمة على ذلك الشاطئ الجهنمي، إنّهُ يعمل في خدمة المرضى والجرحى والمحبولين. وكانت قد سبقته أسطورة أنّه قد أعاد النضض لقلب فتى ميّت في محطة الشمال. فأكسبه ذلك ثقة عمياء بين المرضى، على الرّغم من أنّه اعتاد أن يكرّر القول بأنّه لا بدّ لهم في حالات المرضى الكبيرة من اللّجوء إلى الأطباء. لم تكن ساعات النهار تكفيه للقيام بمهامه. كما لم يكن الضجر والاكتئاب، أفاتا معظم اللّاجئين، يؤثّران فيه؛ بل على العكس، كان يجد في العمل حماسة شبيهة بالسعادة. لقد كان نحيلاً جدًّا، وخائر القوى، مثل بقية أهالي الأرياف، ولكنّه لم يكن يشعر بالجوع؛ وفي أكثر من مناسبة يقدّم حصّته الكبيرة من سمك المورة المقدّد لشخص آخر. فكان رفاقه يقولون إنّهُ يتغذّى على الرمل يعمل منذ الفجر، ولكنّ بقي لديه بعد غياب الشمس بضع ساعات عليه أن يملأها. عندئذٍ، يتناول العجبتار ويغني. لقد فعل ذلك في مرّات نادرة خلال الحرب الأهلية، ولكنّه يتذكّر الأغنيات الرّومانسية التي علّمه

إنها أمة لمقاومة الضجر، كما أنه يتذكر بالطبع الأغاني الثورية التي رُثِمَ بها آخرون. كان الجيتار لشاب أندلسي خاض الحرب محتضناً آلة الموسيقى تلك، وخرج إلى المنفى من دون أن يُفلتها، وعاش معها في مخيم أرجيليه - سور - مار حتى أواخر شهر شباط/فبراير، عندما عصى عليه التهاب رئوي. ولأن فيكتور تولي رعايته في أيامه الأخيرة، فقد ترك الجيتار إرثاً له. لقد كان ذلك الجيتار واحداً من الآلات الموسيقية الحقيقية في المخيم، وكانت هناك آلات موسيقية أخرى وهمية متخيلة يلهم بمحاكاة أصواتها رجال ذوو مسامع جيدة.

في تلك الشهور، بدأ الاحتقان البشري يخف في المخيم. فالمسجون والمرضى كانوا يموتون، ويجري دفنهم في مقبرة مجاورة. كان المحظوظون يحصلون على حماية وتأشيرة هجرة إلى المكسيك وأمريكا الجنوبية. وانضم جنود كثيرون إلى الفيلق الأجنبي في الجيش الفرنسي، على الرغم من نظامه العسكري القبط، وسمعته كملاذئ المجرمين، لأن أي شيء يعتبر أفضل من البقاء في المخيم. ومن توافر لديهم الشروط المطلوبة جرى توظيفهم في شركة العمال الأجانب، التي أسست لتعمل محل القوى العاملة الفرنسية التي تمت تعبئتها وتجنيدتها استعداداً للحرب الوشيك. وسيذهب لاجئون آخرون في ما بعد إلى الاتحاد السوفييتي للقتال في صفوف الجيش الأحمر، أو سينضمون إلى المقاومة الفرنسية. وقد مات الآلاف من هؤلاء في معسكرات الإبادة النازية، ومات آخرون في معسكرات الغولاغ السالينية.

وفي أحد أيام نيسان/أبريل، عندما تراجع برد الشتاء القاسي مفسحاً الطريق للربيع، وبدأت أول بوادر خَر الصيف، استدعوا فيكتور إلى مكتب قائد المخيم، لأن هناك زائراً بانتظاره. وكان الزائر هو أيتور

إيّاؤا. رآه يضع قُبعة قش، وينتعل حذاء أبيض اللون. وقد احتاج لدقيقة تقريبًا كي يتعرّف على فيكتور في فزاعة العصافير المهلهل الذي أمامه تعانقا بتأثر، وتضمّنت عيون كليهما بالدمع.

- أنت لا تعرف كم تكلفت من مشقة للعثور عليك، يا أخي. فانت غير موجود في أيّ من القوائم والسجلات، لقد ظننت أنّك ميت.

- إنني كذلك تقريبًا. وأنت، كيف استطعت ارتداء متائقي؟

- بل قل رجل أعمال. سوف أخبرك بكل شيء.

- أخبرني أولًا ماذا جرى لكل من أمي وروزا؟

أخبره أينور باختفاء كارمي. ويأته قام بالبحث والتقصي من دون أن يتوصّل إلى أيّ شيء مؤكد، ما يعرفه فقط هو أنّها لم ترجع إلى برشلونة، وأنّ بيت آل دالماو قد تفتت مصادره. هناك أناس آخرون يعيشون فيه. أمّا عن روزر، بالمقابل، فقد حمل إليه أخبارًا جيّدة بخصوصها. لخص له ظروف الخروج من برشلونة، والعبور مشيًا على الأقدام عبر قمم البيرينييه، وكيف جرى الفصل بينهما في فرنسا.. لم أعرف أيّ شيء، عنها لبعض الوقت.

- لقد هربت فور تمكّني من ذلك، يا فيكتور، ولست أفهم سبب عدم محاولتك الهروب. الأمر سهل.

- إنهم بحاجة إلّاي هنا.

- بهذه العقليّة، يا رفيق، ستظلّ خاسرًا على الدوام.

- معك حقّ. ما الذي يُمكننا عمله؟ فلننّقد إلى موضوع روزر.

- لقد توصّلت إلى تحديد مكانها بلا مصاعب، فور تذكّري اسم صديقتك، تلك الممرّضة. فمع كثرة التنقّلات والمفاجآت، فحسب اسمها

١٠ . داكوتي . لقد كانت روزر هنا، في هذا المخيم بالذات، وخرجت
١١ . بفضل إليزابيث . إنها تعيش الآن مع أسرة استقبلتها في بيرمينان،
١٢ . ممل حيطة، وتعطي دروسًا على البيانو . أنجبت ابناً سليماً، صار عمره
١٣ . شهرًا، وهو آية في الجمال .

لقد تدبّر آيتور أموره كما في السابق، بالتفاوض . فقد كان يحصل
١٤ . لال الحرب على أثمان الأشياء، ابتداءً من السجائر والشكر حتى
١٥ . الأحذية والمهدئات، ويبادلها بأشياء أخرى في مقايضات نعل، ولكن
١٦ . م هامش منفعة له على الدوام . وكان يحصل كذلك على بعض الكنوز،
١٧ . المسدس الألماني، والسكين الأميركية متعددة الاستخدامات،
١٨ . من استشارا كثيرًا دهشة روزر . ما كان ليتخلى عن هذين الشبثين
١٩ . ، وما زال يشعر بالفيظ كلما تذكر كيف انتزعا منه . لقد تمكن من
٢٠ . واصل مع أبناء عمومة بعيدين، هاجروا إلى فنزويلا قبل بضع سنوات،
٢١ . وف يستقبلونه ويحصلون له على عمل في تلك البلاد . ويفضل
٢٢ . هارنه الفطرية، جمع نقودًا تكفي لشراء تذكرة السفر وتكاليف الفيزا .

٢٣ . سوف أذهب خلال أسبوع، يا فيكتور . يجب الخروج من أوروبا
٢٤ . أسرع ما يمكن : إن حربًا عالمية أخرى آتية، وستكون أسوأ من الأولى .
٢٥ . وصولي إلى فنزويلا، سأقوم بالإجراءات كي تتمكن من الذهاب،
٢٦ . وأرسل لك تذكرة السفر .

٢٧ . لا يمكنني ترك روزر وطفلهما .

٢٨ . وهي أيضًا ستأتي، بالطبع يا رجل .

٢٩ . زيارة آيتور خلّفت فيكتور أبكم طوال عدة أيام . لقد أبقن مرة
٣٠ . أخرى من أنه عالق، ويتدلى في خواء، من دون قدرة على التحكّم

بمصريه. وبعد أن أمضى ساعات وهو يمشي على الشاطئ، يفكر وبقدر مسؤولياته تجاه مرضى المنخب، قرّر أن الوقت قد حان لإعطاء الأسبابه لمسؤوليته تجاه روزر والطفل، وكذلك تجاه مصريه الخاص. في اليوم الأول من نيسان/أبريل، أعلن فرانكو عن نفسه بأنه كودنيو إسبانيا، وهو لقب يتباهى به منذ كانون الأول/ديسمبر 1936، وأعلن أن الحرب في انتهت، وأنها قد استمرت تسعة وعشرين وثمانين يوماً. وكانت فرنسا وبريطانيا العظمى قد اعترفتا بحكومتها. لقد ضاع الوطن، ولم يعد هناك أمل بالعودة إليه. استحم فيكتور في البحر، وفرك جسمه بالرمل لعدم توافر الصابون، وطلب من رفيق له أن يقص له شعره، ثم حلق ذقنه بدقة، وطلب نصريحه من أجل الذهاب في طلب صندوق الأدوية الذي يقدمونه إليه في المستشفى المحلي، مثلما يفعل كل أسبوع. في البدء، كان يذهب بمرافقة حارس، ولكن بعد عدة شهور من الذهاب والمعجزات، صاروا يسمحون له بأن يذهب وحده. خرج من دون أي مشكلة، ولم يرجع بكل بساطة. كان أتور قد ترك له بعض النقود، استخدمها في وجبته الأولى المحترمة التي يتناولها منذ كانون الثاني/يناير، ولشراء بدلة رمادية، وقمصين وقبعة، وكلها أشياء مستعصمة ولكنها في حالة جيدة؛ واشترى حذاءً جديدًا أيضًا. فبحسب قول أمه: من يتنعل حذاءً جيدًا يستقبل استقبالًا حسنًا. جعله سائق شاحنة. وهكذا، وصل إلى بيرينان، إلى مكتب الصليب الأحمر ليسأل عن صديقه.

استقبلت إيدتيتر فيكتور في مركز أمومتها المرنجل، إذ كانت تحمل وليدًا في كل ذراع، وكانت مشغولة إلى حد لم تتذكر معه قصته. حبهما التي لم تحدث قط. فيكتور لم ينس ذلك. وحين رآها بعينيهما الصافيتين، وزيّ الممرضة الأبيض، رزينة كماداتها، توصل إلى أنها

« أعمال متقنة، وأنه لا بد أن يكون أبله إذا تخیل أنها قد تلتفت إليه؛
« ليس لهذه المرأة ميول عاشقة، وإنما هي مبشرة. حين عرفته إليزابيث،
أمت الطفلين لامرأة أخرى، وعانقته بتأثر خجول.

- كم تغيرت، يا فيكتور! لا بد أنك عانيت الكثير، يا صديقي.
- أقل من آخرين. لقد كنت محظوظًا على الرغم من كل شيء.
أنا أنت بالمقابل، فتبدلين على ما يرام دائمًا.
- أهدأ ما نظنته؟

- ما الذي فعلته لتبدلي دائمًا في حالة من الكمال، مطمئنة
باسم، وبلا أي شائبة؟ هكذا تعرفت عليك في وسط إحدى المعارك، وما
أعلى حالك، كما لو أن الأزمة الشئنة التي يعيشها لا تؤثر بك أبدًا!
- الأزمة الشئنة تجبرني على أن أكون قوية، وأن أعمل بإصرار، يا
فيكتور. أنت أنت ترويني من أجل روزر، أليس كذلك؟

- لا أدري كيف أشكرك على ما فعلته من أجلها، يا إليزابيث!
- لا وجود لما يحق الشكر. علينا أن نتظر حتى الساعة الثامنة،
عندما تنتهي درسها الأخير على البيانو. إنها لا تعيش هنا. فهي تسكن
عند بعض الأصدقاء الكويكرز، الذين يساعدونني في الحصول على
موارد من أجل دار الأرملة.

وهذا ما فعلناه. قدمته إليزابيث إلى الأمهات اللاتي يعشن في
البيت، وجالت به على العنشات، وجلسا بعد ذلك لتناول الشاي مع
سكويث، بينما كل منهما يطلع الآخر على المشقات التي تعرض لها
مذ التقيا آخر مرة في ترويل. وفي الساعة الثامنة، أخذته إليزابيث

في سيارتها، وكانت مهتمة بمتابعة المحادثة أكثر من اهتمامها بمفود السيارة. ففكر فيكتور بمدى سخرية أن يكون قد نجا من الموت في الحرب وفي مخيم تجمع اللاجئين، ليموت مسحوقاً كصرصار في سيارة هذه الخطيئة غير المحتملة.

كان بيت الكويكرز على بعد عشرين دقيقة، وكانت روزر هي من فتحت لهما الباب. وما إن رأت فيكتور حتى أطلقت صرخة، ووضعت يديها على خديها، كما لو أنها أمام حلم هذيانى، فاحتضنها هو بين ذراعيه. كان يتذكرها نحلة، بوركين ضيقين وصدر أملس، بهاجبتين شحبتين وتقاطيع بارزة - نموذج المرأة غير المفرورة، والتي تجد نفسها مع مرور السنوات جافة وجولئة. لقد رآها آخر مرة في أواخر شهر كانون الأول/ديسمبر، ببطن بارز، وبشر خبّ الشباب في وجهها. وقد أضفت عليها الأمومة الآن عذوبة حلوة، ومنحتها تكؤرات حيث كانت هنالك زوايا من قبل. كانت تُرضع ابنها، وكان ثدياها كبيرين، وبشرتها فاتحة اللون وشعرها لامعاً. كان اللقاء مؤثراً جداً حتى إن إليرايث، وهي المعتادة على رؤية مشاهد تمرّق نياط القلب، قد تأثرت. وتبين لفكتور أن ابن أخيه عصبي على الوصف؛ لأن جميع الأطفال في مثل تلك السرّ يشبهون وينسبون تشرشل. فقد كان بديناً وأصلع. وبعد نظرة أكثر تدقيقاً، اكتشف فيه بعض الملامح العائلية، مثل العيشين السوداوين الزيتونيين اللتين تُميزان عيون آل دالماو.

« ما اسمه؟ سأل روزر.

« ما زلنا حتى الآن ندعوه «الصغير». إنني انتظر مجيء وليام لنطلق عليه اسماً، ونسجله في السجل المدني.

إنها اللحظة التي يُمكن إطلاعها فيها على الخبر المشؤوم، ولكن
، فنور لم يجد الشجاعة مرة أخرى لفعل ذلك.

لماذا لا تسببه وليام؟

لأن وليام نثني إلى أنه لن يسمي أيًا من أبنائه باسمه. فهو
بحب اسمه. لقد قلنا إننا سنسمي الوليد مارسيل، إذا كان ذكرًا، أو
دارمي إذا كانت طفلة، تكريمًا لأبيك وأُمك.

حسن، أنت تعرفين إذا...

سأنتظر مجيء وليام.

أسرة الكويكرز، الأب والأم وطفلان، دعوا فيكتور واليزابيث
إلى العشاء معهم. ولكونهم إنكليز، بدأ الطعام مقبولًا. وكانوا يتكلمون
بناتية جيدة، لأنهم أمضوا سنوات الحرب في إسبانيا، حيث كانوا
يعدون منظمات ترعى الطفولة؛ ومنذ الانسحاب، صاروا يعملون
مع اللاجئين. وهذا ما يقومون به دائمًا، على حد قولهم؛ ومثلما تؤكد
إيزابيث، فدائمًا هنالك حرب في مكان من العالم.

إننا ممتنون لكم جدًا، قال لهم فيكتور. بفضلكم، نجد هذا
الطفل بيننا الآن. لأنه لو كان في مخيم أرجيليه - سور - مار لما بقي
مبا، وأظن أن روزر ما كانت ستتمكن من البقاء حية. نأمل ألا نُنقل على
أرصم لوقت طويل.

لا وجود لما يستدعي الشكر، أيها السيد. فروزر والطفل صارا
مرثا من العائلة. لماذا تسرعكم في المغادرة؟

حدثهما فيكتور عن صديقه أبتور، وخطة الهجرة إلى فنزويلا عندما
يتمكن صديقه من مساعدتهم. يبدو أنها الطريقة الوحيدة المتاحة.

- إذا كان ما تريدونه هو الهجرة، فربما يمكنكم الذهاب إلى تشيلي، قالت إليزابيث. فقد رأيتُ خبرًا في الجريدة عن سفينة ستأخذ إسبانيين إلى تشيلي.

- تشيلي؟ أين هو هذا المكان؟ سألت روزر.

- عند قدمي العالم، هكذا يبدو لي، قال فيكتور.

في اليوم التالي، عثرت إليزابيث على الخبر المذكور، وأرسلت إلى فيكتور. فالشاعر يابلو نيرودا، بتكليف من حكومة بلاده، يقوم بتأهيل سفينة اسمها وينيف من أجل نقل منفئين إسبان إلى بلاده. قدّمت له إليزابيث نقودًا كي يسافر في القطار إلى باريس، ويجرب حقله مع ذلك الشاعر، إلى المجهول.

تمكّن فيكتور، باستخدامه خريطة، من الوصول إلى جادة موت بيكه 2، بالقرب من ليزانفاليد، حيث ينتصب مبنى مفوضية تشيلي الأنيق. كان هناك صف من الناس أمام الباب، يراقبهم بواب معكّر المزاج. وكان الموظفون داخل البناء عدوانيين كذلك، غير قادرين على أن يردّوا على تحية. بدا ذلك لفكتور إشارة سوء طالع، مثلما كانت تبدو مشرومة أيضًا الأجواء الثقيلة والمتوترة لذلك الربيع الباريسي. كان هنتر قد بدأ بالتهام فضحات شرهة من الأراضي الأوروبية، وراحت غمامة الحرب السوداء تملأ السماء بالظلام. الناس الذين يصطفون في رتل يتكلّمون الإسبانية، وجميعهم تقريبًا يحملون قصاصة الصحيفة في أيديهم. عندما جاء دوره، أشاروا له إلى جهة السلم، الذي يبدأ رخاميًا ومزينا بالبرونز في الطوابق الأولى، وينتهي ضيقًا وبائسًا عند ما يشبه غرفة فوق السطح. لم يكن هنالك مصعد، وكان على فيكتور أن يساعد

إسبانيا آخر يعرج أكثر منه، إذ كان قد فقد إحدى ساقيه، ويكاد يعجز عن الصعود متشبهاً بحاجز الدرج.

- هل صحيح أنهم لا يقبلون إلا الشيوعيين؟ سألته فيكتور.

- هذا ما يقولونه. هل أنت شيوعي؟

- أنا جمهوري وحب.

- لا تعتقد الأمور أكثر. من الأفضل أن تقول للشاعر إنك شيوعي، ابنهبي الأمر.

في غرفة صغيرة، مؤتة بثلاثة كراس ومنضدة مكتب، استقبله بلو نيرودا. كان لا يزال رجلاً شاباً، بعينين متفتحتين ورموش عربية، مريض الكففين وظهره منحني قليلاً؛ يبدو أكثر امتلاء وترهلاً مما هو عليه في الواقع، وقد استطاع فيكتور التأكد من ذلك عندما نهض الشاعر كي يودعه. استمرت المكالمة أقل من عشر دقائق، وخلف لديه انطباعاً بأنه قد أخفق في محاولته. وجه إليه نيرودا بضعة أسئلة عادية: العمر، الوضع العائلي، الدراسة والخبرة في العمل.

- سمعت أنكم لا تختارون سوى الشيوعيين... قال فيكتور، متغرباً أن الشاعر لم يسأله عن انتمائه السياسي.

- لقد سمعت بصورة سيئة. فالأمر سيكون حصصاً، الشيوعيون، الاشتراكيون، والفوضيون، والليبراليون. وستحسم الأمور ما بين هيئة إجلاء اللاجئين الإسبان وبينني أنا. الأهم هي طباع كل شخص، والفائدة التي يمكن له تقديمها في تشيلي. إنني أدرس مئات الطلبات، وعندما لتعقد قرارات، سأخبرك؛ لا تغلق.

- إذا كان ردك بالموافقة، يا سيد نيرودا، فأرجوك أن تضع في اعتبارك أنني لن أسافر وحيداً. هنالك صديقة مع طفل عمره أشهر قليلة ستأتي معي أيضاً.

- أنقول إنها صديقة؟

- اسمها روزر بروغيرا، خطيبة أخي.

- في هذه الحالة، يجب أن يأتي أخوك لمقابلتي، وبملاً استمارة الطلب.

- فلنفترض أن أخي قد مات في معركة الإيبورو، أيها السيد.

- يؤسفني ذلك. أنت ترى أنه يجب علي أن أعطي الأولوية للأقرباء المباشرين، أليس كذلك؟

- إنني أنفهم موقفك. سأعود لرؤيتك خلال ثلاثة أيام، إذا كنت تسمح لي.

- خلال ثلاثة أيام لن أكون قد حصلت على جواب، يا صديقي.

- أما أنا فسأكون قد توصلت إلى جواب شكراً جزيلاً.

في مساء ذلك اليوم بالذات، ركب قطار العودة إلى بريبيان. وصل متعباً، وفي ظلام قاتم. نام في نزل براغيث، حيث لم يستطع مجرّد الاستحمام. وفي اليوم التالي، ذهب إلى مشغل الخياطة حيث تعمل روزر. خرجا إلى الشارع ليتعمّقا من تبادل الحديث. أمسك بها فيكتور من ذراعها، اقتادها إلى مقعد منزول في ساحة قريبة، وأخبرها بما حدث معه في مفوضيّة تشيلي، متجاهلاً بعض التفاصيل، مثل سوء نوايا الموظفين التشيليين، ومساءلة الثقة التي شعر بها تجاه نيرودا.

- إذا ما قبلك هذا الشاعر، يا فيكتور، فعليك أن تذهب بأي حال.

لا تقلق بشأنني.

- روزر، هناك أمر كان عليّ أن أخبرك به منذ أشهر، لكنني كلما
أملت ذلك، تخنقني قبضة حديدية، وتُسكتني. كما لو أنها لا تريد لي
أن أكون...

- وليام؟ أمو أمر متعلق بوليام؟ صاحت هي مدعورة.

مرّ فيكتور رأسه، من دون أن يتجرأ على النظر إليها. ضمها إلى
صدره بعتاق قوي، ومنحها الوقت كي تبكي صارخة، كطفلة يائسة،
محفة، وجهها غارق في سترته المستعملة، إلى أن يُخ صوتها وتنفدت
دموعها. وقد بدا له أنّ روزر تفرّج عن نفسها بىكاء مكبوح منذ وقت طويل،
أنّ الخبر الرهيب لم يكن مفاجئاً، ولا بدّ أنّ الشكوك كانت تذاورها منذ
... طويل، لأنّ هذا فقط هو ما يُمكن أن يُفسّر صمت وليام الطويل.
... حيح، أنّ الناس يضيعون في الحرب، وأنّ الأزواج ينفصلون أحدهم عن
الأخر، وأنّ شمل العائلات يتشتت، ولكن لا بدّ أنّ الغريزة كانت تنبه روزر
إلى أنّه قد مات. لم نطلب أدلّة، ولكن فيكتور أراها مع ذلك محفظة الجيب
سب المحروقة، وصورتها التي كان وليام يحملها معه على الدوام.

- أترين لماذا لا بمكنني أن أتركك، يا روزر؟ يجب أن تذهبي
معي إلى تشيلي، إذا هم قبلونا. ففي فرنسا، سوف تشب الحرب أيضاً.
يجب علينا أن نحمي الطفل.

- وماذا عن أمك؟

- لم يرها أحد منذ خروجنا من برشلونة. لقد ضاعت في الزحام.
ولو كانت على قيد الحياة، لتواصلت معك أو معي. وإذا ما ظهرت في
المستقبل، فسوف نبحت عن طريقة لمساعدتها. الأهم في هذه اللحظة
هو أنت وابنتك، أفهمين؟

- أفهم، يا فيكتور. ماذا علي أن أفعل.

- اعذريني، يا روزر، ولكن يجب أن تتزوج.

وقفت تنظر إليه مشدوهة، فلم يستطع فيكتور كبح نفسه من الابتسام، وهو ما بدا غير لائق بوقار تلك اللحظة. كرّر لها المعلومات التي أخبره بها نيرودا حول منح الأولوية للعائلات.

- وأنت، يا روزر، لا تُعتبرين زوجة أخي.

- لقد تزوّجت من وليام بلا أوراق، وبلا مباركة، وبلا كاهن.

- لا أظن أن هذا كله يؤخذ في الحسبان في هذه الحالة. وبكلمات قليلة، يا روزر، أنت الآن أرملة من دون أن تكوني كذلك فعليًا. سوف نتزوج اليوم بالذات، إذا كان ممكنًا، ومنسجل الطفل على أنه ابننا سأكون أباه؛ وسوف أرعاه وأحميه، وأحبه كما لو أنه ابني.. أعدك بذلك. وهذا ينطبق عليك أنت أيضًا.

- ولكن لم يقع كلُّ منّا في غرام الآخر...

- إنك تطلبين الكثير، يا امرأة. ألا يكفيك الحنان والاحترام؟ وهذا أكثر من كافٍ في هذه الأزمنة التي نعيشها. لن أفرض عليك أبدًا علاقة لا ترغبين فيها، يا روزر.

- ما الذي يعنيه هذا؟ أيعني أنك لن تنام معي؟

- هذا ما أعنيه بالضبط، يا روزر. لست بالوقع عديم الحياة.

وهكذا، خلال لحظات قليلة وعلى مقعد في الساحة، اتخذ القرار الذي سيكون علامة حاسمة في حياتيهما وفي حياة الطفل كذلك. في حالة الهروب العسرّج تلك، وصل منفيون كثيرون إلى فرنسا بلا

. . . شخصيّة، وفقدتها آخرون في الدروب أو في منجمّات التجميع. أمّا
 ١٠٠. فكانت لديهما وثائقهما. وقد أفادهما الأصدقاء من طائفة الكويكرز
 . . . هود على الزواج في طقوس مقتضة بمبنى البلدية. كان فيكتور قد
 م. هذاء الجديد، وظهر بريطة عتق مستعارة؛ أمّا روزر، فبدت هادئة،
 ١٠١. الرّغم من انتفاخ عينيها بسبب كثرة البكاء، وكانت قد ارتدت
 ١٠٢. ثوب لديها مع قبعة ربيعيّة. بعد إجراءات الزواج، قاما بتسجيل
 ١٠٣. العمل باسم مارسيل دالماو بروغيرا. وكان من المقرر أن يكون هذا هو
 م. له لو أن أباه ظلّ حيّاً. احتفلوا بالزفاف في عشاء خاصّ بقسم الأمومة
 ١٠٤. المهر، الذي نشرق عليه إليزابيث إيدنيز، وأنها العشاء بقلب حلوى
 م. ربما مخفوقة. قطع الزوجان قالب الحلوى ووزّعا بالتساوي على
 . . . اسرين.

ومثلما كان فيكتور قد وعد بابلو نيرودا، رجع بعد ثلاثة أيّام
 ١٠٥. مبسط إلى مكتب المفوضيّة التشيليّة في باريس، ووضع فوق منضدته
 م. زواجه وشهادة ميلاد ابنه. رفع نيرودا نظرتة ذات الرموش الناعسة،
 . . . مخصّه مفتوحاً لنوايا طويلة.

- أرى أنّ لك مخيلة شاعر، أيّها الشاب. أهلاً بكم في تشيلي -
 ١٠٦. له أخيراً وهو يضع دمعته على الطلب، ثمّ أضاف: أقلت إنّ امرأتك
 ١٠٧. بارقة بيانو؟

- أجل، يا سيّدي. وخياطة أيضاً.

- لدينا خياطات في تشيلي، ولكننا بحاجة إلى عازفات بيانو.
 ١٠٨. مصر مع امرأتك وابنتك إلى مرفأ ترومبيلوب، في بوردو، يوم الجمعة
 ١٠٩. في وقت مبكر. منتظفون في السفينة وينبيغ عند الغروب.

- لا نملك نفوذًا من أجل تذكرة السفر، يا سيدي...

- لا أحد يملكها. سوف نرى. وانسَ مسألة دفع تكاليف التأشير،
التشبيطة التي يحاول بعض القناصل جبايتها. يبدو لي مقررًا تقاضي
رسم الفيزا من اللاجئين. وهذا أمر مستنظر فيه هناك في بوردو.

ذلك اليوم الصيفي، الرابع من آب/أغسطس 1939، في مدينة
بوردو، سيبقى إلى الأبد في ذاكرة فيكتور دالماو وروز بروجيرا، وأكثر من
ألفي إسباني سينطلقون باتجاه تلك البلاد المتطاولة في أميركا الجنوبية،
والمشجبة بالجبال كيلا تمسقط في البحر، والتي ما كانوا يعرفون عنها
شيئًا. وقد وصفها نيرودا في شعره بأنها «بتلة بحر ونبذ وتلج متطاولة». .
وأنها «حزام زيد أبيض وأسود». ولكن ما كان لهذا وحده أن يوصل
المنفيين إلى وجهتهم. فتشيلي على الخريطة نجلة وبعدة جدًا.

كانت ساحة بوردو تفعّج بالناس، حشد هائل يتعاطم مع مرور
الدقائق، شبه مختنق بالحر، تحت سماء شديدة الرّقة. كانت نصل
قطارات، وشاحنات ووسائل نقل أخرى ممتلئة بالناس، معظمهم من
الخارجين مباشرة من مخيمات التجميع. أناس جائعون، ضعفاء، لم
تنج لهم فرصة الاغتسال. ولأن الرجال كانوا منفصلين لعدة شهور عن
النساء والأطفال، فإن اللقاء بين الأزواج وبين العائلات كان هذيان دراما
وثأثر. كانوا يتعلّقون بالنوافذ، يتبادلون التنادي صارخين، يتعرّفون على
بعضهم بعضًا ويتعاقون باكين. أب كان يظن أن ابنه قد مات في معركة
الاييرو؛ أخوان لم يكن أيّ منهما يعرف شيئًا عن الآخر منذ أيام جبهه
مدريد؛ جندي قديم اكتشف وجود امرأته وابنه اللذين كان قد فاء
الأمل بالعودة لرؤيتهما.. وهذا كلّ في نظام متقن، وبغريزة انتظام طبيه؛
سهلت مهمة الحراس الفرنسيين.

كان يابلو نيرودا يرتدي ملابس بيضاء من القدمين حتى الرأس،
ومعه زوجته ديليا دل كاريل، منسحة كذلك بالأبيض مع قبعة كبيرة
-هذا- وكان يوجه إجراءات تحديد الهوية، والصحة والاختيار، مثل شبه
إله، بمساعدة قناصل وموظفون وأصدقاء يستقرون وراء مناضد طويلة.
الموافقة تصير جاهزة بتوقيعه عليها بحبر أخضر وبختم مصلحة إجلاء
الإسبان الإسبان. حل نيرودا مشكلة التأشيرات بتأشيرة جماعية. كان
الإسبان يصطفون في جماعات، تؤخذ لهم صورة، ويتمّ نظهرها على
معل، ثم يتولّى أحدهم قصّ الوجوه من الصورة الجماعية والصاقها
على تصاريح المرور. كان هناك متطوعون محسنون يوزعون وجبة طعام
-مجانبة- وأدوات نظافة شخصية لكل شخص. بينما تلقى الأطفال
اللائمة والخمسين تجهيزات كاملة لكل واحد منهم، وكانت إيزابيث
بدينز هي من تولّت توزيعها.

في يوم انطلاق الرحلة، كانت لا تزال ثمة مبالغ مالية كبيرة يجب
-مها من أجل ذلك الرحيل الجماعي، وكانت الحكومة التشيلية ترفض
-مها، لأنه من المحال تبرير ذلك أمام رأي عام معاد ومنقسم. عندئذ،
-صورة غير متوقعة، حضرت إلى المرفأ جماعة صغيرة من الأشخاص
الرسميين جداً، والمستعدين لدفع نصف قبعة كل تذكرة سفر. رأتهم
-وزر من بعيد، فوضعت الطفل بين ذراعي فيكتور، وغادرت الرتل،
-هرعت لتحيّتهم. لقد كان بين ذلك الفريق أسرة الكويكوز الذين
-عنصنوها. وقد جاؤوا باسم طائفتهم لتأدية الواجب الذي فرضوه على
-هم منذ نشأتهم في القرن السابع عشر، بخدمة البشرية وتشجيع
-السلام. كرّرت عليهم روزر ما كانت قد سمعته من إيزابيث: «إنكم
-طهرون دوماً حيث تكون الحاجة ماثمة إليكم».

صعد كلُّ من فيكتور وروزر والطفل مع أوّل من صعدوا إلى السفينة. وهي سفينة ضخمة نزل قرابة خمسين ألف طنّاً، تنقل شحنات من أفريقيا، وقد استُخدمت لنقل قوّات عسكرية في الحرب العالمية الأولى. وكانت مهتأة لعمتين بخاراً في رحلات قصيرة، فأعيد تأهيلها لنقل أكثر من ألفي شخص خلال شهر. لقد زوّدها على وجه السرعة بأسرة خشبيّة من ثلاث طبقات في العنابر السفليّة، وأقاموا فيها مطبخاً وقاعة طعام وعيادة تمرّض مع ثلاثة أطباء. خصّصوا أمكنة يوم الجمعة في السفينة؛ فيكتور مع الرجال في مقدّمة السفينة، وروزر مع النساء والأطفال في المؤخّرة.

في الساعات التالية، أنهى المسافرون المحظوظون صعودهم وظلّ على اليابسة مئات اللاجئيين الذين لم يجدوا لهم مكاناً. وعاد الغروب، مع ارتفاع المدّ، دفعت السفينة وينابيع مرساتها. كان هناك من سيكون بصمت على الشاطئ، وآخرون ينزفون بالكتلائية، وهم يضعون يدهم على الصدور، بأغنية المهاجر: «كتالونيا العذبة، يا موطن قلبي، لم يمشني الحزن/ عندما أبتعد عنك». ربّما كانوا يهجون بأنهم لن يعودوا أبداً إلى موطنهم. ومن المعروف، ودّعهم بابلو نيرودا ملوّحاً بمتدليل إلى أن غابوا عن النظر. وسبكون هذا اليوم بالنسبة إليه أيضاً، يوماً لا يسى، وسيكُتب بعد سنوات: «فليصع النقد شعري كلّهُ، إذا بدا له ذلك لكثير هذه القصيدة، التي أنشدتها اليوم، لن يستطيع محوها أحده».

لقد كانت أسرة النوم أشبه بفجوات تواييت في مقبرة؛ فكان لا بدّ من التلقّي على أربعة، والبقاء من دون حراك على فرش مملوءة بالقش، لكنها تبدو مع ذلك نرفاً بالمقارنة مع جحور الرّمّل المبلّل من مخيمات التجميع. كان لديهم مرحاض لكلّ خمسين شخصاً، وكانوا

١. حول إلى ثلاث ورديات في المطعم، ويحترم هذا النظام من دون أن
٢. أحد بيت شقة. فمن هم أتون من البؤس والجوع يجدون أنفسهم
٣. الحنة: لقد مضت عليهم شهور من دون تناول طبق ساخن، ومع أن
٤. طعام في السفينة بسيط، إلا أنه لذيذ المذاق؛ فضلاً عن أنه بالإمكان
٥. مل، الطبق بحساء البقول عذبة مرّات كما يشاء كل شخص؛ لقد
٦. انما معذّبين بالقمل البقي، بينما يمكنهم في السفينة أن يتحمّوا
٧. أحواض صغيرة وبماء بارد وصابون؛ لقد كانوا أسرى اليأس وهم
٨. حول الآن نحو الحرية. بل كان هناك نبع أيضاً وبيرة وخمر في بار
٩. من لمن يفدر على دفع ثمنها. جميع المسافرين تقريباً تقدّموا طالبين
١٠. مشاركة في المهام على متن السفينة، ابتداء من تشغيل المحركات،
١١. نقشير البطاطا وكسّ سطح السفينة. في صباح اليوم الأول،
١٢. فيكتور نفسه تحت تصرّف الأطباء في العيادة. رُحبوا به، وأعطوه
١٣. أبيض، وأخبروه أن هناك عدداً من اللّاجئين تبدو عليهم أعراض
١٤. نژناريا والتهاب القصبات الهوائية، ووجود حالتين نيفونيد لهارين
١٥. رعاية الخدمات الصحيّة.

نظمت النسوة أنفسهنّ لرعاية الأطفال. وكُنّ قد حدّدن مكاناً
من سطح السفينة، محميّاً بحواجز، مخصّصاً لأن يكون روضة أطفال
ومدرسة. ومنذ اليوم الأول، كان هناك قسم حضانة، وألعاب، وفنّ،
المارين ودروس؛ لمدة ساعة ونصف الساعة في الصباح، وساعة
نصف الساعة في المساء. لقد أصيبت روزر بالدوار، مثلما حدث
الآخرين جميعهم تقريباً، ولكنّها ما إن تمكّنت من النهوض حتّى أبدت
استعدادها لتعليم الصغار الموسيقى على آلة السيلوفون، وعلى طبول
مرجلة من الدلاء. وكانت منهمكة في ذلك عندما جاء معاون الرّبّان،

وهو فرنسي من الحزب الشيوعي، حاملًا لها خبر أن نيرودا قد طلب لها بيانًا وجهازيًا أكورديون إلى السفينة من أجلها، ومن أجل من يرموا. العزف. وكان لدى بعض المسافرين جيتاران وكلارينيت. ومنذ تلك اللحظة، صار هنالك موسيقى للأطفال، وحفلات عزف ورقص للكبار. إضافة إلى كورال نشط من الباسكيين.

بعد خمسين عامًا من ذلك، عندما أجريت مقابلة مع فيكتور دالماو في التلفزيون كي يروي أحداث أوديسا متقاء، تحدث عن السفينة وينيبغ على أنها سفينة الأمل.

كانت الرحلة بالنسبة إلى فيكتور دالماو أشبه بإجازة ممتعة، أنا روزر التي كانت قد أمضت أشهرًا من الراحة في بيت أصدقائها الكوبيكر، فقد عانت في البداية من الإزدحام وسوء الرائحة. ولكن لم يخطر لها الحديث عن ذلك، لأنه سيبدو ذروة عدم اللياقة، وسرعان ما اعتادت على تجاهل الأمر وعدم ملاحظته. وضعت مارسيل في جعبة ظهر مرئجلة، وصارت تتجول به طوال الوقت ملتصقًا بظهرها، حتى وهي تعزف على البيانو! وتتأوب مع فيكتور الذي كان يحمله أيضًا، عندما لا يكون في عيادة التمرريض. لقد كانت الوحيدة القادرة على إرضاع صغيرها، بينما الأمهات الأخريات، في حالة الوهن التي كنَّ عليها، اعتمدن على خدمة قوارير رضاعة للأربعين رضيعًا على متن السفينة. نساء عديدات عرضن على روزر أن يغسلن لها ملابسها وأقمطه ابنها، كيلا تُلحق الأذى بيديها. وكانت هناك فلاحه مدبوغة بسنوات طويلة من العمل الشاق، وأم لسبعة أطفال، تتفحص يدي روزر مفتونة، من دون أن تفهم كيف يمكن لها أن تُخرج الموسيقى من البيانو من دون النظر إلى ملامسه. لقد كانت تلك الأصابع سحرية في نظرها! وكان زوجها يعمل في صناعة الفلين قبل

الحرب، وعندما أخبره نيرودا أنه لا وجود في تشيلي لأشجار السديان
 الفليني، ردّ عليه بحفاة: «سوف توجد إذا». بدأ الجواب للشاعر بديعاً،
 «صغّه إلى المبحرين جنباً إلى جنب مع صيادي الأسماك، والفلاحين،
 العمال اليدويين، والمهنيين، وكذلك المثقفين، على الرغم من تعليمات
 الحكومة التشيلية بتجنب الأشخاص حملة الأفكار. تجاهل نيرودا هذا
 الأمر؛ فمن البلاهة التخلّي عن رجال ونساء دافعوا ببطولة عن أفكارهم
 وأفكارهم. وكان يأمل في دخيلة نفسه بأن يهرّ هؤلاء شبات موطنه المديد.

كانت الحياة تتواصل على سطح السفينة حتى وقت متأخر، لأنّ
 النهوبة في الأسفل سيئة جداً، والمجال ضيق يكاد لا يكفي للتحرك.
 سناً المسافرين جريدة تقدّم أخبار العالم التي تسوء من يوم إلى آخر
 مع ابتلاع هطول لمزيد من الأراضي. في اليوم التاسع عشر من الإبحار،
 عندما عُرف خبر اتفاق عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا
 النازية، الموقع في الثالث والعشرين من آب/أغسطس، شعر كثيرون من
 الشيوعيين الذين كانوا قد ناضلوا ضدّ الفاشية بأنهم تعرّضوا لخيانة كبيرة.
 فالخلافات السياسية التي قُضت حكومة الجمهورية الإسبانية، تواصلت
 في السفينة؛ فكانت تنفجر في بعض الأحيان مشاجرات بسبب صفات
 سابقة، فيقوم مسافرون آخرون بإخمادها على جناح السرعة، قبل أن يتدخل
 القبطان بوبين، وهو رجل يعني لا يشعر بأيّ تعاطف مع المسافرين الذين
 نعت مسؤوليته، ولكنه يتمتع بحسّ راسخ بالواجب. فكان الشكّ يخامر
 الإسبان الذين لا يعرفون هذا الجانب من شخصيته، ويشعرون بأنّه قد يفدر
 بهم، ويحوّل المسار ويعيدهم إلى أوروبا. فكانوا يراقبونه بالحذر نفسه الذي
 يراقبون به مسار الإبحار. مساعد القبطان ومعظم البحارة كانوا شيوعيين؛
 وكانوا هم أيضاً يضعون مراقبة بوبين نصب أعينهم.

في الأميات، كانوا يشغلون بالاستماع إلى عزف رورز والغناء الجماعي والرقص، وألعاب الورق والدومينو. نظم فيكتور ناديا للشطرنج لمن يعرفون اللعب ومن يرغبون في تعلمه. لقد ساعده الشطرنج على النجاة من الوقوع في اليأس في لحظات الضياع خلال الحرب، وفي مخيم النجming، عندما لم تُقد الروح قادرة على تحمّل المزيد؛ وكانت تراوده الرغبة في أن يرغمي أرضاً مثل كلب، ويسلم نفسه للموت. في تلك اللحظات، إذا لم يكن هنالك لاعب خصم، فإنه يستغرق في اللعب ذهنيًا ضد نفسه على رقعة شطرنج وأحجار منخيلة. لقد كانوا يقدمون أيضًا في السفينة محاضرات حول العلم، وموضوعات أخرى، ولكن لا شيء من السياسة، لأن التزامهم مع الحكومة التشيلية يتضمن الامتناع عن الدعاية لنظريات سياسية، يمكن لها أن تؤدي إلى إشعال ثورة. وبكلمات أخرى، أيها السادة، لا نريدكم أن تأتوا لتقتلوا لنا خيم الدجاج رأساً على عقب، هكذا لخص الأمر مواطن تشيلي كان يسافر أيضًا في السفينة وينبيخ. كان التشيليون يتبادلون أحاديث مع الآخرين على سبيل تهيتهم لما سيواجهونه. وكان نيرودا قد وزع عليهم كُرَّاسًا موجزًا، ورسالة واقعة إلى حد كبير حول البلاد: وأنها الإسبان: ربما كانت تشيلي بالنسبة إليكم هي أبعد منطقة نائية في أميركا. ولقد كانت كذلك بالنسبة إلى أجسادكم القديما. فقد واجه الغزاة الإسبان القديما وتحملوا الكثير من المخاطر والكثير من البؤس. وعاشوا طوال ثلاثمائة عام في معركة متواصلة ضد الأروكاينيين⁽¹⁾ الذين لا مهيبل إلى السيطرة عليهم. من ذلك النواحد الصعب، بقيت سلالة معتادة على مصاعب الحياة ومشقاتها. تشيلي بعيدة جدًا عن أن تكون فردوسًا. فأرضا

(1) الأروكاينيين (arucanos): نية السكان الأصليين في تشيلي، ويسمّون أيضًا المابوتشي.

٢ سلم ثروتها إلا لمن يعمل بجد ومشقة. هذا التحذير وغيره من سيئات التشيليين لم ترعب أحداً، أوضحوا لهم أن تشيلي قد فتحت أبوابها لهم بفضل حكومة الرئيس بيدرو أغيريوي الشعبية، وأن الرئيس قد صدّى أحزاب المعارضة، وتحمل حملة التخويف التي شنها اليمين والكنيسة الكاثوليكية. «هذا يعني أن لدينا هناك الأعداء أنفسهم الذين اجهنهم في إسبانيا»، قال فيكتور. فأوحى ذلك لعدد من الفنانين أن يسموا لوحة عملاقة تكريماً للرئيس التشيلي.

عرفوا أن تشيلي بلاد فقيرة، يقوم اقتصادها على المناجم، لا سيما مناجم النحاس، ولكن هنالك الكثير من الأراضي الخصبة، آلاف الكيلومترات من السواحل الصالحة للصيد البحري، وغابات لا متناهية ومساحات كبيرة شبه خالية من السكان، وتحتاج لمن ألبها للإقامة والعمل والازدهار. الطبيعة عجائبية مذهشة، ابتداء من الصحارى المقفرة في الشمال، وحتى المناطق الجليدية المنجمدة في الجنوب. والتشيليون معتادون على شح الموارد، وعلى الكوارث الطبيعية، كالزلازل التي تدمر عادة كل شيء. وتختلف الكثير من الموت والدُمار، ولكن ذلك بدا للمنفقين مجرد شرّ صعبير بالمقارنة مع ما عاشوه، وما ستصير إليه إسبانيا تحت سيطرة فرانكو. قالوا لهم أن يستعدوا من أجل ردّ الجميل، لأنهم سيتلقون الكثير؛ فالمصائب الجماعية لا تسبب المرارة للتشيليين، بل تجعلهم مضيافين وكرماء، وقد كانوا مستعدين على الدوام لفتح أذرعهم وبيوتهم. «اليوم أنا، غداً أنت»، هذا هو الشعار. دعا نصحووا العازبين بالحذر من التشيليات، لأن من يضعن عينهنّ عليه، لن يجد مهرباً. إنهنّ مغويات، قويّات ومتجبرات، تركيبة شديدة الوفاء. وكان لهذا كله وقع الخيال.

بعد يومين من الرحلة، تدخل فيكتور من أجل ولادة طفلة في العيادة. كان قد رأى أشد الجراح فظاعة، والموت بكافة أشكاله، ولذلك لم يكن قد خطي بحضور بداية حياة جديدة من قبل. وعندما وضع الوليدة الحديثة على صدر أمها، وجد صعوبة في إخفاء دموعه. وفدّم القبطان شهادة ميلاد الطفلة أغنيس أميركا وينبيرغ. وذات صباح، لم يغادر فراشه الرجل الذي يشغل سريرًا علويًا في المهجع الذي بنام فيه فيكتور، ولم يخرج لتناول وجبة الفطور. ولاعتقادهم أنه نائم، لم يحاول أحد إزعاجه حتى منتصف النهار، عندئذ هزّه فيكتور كي ينهض لنسوء الغداء، فوجده ميتًا. في هذه المناسبة، كان على القبطان بوبين أن يصد شهادة وفاة. وفي مساء ذلك اليوم، بعد طقوس مقتضية، ألقوا بالجثمان إلى البحر ملفوفًا بمشمع. ودّعه رفاقه مصطفين على سطح السفينة، و. يترنمون مع كورال الباسكيين بواحدة من أغنيات الحرب. وقد علّق روزر قائلة: «ها أنت نرى، يا فيكتور، كيف أنّ الحياة والموت يعضيان على الدوام جنبًا إلى جنب».

تجاوز العاشقون عائق عدم توافر الخصوبة باستخدامهم قوارب النجاة. فكان لا بدّ لهم من التناوب بانتظام من أجل ممارسة الحب، مثلما يناوبون من أجل كل شيء، فبينما يكون عاشقان يستمتعان في الزورق، يقوم صديق لهما بالحراسة من أجل تنبيه بقية المسافرين، وشغل انباه أي عنصر من طاقم الملاحة يقترب من المكان. وعندما عرفوا أنّ فيكتور وروزر قد تزوجا حديثًا، تخلى لهما أكثر من واحد عن دوره، لكنهما كانا يرفضان ذلك بمظاهر امتنان وافترة، غير أنّ تعامهما ذلك استثار الشكوك بعد مضي شهر كامل من دون أن يُبدى أي نوع من التلهف الغرام. فذهبا في مناسبتين اشتبنت إلى مكان الغراميات منفصلتين، مثلما يفعل

مع العاشقين الآخرين بحب اتفاق مبق. ذهبت هي أولاً وقد
است وجهها حمرة الخجل، ثم لحق بها وهو يشعر كما لو أنه أبله، بينما
أنا، هناك شخص متطوع يتمشى حاملاً مارسيل على سطح السفينة.
إن الزورق خائفاً، وغير مريح، تفوح منه رائحة سمك منعفن، ولكن
المخاطبة تواجدتهما وحدهما معاً، وتبادلتهما الحديث همساً بلا شهود،
أد من اتحادهما من دون أن يمارسا الحب. فاستلقا لهما متجاورين،
كما هي تضع رأسها على كتفه، وتبادلتهما الحديث عن الغائبين، وليام
(فارمي، من لا يريد أن تصوّرهما ميتين، وليتأمل حول الأرض المجهولة
التي تنتظرهما في نهاية العالم، ويُخطّط للمستقبل. سيحاولان الاستقرار
.، تشيلي والحصول على عمل في أيّ مجال ممكن، فهذا هو الأمر
المستعجل! بعد ذلك، يمكنهما الطلاق، ويكون لكل منهما حرية
الصرف بحياته. سببت لهما تلك الأحاديث العز. طلبت منه روزر
أن يبقيا صديقين دوماً، لأنه الشخص الوحيد من العائلة المتبقي لها
، لابنها. فهي لا تشعر أنها جزء من أسرتها الأصلية في سانتا ف، إذ لم
مررها إلا في مناسبات قليلة جداً، منذ أن أخذها سانتياغو غوثمان لتعيش
في بيته، ولم يُقد هناك ما يربطها بتلك الأسرة. كثر لها فيكتور وعده
بأن يكون أبناً طيباً لمارسيل. وأضاف: «طالما أنا قادر على العمل، لن
بمضكما أي شيء». لم يكن هذا الأمر هو ما تعنيه روزر، فهي تشعر
بأنها قادرة تماماً على إعالة نفسها بنفسها، وعلى الخروج فدماً بالطفل،
ولكنها فضّلت الصمت. كان كلاهما يتجسّب الخوض في الموضوعات
ال عاطفية.

أول محطة توقّف للسفينة كانت في جزيرة غوادالوبي، التابعة
لفرنسا، من أجل تزويد السفينة بالمؤن والماء؛ واصلوا الإبحار بعد

ذلك حتى ينما، مع توخيهم الحذر طوال الوقت من احتمال الالتهاب، بفواصات ألمائية. وتوقفوا هناك ساعات طويلة من دون أن يدروا ما الذي يحدث، إلى أن سمعوا عبر مكبرات الصوت أنهم قد واجهوا مشاة إدارية. وقد أدى ذلك إلى ما يشبه الثورة بين المسافرين المقتنعين بأد القبطان بوبين قد وجد ذريعة مناسبة للرجوع إلى فرنسا. جرى اغتار فيكتور ورجلين آخرين، لأنهم معروفون بالشجيرة والأتران، وكلّفوا بهذه التحري عما يحدث والتفاوض حول حلّ مناسب. فأوضح لهم بوبين، بانزعاج شديد، أنّ المسؤولية تقع على من نظّموا الرحلة، ذلك أنّهم لا يدفعوا الرسوم المتوجبة للمرور في القناة، وهو الآن يضيّع الوقت ويخسر المال في هذا الجحيم. أوّندرون ما هي تكاليف إبقاء وينبيغ طافية ومن أجل حلّ المشكلة تطّلب الأمر خمسة أيام من الانتظار الحرج. محتجزين في السفينة وسط حرّ كأنه كور حدّاد، إلى أن سمح لهم أخيراً بالمرور ودخلوا في هويس القناة الأول. راقب فيكتور وروزر والمسافرون الآخرون والبخارة النظام المركّب الذي ينقلهم من المحيط الأطلس إلى المحيط الهادي. لقد كانت المناورات المثبّعة أعجوبة في الدقّة، وفي حيّز شديد الإحكام، بحيث يمكن لهم تبادل الحديث مع الرجال الذين يعملون على اليابسة، على جانبي السفينة. وقد تبين أنّ بينهم شخصين بامسكيين رُحّب بهما كورال مواطنيهم الذين على متن وينبيغ بغناء بالياسكيت. في ينما، شعر اللّاجئون بابتعادهم النهائي والحاسم عن أوروبا؛ فالقناة تفصلهم عن أرضهم وعن ماضيهم.

- متى سنتمكن من الرجوع إلى إسبانيا؟ توجهت روزر بالسؤال إلى فيكتور.

- أمل أن يكون ذلك قريباً، فالكوديو فرانكو لن يخلد. لكن كل شيء مرتبط بالحرب.

لماذا؟

الحرب توشك أن تقع، يا روزر. وستكون حرب أيدلوجيات
، أي، ستكون حرباً بين طريقتين في فهم العالم والحياة، حرب
"مفراطية في مواجهة النازية والفاشية، حرب بين الحرية والسلط.
سيضع فرانكو إسبانيا إلى جانب هتلر، ومع أي جهة سيقف
اللعاد السوفيتي؟

إنه نظام ديمقراطية بروليتاري، ولكنني لا أثق بتالين. يمكن
أن يتحالف مع هتلر، ويمكن له أن يتحول إلى طاغية أسوأ من فرانكو.
الألمان لا يهزمون، يا فيكتور.
هذا ما يقال. يجب أن نرى ما سيحدث.

المسافرون الذين كانوا يبحرون أول مرة في المحيط الهادي،
موتوا بتسمية ذلك المحيط، إذ ليس فيه من الهادئ سوى القليل.
ورر وآخرون كثيرون ممن ظنوا أنهم قد شقوا من دوار البحر الأولي،
مادوا للوقوع مصعوفين بهول الأمواج الهائجة، ولكن فيكتور لم يتأثر
بالأ قليلاً، لأنه أمضى فترة الاضطراب مشغولاً، في حجرة الإسعاف،
بولادة طفل آخر. وبعد أن تجاوزوا كولومبيا والإكوادور، دخلوا في
المياه الإقليمية للبيرو. كانت درجات الحرارة قد انخفضت، ذلك أنهم
صاروا في شتاء نصف الكرة الأرضية الجنوبي؛ ومع انتهاء الحرّ الفظيع
الذي كان أسوأ ما في ذلك التكديس في السفينة، تحسنت معنويات
المسافرين كثيراً. لقد صاروا بعيدين عن الألمان، وتضاءلت احتمالات
أن يبذل القبطان بوين وجهة السفينة. إنهم يقتربون من وجهتهم بعزيج
من الأمل والتوَجُّس. وكان وضعهم سيئاً في مجادلات حامية في مجلس

الشيخ، وفي الصحافة التشيكية، ولكنهم علموا كذلك أنَّ هناك خطفاً لمساعدتهم في الإقامة والعمل، تضمها الحكومة، وأحزاب ميلاس، ياريف، ونقابات وتجمعات مهاجرين إسبان جاؤوا قبل ومن طويل إلى البلاد. لن يُنخلَى عنهم، ولن يتركوا لمصيرهم.

الفصل السادس

1939 - 1940

«بل هو وطننا،
«هو خذ العاري كسكين
أحج رأيتنا الحاسة.

پابلو نيرودا
«أجل، يا رفيق، إنها ساعة حديقة»
البحر والأجراس

في الأيام الأخيرة من شهر آب/أغسطس، وصلت وينيبغ إلى
 أريكا، أول مرقا في شمالي تشيلي، وكان المكان مختلفاً جداً عن الفكرة
 التي لدى اللّاجئين عن بلد أميركي جنوبي: فلا شيء من الأدغال
 أو الشايكة أو الشواطئ المتوقعة بنخيل جوز الهند! إنها أكثر شبهة
 الصحراء. قيل لهم إنّ مناخها معتدل، والمنطقة المأهولة هي الأكثر
 «مافاً في العالم! تمكّنوا من رؤية الشاطئ من البحر. وفي البعيد،
 كانت سلسلة جبال بنفسجية أشبه بلطخات فرشاة ألوان مائية على
 السماء صافية بلون الخزاسي. توقفت السفينة في أعالي البحر، وسرعان
 ما اقترب منها زورق فيه موظفو هجرة، وآخرون من الإدارة القنصلية في
 وزارة الخارجية، وصعدوا إلى السفينة. قدّم لهم القبطان مكتبه كي
 ينادروا إلى إجراء مقابلات مع المسافرين، وتزويدهم بوثائق شخصية،
 وناشيرات، وإخبارهم في أيّ مكان من البلاد ستكون إقامتهم، بحسب
 نوع أعمالهم. دخل فيكتور وروزر، وهارسل بين ذراعيها، إلى قمرة
 القبطان الضيقة، ووقفوا أمام موظف قنصلي شاب، ماتاياس إيثاغيري،
 الذي كان يختم تأشيرة دخول على كلّ وثيقة، ويمهرها بتوقيعه.

- يقولون هنا إنّ إقامتكم ستكون في مقاطعة نالكا - أوضح لهم.
 هذا التّحديد للمكان الذي يجب أن تستقروا فيه، ليس سوى بلاهة

من إدارة الهجرة. ففي تشيلي، ثمة حُرِّيَّة التَّنْقُل. لا تهتفوا بهذا. اذهبوا للإقامة في أي مكان تشاءون.

- هل حضرتك باسكي، أيها السيّد؟ إنني أسأل بسبب الكعب. سأله فيكتور.

- أجداد أجدادي كانوا باسكيين. أمّا هنا، فجميعنا تشيليون. أهذا بكم في تشيلي.

كان ماثياس إيثاغيري قد انطلق في الرحلة إلى أريكا في المقطار كي يصل إلى السفينة وينسبح، التي وصلت متأخرة بضعة أيام. بسبب مشاكل في بنما. إنه أحد أكثر الموظفين شباناً في الخارجيّة. وقد وقع عليه الاختيار لمرافقة رئيسه في العمل. لم يكن أيّ منهما قد جاء راجعاً، لأنهما كانا معارضين جدّاً لفكرة قبول اللّاجئين في تشيلي، هذا القطيع من الحمر، الملحدين، ورثما يكونون مجرمين أيضاً، بأنون لينتزعوا من التشيليين مواقع عملهم في الوقت الذي تنتشر فيه بطالة خطيرة، ولم تتمكن البلاد من استعادة وضعها الطبيعي من حالة الانكماش الاقتصادي ولا من الزلزال المدمر؛ ولكنهما موظفان يؤدّيان واجبهما. في المرفأ، جعلوهما يصعدان إلى زورق متأرجح، وحملوهما في تحدٍّ للموج إلى السفينة، حيث عليهما أن يصعدا على سلّم من الحبال تتلاعب به الرّيح. ويدفعهما من أسفل بخّارة فرنسيّون من أشدّ الناس فظاظة. وفي الأعلى، استقبلهم القبطان بوبين بزجاجة كونيّاك وسيجار كوبّي. الموظفان يعرفان أنّ بوبين قد قام بهذه الرحلة مكرفاً، وأنّه يمقت حملته، ولكنهما فوجئتا بالرجل. فقد تبين أنّ بوبين، خلال شهر من تبادل الأحاديث مع الإسميان، بدأت آراؤه تتغيّر بشأنهم، مع أنّه

، اافظ على قناعاته السباسبية. ولقد عانى هؤلاء الناس كثيرا أياها السادة. أأهم أشخاص طيبو الخلق، منظمون ومحترمون، وهم أتون إلى بلادكم - مستعدين للعمل وتحسين حياتهم، هذا ما قاله للموظفين.

يتحدثر ماتياس إيناغبري من عائلة تعتبر أرستقراطية، ومن أجواء الوليكية ومحافظة، وهو معارض للهجرة، ولكنه كلما التقى بأحد هؤلاء الأجنس، سواء أكانوا رجالا أم نساء أم أطفالا، اكتسب رؤية مختلفة الموضع، مثلما حدث لبوبين. فقد تربى في مدرسة دينية، وعاش محتميا في كنف امتيازات طبقة الاجتماعية. جدّه وأبوه كانا قاضين في المحكمة العليا، واثنان من إخوته كانا محامين، وهو نفسه درس الحقوق، ألما هو متوقع في أسرته، مع أنه لم يكن قد ولد لهذه المهنة. وصل به الأمر إلى إرنياة الجامعة مجبرا لمدة سنتين، ثم دخل بعد ذلك للعمل في وزارة الخارجية بفضل اتصالات أسرته. بدأ من أسفل السلم، وكان قد بلغ الرابعة والعشرين عندما كُلف بعهمة ختم سيمات الدخول للمهاجرين في السفينة ويسينغ، وكان قد جرب ما يعنيه الحصول على راتب موظف حيد وديلوماسي. وبعد قرابة شهرين من ذلك، سبغادر إلى باراغواي في أول مهمة ديلوماسية له، وأمل أن يفعل ذلك بعد أن يكون قد تزوج، أو أجزر خطوبته على الأقل من ابنة عائلة أقرباء له تُدعى أوفيليا دل سولار.

بعد إنجاز مسألة الوثائق، غادر السفينة قرابة اثني عشر مسافرا، لأن لهم عملا في الشمال، ثم أبحرت ويسينغ باتجاه جنوبي تلك البتلة الطويلة بحسب قول نيرودا. وعلى متن السفينة، كان وجوم صامت قد بدأ يسبظر على الإسبان. في اليوم الثاني من شهر أيلول/سبتمبر، رأوا الوجهة البحرية لمدينة البارايسو، الوجهة النهائية للرحلة البحرية. وعند الغروب، رست السفينة أمام المرفأ. كان التلهف الجزع على متن السفينة

يتبدى في الهذيان الجماعي.. أكثر من ألفي وجه متلُف تجُمعت على السطح العلوي بانتظار اللحظة التي سيطؤون فيها تلك الأرض المجهولة، لكن سلطات الميناء قرّرت أن يتمّ النزول إلى البرّ في اليوم التالي على ضوء الصباح، ويهدوء. آلاف الأضواء المرتجفة في المرفأ وفي البيوت على هضاب البياريسو العالية كانت تتنافس مع النجوم، بحيث لم يكن بالإمكان تحديد أين ينتهي ذلك الفردوس الموعود، وأين تبدأ السماء. إنها مدينة غريبة ومستهجنة، مدينة أدراج ومصاعد وشوارع ضيقة للبالغين وبيوت معلقة على سفوح شبه منتصبة، ممثلة بالقفط والكسالي، نائبة وفقرًا، مدينة تجار، وبخارة ورذائل، مثلما هي جميع الموانئ قربنا، ولكنها رائعة. بدت من الشقينة كأنها مدينة أسطورية مرصعة بالماس. لم ينم أحد في تلك الليلة؛ ظلّ الجميع على سطح الشقينة مبهوتين إبعابنا بذلك المشهد الصحراوي وهم يعدّون الساعات. ولوف ينذكّر فيك، هذه الليلة على أنّها أجمل ليلة في حياته. وفي الصباح، رست وينبيج أخيرًا في تشيلي، وظهرت عليها صورة عملاقة للرئيس بيدرو أغويري ثيردا مرسومة على قماش، وراية تشيلية معلقة على أحد جانبي الشقينة.

لم يكن هناك في الشقينة من ينتظر الاحتضان الذي استقبلوا به فقد جرى تحذيرهم كثيرًا من حملة التشويه البعيدة، ومعارضة الكنيسة الكاثوليكية الصارمة، ونحفظ التشيليين الذي يُضرب به المثل. ففي اللحظات الأولى، لم يفهموا ما الذي يحدث في الميناء، إذ كانت الجموع المصطفة وراء حبال الحجز تحمل لافتات وأعلامًا إسبانية، أعلام الجمهورية، والباسك، وكاتالونيا، وكانوا يهتفون مرحّبين بصراخ مبجوح كانت هناك فرقة موسيقية نمرّف نشيدي تشيلي وإسبانيا الجمهورية. وكذلك التشيد الأُممي، بمشاركة كورال من مئات الأصوات. الأغنية

«المنبئة التشيلية تلخص في سطور قليلة، وعاطفية بعض الشيء، الروح
«المضيافة والميل الطبيعي إلى الحرية لدى البلد الذي يستقبلهم: «أبها
«(ومن العذب، تلقى العهود/ التي أقسمت عليها تشيلي فوق مذبحك،/
«إما أن نكون قبرا للأحرار،/ أو ملاذا من الاضطهاد والظلم». وعلى
«سطح السفينة، كان المناضلون الجُلُف الذين مرّوا بتجارب قاسية،
«يكون. في الساعة التاسعة، بدأ النزول من السفينة في رتل أحادي على
«ممرٍ معلق. وفي الأسفل، مرّ كلّ لاجئ من خيمة الرعاية الصحفية ليتلقى
«أهلا، ثم يرتعي بين ذراعي تشيلي، مثلما سيُعبّر عن ذلك بعد سنوات
«فيكتور دالماو، عندما تمكن من تقديم الشكر شخصيا ليايلو نيرودا.

في ذلك الثالث من أيلول/سبتمبر 1939، اليوم المشرف الذي
«سمل فيه المنفيون الإسبان إلى تشيلي، اندلعت الحرب العالمية الثانية
«في أوروبا.

كان فيليه دل سولار قد قام بالرحلة إلى ميناء البارابسو في اليوم
«السابق لوصول وينبيغ، لأنه يرغب في حضور ذلك الحدث التاريخي،
«إما كان يصفه. فبحسب رأي أصحابه في نادي الغاضبين، وهو رأي شديد
«المبالغة: يقولون فيه إن حماسه للأجانب لم تكن تستند إلى طيبة قلبه،
«فقد استنادها إلى رغبته في مخالفة موقف أبيه وعائلته. أمضى شطرا لا
«بأس به من اليوم في مصافحة القادمين الجدد. مختلطا بالناس الذين ذهبوا
«لاستقبالهم، وتبادل الحديث مع من وجدوه هناك من معارفه. بين الحشود
«المتحمسة في الميناء، كانت تتواجد سلطات حكومية، وممثلون للعمال
«والجاليثين الكتلائية والباسكية الذين كان على تواصل معهم خلال
«الأسهر الأخيرة، من أجل التحضير لوصول وينبيغ، وقد حضر إلى هناك
«أيضا فنانون ومثقفون وساميون. من بينهم طبيب من البارابسو يدعى

سلفادور ألييندي، هو فائد اشتراكي عُيِّن بعد أيام من ذلك وزيراً للصحة. وبعد ثلاثين سنة أخرى سيكون رئيساً لتشيلي. وعلى الرغم من صمته، كان شخصية بارزة في الأوساط السياسية، يقدره البعض ويعارمه آخرون، ولكنه محترم من الجميع. وكان قد شارك أكثر من مرة في لقاء الفاضلين، وعندما تعرّف على فيليبي دل سولار بين الحشد، حيّاه من بعد كان فيليبي قد حصل على دعوة للضعود إلى القطار الخاص الذي نقل المسافرين من باليارايسو إلى ستياعو. وهناك توافرت له عدة ساعات ليحصل على معلومات ساخنة حول ما جرى في إسبانيا، إذ لم تكن تُعرف من خلال الصحافة سوى شهادات أشخاص قليلين، مثل بابلو نيرودا. فمن تشيلي، كانت الحرب الأهلية الإسبانية حدثاً هاماً جداً، كما لو أنه قد حدث في عصر آخر. كان القطار يتقدّم من دون توقّف، ولكنه يمرّ ببطء شديد أمام محطات القرى التي على الطريق. ففي كلّ قرية، هناك حشدٌ يحيي القادمين الجدد برايات وأغنية. وشطائر وحلويات، يقدّمونها من خلال التوافذ وهم يركضون إلى حاف العربات. في العاصمة ستياعو، كانت تنتظرهم في المحطة حشود ضخمة، وازدحام يجعل المشي أمراً مستحيلاً. كان هناك أشخاص، تسلّقوا الأعمدة، أو آخرون يتعلّقون على دعائم ويحيون صارخين، بغثود ويرمون أزهاراً في الهواء. فكان على رجال الدرك أن يتدخلوا لإحرام الإسبان من المحطة، وأخذهم إلى العشاء، حيث قدّمت تشكيلة مأكولات تشيلية وافرة، أعدتها لهم لجنة الاستقبال.

في القطار، كان فيليبي دل سولار قد سمع فصصاً مختلفة، ربما بينها خيط النكبة المشترك. انتهى به المطاف إلى الموقف بين هرتية. ليدسّخ مع فيكتور دالمار الذي قدّم له رؤيته للحرب، ابتداءً من العام وحتى الموت في مراكز الإسعاف الأولي والمستشفيات الميدانية.

- ما عايناه في إسبانيا هو عينة صغيرة لما سيعانونه الآن في أوروبا،
هـ فيكتور إلى القول، لقد جُزِبَ الألمان أسلحتهم بنا، خلّفوا قرى
البلد وقد تحوّلت إلى أنقاض. سيكون الوضع أسوأ في أوروبا.

- في الوقت الحالي، لا يقف في مواجهة هتلر سوى إنكلترا
وأمريكا، ولكنهما تعتمدان بكل تأكيد على حلفاء آخرين. سيكون على
الأميركيين أن يتخذوا موقفاً - قال فيليب.

- وماذا سيكون موقف تشلي؟ سألته روزر، وكانت قد اقتربت
أملة طفلها على ظهرها في الجعبة نفسها التي استخدمتها طوال أشهر.
- هذه روزر، امرأتي، قدّمها فيكتور.

- تشرفت، يا سيّدتني. اسمي فيليب دل سولار، في خدمتك. لقد
- ذنني زوجك عليك. حضرتك عازفة بيانو، أليس كذلك؟

- أجل. عاملني من دون تكلف، أرجوك، قالت روزر، وكثّرت عليه
السؤال.

حدّثها فيليب عن حجم الجالية الألمانية الكبيرة، والمستقرّة في
البلاد منذ عدّة عقود، وذكر النازيين التشيليين، ولكنّه أضاف أنّه ليس
هناك ما يُخيف. فتشيلي ستبقى على الحياد بكل تأكيد خلال الحرب.
فاسم معها قائمة الصناعيين ورجال الأعمال الرّاضعين بتوفير عمل لبعض
الإسبان، بما يتفق مع مهاراتهم، ولكن لم تكن أي واحدة من تلك الوظائف
سامة ليفكتور. ولا يُمكنه أن يعمل في العمل الوحيد الذي يعرفه من دون
أن تكون لديه شهادة طبيب. نصحه فيليب بالتسجيل في جامعة تشلي، فهي
جامعة مجانيّة ومشهورة جداً، ويمكنه أن يدرس هناك الطب. ورثعاً يعترفون
له بما درسه سابقاً في برشلونة، وبالمعارف المكتسبة خلال الحرب.. ومع
ذلك، سيحتاج إلى سنوات من الدراسة للحصول على الشهادة.

- المهمّ أولاً هو كسب العيش، ردّ عليه فيكتور. سأحاول الحصول على عمل ليلي كي أدرس في النهار.

- وأنا أيضاً بحاجة إلى عمل، قالت روزر.

- بالنسبة إليك، سيكون الأمر سهلاً. فنحن بحاجة على الدوام إلى عازفي وعازفات بيانو في هذه الأثناء.

- هذا ما قاله نيرودا، أضاف فيكتور.

- في الوقت الحالي، ستأتيان للإقامة في بيتي، قرّر فيليبه.

كانت لديه غرفتان شاغرتان، وقد استبق وصول وينبج بالتعاقد مع عاملتين منزليتين إضافيتين؛ كانت لديه طاهية وموظفان منزليتان؛ وهكذا، يتجسّب المزيد من المشاكل مع خوانا. مفاتيح الغرف الشاغرة في بيت أبويه التي لم تكن المرأة الطيبة تفلتها. كانت الشبّ الوحيد للشجار بينهما طوال بضع وعشرين سنة، ولكنّهما كانا متحابين كثيراً إلى حدّ لا يسمحان معه لمثل هذا الأمر بأن يفرّق بينهما. عندما وصلت برفيّة أبيه من باريس، موضحاً فيها أنّه لا يمكن ولو لأحمر واحد أن يدخل بيته، كان فيليبه قد قرّر ترتيب أموره من أجل استقبال بعض الإسبان تحت سقفه. وقد بدت له أسرة الزوجين دالماً مثاليّة.

- أشكرك جزيل الشكر، ولكنني علمت أنّ لجنة اللاجئين قد حصلت لنا على مأوى في بنسيون، وأنهم سيتولّون دفع نفقات الإيجار خلال الأشهر الستة الأولى، قال فيكتور.

- لديّ بيانو، وأنا أقضي اليوم في مكتبي. ويمكن لك يا روزر أن تعزفي عندما تشائين من دون أن يُزعجك أحدا

كانت هذه حجة حاسمة. البيت القائم في حيّ بدا للمضيفين أنّه من منرفين، وكأحد أفضل أحياء برشلونة، كان بيتاً أنيقاً من الخارج، وشبه خاو من الداخل، لأنّ فيليبه لم يشتر سوى الأثاث الضروري الذي لا غنى عنه؛ فهو يمتت أسلوب أبويه في التدقيق بكل شيء. لا وجود لتأثير على التوافد ذات الزجاج المشدوف، ولا لسجاجيد على الأرضية الخشبية، ولا مزهرية أو أية نبهة زينة مرئية، والجدران ألبها عارية؛ ولكن على الرغم من ضآلة الديكور، كانت هناك أجواء لا شك في ترفها المرهف. قدّم لهما حجرتين وحماماً، مع خدمة إحدى الاممات التي خصّها فيليبه بدور المربية للطفل. فهكذا، سيكون لدى الصغير مارسيل من يعتني به خلال ذهاب أبويه إلى العمل.

بعد يومين اثنين من ذلك، رافق فيليبه روزر إلى محطة إذاعة، دبرها صديق له. وفي ذلك المساء بالذات، أجلسوها قبالة بيانو لرافق أحد البرامج. وبينما هي تعزف، تحدّثوا عن موهبتها في العزف وقدراتها كمعلمة موسيقى، وعن أنّها لن تقتصر أبداً إلى ترص عمل. وحصل فيكتور على عمل في بار نادي الغروسيّة بالوسيلة التقليدية نفسها بين المعارف، حيث تعتبر المزاياء والقدرات أقلّ أهميّة من النوصية. وكانت وردية عمله من الساعة السابعة مساءً حتّى الثانية بعد منتصف الليل؛ وهذا يتيح له متابعة الدراسة فور تمكّنه من التسجيل في كليّة الطب، وهو ما سيكون سهلاً جداً بحسب رأي فيليبه، لأنّ عميد الكليّة من أقرباء عائلة أمّه، آل يشكارا.

بدأ فيكتور بحمل صناديق البيرة وغسل الكؤوس، إلى أن تعلّم التمييز بين أنواع الأنبذة، وكيفية تحضير الكوكتيلات. عندئذ، وضعوه وراء منضدة الكونتوار، حيث عليه المشول ببذلة سوداء،

وقميص أبيض وربطة عنق على شكل فراشة. لم يكن لديه سوى
غيار ملابس داخلية واحد، والبدلة التي اشتراها بنقود آيتور إيبازا عما
هرويه من مخيم أرجيليه - سور مار، ولكن فيليبه وضع خزانة ملابس
كلها تحت تصرفه.

تحمّلت خوانا نانكوتشيو أسبوعًا واحدًا من دون السؤال عما
يكون هؤلاء الذين آواهم في بيته! إلا أن الفضول صار أقوى من
عزة النفس، فحملت صبيّة لحم دجاج خارجة لتوها من الفرن، وذابت
تنشّم وتستطلع. فتحت لها الباب الخادمة الجديدة وهي تحمل طفلًا
بين ذراعيها. وقالت لها: «الادة غير موجودين». فلزاحتها خوانا جانبًا
بدفعة واحدة ودخلت بخطوات واسعة. فثبت كل شيء من أعلى
إلى أسفل، وتأكد لها أن أولئك «الحمراء» كما يسميهم دون إيسيدرو،
كانوا نظيفين ومرتبين بما يكفي؛ رفعت أغطية قدور المطبخ، وأعطت
تعليمات لمرتبّة الطفل، وقدّرت أنها صغيرة جدًا ولها وجه بلهاء: «أبى
تمضي متّكة أم هذا الطفل؟ أمر لائق جدًا إنجاب أبناء وتركهم
مهملين. إنه لطيف، هذا الصغير مارسيل، لا يمكن إتكار ذلك. عيان
واسعتان، سمين وغير خواف، لقد ألقى بذراعيه حول عنقي، وتعلّق
بجديلة شعري»، هذا ما قالته فيما بعد لفيليه.

في يوم الرابع من أيلول/سبتمبر، بباريس، كان إيسيدرو دل
سولار يهين امرأته كي يُخبرها بقراره حول مدرسة الأنسات في لندن،
حيث كان قد سجّل أوفيليا، عندما فاجأهم خبر أن الحرب قد بدأت.
كان النزاع الحربى متوقّفًا منذ عدّة شهور، ولكن إيسيدرو كان قد تدبّر
أموره لاستبعاد الهلع الجماعى، لأنه يشوّش عليه إجازته. الصحافة
تبالغ. العالم كان على الدوام على حافة مشكلة حربيّة، فما الحاجة

إلى الشعور بالغم لمثل هذا الأمر! ولكن كان يكفيه الإطلال من باب
 مرت كي يُدرك خطورة ما يحدث. فقد واجهه نشاطٌ محموم، كان موظفو
 المصدق يترაკضون حاملين حقائب وصناديق، بينما التزلاء يندافعون؛
 الشبكات يحملن كلابهنّ المدلّلة، والشادة يتشاجرون على سيارات
 الأجرة المتوافرة، والأطفال ييكون مشوّشين. وفي الشارع كان يسود
 بذلك اضطراب وفوضى معركة: نصف المدينة يحاول الهروب إلى
 الزيف ريشما تنضج الأمور. كانت حركة المرور متوقفة بسبب ازدحام
 وشابك السيارات المحملة بجزم أمتعة حتى السقف، وتحاول التقدّم
 من مشاة متعجلين، ويُسمع دويّ تعليمات حاسمة من مكبرات صوت،
 حراس خيالة يحاولون الحفاظ على النظام. فكان لا بدّ لإسيدر دِل
 سولار من تقبّل أنّ خططه بالعودة إلى لندن بطمأنينة، وإخراج السيارة
 الأحداث موديلًا التي كان قد اشتراها لينقلها إلى تشيلي، ويبحر في
 السفينة ملكة الباسفيك، قد ذهبت كلّها إلى الشيطان. وصار عليه أن
 يعاد أوروبا بأقصى سرعة. اتّصل بسفير تشيلي في فرنسا.

مرت ثلاثة أيّام غمّ، قبل أن تتمكّن المفوضيّة التشيليّة من
 الحصول له على تذاكر سفر في آخر سفينة تشيليّة متوافرة، وهي سفينة
 شحن ممثلة إلى حدّ الاكتظاظ بثلاثمئة مسافر، حيث يسافر في العادة
 خمسون شخصًا. ومن أجل إيجاد مكان لآل دِل سولار، كانوا على
 وشك إزّال أسرة يهوديّة من السفينة، كانت قد اشترت تذاكرها، ورثت
 نصلًا تشيليًا بمجوهرات إحدى الجدّات من أجل الحصول على
 التأشيرات. ولكن حدث أنّه لم يُقد يُسمح بصعود يهود، وإلاّ ستعاد
 السفن التي هم فيها إلى نقطة انطلاقها، إذ لا وجود لأيّ بلد يتقبّلهم.
 تلك العائلة، مثل عدّة عائلات أخرى بين المسافرين، كانوا قد خرجوا

من ألمانيا بعد أن عانوا مضايقات رهيبة، وحُرموا من حمل أية مقتنيات ثمينة. لقد كان الابتعاد عن أوروبا، بالنسبة إليهم، مسألة حياة أو موت. وقد سمعهم أوفيليا يتوشلون إلى القبطان، فيأذون إلى التنازل لهم عن كيبنتها من دون أن تناقش الأمر مع أبونها، مع أن ذلك يعني أن تنقسم سريراً ضيقاً مع أمها. «في أزمنة الأزمات لا بد من التأقلم»، هذا ما قاله إيسيلرو، ولكنه كان غير مرتاح بخليط أناس من أجناس مختلفة، من ضمنهم قرابة ستين يهودياً، والطعام السيئ المؤلف من الرزّ والمزيد من الرزّ، وعدم توافر الماء للاستحمام، والخوف من الإبحار في الظلام للشخفي عن الطائرات. فكان يقول: «لا أدري كيف سنتحمل البقاء شهراً في الزحام مثل السردين في هذا الهيكل الحديدي الصديء!» بينما كانت امرأته تصلي، وابنته تشغل نفسها بتسلية الأطفال ورسم صور ومشاهد ممّا يدور على متن السفينة. وسرعان ما أقدمت أوفيليا، بوحى من كرم أخيها فيليب الذي يُضرب به المثل، على توزيع جزء من ملابسها على اليهود الذين صعدوا إلى السفينة وليس لديهم سوى ما يلبسونه. «لقد أنفقنا الكثير في المتاجر لتقوم هذه الصغيرة بتوزيع ما اشتريناه! ولحسن الحظ أن جهازها كمروس موجود في الصناديق المحفوظة في مستودع السفينة»، غمغم إيسيلرو متفاجئاً بتصرف ابنته التي تبدو شديدة الطيش والاستهتار. بعد شهر من ذلك، ستعلم أوفيليا أن الحرب العالمية الثانية قد أنقذتها من مدرسة الأنسات اللندنية.

الإبحار في الأزمنة العادية يستمرّ ثمانية وعشرين يوماً، ولكنه تحقّق بأقصى طاقة المحركات في اثنين وعشرين يوماً، مع تجاوز ألفام طاقبة، وتغادي البوارج الحربية لكلا الجانبين المتحاربين. لقد كانوا نظرياً بمنجى من الحرب، لأنهم يسافرون تحت راية تشيلي المحايدة، ولكن يمكن عطفاً

١٠. يحدث سوء تفاهم مأساويّ ينتهي بإغراق السفينة على يد الألمان،
 ١١. على يد الحلفاء. وفي قناة بنما، شهدوا إجراءات حماية استثنائية ضد
 أعمال التخريب، وشبكات الخطف، وعمليات غوص لالنفط قنابل محتملة
 ، روكة في أهوسة القناة. بالنسبة إلى كل من لورا وإيدرو دل سولار، كان
 الحرز والبرغش عذاباً حقيقياً، وانعدام الراحة ساحقاً، وغمّ الحرب يُقيهما
 معدة مكبلة. أمّا أوفيليا، فكانت تلك التجربة أكثر تسلياً لها من الرحلة في
 ملكة الياسفيك، بهوانها المكيف ومجون الشوكولاتة فيها.

كان فيليه بانتظارهم في البارايسو بسيارته وشاحنة متأجرة،
 بفودها سائق الأسرة، من أجل نقل الأمتعة. أخته التي كانت تبدو له
 «وما زينة الطبع وشادة المظهر، فاجأتها هذه المرأة. وبدت له أكبر وأكثر
 حذية، فقد طال جسدها، وبرزت تقاطيعها وملامحها؛ لم تُعد تلك البنت
 التي لها وجه الدمية الذي كانت عليه، بل هي شابة مثيرة للاهتمام.
 ولو لم تكن أخته لقال إن أوفيليا جميلة جداً. مانياس إيتاغيري كان
 مي المرفأ أيضاً، مع سيارته، وكان يحمل باقة ورود لخطيبته الكارمة.
 وقد اندهش، مثل فيليه، لرؤيته أوفيليا. فهي جذابة على الدوام، ولكنها
 تبدو له الآن أكثر فتنة، وداهته شكوك فظيعة بأن شخصاً آخر أكثر منه
 ذكاء أو ثراء سينزعها منه. قرّر أن يسبق مخططاته. سيطلعها فوراً على
 خبر مهمته الدبلوماسية الأولى، وأنهما سيكونان عملاً قريب وحدهما،
 وسبقاً لها خاتم الألماس الذي كان لجدة جدته. أحسّ بفرق عصبي
 يبلل قميصه، من يدري كيف سيكون رد فعل هذه الشابة متقلبة الأطوار
 بمسألة الزواج والعيش في الباراغواي!

مرّت قافلة السيّارئين والشاحنة وسط جماعة من قرابة عشرين
 شاباً يحملون صلباناً معقوفة، ويحتجون ضد اليهود الذين يافرون

في السفينة، ويصرخون شائمين من جاؤوا لاستقبالهم. «يا للنا..
المساكين، يأتون هاربين من ألمانيا.. وانظروا كيف يستقبلونهم هنا!
هلقت أوفيليا. فطمأنها ماتياس: «لا تهتمّي بهذا الأمر، سيتولّى رجال
الدرك تفريقهم».

في الرحلة إلى منتياغو، أربع ساعات في طريق متعرج وغير
مرصوف، يمضي فيليب بأبوته في إحدى السيارات، وقد وجد الوقت
ليروي لهما كيف بدأ الإسبانيون بالتأقلم بصورة رائعة، وخلال أقل من
شهر كان معظمهم قد استقرّوا، وبدأوا يعملون. وكيف أنّ عائلات تشيلية
كثيرة قد استضافتهم! وبدأ مخزيًا أن يكون لدينا بيت كبير فيه نصف
دزينة من الغرف الخاوية، ولا نفعل ذلك. «أعرف أنّك قد أدخلت بعض
الملحدين الشيوعيين إلى بيتك. سوف تتدم على ذلك»، نُبّهه إيسيدرو
فأوضح له فيليب أنّ لا شيء من الشيوعيين، رُما يكونون فوضويين، أمّا
بشأن كونهم ملحدين، فلا بدّ من التّحري عن ذلك. حدّثهم عن الزوجين
دالماو، وكيف أنّهما محترمان ومشفقان، وعن الطفل الذي وقع في حب
خوانا. كان إيسيدرو ولورا قد عرفا أنّ خوانا نانكوتشيو الوفية قد خاتمتها،
وأنها تذهب يوميًا لرؤية الطفل مارسيل، وتشرف على طعامه والخروج به
إلى الحديقة العائمة لتعريضه للشمس مع ليوناردو، نظرًا لأنّ الأم تبقى
في الشوارع، على حدّ قولها، ولا تتواجد أبدًا في البيت بسبب البيان،
بينما الأب يعيش محشورًا في بار. بدأ لفيليب مدهشًا أن يكون أبواه قد
حصلوا على كلّ هذه المعلومات وهم في أعالي البحار.

في شهر كانون الأول/ديسمبر، سافر ماتياس إيتاغويري إلى باراغواي
للعمل تحت إمرة سفير مستبدّ في معاملة مرؤوسيه، ومثّل مع من هم أعلى
منه في السّلّم الاجتماعي. وقد كان ماتياس في هذه المرتبة الاجتماعية

«الآن ذهب وحيداً، لأن أوفيليا رفضت النخاتم بحجة أنها قد عاهدت أباهما
 «البقاء عازية حتى يلوغها الحادية والعشرين. كان مانياس يعرف أنها
 «أرادت الزواج، فليس بإمكان أحد أن يمنعها من ذلك! ولكنه استسلم
 «للمنظار، مع المجازفة بما يقتضيه ذلك. لقد كان لدى أوفيليا قاتض من
 «المجبن، لكن حمويه المستقبلين أكدا له أنها ستكون في رعاية حذرة
 «أعطى الصغيرة وقتاً، يا مانياس، إنها لا تزال غير ناضجة. سوف أصلي
 «أجلكما، كي تتزوجا وتكونان سعيدين»، هذا ما وعدته به دونيا لورا.
 «ان مانياس يفكر في إغواء أوفيليا بصورة نهائية عن بُعد، وغير مراسلات
 «أصله. فيضان من رسائل الحب، فمن أجل هذا وجدت خدمة البريد،
 «م قادر على أن يكون أكثر فصاحة وبراعة في الكتابة مما هو عليه في
 «العلم. لا بد من الصبر. إنه يحب أوفيليا مذ كانا صغيرين، فقد ولدا ليكون
 «أول منهما للآخر، وليس لديه أدنى شك في ذلك.

قبل أيام من أعياد الميلاد، أمر إيسيدرو دك سولار بإحضار
 «موص من الريف لم يتعد إلا على الحليب، مثلما يفعل كل عام في هذه
 «المناسبة، وتعاقد مع جزّار لتقطيعه في الفناء الثالث للبيت، بعيداً عن
 «طر كل من لورا وأوفيليا والطفل. وقد أشرفت خوانا على تحويل الحيوان
 «المسكين إلى لحم شواء. وفتائق وشرائح، وجامبون وشحم مذاق. فقد
 «نان إيسيدرو هو من سيتولى موضوع عشاء يوم 24 كانون الأول/ديسمبر،
 «حيث تجتمع الأسرة الموسعة كلها، وإقامة مغارة ميلاد في المدفأة مع
 «مى من الجبس جي، بها من إيطاليا. وفي وقت مبكر من الصباح، حين
 «هبت خوانا حاملة القهوة لسيدها في المكتبة، وقفت جامدة أمامه.

«هل حدث شيء، يا خوانا؟

«أنا أرى أنه يجب دعوة شيوخ عيني الطفل قبله.

رفع إيسيدرو دل سولار نظره عن الجريدة، وظلّ ينظر إليها - الزر -
- أقول هذا من أجل مارسيل الصغير، قالت خوانا.
- من؟

- حضرتك نعرف عنّ أتكلّم، أيّها السيّد. إنه الطفل، ابن الشيوخ.
- الشيوخيون لا يهتمّون بعيد الميلاد، يا خوانا. فهم لا يؤمنون.
بالربّ أصلاً، ولا يعيرون أيّ اهتمام للطفل يسوع.

كتمت خوانا صرخة مفاجئة، ورسمت إشارة الصليب. كان قلبه
قد شرح لها كومة من بلاهات الشيوخيين عن المساواة والصراع الطبقي،
ولكنّها لم تسمع من قبل عن أحد لا يؤمن بالربّ، ولا يهتمّ بالطفل يسوع
وقد احتاجت لدقيقة كاملة كي تتمكّن من استعادة القدرة على الكلام
- لا بدّ أنّ الأمر كما تقول، أيّها السيّد، ولكن ليس للصغير أيّ دور
في ذلك. وأنا أفكر بأنّه لا بدّ من دعوتهم لتناول العشاء هنا في ليلة الميلاد.
لقد نلت هذا الصغير في قلبه، وهو موافق. وكذلك السيّد لورا وأوفيليا

وهكذا، كان أن أمضى آل دالماو أوّل عيد ميلاد لهم في تشيلي مع
آل دل سولار مجتمعين كلّهم معاً. ارتدت روزر الثوب نفسه الذي خاطته
من أجل زفافها في بيرينيان، ثوباً أزرق غامقاً مع تطبيقات أزهار بيضاء.
في العنق، وجمعت شعرها عند قذالها بشبكة سوداء مطرّزة، وبروش
من السيج الأسود، كانت قد أهدتها إباء كارمي حين علمت أنّها تنتظر
مولد ابن لوليام. «لقد صرّبت كُثّي، وهذا لا يتطلّب أوراقاً ثبوتية»، قالت
لها. وارندى فيكتور واحدة من بدلات فيليب، وكانت واسعة عليه بعض
الشيء، وقصيرة قليلاً في الساقين. وعندما وصلا إلى البيت في شارع
مار ديلا بلاتا، استحوذت خوانا على مارسيل الصغير، وحملته للعب مع

«...» بينما كان فيليب يدفع الزوجين دالعاو إلى الصالون من أجل
 «...» الذي لا بد منه. كان قد أخبرهم أن الطبقات الاجتماعية في
 «...» أنشبه بقالب حلوى من ألف طبقة رقيقة، ومن السهل الانحدار
 «...» الأسفل، ولكن من شبه المستحيل الصعود، لأنه لا يمكن للنقود أن
 «...» حسيًا ونسبيًا. والاستثناءات الوحيدة تعتمد على الموهبة، مثلما
 «...» حال بابلو بيرودا، وعلى الجمال لدى بعض النساء. وقد كانت هذه
 «...» حالة جدّة أوفيليا، وهي ابنة تاجر إنكليزي متواضع، وفاتنة بهيئة ملكة
 «...» بلوكها، وقد جاءت لتحسين السلالة مثلما يقول المتحدّرون منها، من
 «...» بينكازا. ولو كان آل دالعاو تشيليين، لما أُتيح لهم بأي حال أن يدعّوا
 «...» مائدة آل دل سولار، ولكنهم كغرباء أجنب، فإنهم يطعون حاليًا
 «...» ذلك التعميم. وإذا ما سارت أمورهم على ما يرام، فسوف ينهض بهم
 «...» مطاف إلى واحدة من التصنيفات الفرعية المتعددة للطبقة الوسطى
 «...» أن فيليب قد شهِمهم إلى أنهم سيكونون في بيت أسرته عرضة لأن يجري
 «...» مخصصهم، وكأنهم ضواري سيرك، من قبل أناس محافظين، متدبّنين وغير
 «...» مناصحين، ولكن ما إن يتمّ تجاوز ذلك الفصول الأولى حتى يجري
 «...» احتضانهم بكرم الضيافة التشيلي الإجباري. وهذا ما حدث. لم يسألهم
 «...» أحد عن الحرب الأهلية ولا عن أسباب الهجرة، بسبب الجهل من ناحية
 «...» فهم بحسب رأي فيليب، يكادون لا يقرأون سوى صفحات الأخبار
 «...» الاجتماعية في جريدة «الميركوريو»، ولكن بدافع اللطف أيضًا، لأنهم
 «...» لا يريدون إزعاجهم. وبصورة مباغتة، عاد إلى فيكتور حياء أيام مراهقته،
 «...» وكان يظن أنه قد تجاوزه، وظلّ رافقًا في أحد أركان الصالون الفرنسي،
 «...» بين كرسيين من طراز لويس الخامس عشر وبغطاء تنجيد من حرير بلون
 «...» الطحلب، صامتًا أو يرد بأقل ما يُمكن من الكلام. أمّا روزر بالمقابل،

فكانت منطلقة على هواها، ولم تكن بحاجة إلى أن يتوسلوا إليها،
تعرف ألحان أغنيات مرحة على البيانو، ورافقها ككورال عدة أشخاص.
ممن كانوا قد تناولوا كأساً أكثر مما يجب.

أشدّ الحضور انبهاً بالزوجين دالمار هي أوفيليا. فالقليل الذي
كانت تعرفه عنهما وصل إليها من خلال تعليقات خوانا، فكانت تتخيلهما
كما لو أنهما موظفان سوفيتيان كشييان، بالرغم من أن ماتياس قد حذنها
عن تجربته الطيبة مع الإسبان عمومًا، عندما ختم لهم تأشيرات الدخول
في السفينة وينبيغ. كانت روزر شابة تشع طمأنينة، بلا أي أثر من التفاهة
أو الوصولية. وقد أوضحت لكورال من السيدات، جميعهن يلبسن
السوداء مع عقد من اللؤلؤ، وهو زيّ التيليئات المميّزات، أوضحت لهنّ
أنها كانت راعية ماعز، وخياطة، وخياطة، قبل أن تبدأ بكسب عيشها من
البيانو. قالت ذلك بتلقائية احتفي بها كما لو أنها مارست تلك الأعمال
مدفوعة بنزوة طارئة. جلست بعد ذلك إلى البيانو، وانتهى بها الأمر
إلى إغوائهنّ. أحسّت أوفيليا بمزيج من الحسد والخجل لدى مقارنتها
حياتها كأنة جاهلة ومتكاسلة بحياة روزر التي لم تكن أكبر منها إلّا
بنحو سنين، بحب ما قاله لها فليبه، ولكنها عاشت ثلاث حيوات
إنها أنية من الفقر، ونجت من حرب خاسرة، وعانت أحزان الصنفى
وآلامه، وهي أم وزوجة، اجتازت البحار ووصلت إلى أرض غريبة، بدأ
من أمام ويد من وراء، من دون خوف من أي شيء. أرادت أن تكون
محترمة وقويّة وشجاعة، أرادت أن تكون هي نفسها. وكما لو أن روزر قد
عرفت ما تفكر فيه، فافتريت منها وبقيتا معاً لبعض الوقت، تدخّنان على
الشفرة لتهربا من الحرّ. قبل النسبة إلى روزر، بدأ من غير المفهوم لها هذا
الاحتفال بعيد العيلاء في أوج الصيف. وفوجئت أوفيليا بأنها تعترف

١٠ - المرأة المجهولة بحلمها في الذهاب إلى باريس أو بوينس آيرس
 ١١ - فرغ للرسم، وكيف أن ذلك يبدو جنوناً، لأنها خلقت لسوء الحظ
 امرأة، أسيرة عائلتها، والقناعات الاجتماعية الشاذة. ثم أضافت بتقطيع
 الحرة، كي تخفي رغبتها في البكاء، أن العقبة الأسوأ هي التبعة: لن
 يكون بإمكانها أبداً أن تكسب عيشها من الفن. «إذا كانت لديك ميول
 مهيبة إلى الرسم، فسوف تبدأين الرسم عاجلاً أو آجلاً، ومن الأفضل
 أن يكون عاجلاً. ولماذا يجب أن يكون ذلك في باريس أو بوينس آيرس؟
 ما نحتاجين إليه هو الانضباط وحسب. الرسم مثل البيانو، أتدريين؟
 ادزما ما يوقر ما يكفي للعيش، ولكن لا بد من المحاولة»، قالت لها روزر.
 خلال تلك الليلة، شعرت أوفيليا عذبة مرّات بنظرة فيكتور دالماو
 مباشرة تلاحفها عبر الصالون، ولكنه ظلّ واقفاً في ركنه من دون أن
 أي ما يشير إلى أنه سيفترب، فهمست لأخيها فيليب. أن يقدمه لها.

- هذا صديقي فيكتور، من برشلونة. كان مع الميليشيا خلال
 الحرب الأهلية.

- الحفيفة أنني كنت مساعد طبيب، ولم أطلق النار من نتي سلاح،
 أوضح فيكتور.

- ميليشياوي؟ سألت أوفيليا التي لم تكن قد سمعت هذه الكلمة
 قط من قبل.

- هكذا كان يسمى المقاتلون قبل إلحاقهم بالجيش النظامي،
 أوضح لها فيكتور.

تركهما فيليب وحدهما؛ وظلّت أوفيليا لبعض الوقت مع فيكتور،
 محاولة البدء بحديث من دون أن تجد موضوعاً مشتركاً، وبلا أي صدى

من جانبه. سألته عن البار، لأنَّ خوانا كانت قد ذكرت ذلك؛ وبجرحه إلى الكلام، تمكّنت من معرفة أنّه يريد إنهاء دراسة الطبّ التي بدأها في إسبانيا. وأخيرًا، ضاقت ذرعًا من وقفات الصمت الطويلة، فابتعدت وتركته وحيدًا. وعادت تفاجئه وهو يراقبها وقد أزعجتها جرائه قليلًا، مع أنّها كانت تدرسه خفية، وبدت مفتونة بذلك الوجه الزاهد ذي الأنف الصقريّ والوجنتين المنحوتتين، واليدين العصبيتين وأصابعهما الطويلة، وذلك الجسد النحيل والصلب. يروق لها أن ترسمه، أن ترسم له صورة بضربات قلم وصاص سوداء وبيضاء، مع خفّة رمادية، صورة من المقاس الكبير مع بندقيّة بين يديه أو بصدرة العاري. اكتسى وجهها بحمرة النجل من هذه الفكرة؛ لم ترسم أحدًا عاريًا من قبل، والقليل الذي تعرفه عن تشريح الجسد الذكوريّ تعلّمت في المتاحف الأوروثي، حيث معظم التماثيل متورة أو مغطاة بورقة دالية عنب. أشدّها جرائه تبدو مخيبة للأمل، مثل تمثال داوود لما بكل أنجلو، بيده المضخمة جدًّا و«حمامته» المملّية. لم تكن قد رأت مانياس عاريًا، ولكنّهما كانا قد تبادلّا ما يكفي من المداعبات لتعرف ما الذي يخفيه بنطله. إذ لا بدّ من الرؤية من أجل الحكم. لماذا يبرج هذا الإسباني؟ يمكن أن يكون السبب جرحًا بطوليًا في الحرب. سوف تسأل فيليبي عن ذلك.

فضول أوفيليا تجاه فيكتور كان مشتركًا. فقد توحّل هو أيضًا إلى أنّهما آتيان من كوكبتين مختلفتين، وأنّ هذه الشائبة من صنف آخر، وأنّها مختلفة عن نساء ماضيها. فالحرب نشوء وتبدّل كلّ شيء، حتّى الدائرة. ربّما كان هنالك فيما مضى فتيات مثل أوفيليا، طازجات، محمّيات من قبح العالم، بحيوات نفية، مثل صفحات بيضاء، حيث يُمكن كتابة قدرهنّ بخطّ متأنّ ومن دون أيّة خريشة، ولكنّه لا يتذكّر أيّ

من هذا النوع. لقد أخافه جمالها. أخافه، لأنه معتاد على نساء،
 ولدت مبكر، من آثار الفقر والحرب. تبدو طويلة القامة، لأن كل ما
 ها كان طولانيًا، ابتداءً من الرقبة الطويلة وحتى القدمين النحيلتين.
 فانه عندما اقترب منها، رأى أنها تصل إلى مستوى ذقنه. وكان لشعرها
 مويل لون الخشب بتدرجات متعدده، مربوطة بشريطة من مخمل
 ود، وقمها نصف مفتوح على الدوام، كما لو أن هنالك نقصًا ببعض
 الأسنان، ومطليًا بلون له حمرة الياقوت. وأكثر ما لفت الانتباه هما عيناهما
 زرقاوان بحاجبيهما المقوسين بنهايتين دقيقتين، وهما منفصلان جدًا،
 مبرر ساء كمن ينظر إلى البحر. وقد عزا ذلك إلى قليل من الخول.

بعد تناول العشاء، ذهبت الأسرة بكاملها، مع الأطفال والخدم،
 في موكب إلى فِداس منتصف الليل في كنية الحي. وقد فوجئ آل
 ال سولار بأن آل دالماو، المفترض أنهم ملحدان، قد رافقاهم أيضًا،
 ل أن روزر تابعت الطقوس باللاتينية، مثلما كانت الراهبات قد علمنها.
 في الطريق، أمك فيليه بذراع أوفيليا، وتخلّف معها عن الجميع.
 اكلمها بوضوح: «إذا ما ضبطتكَ تغازلين دالماو فسوف أخبر أبانا، هل
 نهمينني؟ وسرى كيف سيكون رد فعله حين يعلم أنك تضعين عينك
 على شخص متزوج، مهاجر ليس في جيبه بيزو واحدة. تصنّعت هي
 المفاجأة حيال ذلك الكلام، كما لو أن تلك الفكرة لم تخطر في بالها
 بأي حال. امتنع فيليه من توجيه ذلك التحذير أيضًا إلى فيكتور، لأنه لم
 يشأ إهانته وإذلاله. لقد كان التجاذب بينهما متبادلًا وصاعقًا، ولا بد أن
 آخرين قد انتبهوا إلى ذلك أيضًا. وقد كان على حق؛ ففيما بعد، عندما
 ذهب فيكتور ليشمى ليلة طيبة لروزر، وكانت تنام مع مارسيل الصغير
 في حجرة أخرى، حذرته هي أيضًا من غواية المغامرة في ذلك الطريق.

- هذه الفتاة بعيدة المنال، ولا يمكنك الوصول إليها. اررها.
- رأسك، يا فيكتور. لن تستطيع الانتعاش بأي حال إلى وسطها الاجتماعي وأقل من ذلك إلى أسرته.
- يمكن أن تكون هذه أسهل المصاعب. فهناك عقبات أخرى.
- الكثير من الطبقة الاجتماعية.
- معك حق. ففضلاً عن كونك فقيراً ومحل ريبة أخلاقياً أمام عيون هذه العائلة المتفلقة على نفسها، فأنت لست بالشخص الممجد جداً.
- إنك تسب ما هو أساسي: فأنا لدي زوجة وابن.
- يمكننا الطلاق.
- في هذه البلاد لا وجود للطلاق، يا روزر، وبحسب قول فيلد.
- لن يكون له وجود أبداً.
- أتعني أننا سنبقى عالقين إلى الأبد! هتفت روزر مذعورة.
- يمكنك التعبير عن ذلك بطريقة أكثر حاسمة. فطالما نحن نعيش هنا، سنظل متزوجين رسمياً، ولكن عندما نعود إلى إسبانيا، نستطيع الطلاق، وينتهي كل شيء.
- يمكن لهذا أن يتأخر كثيراً، يا فيكتور. وفي أثناء ذلك، سنبقى مستقرين هنا. وأنا أريد لمارسيل أن يترعرع تشيكياً.
- سترعرع تشيكياً، إذا أردت ذلك. ولكن بيتنا سيكون كتلاتا على الدوام، وبكل شرف.
- لقد حظرت فرانكو التكلم بالكتلاتية، ذكرته روزر.
- ولهذا السبب بالذات، يجب أن تكلم الكتلاتية، يا امرأة.

الفصل السابع

1940 - 1941

... سمك
«الليل» بينما
أبصر القاتمة تدور
«بأ» وأموات...

بابلو نيرودا
«الليل في إسبانيا»
أشعار القبطان

... ..

.

.

.

تدخل فيكتور دالماو إلى الجامعة ليستكمل دراسته للطب بفضل
 نظام علاقات الصداقة التشيلي الناجع. فقد قدم فيليب دال سولار الطلب
 إلى سلفادور ألييندي، أحد مؤسسي الحزب الاشتراكي، والرجل الذي
 منحه بثقة رئيس الجمهورية، وبشغل منصب وزير الصحة. كان ألييندي
 «تابع باهتمام مؤثر انتصار الجمهورية في إسبانيا، ثم التمرد العسكري،
 هزيمة الديمقراطية، وما تبع ذلك من ديكتاتورية فرضها فرانكو، كما لو أنه
 الما يحدث أنه سينادر الحياة ذات يوم في نزاع معادل في بلاده» استمع
 ألييندي إلى القليل الذي رواه له فيكتور دالماو عن الحرب والمنفى،
 وكهّن هو بنفسه ما تبقى. وباتصال هانفي واحد، توصل ألييندي إلى
 أن تعادل له كلية الطب سنوات الدراسة التي تابعها في إسبانيا، وتسمع
 له باستكمال ثلاث سنوات أخرى ليحصل على الشهادة. لقد كانت
 الدراسة مكثفة. وكانت معارف فيكتور مثل معارف أستاذته في مجال
 الممارسة العملية، ولكنه لم يكن يعرف إلا القليل جدًا في الميدان
 النظري؛ فمعرفة تجبير العظام المهشمة هي مسألة مختلفة تمامًا عن
 معرفة تلك العظام بأسمائها. ذهب إلى مكتب الوزير، ليقدّم له الشكر،
 من دون أن يدري كيف يمكنه أن يرد إليه الجميل. فأله ألييندي إذا
 كان يعرف لعب الشطرنج، وتحذاه في لعب دور على الرقعة التي يحتفظ

بها في مكتبه. خسر ألييندي بمزاج رائق. وقال له عند الوداع: وإذا كنت تريد مكافأتي على خدمتي لك، فتعال للعب الشطرنج معي عندما أتصل بك. وسيكون لعب الشطرنج هو أساس صداقة بين الرجلين، وسوف يحدّد لعب الشطرنج كذلك المنفى الثاني لفيكترور دالماو.

عاش فيكتور وروزر والطفل مع فيليه بضعة أشهر، إلى أن صار بمقدورهما دفع إيجار غرفة في نزل. رفضا تقبّل مساعدة من اللّجنة، لأنّ هناك آخرين بحاجة للمساعدة أكثر منهم. أراد فيليه أن يستقيهم في بيته، ولكن فيكتور وروزر قدّرا أنّهما قد تلقّيا الكثير، وأنّ الوقت قد حان ليعتمدا على نفسيهما. كانت خوانا نانكوتشيو أشدّ المتأثرين بالتبدّل، فمن أجل رؤية مارسيل صار عليها أن تركب الترام. صداقة فيكتور وفيليه تواصلت، غير أنّه صار من الصعب تسميتها، لأنّهما ينتميان إلى أوساط اجتماعيّة مختلفة، وكان كلاهما مشغولاً جداً. حاول فيليه أن يضمّ فيكتور إلى نادي الأغاضيب، مُقدّراً كم يمكن له أن يضيف إلى مساهماتهم، التي بدأت تفقد حماسها واندفاعها الثقافي، وتكتب نبرة تزداد تقاهة أكثر فأكثر، إلّا أنّه بدا جليّاً عدم وجود ما هو مشترك بين فيكتور وأصدقاء فيليه. وفي المناسبة الوحيدة التي حضر فيها فيكتور أحد تلك اللقاءات، تعامل بكلمات مقتضبة مع سبل الأسئلة الموجهة إليه حول حياته النعية المحفوفة بالمخاطر، وحول الحرب في إسبانيا؛ وسرعان ما ملّ أعضاء المنتدى من إمكانية الحصول منه على أيّة معلومات، وتخلّوا عن الاهتمام به. ومن أجل تجنّب اللقاء بين فيكتور وأوفيليا، لم يُعدّ فيليه بصطحبه إلى بيت أبويّه.

كان عمل فيكتور اللّيليّ في البار لا يكاد يكفيهِ للعيش، ولكنّه أفاده في تعلّم هذه المهنة المثيرة للفضول، وفي دراسة أحوال الزبائن.

«عندئذ، تعرّف على جوردي مولينيه، وهو أرمل كتلاني، مهاجر إلى تشيلي
 . لما يقارب العشرين عامًا، صاحب مصنع لصنع الأحذية، يستقرّ عند
 «صدة الكونتوار ليشرب، ويتحدّث بلغته الكتلانية. في واحدة من تلك
 الليالي الطويلة، وبينما هو بداعب كأس خمرته، شرح لفيكتر كيف
 أن صناعة الأحذية سمجة ومضجرة، على الرغم من أنها مربحة جدًا،
 وأنه الآن وحيد، أخذ بالهرم والتقدم في السن، وقد حان الوقت ليعنح
 به المصنعة. عرض عليه أن يقيم حانة على الطريقة الكتلانية؛ وقال إنه
 سيقدّم النقود من أجل البدء، بينما يقدّم فيكتور الخبرة. فأجاب فيكتور
 بأن مثله الحقيقي هو أن يكون طبيبًا وليس خمارًا! ولكنّه في تلك الليلة،
 عندما أخبر روزر بالافتراح الرهيب الذي عرّضه عليه الكتلاني، بدت
 لها الفكرة رائعة؛ فأن يكون لديك عملك الخاص أفضل من العمل
 عند آخرين، وإذا لم ينجح المشروع تكون خسارتك ضئيلة، لأن ذلك
 الحذاء هو من سيجازف برأس المال. ولا بدّ من توخّي الحذر في
 النفقات، والأخذ في الحساب أن الزبائن يذهبون إلى المحانات لشرب
 الخمر ونيان أحزانهم، وما سوى ذلك ليس له كبير أهميّة. استلھما من
 «الروسبنانتي»، تلك الحانة البرشلوئيّة التي كان أبو فيكتور يلعب فيها
 الدومينو حتّى الأيام الأخيرة من حياته. وأقاموا الحانة في جحر باتس،
 باستخدام إرميل خشبيّة كموائد، وعلّقوا أفخاذ لحم مقدّد وحبال ثوم
 تتدلى من السقف، ونشروا في المكان رائحة نبيذ رنخ، لكنّ موقع الحانة
 كان جيّدًا في وسط مدينة سنتياغو. انضمت إليهما روزر لتتولّى مسألة
 الحسابات، لأنّ عقلها ومعارفها الحسابيّة أفضل من الشريكين كليهما.
 كانت تصل ومعها مارسيل، فتجلسه مع ألعايه في قفص أطفال خلف
 منضدة الكونتوار، بينما تنهمك هي في تسجيل الحسابات. لم يكن

يفلت كأس بيرة واحد من حساباتها الصارمة. وتمكّنوا من التوصل إلى طاهية قادرة على تحضير مُجَقّق البوتغازا الكتلانيّ مع مكعّبات ياذنجان، وأسماءك سردين صغيرة، وكلامار بالثوم، وتونا بالطماطم، ولذا نذ أخرى من مواطنهم البعيد، فاجتذبوا زبائن أوفياء من المهاجرين الإسبان. وأطلقوا على الحانة اسم «وينيبغ».

خلال الشهور الثمانية عشرة التي أمضيها متزوجين، طوّر فيكتور وروزر علاقة أخويّة ورفاقية متقنة. كانا يتقاسمان كلّ شيء باستثناء الفراش. فقد قرّرت روزر أنّ الحبّ يتحقّق مرّة واحدة فقط، وقد نالت حصّتها منه. وكان فيكتور من جهته يعتمد عليها في الصراع مع أشباحه، فهي صديقه المفضّلة، ويزداد حبه لها أكثر فأكثر كلّما ازداد معرفة بها؛ فكان يرغب أحياناً في تجاوز الحدّ الوهمي الذي يفصل بينهما، وأن يمسك بها من خصرها في لحظة سهو ويقبّلها، ولكنّ ذلك سيكون خيانة لأخيه وسيؤدّي إلى نتائج مشؤومة. لا بدّ أن يأتي يوم يكون عليهما أن يتحدثا في هذا الشأن، عن كمّ من الوقت يمكن للمجداد أن يستمرّ، وكمّ من الوقت يجب عليهما التفكير في الموتى. سيأتي اليوم عندما تقرّر روزر ذلك، مثلما تقرّر هي كلّ شيء؛ وحتى ذلك الحين سيشغل نفسه في التفكير بأوفيليا دل سولار، مثل من يفكر بكعب اليا نصيب.. مجرد تأملات غير مجدية. لقد وقع في حبّها منذ النظرة الأولى ويزخّم مراحق، ولكنّ عدم عودته لرؤيتها بعد ذلك، جعل الحبّ يتحوّل بسرعة إلى خرافة. ففي أحلام يقظته المتكاسلة، يسترجع تفاصيل وجهها، حركاتها، ثوبها، صوتها؛ أوفيليا سراب متذبذب لا يلبث أن يتلاشى عند أدنى تردّد. إنّه يحبّها نظريّاً، مثلما كان يفعل شعراء الرومانسيين قديماً.

منذ البدء، طرح فيكتور روزر نظام ثقة وتعاون متبادلتين، وهو ما
 ١. بدأ منه من أجل تحسين التعايش والمضي قدماً في المعنى. اتفقا
 ٢. أن تكون الأولوية لمارسيل حتى بلوغه الثامنة عشرة. نادراً ما كان
 ٣. شور بذلك أن الطفل ليس ابنه، وإنما هو ابن أخيه، ولكن هذا الأمر
 ٤. الحاضر على الدوام في ذهن روزر. ولهذا، كانت تحب فيكتور بقدر
 ٥. منه لطفها. وكانت تقود كليهما توضع في عربة سيجار من أجل النفقات
 ٦. المشتركة، وكانت روزر هي من تتولى الإنفاق؛ وتفصل نفقات الشهر
 ٧. ما في أربعة مغلقات، واحد منها لكل أسبوع، وتلتزم بصرامة بالاكتمال
 ٨. هذا المبلغ، حتى لو اضطرراً إلى الاقتصاد على أكل الفاصولياء، ولا
 ٩. سوى الفاصولياء. أما العدس، فلا يريدان أي ذكر له: لقد أُنجم
 ١٠. دنور به في معسكر النجم. وإذا ما بقي فائض ضئيل من النفود،
 ١١. إنهما يأخذان الطفل لتناول بعض المثلجات.

كانا متناقضين الطباع، ولهذا كانا يتفاهمان جيّداً. لم تكن روزر
 بسط في مشاعر حزن المنفيين عن موطنهم، لا تتطلع إلى الخلف،
 ولا تحاول بأي حال إضفاء المثالية على إسبانيا التي لم يقد لها وجود
 في نظرها. فقد غادروها لسبب ما. وكان حبها المؤكد بالواقع يُنقذها
 من الرغبات المحبطة، ومن تأنيب الذات غير المُجدي، ومن الضغائن
 النقبلة ومن رذيلة التذم والتحشر. لم تكن تبالي بالتعب واليأس، ولا
 تروى في بذل الجهد أو التضحية أية مبالغة. لديها تصميم دثابة على
 سحق العوائق والمقبات. وكانت خطتها واضحة النقاء. فلا شيء من
 مواصلة العزف على البيانو في التمثيليات الإذاعية، حيث القائمة نفسها
 من المقطوعات الكنية، الرومانسية المعهودة أو الضباية الغائمة. لقد
 صاقت ذرعاً بمارش أوبريت عابدة والدانوب الأزرق. لأن ما يهمها هو

الموسيقى بكلّ جذّية، باعتبارها الهدف الوحيد في الحياة، ولبدء كلّ ما عدا ذلك إلى الشيطان، ولكنّ عليها الانتظار. فما إن تبدأ الماء، بتوفير ما يكفي للعيش، ويتخرّج فيكتور من الجامعة، سوف تسجل مر نفسها في كلّية الموسيقى، وسوف تمضي على خطى مرشدها، وتحوّل إلى أستاذة ومؤلفة موسيقى مثل مارسيل لويس دالمو.

أمّا زوجها بالمقابل، فقد اعتاد الوقوع في حالات يأس بناءً، توالي صدمات الذكريات السيئة، وصرامة الحنين. وكانت روزر وحدها من تعلم بمراحل التكدر والاكفهار، لأنّ فيكتور كان يواصل الذهاب إلى الكليّة، يدرس، ويتابع العمل في الحانة ليلاً كما في الأزمنة العادية، ولكنه يعضّي كمن هو غائب عن الوعي، ليس بسبب التعب الذي يصيب من لا ينام إلا لحظات قصيرة متفرقة وهو واقف على قدميه. مثل الخبول، بل لإحساسه بأنّه مُستنفد ومُسْتَهلَك، أسير متاعه من المسؤوليات، فبينما كانت روزر تتخيّل مستقبلًا مشرقًا، كان هو لا يرى سوى ظلال فاتمة ذات اليمين وذات الشمال. فكان يقول: «إشي عجوز وأنا في السابعة والعشرين»، ولو أنّ روزر سمعت يومًا وهو يقول ذلك لانقضّت عليه بكلّ صراوة: «ما ينقصك هي الخصيات، لقد مررتنا جميعنا بالبؤس والعوز، ولأنّك ليس لديك سوى التذخّر والشكوى، فإنّك لا تُقدّر ما نملكه؛ أنت جاحد سيئ. في الجانب الآخر من البحر هناك حرب مرعبة، بينما نحن نعيش هنا ببطون ممثلة وبسلام؛ وأنتهك إلى أنّنا سنبقى هنا لوقتٍ طويل، لأنّ الكوديو، عليه اللعنة، يتمنّع بصحة جيّدة، فالأشهر يعيشون حياة مديدة». ومع ذلك، تتحوّل إلى العذوبة في بعض الليالي حين تسمعه يصرخ وهو نائم. عندئذٍ تذهب لإيقاظه، وتندسّ في فواشه، تحتضنه كأنّهم، وتركه يفضفض عن نفسه، ويتحرّر من

وابسه عن الأعضاء المبتورة والصدور المهشمة بالرشاشات وجواب
أدق، وبرك الدم والحفر الممتلئة بالعظام.

كان لا بد من انقضاء أكثر من سنة قبل أن يعود كل من أوفيليا
(مكتور إلى اللقاء. وفي هذا الوقت، كان ماتيئاس إيثاغيري قد استأجر
في أحد شوارع أسونسيون الرئيسية بيتاً مهيئاً، لا يتناسب كثيراً مع
حبه كشخص ثانٍ في السفارة، ولا مع راتبه كموظف عمومي. بدا
الك للمفسر ضرباً من الوقاحة، وصار يتحين أي فرصة ليعلق على
الأمر بعبارات ساخرة. أثبت ماتيئاس إيثاغيري البيت بشحنة مفروشات،
وحف زينة أرسلت من تشيلي؛ وسافرت أمه خصيصاً من أجل تدريب
عاملتي الخدمة المنزلية، وهي مهمة ليست هينة، لأن الخدم يتكلمون
بمع الغواراني⁽¹⁾. وكانت عروسه العنيدة قد وافقت أخيراً على الزواج،
بحصل مراسلاته الغرامية المتواصلة، وفعالية الفدادييس والصلوات
النسائية التي تقيمها حماته المستقبلية، السيدة لورا. وفي بدايات شهر
فانون الأول/ديسمبر، عندما أكملت أوفيليا السنة العادية والعشرين
من عمرها، ذهب ماتيئاس إلى سنثياغو من أجل حفل إظهار الخطوبة
رسمياً، وقد أقيم الاحتفال في حديقة بيت آل دل سولار مع الأقرباء
المقربين للأمرتين، قرابة مئتي شخص فقط. وتولّى مباركة الخطوبة
ابن أخت السيدة لورا المدعو بيثنتي أورينا، وهو كاهن كاريزماتي، مدبر
مكائد وحيوي، كان يمكن لبدلة كولونيل أن تكون مناسبة له أكثر من
سوح الكهنوت. وعلى الرغم من أن أورينا هذا ما زال دون الأربعين
من عمره، إلا أن له تأثيره المخيف على من هم أعلى مرتبة كنسية منه،

(1) الغواراني guarani هي لغة السكان الأصليين في الباراغواي، وما زالت تعتبر اللغة
الرسمية الثانية في البلاد، إلى جانب اللغة الإسبانية.

وعلى وعيته في الحيّ العالي الذين يعمل بينهم كمستشار ناصح وحكيم، وقاضٍ. وكان وجوده ضمن الأسرة يعتبر امتيازاً كبيراً.

ثم تحديد موعد الزفاف في شهر أيلول/سبتمبر، من العام التالي، وهو شهر الزيجات الراقية. وضع ماتيئاس خاتم الألماس المقدم في خنصر يد أوفيليا الثمينة، لتنبه منافسيه المحتملين إلى أنّ الشابة محجوزة، وسوف ينقله إلى اليد الأخرى في يوم الزفاف، كإقرار نهائي بأنّها قد أخذت. أراد أن يشرح لها بالتفصيل التجهيزات والاستعدادات التي أنجزها في الباراغواي من أجل استقبالها كملكة، ولكنها قاطعتها وهي أقرب إلى السهو. «ولماذا التّسرع هكذا، يا ماتيئاس؟ من الآن حتى أيلول/سبتمبر يمكن أن تحدث أمور كثيرة». سيطر عليه الذعر، وسألها عن تلك الأمور التي قد تحدث، فذكرت هي أنّه يمكن للحرب العالمية الثانية أن تصل إلى تشيلي، أو أن يحدث زلزال آخر، أو قد تقع أيّ كارثة أخرى في الباراغواي. فقال ماتيئاس: «أيّ أنّها أمور لا علاقة لنا بها».

كانت أوفيليا تستمتع في مرحلة الانتظار تلك بترتيب جهاز عرسها في صناديق خشبيّة، ووضع ورق حرير وأغصان خزامى بين الملابس، وتوصي في دير خالتها تيريسا على تطريز الحروف الأولى من اسمها واسم ماتيئاس متشابكة على شراشف وملاءات ومناشف، وتنجح لصديقاتها الاحتفاء بها في صالون الشاي بفندق كريلون، وهي تجرّب وتعيد تجريب فستان الزفاف وجهاز عرسها، وتتعلّم من أخواتها أصول التّدير المنزلي، وقد أبدت في هذا المضمار انضباطاً والتزاماً مفاجئتين، بسبب شهرتها كعشكاسلة وغير مرّبة. كانت لديها فترة تسعة شهور قبل الزفاف، ولكنها بدأت تصع خططا وتبحث عن وسائل لتמיד فترة الهدنة تلك. كانت مرّبعة من الإقدام على خطوة الزواج التي لا رجعة عنها

«الأيدي؛ ومن العيش مع ماتياس في بلد آخر لا تعرف فيه أحداً بعيداً
 من أسرتها، ومحافظة بهنديات من قبائل الغواراني؛ وإنجاب أبناء، وانتهاء
 الأمور بها إلى الإزعاج والإحباط، مثل أمها وأخواتها.. ولكن البديل
 كان أسوأ. فالبقاء عزباء يعني الاعتماد على كرم أبيها وأخوها فيليب في
 الشأن المادي، والتحول إلى منبوذة اجتماعياً. وإمكانية العمل من أجل
 سب العيش هو وهم لا يقل عبثية عن الذهاب إلى باريس للرسم في
 حرفة على السطح في مونتري. كانت تخطط لرحلة من الدرائع لتأجيل
 الزواج، من دون أن تتخيل أن السماء سترسل إليها الذريعة الوحيدة
 الناجعة: فيكتور دالماو. عندما التقت به صدقة، بعد شهرين من تحولها
 إلى مخطوبة، وسبعة أشهر قبل الموعد المحدد للزفاف، اكتشفت حب
 الروايات، الحب الذي لم يلهمها إياه ماتياس فقط بوفاته الراسخ!

في منتصف صيف سبتمبر القانظ والجاف، حيث يهاجر بصورة
 جماعية كل من هو قادر على ذلك، والتوجه نحو الشواطئ والأرباب،
 النقي فيكتور وأوفيليا في الشارع. جمدت المفاجأة كليهما، كمن ضبها
 في وضع خاطئ، ومررت لحظة أشبه بأبدية، قبل أن تبادر وتحييه مستتقة
 بكلمة «مرحباً» تكاد لا تسمع، فشرها هو في مصلحته. فقد مضت سنة
 بكاملها وهو يظن أنه يحبها من دون أدنى أمل، ليتبين الآن أنها هي أيضاً
 قد فكرت به، مثلما بدا له جلياً في ارتباك الفتاة الذي بدا كعصبية متهر
 صغير. بدت له أجمل ممّا يتذكرها، بعينيها الزرقاوين الفاتحتين، وبشرتها
 البرونزية، وثوبها واسع فتحة الصدر، وحصل شعرها المتفلت من قبعة
 مدرسية. تمكن من السيطرة على نفسه لبدء حوار عادي؛ وهكذا، علم
 أن آل دل سولار يحضون شهور الصيف الثلاثة ما بين إقطاعيتهم وبيتهم
 على شاطئ بينيا دل مار؛ وأنها قد جاءت إلى العاصمة لتقص شعرها،

ولتذهب إلى عيادة طبيب الأسنان. وتكلم هو بدوره أربع جمل عن روز، والطفل، وعن الجامعة والحانة. وسرعان ما نفذت موضوعات الحديث، بينهما، وظلاً صامتين، يتعرفان تحت الشمس، وكلاهما كان يدرك أنهما إذا افترقا فسوف يضطعان فرصة ثمينة. عندما بدأت هي بمحاولة الوداع، أمسكها فيكتور من ذراعها، وسحبها إلى أقرب ظل، تحت مظلة صيدلية، وطلب منها بكلمات سريعة أن يمضيا فترة المساء معاً.

- يجب أن أعود إلى بينيا دل مار. الشائق ينتظرني، قالت من دون أدنى قناعة.

- اطلبني منه أن ينتظر. يجب أن نتبادل الحديث.

- سوف أنزّوج، يا فيكتور.

- متى؟

- ما أهميّة ذلك؟ أنت متزوج.

- هذا هو بالتحديد ما أود أن تحدث عنه. ليس الأمر مثلما نظنين، دعيني أشرح لك.

اقتادها إلى فندق متواضع، مع أنّه لا يستطيع السماح لنفسه بتلك النفقات؛ وعادت هي إلى بينيا دل مار قرابة منتصف الليل، عندما كان أبواها على وشك إخبار الدرك عن اختفائها. أمّا الشائق، وقد تلقى رشوة مناسبة، فقال إنّ إحدى عجالات السيّارة قد نُقبت خلال الطريق. منذ بلوغها الخامسة عشرة، وعندما وصلت إلى قامتها النهائية وتقاطيعها كامرأة، كانت أوفيليا تجتذب الرجال بقدره إغواء خارجة عن نواياها. لم تكن تشبه إلى زوينة التأثير الهوجاء التي تخلفها لدى مرورها، اللهمّ إلا في حالات قليلة بلغ الأمر بالعاشق حدّ التهديد، وكان على أبيها أن

١. مل. كانت حياتها الهادئة كأنسة تمضي في دلال وتحت الحماية،
٢. هف ذي حذرين؛ فمن جهة، نحت تلك الحماية من المجازفات
٣. المخاطر، لكنها تحول من جهة أخرى دون إكسابها شيئاً من الفطنة أو
٤. الداهية. فتحت سلوكها المتفتح تختبئ سداجة مذهلة. وقد تأكد لها في
٥. السوات التالية أن مظهرها يفتح لها أبواباً، ويسهل لها كل شيء تقريباً.
٦. ثان هذا هو أول ما يراه الجميع، وربما يكون الشيء الوحيد الذي يرونه
٧. منها أحياناً! لم تكن هنالك حاجة لأن تبذل أي جهد من جانبها، لأن
٨. أفكارها وأراءها تمر من دون أن تثير أي اهتمام. فخلال الأربعمئة عام
٩. التي مضت منذ عزو ذلك الفاتح الجلف للمستعمرة، كان آل بيشكاروا
١٠. يحسنون إرثهم الجيني بدماء أوروبية نقية، على الرغم من أن فيليب
١١. سولار يرى أن لا أحد في تشيلي، مهما بدا أبيض، إلا وفيه شيء
١٢. من السكان الأصليين، باستثناء المهاجرين حديثي المجيء. أوفيليا
١٣. ستمي إلى سلالة نساء جميلات، ولكنها الوحيدة بينهن التي خرجت
١٤. بعين زرقاوين مبهرتين، ورثتهما عن الجدّة الإنكليزية. كانت لورا دل
١٥. سولار تؤمن بأن الشيطان هو من يزرع الجمال لهدف وحيد هو إضاعة
١٦. الأرواح وتبديدها، سواء لمن يحمل الجمال أو لمن ينجذب إليه؛
١٧. ولهذا السبب، لم يكن هناك من يتحدث في بيتها عن المظهر البدني،
١٨. لأنه حديث سيئ الوقع، ومجرد ابتذال. كان زوجها يُقدّر جمال نساء
١٩. أخريات، ولكنه يعتبره مشكلة في بنانه، لأن عليه الاهتمام بالفضيلة
٢٠. لديهن، ولا سيما أوفيليا. وقد انتهى الأمر بالفاتة إلى تقبل نظرية الأسرة
٢١. بأن الجمال يتعارض مع الذكاء: يمكن امتلاك أحد الأمرين، ولكنهما
٢٢. لا يتوافران معاً. وهذا يفسر الحالة السيئة التي كانت عليها في المدرسة،
٢٣. وتكاسلها في تعلم الرسم، والمصاعب التي تواجهها للبقاء على الطريق

المستقيم الذي يعظ الأب أوربينا داعيًا إليه. لقد كانت تعذبها حسنة التي لا تعرف كيف تحدّد ماهيتها. وكان سؤال الأب أوربينا اللوم حول ما الذي تفكر بعمله في حياتها يدور في رأسها من دون أن نعلم جوابًا، فقدر الزواج وإنجاب أبناء يبدو لها غائقًا مثل الذئب، ولكنها تتدبّر أنه قدر لا مفر منه، يمكن لها أن تؤجله قليلًا وحب؛ ولأنّ الجميع كانوا يكرّرون القول لها بأنّه عليها أن تكون شاكرة لوجود ماتياس إيشاغيزي، الطيب جدًا، والنييل والوسيم؛ وأنها محفوظة إلى حدّ تحدّ عليه.

لقد كان ماتياس حبيبها غير القابل للعزل منذ الطفولة. معه اكتشفت وارتادت الشهوة إلى حيث تسمح بذلك التربة الكاثوليكية الصارمة، والشهامة الرجولية الطبيعية لديه، على الرغم من أنّها كثيرًا ما كانت تحاول تجاوز تلك الحدود؛ فما هو الفرق في نهاية المطاف بين المداعبة حتّى الإغماء من دون حلع الملابس، وفعل تلك الخطيئة عاريين بكلّ بساطة؟ فالمعقاب الإلهي سيكون هو نفسه. وبالنظر إلى ضعفها، تحمّل ماتياس وحده مسؤولية امتناع كليهما. كان يحترمها مثلما هو مطلوب من آخرين أن يحترموا أخواتهم، وأقنع نفسه بأنّه لن يخون أبدًا الثقة التي منحه إيّاها عائلة دل سولار. شهوة الجسد لا يمكن إشباعها إلّا بعد اتّحاد مقدّس من الكنيسة، بهدف إنجاب أبناء، مثلما كان يؤمن. لم يكن ليتقبّل، ولا في أعماق أعماق قلبه، أنّ الشيب الأساسي لامتناعه لم يكن الاحترام أو الخطيئة، وإنّما الخشية من الحبل. لم تكن أوفيليا تتحدّث عن الموضوع مع أمّها أو أختيّها، ولكنّ كان واضحًا لديّها أنّ هذا النوع من الخطأ، مهما كان خفيًا، لا يُحمى إلّا بالزواج. فسّر الاعتراف بقدر تلك الخطيئة. ولكنّ المجتمع لا يُسامح ولا ينسى. «فسمعة أيّ أنسة محترمة أشبه بحبر أبيض، يمكن لأيّ

«لماذا أن تقوضه؟ هذا ما تؤكده الراهبات. فلا حاجة بها لقول كم من
الطلحات راكمتها مع مانياس.

في ذلك المساء الحار، ذهبت أوفيليا إلى الفندق مع فيكتور
«الماو وهي موقنة بأن الأمر سيكون شيئاً مختلفاً عن المناوشات
«المنهكة مع مانياس، والتي كانت تخلفها في حيرة وغاضبة. لقد فاجأها
«صحبها الذاتي الذي حسنته في لحظة واحدة، وبمثل تلك الخفة
«التي بادرت فيها ذات مرة وهي معه على انفراد في الغرفة. وجدت نفسها
«سيدة معارف، لم تكن تعلم من أين حصلت عليها، وبغياض للحياء لا
«تأتي عادة إلا بعد ممارسة طويلة. لقد تعلّمت عند الراهبات التمرّج
«على مراحل، فكانت ترتدي في البدء ثوباً بكُمّين طويلين، يغطي جسمها
«من العنق حتى القدمين، وبدأ بعد ذلك بنزع الملابس بالتلّصص
«ابتداءً من أسفل؛ ولكنّها في ذلك المساء مع «الماو، تبخّر ما لديها
«من التواضع؛ تركت الثوب، وكذلك التّورة التحتانيّة، وحَمالة الصدر
«والسرّوال، تسقط كلّها على الأرض، ومرت فوقها عارية وأولمبيّة، يمزج
«من الفضول لما سوف يحدث، ومن التوتّر ضدّ مانياس، لأنّه منافق.
«يستحقّ الحياة»، قرّرت بحماسة.

لم يخامر أيّ شكّ فيكتور في أنّه يمكن لأوفيليا أن تكون عذراء، إذ
«لا شيء من ثقة الشابة الساحقة يشير إلى ذلك، كما أنّها لم تطرح الأمر.
«كانت العذريّة قد أبعدت إلى سنوات ملتبسة، غير مؤكّدة وشبه منسيّة
«من سنّ المراهقة، أتية من واقع آخر، من ثورة ألغت الفروق الاجتماعيّة،
«والتكّلف في العادات وسلطة الذّين. في إسبانيا الجمهوريّة، صارت
«العذريّة أمراً مهجوراً وخارج التداول؛ ففتيات الميليشيا والممرّضات
«اللواتي أحبّهنّ لأوقات قصيرة كنّ يتعصّن بالحرّيّة الجنسيّة نفسها التي

يتمنّع بها هو. ولم يخطر له كذلك أن أوفيليا قد رافقته بدافع كونها امرأه مدلّقة، بقدر ما فعلت ذلك بدافع الحب. لقد كان مغرماً بها، وافترض بصورة آلية أنها هي أيضاً مغرمة به. ولسوف يحلّل حجم ما حدث فداً بعد، عندما يستريحان بعد ممارسة الحب، متناقضين في هذا السرير ذي الملاءات الضاربة إلى الصفرة من كثرة الاستخدام، والملوثة بلطخات دم العذريّة. وبعد أن شرح لها كيف ولماذا تزوّج من روزر، واعترف لها بأنّه يحلم بها هي منذ أكثر من سنة.

- لماذا لم تخبريني بأنّها المرأة الأولى؟ سألتها.

- لأنك كنت ستراجع، ردّت عليه وهي تغطّي مثل هرّ.

- كان عليّ أن أكون أكثر حذراً معك، يا أوفيليا، اعذريني.

- لا حاجة للاعتذار. إنني سعيدة، أشعر بدغدغة في جسدي ولكن عليّ أن أذهب الآن، فقد تأخّر الوقت كثيراً.

- أخبريني متى سنلتقي مجدّداً.

- سأخبرك عندما أستطيع الهروب. بعد ثلاثة أسابيع، سنرجع إلى سنثياغو، وعندئذٍ سيكون الأمر أسهل. يجب أن تكون حذرين جدّاً جدّاً، لأنّه إذا عُرف هذا الأمر، فسوف ندفع الثمن غالياً. لا أريد التفكير في ما قد يفعله أبي.

- لا بدّ أن تأتي لحظة يكون عليّ فيها أن أتحدّث إليه...

- هل أنت مصاب بمرض في رأسك؟ كيف يخطر لك مثل هذا الأمر! إذا ما عرف أنني أمضي مع مهاجر متزوّج وأب لابن، فسوف يقتلنا كليّنا. لقد سبق أن حذّرني فليبي.

وبذريعة مراجعة طبيب الأسنان، تدبّرت أوفيليا أمر العودة مرّة أخرى إلى سنياغو. خلال أسابيع الفراق، تبينّت بذعر أنّ فضولها لأولي قد فتح المجال لأن يتسلّط على ذهنها هوس تدكّر أدقّ تفاصيل الملك المساء في الفندق، وإحساس بالحاجة الملحة لرؤية فيكتور مجدّداً، وممارسة الحب، وتبادل الحديث مطوّلاً معه، إخباره بأسرارها والشحري عن ماضيه. تريد أن تسأله لماذا يعرج يساقه، وأن تُعدّ قائمة ندوب جراحه، وأن تعرف عن أسرته وعن المشاعر التي نجمته بروزو. فهذا الرجل محبّل بالكثير من الأسرار، وحلّ أسرارهِ سيكون مهمة طويلة: ما الذي يعنيه المنع، الثمرد العسكري، القبر الجماعي، مخيم التجميع، وما هو ذلك الكلام عن البغال الممرّقة وعن خبز الحرب! لقد ثان فيكتور دالماو في سنّ مفارية إلى هذا الحدّ أو ذاك لعمر مانياس إيثاغيري، ولكنه أكثر هرمًا بصورة لامتناهية، وأشدّ صلابة من الإسمت في مظهره الخارجيّ، وعميق لا سبيل إلى سبر أغواره من الداخل، يحمل آثار جراح وذكريات سيّئة. وعلى العكس من مانياس الذي يحنفي بطبعها الناري المتفجّر ونزواتها المفاجئة، كان فيكتور يفيق ذرعًا بولداناتها الطفوليّة، لأنّه ينتظر منها صفاء الذكاء. لم يكن يُبدي اهتمامًا بأيّ شيء سطحيّ. فإذا ما وجّه إليها سؤالاً، يستمع إلى الجواب باهتمام أستاذ، من دون أن يُفسح لها المجال للتهرّب بجبارة مازحة أو بتغيير موضوع الحديث. وبذعر، واجهت أوفيليا تحدّي أن تُعاقل بجذّيّة.

المرّة الثانية التي استيقظت فيها وهي بين ذراعي حبيبها، حين غفت بضع دقائق بعد ممارسة الحب، قرّرت أوفيليا أنّها قد وجدت رجل حياتها. فلا أحد من شبّان وسطها، المتودّدين، المدلّين والرخويين ممّن طريقهم ممّهد بعال أسرته وسلطانها، يمكنه المنافسة معه. تلقّى

فيكتور ذلك الاعتراف متأثراً، لأنه هو أيضاً كان يشعر أنها هي ضالّة المختارة، ولكنه لم يفقد عقله: أخذ في الاعتبار زجاجة النبيذ التي تقاسمها وهذا الوضع المستجد بالنسبة إليها. الظروف تؤدي إلى ردود فعل مغالية؛ ولهذا، لا بد من تبادل الحديث عندما يبرد الجسد.

كان يمكن لأوفيليا أن تلغي خطوبتها مع ماثياس إيشاغيري من دون تردد، لو سمح لها فيكتور بذلك، ولكنه جعلها ترى أنه ليس حراً، وليس لديه ما يقدمه إليها، باستثناء هذه اللقاءات المتعجلة والممنوعة عندئذ، اقترحت عليه أن يهربا إلى البرازيل أو إلى كوبا، حيث يمكنهما العيش تحت بعض أشجار النخيل من دون أن يكون هناك من يعرفهما ففي تشيلي محكوم عليهما بالسريّة، ولكنّ العالم كبير. ولديّ واجب تجاه روزر ومارسيل، إضافة إلى أنّك لا تعرفين ما هو الفقر والمنفى. لن نتحملي البقاء معي أسبوعاً واحداً تحت أشجار النخيل تلك، ردّ عليها فيكتور بمزاج مرح. بدأت أوفيليا تترك رسائل ماثياس من دون أن تردّ عليها، لشرى إذا ما كان سيضجر من تلقاء نفسه من لامبالاتها، ولكنّ ذلك لم يحدث، لأنّ المغرم اللّجوج عزا صمتها إلى توتر الأعصاب الذي يصيب عروصاً حشمة مثلها. عندئذ، واصلت هي نفسها، متفاجئة من ازدواجيّة سلوكها، بإظهار تقبّل لطيف، كانت أبعد ما يكون عن الشعور به، لاستعدادات حفلة الزفاف. تركت بضعة أشهر تمرّ من دون أن تحسم أمرها، بينما كانت تتلقى بفيكتور خلسةً في لحظات مرسوقة، ولكنّ مع الاقتراب المتزايد لشهر أيلول/سبتمبر، أدركت أنّه عليها البحث عن الشجاعة لقطع علاقة خطوبتها، سواء أوافق فيكتور أم لم يوافق، كانوا قد ورّعوا الدّعوات، ونشروا إعلاناً عن حفلة الزفاف في جريدة الميركوري. وأخيراً، من دون أن تُخبر أحداً، ذهبت إلى وزارة الخارجية لتطلب من

رسالة هناك أن يرسل مغلفاً في الحقيبة الدبلوماسية إلى باراغواي.
وقد وضعت في المغلف خاتم الخطوبة، ورسالة تشرح فيها لماتياس أنها
حب شخصاً آخر.

ما إن تلقى ماتياس إيثاغيري رسالة أوفيليا حتى سافر طائراً إلى
شيلي، جلس على الأرضية في طائرة عسكرية، لأنه في خضم الحرب
العالمية، كان هناك شع في وقود الطائرات من أجل رحلات زهو خيالية.
دخل كعاصفة إلى البيت في شارع مار دل بلاتا في ساعة تناول الشاي،
وكان يزيح من طريقه المناضد والكراسي الهشة ذات القوائم الرفيعة
الملتوية، ووجدت أوفيليا نفسها أمام شخص تجهله. فخطبها اللطيف
والمتسامح قد استبدل بشخص مموس بلوثة شيطانية، راح يهرأها
وقد اكتسى وجهه بحمرة الغضب، وابتل بالعرق والدُموع. عبارات
نأيه بأعلى صوت. اجتذبت الأمرة؛ وهكذا، علم إيسيدرو دل سولار
ما الذي كان يحدث منذ بعض الوقت تحت أنفه بالذات. تمكن من
إخراج العريس الغاضب من بيته مع الوعد بأنه سيتولى بنفسه تسوية
هذا الضرر على طريقته، ولكن سلطته التي لا تعلو عليها جويته بعناد
ماكر من جانب ابنته. رفضت أوفيليا تقديم أي تفسير، والاعتراف باسم
حبيبها، وأقل من ذلك بكثير إعلان الندم عن قرارها. أطبقت فمها
بكل بساطة، ولم تكن ثقة طريقة للحصول منها ولو على كلمة واحدة،
غير مبالية بتهديدات أبيها، وبكاء أمها، والحجج القيامية التي يستعين
بها الكاهن يشتي أورينا الذي هرع متجيتاً لنداء مستعجل، باعتباره
الدليل الروحي والمدبر لصاعقة الرب العقابية. ونظراً لاستحالة
المقابلة معها، منعها أبوها من الخروج من البيت، وكلف خوانا بمهمة
إبقائها معزولة.

أولت خواتنا فانكونشيو الأمر كل اهتمامها، لأنها كانت نعمة .
 على ماتياس إيشاغيري، فهذا الشاب سيّد محترم من سلالة نخبه .
 أولئك الأشخاص الذين يُسلمون على الخدم بأسمائهم، وهو بحر .
 أوفيليا حدّ العبادة . فما الذي نريده أكثر من ذلك . أرادت بكلّ حمى .
 نية أن تتفدّ أمر سيدها، ولكنّ مساعيها كسجّانة لم تكن مجدّية حبال
 مكرّ العاشقين . إذ إنّ فيكتور وأوفيليا كانا يتدبّران الأمور ليلتقيا في
 أوقات وأمكنة غير متوقّعة: في بار وينبيخ عندما يكون مغلقاً، وفي
 فنادق رخيصة، وفي حدائق وفي دور سينما، ويتواطؤ دائم تغريتا من
 السائق . كانت تتوافر لأوفيليا أوقات فراغ كثيرة، بعد مغافلة رقابة خواتنا،
 ولكنّ فيكتور الذي يعيش لحظة بلحظة وهو يركض من جانب إلى آخر
 من أجل إنجاز واجباته في الدراسة وفي الحانة، كان يجد مشقّة كبير،
 في التخلّص لمدّة ساعة من هنا، وساعة أخرى من هناك، بقضيها معها .
 أهمل أسرته تماماً لاحظت روزر التبدّل في روتينه، وواجهته بصراحته
 المعهودة . «إنّك واقع في الحب، أليس كذلك؟ لا أريد أن أعرف من
 هي، ولكنني أطلبك بالتكتم . إننا ضيوف في هذه البلاد، وإذا ما ورّطت
 نفسك في مشكلة فسوف يطردوننا . حل هذا واضح؟» أغضبه صرامه
 روزر، مع أنّها كانت تتلاءم تماماً مع اتفاق زواجهما الغريب .

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، مات الرئيس بيدرو أغيري ثيردا
 بداء السل، بعد ثلاث سنوات فقط من ولايته . الفقراء الذين استفادوا
 من إصلاحاته، بكوه كما لو أنّه أبوهم في مأتم لم يُعرف له مثيل بالحزن
 والتأثّر . حتّى إنّ خصومه من قوى اليمين اضطروا إلى الاعتراف
 بنزاهته، وتقبّل روايته مكرهين . كان قد شجّع التصنيع والصحة والتعليم،
 ولكنهم لن يسمحوا لنشيلي بأن تنزل نحو اليسار . فالاشتراكية جيّدة

أوفيت الذين يعيشون بعيدًا جدًا، وليسوا سوى برابرة! ولكنها لن
مع أبدًا لوطنهم. وروح الرئيس المتوفى العلمانية والديمقراطية ما هي
لا سابقة خطيرة يجب عدم السماح بأن تتكرر.

التقى فيليه دل سولار مع آل دالماو في جنازة الرئيس. لم يكونوا
«، التقوا منذ شهور. وبعد موكب الجنازة، دعاهما لتناول الغداء والاطلاع
على أحر التطورات. عرف أن كليهما يحرز تقدّمًا، وأن مارسيل، الذي
أم يكمل السنين بعد. قد بدأ يلغضم عبارات بالكتلائية والإسبانية.
« حدثها بدوره عن أسرته، عن أن أباه مريض في القلب، وأن أمّه تنوي
أخذ الحج في معبد سانتا روسا دي ليجا، لأن هنالك نفصًا مؤسفًا
الغديسين المحلّين، وأن زفاف أخته أوفيليا قد تأجل. لم يلاحظ في
« يكون شيئًا من الحركة التي هزته من الداخل لدى سماعه بتحدّث عن
أوفيليا، ولكن روزر أحسّت برودة فعل في جلدها، وعرفت عندئذٍ بدون
أي شك، من هي عشيقه زوجها. كانت تفضّل لو أن هويتها ظلت سرًا،
لأن ذكر اسمها يتحوّل إلى واقع لا يمكن نخبه. كان الوضع أسوأ بكثير
مما يمكن تصوّره.

« قلت لك أن تنساها، بافيكتور! ألبته روزر في تلك الليلة، عندما
صارا وحدهما.

« لا أستطيع، يا روزر. أتذكّر كيف أحببت وليام؟ وكيف ما
زلت تحبّينه؟ هذا هو ما يحدث لي مع أوفيليا.

« وماذا عنها هي؟

« الحب متبادل. هي تعلم أنّه لا يمكن لنا أبدًا أن نكون معًا بصورة
علنية، وتتقبّل ذلك.

- إلى متى تظن أن هذه الصغيرة ستحمّل البقاء في دور العنب؟
إن في انتظارها حياة امتيازات. ولا بد أن تكون مجنونة إذا ضحّت بكل
ذلك من أجلك. أكرّر لك، يا فيكتور، إذا ما خرج هذا الأمر إلى العلن،
فصوف يطردوتنا ركلاً بالأقدام من هذه البلاد. إنهم أنلس متنفذون.
- لن يعلم أحد بالأمر.

- كل شيء يُعرف عاجلاً أو آجلاً.

ألقي زفاف أوفيليا بذريعة سوء حالة العروس الصحية، ورجع
ماتياس إيثاغيري إلى وظيفته في الباراغواي، وكان قد غادرها بصورة
مسرّعة من دون إذن من رئيسه المباشر أو من وزارة الخارجية. هربه
من مكان عمله كلفه تنبيهها من دون أية تبعات أخرى، لأنّه كان قد أظهر
مهارات قليلة التداول في الميدان الدبلوماسي، وتوصّل إلى دخول
أجواء سياسية واجتماعية، حيث لم يكن بإمكان الصغير، وهو رجل
ضغائن وضئيل الموهبة، أن يصل إليها. أمّا أوفيليا، فعوقبت بالبطالة
الإجبارية. ووجدت الشابة نفسها، وهي في الحادية والعشرين من
عمرها، تجلس مقاطعة الذراعين في البيت، ضجرة حتى الموت،
بينما خوانا نانكوتشيو تراقبها ولا ترفع بصرها عنها. لم يفدها في شيء،
التدّرع بأنّها قد بلغت سنّ الرشد بحسب القانون، ذلك أنّه ليس لديها
مكان تذهب إليه، وليست قادرة على توفير نفقاتها بنفسها، مثلما أبلغوها
بوضوح. «كوني حذرة جدّاً، يا أوفيليا، لأنك إذا خرجت من باب البيت،
فلن تعودى للدخول إليه»، قال لها أبوها متوعّداً. حاولت الحصول
على تعاطف فيليب أو إحدى أخواتها، ولكن العائلة المتماسكة رفضت
الصوف لحماية شرف الأسرة، ولم تحصل أوفيليا في نهاية المطاف إلّا

ما، مساعدة الشائق، وهو رجل استقامة قابلة للتفاوض. انتهت حياتها الاجتماعية، إذ كيف يمكن لها الذهاب إلى حفلات في الوقت الذي تفرس أنها مريضة. فكانت حالات خروجها الوحيدة هي زياراتها لأديرة امراء مع جمعيّة السيّدات الكاثوليكيّات، وإلى القدّاس مع أسرّتها، إلى دروس الفنّ، حيث من الصعب أن تلتقي بأحد من وسطها. وكانت قد توصّلت، بعد نوبة عصبيّة ملحمة، إلى دفع أبيها للموافقة على مسألة الدروس. وكانت لدى الشائق تعليمات بأن ينتظرها عند الباب خلال ثلاث أو أربع ساعات تقضيها في ورشة الرّسم. مضت عدّة أشهر من دون أن تحقّق أوّلياً تقدّمًا يُذكر في دراستها الفنّ، مشبهة بذلك أنّها حلّو من الموهبة، مثلما صار يُعرف في الأسرة. والحقيقة، أنّها كانت تدخل مدرسة الفنّ من البوابة الرّئيسية، مسلّحة بأقمشة لوحاتها ومنصبها ورسومها، فتجتاز المبنى وتخرج من الباب الخلفي، حيث ينتظرها فيكتور. كانت المواعيد قليلة التواتر، لأنّ فيكتور يجد صعوبة في موافقة أوقات فراغه القليلة مع مواقيت دروسها.

كان فيكتور بمضيّ كثر لم يتمّ طوال اللّيل، بعينيّ من يمشي وهو نائم، مستنغد القوي، بحيث إنّ النعاس يغلبه في بعض الأحيان قبل أن تتمكّن حبيته من خلع ملابسها أثناء مواعيدهما في الفندق. وبالمقابل، كانت روزر تنبأه بطاقة لا تُضاهى. لقد كانت تعتاد على المدينة، وتعلّم التعامل مع التشيلّيين، وهم في العمق يشبهون الإسبان بكرّمهم وتزقيهم ومأساويّتهم؛ وقد قرّرت أن تعقد صداقات، وأن تُكوّن لنفسها سمعة جيّدة كعازفة بيانو. كانت تعزف في الإذاعة، وفي فندق كرويّون، وفي الكاندرائيّة، وفي أنديّة وبيوت خاصّة. وذاع صيتها بأنّها فتاة حسنة المظهر وطّيبة العادات، قادرة على العزف سماعيّا كلّ ما

يُطلب منها؛ يكفي نصفي لحظة من اللحن لتقوم خلال ثوانٍ بعزفه على البيانو! لقد صارت الاحنياطي المثالي للحفلات والمناسبات الوقور. تكسب أكثر بكثير مما يكسبه فيكتور في حانة وينبيغ، ولكن كان عليها أن تكتشف دورها كأم؛ لم يكن انهما بدعوها «ماما»، وأما «سيددة»، حتى بلوغه السنة الرابعة. وأول كلمات نطقها الصبي كانت «نبيد أبيض» بالكتلائية، يتلفظ بها من حاويته وراء منضدة كوتتوار حانة أبيه. كان فيكتور وروزر يتناوبان حمله في الجعبة على الظهر، إلى أن صار ثقبلاً الضيق ودفع الجعبة الملتصقة بجسد أمه أو أبيه كانا يمنحانه الأمان. لقد كان طفلاً هادئاً صامتاً، يتسلّى وحده، ونادراً ما يطلب شيئاً ما. كانت أمه تأخذه إلى الإذاعة وأبوه إلى الحانة، ولكنه يقضي معظم الوقت في بيت أرملة لذيها ثلاث قطط، تقوم برعايته والعناية به مقابل مبلغ زهيد.

وخلافاً لما هو متوقع، راحت علاقة فيكتور وروزر تتحرز في ذلك الزمن المضطرب، حيث لم يكن هنالك تلاقٍ تقريباً بين حياتيهما، وكان قلبه مشغولاً بامرأة أخرى. لقد تحولت الصداقة الطويلة إلى تواطؤ، حيث لا مشع للأسرار أو الشكوك أو الإساءات؛ انطلاقاً من قاعدة أن أيّاً منهما لن يتسبب أبداً بأيّ أذية للآخر، وإذا ما حدث ذلك، فسيكون مجرد خطأ. كان كلٌ منهما يحمي ظهر الآخر. وبهذه الطريقة، كان بإمكانهما تحمل بؤس الحاضر وأشباه الماضي.

خلال الشهور التي أمضتها روزر في بيرمينيان، عندما كانت تعيش مع الكويكرز، تعلمت الخياطة. وفي تشيلي، اشترت بأول نقود وفرتها ماكينة خياطة سنجر، بدلاً من تحريك القدمين، سوداء اللون، لامعة، مزودة بحروف وأزهار مذهبة، وأعجوبة في الفعالية. الصوت الإيقاعي لماكينة الخياطة كان يحاكي تعاريف البيانو، ولدى الانتهاء، من خياطة

١. أو ثبات لطفل نشعر بالرضى، مثلما نشعر به عند تلقيها تصنيف
 ٢. هور. كانت تستسخ من مجلات الأزياء، وتنجول دومًا بملابس
 ٣. ومن أجل حفلاتها الموسيقية، حاضت ثوبًا طويلًا رصاصي اللون،
 ٤. ذات تصيف إليه أن تنزع منه شرائط متعددة الألوان، وأكمامًا قصيرة
 ٥. طويلة، وياقة وأزهارًا ومشابك زينة، بحيث تبدو في كل حفلة كما
 ٦. أنها تلبس ثوبًا مختلفًا. وكانت تسرح شعرها على الطريقة القديمة،
 ٧. مع عقصة في مؤخرة الرأس مزينة بأمشاط وبروشات، وتطلي أظفارها
 ٨. بنفثتها بالأحمر، مثلما سطلّ نعل حتى نهاية حياتها، عندما صار
 ٩. الشيب يغزو شعرها، وصارت شفتاها جافتين. «أمرأتك جميلة جدًا»،
 ١٠. ما قالت أوفيليا لفيكتور في إحدى المناسبات. كان قد التقى بها
 ١١. سيدة في مأتم عم لها، وكانت روزر تعزف مقطوعات حزينة على أرغن،
 ١٢. كما أقارب المتوفى يمزجون مقدمين تعازيهم إلى الأرملة والأبناء. وعند
 ١٣. رابنها أوفيليا، توقفت روزر عن العزف، وتبادلت معها التحية بقبلة على
 ١٤. الحد، وهمست في أذنها أن تعتمد عليها في كل ما يمكن أن تحتاج
 ١٥. إليه. فأكد ذلك لأوفيليا أن رواية فيكتور عن العلاقة الأخوية مع زوجته
 ١٦. كانت صحيحة. وقد فاجأ فيكتور تعليق أوفيليا حول مظهر روزر، لأنه
 ١٧. لدى التفكير بروزر، كانت الصورة التي ترد إلى ذهنه هي صورة الفتاة
 ١٨. النحيلة والبسيطة في إسبانيا، البنت المخدولة فاقدة الحماية التي تبناها
 ١٩. أبواه، خطيبة وليام الضئيلة. وأن تكون روزر الشابة تلك، أو التي أطرت
 ٢٠. عليها أوفيليا، لا يبذل الواقع الجوهري عن مدى وكيفية حبه لها. لا
 ٢١. شيء، ولا حتى المحاولة غير المحتملة للهروب مع أوفيليا إلى فردوس
 ٢٢. شاطئ أشجار نخيل، يمكن أن يدفعه إلى الابتعاد عنها وعن الطفل.

الفصل الثامن

1941 - 1942

١. أسأل الآن،

٢. «رحب، شيئا فشيئا، تتخلين عن حبي،

٣. سوف أتخلّى عن حبك شيئا فشيئا

٤. «أما نيتي

٥. «أما

٦. «تبحثني عني،

٧. لأنني سأكون قد نيتك

٨. «أبلىو نيرودا،

٩. «إذا ما نيتني،»

١٠. أشعار القبطان

.

.

عندما حبسوا أوفيليا في بيت شارع مار دي بلاتا، صارت اللقاءات المرامية في الفندق أكثر فأكثر تباعدًا واقتضابًا. وفي حياته الجديدة، لا تتوافر له أوفيليا في أي لحظة، رأى فيكتور دالماو أن الزمن يطول بآبد، وأنه يمكن له بين حين وآخر أن يتقنل دعوة سلفادور أليندي المرب دور شطرنج. كان يحمل الغناء الشابة في روحه، ولكنه لم يُقد ماضي التلهف الدائم للهرب من أجل معانقتها خفية، ولم يكن بحاجة إلى الدراسة طوال الليل من أجل تعويض الساعات التي يقضيها معها. من الجامعة، كانت يتغلّت من الدروس النظرية حيث لا أحد يهتم بتفقد الحضور، إذ بإمكانه دراسة ذلك من الكتب ودفاتر الملاحظات. فكان مركّز على المختبر، وعلى دروس التشريح وساعات الممارسة العملية في المستشفى، حيث عليه أن يُخفي خبرته العملية كيلا يتسبّب بإهانة للأستاذة. وفي الحانة، كان ينجز بصورة تامة مناوبته الليلية، ويستغل فرصة الليالي التي يتضاءل فيها عدد الزبائن، وعينه على قصص الأطفال الذي يضعون مرسيل فيه. وتبين أن جوردي مولينيه، الحذاء الكتلاتي، هو شريك مثالي، فهو يرضى دومًا بأرياح حانة الوينيبيغ المتواضعة، ويكون ممثنا لحصوله على مكان خاص، أكثر احتضانًا من بيته كرجل

وحيد. فمن أجل تبادل الحديث مع أصدقاءه، وشرب كاراتيهو⁽¹⁾ النسكافيه مع قليل من الكونياك، والاستمتاع بأطباق بلاده، وعزف ألحان أغنيات على الأكورديون. كان فيكتور قد اقترح عليه أن يعلم لعب الشطرنج، ولكن موليبه لم يفهم قط الغاية من تحريك أحجار الشطرنج إلى هنا وإلى هناك على الرقعة من دون تحقيق أي مكسب مادي! في بعض الليالي، عندما يلاحظ مدى إنهاك فيكتور، يطلب منه أن يذهب للنوم ويحلّ هو محلّه بكلّ سعادة، مع أنّه لم يكن يقدّم للزبان سوى النبيذ والبيرة والكونياك! أمّا تركيب الكوكيتيلات، فلم يكن يعرف عنه أي شيء، ويعتبره تقليعة مفروضة من المختئين. وكان يكنّ احتراماً كبيراً لروزر ومحبةً لمارسيل؛ يمكن له قضاء لحظات طويلة متحمّياً وراء منضدة الكونتوار وهو يئسب مع الضفّ، فقد كان يرى فيه التحفيد الذي يفقر إليه. في أحد الأيام، سأله روزر إذا ما كان قد تبقي أحد من أفراد أسرته في كاتالونيا، فأخبرها بأنّه غادر قرينه بحثاً عن حياة منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وأنّه كان بحثاً في نوبي شرق آسيا؛ وحطاباً في أوريغون؛ وسائق قطار، وبناء في الأرجنتين... وباختصار، مارس مهنة كثيرة قبل أن يصل إلى تشيلي ليحني أموالاً من مشغله لصنع الأحذية.

- فلتقل باديّ ذي بدء أنّه بقيت لي أسرة في تلك الأنحاء، ولكن من يدري ما الذي حلّ بها. خلال الحرب، كانوا منقسمين؛ البعض كانوا جمهوريين، وكان آخرون مع فرانكو؛ هنالك أعضاء في الميليشا الشيوعية من جهة، وكنهنة وراهبات من جهة أخرى.

- أنت على اتصال بأحد منهم؟

(1) الكاراتيهو هو فنجان قهوة نضاف إليه جرعة صغيرة من الكونياك، أو مشروب قوي آخر.

- أجل، مع اثنين من الأقارب. لدي ابن عم ظل مختبئاً حتى نهاية الحرب، وهو الآن عمدة القرية. إنه فاشي، ولكنه شخص طيب.

- في أحد الأيام، سأطلب منك معروفًا...

- اطلبه الآن حالاً، يا روزر.

- أثناء الانسحاب من برشلونة، ضاعت حماتي، أم فيكتور، ولم أطلع معرفة أي شيء عنها. بحثنا عنها في مخيمات التجميع في فرنسا، أما بالبحث والتقصي في جانبي الحدود، ولكن من دون جدوى!

- حدث هذا لأشخاص كثيرين. كثير من الموتى، والمتنقلين. وكثيرون يعيشون متخفين في السرب! السجون ممثلة إلى التهمة، وفي كل ليلة يخرجون سجناء من دون تدقيق وكيفما اتفق، وهم مدهمون رمياً بالرصاص.. هكذا، بلا مبرر، وبلا محاكمة أو أي شيء مشابه. إنهم عدالة فرانكو. لا أريد أن أكون متشائماً، يا روزر، ولكن يمكن احتمالك أن تكون قد ماتت!

- أعرف ذلك. فكارمي تفضل الموت على المنفى. لقد انفصلت منا ونحن في الطريق إلى فرنسا، واختفت في الليل من دون وداع، ومن دون أن تخلف أثرًا. إذا كانت لك اتصالات مع أحد في كتالونيا، فلربما يستطيعون السؤال عنها!

- أعطني المعلومات، وسوف أتولى الأمر، ولكن الأمل ضعيف، يا روزر. الحرب إعصار يخلف في مروره الكثير من الدمار.

- وتقول هذا الكلام لي، يا سيد جوردي!

لم تكن كارمي هي الشخص الوحيد الذي تبحث روزر عنه.

فأحد أعمالها غير النظامية، إنما العشوائية بكثرة، كان في سعادته فنزويلا، دارة مدفونة بين أشجار حديقة وارفة، حيث يتمشى طاووس متوحد. فالتنين سانتشيث، السفير، كان ذؤافة محباً للمطبخ الجبّ والخمور الفاخرة، وقبل ذلك كله الموسيقى. ينتمي إلى سلاوة موسيقيين وشعراء وحالمين. كان قد قام بعدة رحلات إلى أوروبا لإنفاة ألحان منسية، ولديه في صالونه الموسيقي مجموعة استثنائية من الآلات الموسيقية، ابتداء من قيثارة تُنسب إلى موزارت، وحتى كنزه الأثمن ناي يعود إلى ما قبل التاريخ كان، على حدّ قول صاحبه، مصنوعاً من ناب ماموث. فكانت روزر تكتم شكوكها حول صحة الحديث عن القيثارة أو الناي، ولكنها تشكر كتب تاريخ الفنّ والموسيقى، التي يعبرها إيّاهما فالتنين سانتشيث، وشرف كونها الوحيدة التي يسمحون لها باستخدام بعض قطع مجموعة آلاتهم الموسيقية. في إحدى الليالي، ظلت لبعض الوقت مع مضيفها بعد أن غادر الزائرون، كانا يتناولان كأساً، ويتحدثان عن المشروع الغريب الذي خطر لها، وقد استوحته من مجموعة السفير، لتشكيل أوركسترا، ويريد هو أن يكون راعيها. وقبل الوداع، تجرأت روزر على طلب مساعدته في العثور على شخص ضائع في السفى. وقالت له: «اسمه أيتور إيبازا، وقد ذهب إلى فنزويلا، فهناك له أقارب يعملون في تجارة البنامة. بعد قرابة الشهرين من ذلك، اتصلت به سكرتيرة من السفارة مع معلومة عن إنياس إيبازا وأبنائه، شركة مواد بناء في ماراكايبو. كتبت روزر عدّة رسائل ياحساس أنها تلقى إلى البحر رسالة في قارورة. لم تتلقَ أيّ جواب قطّ.

ذريعة سوء حالة أوفيليا الصحية التي استغلّتها الأسرة طوال عدّة شهور لتفسّر تأجيل زواجها من ماتياس إيثاغيري، تحققت تعاماً مع

١. ايام السنة التالية، عندما انتهت خوانا نانكوتشييو إلى أنَّ الفتاة حُبلى .
 ٢. البدء، كانت حالات التقبُّو الصباحي الذي حاولت خوانا، من دون
 ٣. وى، أنَّ تعالجه بمغلي الشُمرة والزنجبيل والكُمُون، ثمَّ انتهت إلى
 ٤. سمعة أسابيع قد مضت من دون وجود حفاظات صمَّيَّة بين الفسيل .
 ٥. في أحد الأيام، عادت لرؤية أوفيليا كمن تنقيًا أحشاءها في المرحاض،
 ٦. واجهتها وهي تضع يديها على خصرها، قائلة لها بتحدٍ: «سوف تخبريني
 ٧. مع من ورطت نفسك» قبل أن يكون أبوك هو من يتحرى ذلك». كان
 ٨. مهل أوفيليا بجدها شبه مطلق؛ فحتى اللحظة التي سألتها فيها خوانا
 ٩. مع من تورطت، لم تكن تربط فيكتور دالماو بأسباب تلك الإزعاجات
 ١٠. التي نصيها، فكانت تنسبها إلى فيروس في الجهاز الهضمي. في تلك
 ١١. اللحظة، أدركت ما يحدث لها، وحال الذعر دون تمكُّنها من الكلام.
 ١٢. «أنا أنت عليها خوانا: «من هو؟» فرَّدت عليها أوفيليا عندما تمكَّنت من
 ١٣. الكلام: «لن أخبرك ولو متَّ». وسيكون هذا هو جوابها الوحيد خلال
 ١٤. الخمسين عامًا التالية.

تولَّت خوانا الموضوع بنفسها، وكانت تفكّر بأنّه يمكن للصلاوات
 والأساليب البينيَّة أن تحلَّ المشكلة من دون إثارة شكوك الأسرة.
 قدَّمت نذرًا من عدَّة شموع زكيَّة الروائح للقديس يهوذا تداوس، قديس
 الحالات المتعصية، وقَدَّمت لأوفيليا شايًا من عشبة الرودا، وأدخلت
 سيقان بقدونس في رحمها. لقد أعطتها عشبة الرودا وهي تقلم أنَّها
 سائمة، لأنَّها قدَّرت أن حدوث ثقب في المعدة يظلُّ أقلَّ خطورة من
 «هوانشو»، ابن زنا. ومع انقضاء أسبوع من دون التوصل إلى نتيجة سوى
 ازدياد مشر للذعر في التقبُّو وإنهاك لا يُقاوم، قرَّرت خوانا اللُّجوء إلى
 فيليبه، الشخص الذي تثق به دومًا. جعلته يقسم لها أوَّلًا أنّه لن يخبر

أحدًا. ولكنها حين أخبرته بما يجري، أقتنعها فيليب بأن هذا الأمر أكثر بكثير من أن ينحملا وحدهما.

وجد فيليب أخوته أوفيليا ممددة على السرير، متشجعة من الام البطن التي تسببها عشة الرودا، ومحمومة من الغم والقلق.

- كيف حدث هذا؟ سألتها وهو يحاول الحفاظ على هدوئه.

- مثلما يحدث دومًا، ردّت عليه.

- هذا أمر لم يحدث في عائلتنا من قبل.

- هذا ما تظنه أنت، يا فيليب! فهذا يحدث في كل لحظة من دون

أن يعلم الرجال به. إنها أسرار سائتة.

- مع من فعل...؟ - تردّد من دون أن يدري كيف يقول ذلك، ومن

دون أن بغضبها.

- لن أخبرك ولو ميّتة، كرّرت الردّ.

- عليك إخباري، يا أختاه، لأنّ المنخرج الوحيد هو زواجك من

فعل بك ذلك.

- هذا أمر مستحيل. فهو لا يعيش هنا.

- ما الذي تعنيه بأنّه لا يعيش هنا؟ أينما يكون، سوف نجدّه، يا

أوفيليا. وإذا لم يتزوّجك...

- ما الذي تفكر بعمله؟ أتريد قتله؟

- بالله عليك! يا للكلام الذي تقولينه. سأتكلم معه بصراحة، وإذا

لم ينفع هذا، فمستوف يتدخّل أبونا في الموضوع...

- لا! بابا لا!

- يجب عمل شيء ما، بأوفيليا. من المحال إخفاء هذا الأمر، سوف يلحظ الجميع ذلك قريباً، وستكون الفضيحة مرعبة. سوف أساعدك قدر استطاعتي. أعدك بذلك.

وأخيراً، اتفقا على أن يُخبرا الأم، كي نفهم هي بتهينة معنويات ورحمها، وبعد ذلك، سيرون ما الذي يُمكن عمله. تلقّت لورا دل سولار الخبر بيقين أنّ الرب يعمل أخيراً على تصفية الحسابات معها على الكثير التي تدين به. فمأساة أوفيليا ليست سوى جزء من الشئ الذي عليها أن تدفعه للسماء، والجزء الآخر، الجزء الأعلى ثمناً، هو أنّ قلب الصغير ليوناردو يخفق بوثبات وصمت. مثلما كان الأطباء قد تنبأوا عند ولادته، فأجهزته ضعيفة، وحياته ستكون قصيرة. الطفل اُخذ بالانطفاء من دون مهرب، بينما أُمّه المتشبّثة بالصلاة والتعامل مع القديسين، ترفض تقبل المؤشرات الجليّة. أحسّت لورا كما لو أنّها نفرت في مخاضة وحلٍ كثيف، وتجرّ معها أسرتها كلّها. بدأ وُجع الرأس فوراً، ضربة هراوة على الرقبة، أظلمت بصرها، شوّشها. كيف ستخبر إيسدرو بذلك؟ لا يُمكن لأيّ استراتيجيّة أن تخفّف من وقع الصدمة أو من ردّ فعله. لا مُسح إلاّ لقليل من الانتظار، لعلّ الرّفق الإلهي يحلّ مشكلة أوفيليا بصورة طبيعيّة - حالات حبل كثيرة تُحبط في البطن، ولكنّ فيلييه أقنعها بأنّهم كلّما انتظروا لوقت أطول، يصبح الوضع أكثر صعوبة. تولّى هو نفسه مهمّة عقد اجتماع مغلق مع أبيه في المكتبة، بينما كانت لورا وأوفيليا معتكفتين في أقصى البيت، تصليّان بحماسة شهداء الدين.

مضى أكثر من ساعة إلى أن جاءت خوانا في طلبهما، مع الأمر بأن تمثلا فوراً في المكتبة. استقبلهما إيسدرو دل سولار عند العتبة،

وبادر على الفور بتوجيه صفتين إلى وجه أوفيليا، قبل أن تتمكن لورا من الوقوف أمامه، ويتمكن فيليه من إمساكه من ذراعه.

- من التعيس الذي دُمر حياة ابنتي؟ أخبريني من هو، قال مزيجًا

- لن أفعل ولو ميّنة، ردت عليه أوفيليا وهي تمسح بكتفها الدم النازف من أنفها.

- سوف أجعلك نخبريني حتى لو اضطرت إلى جلدك!

- افعل ما تشاء. لن أخبر أحدًا من هو.

- أبتاه، أرجوك... فاطمه فيليه.

- اصمت! أولم أمر بأن تبقى مخاطبة الخراء هذه محبوسة؟ أين كنت حضرتك، يا لورا، يا من أذنت بحدوث هذا؟ أظن أنك كنت في الصلاة، بينما الشيطان ينجول في البيت. أتدركون مدى المهانة... والفضيحة؟ كيف سنواجه الناس! وواصل الصراخ بعدة لوقت لا بأس به، إلى أن تمكن فيليه من مقاطعته للمرة الثانية.

- اهذه يا أبتاه، ولنبحث عن حل. سوف أقوم ببعض التحريات...

- تحريات؟ ما الذي تعنيه؟ سأله إيسيدورو، براحة مفاجئة، لأنه لم يكن هو من عليه أن يقترح ما لا بد منه.

- تشير إلى أنك ستجري لي عملية إجهاض، قالت أوفيليا من دون تأثر.

- وهل يخطر لك حل آخر؟ واجهها إيسيدورو.

عندئذ، تدخلت لورا دل سولار أول مرة لتقول بصوت مرتعش، ولكنه واضح جدًا، إن هذا عمل لا يمكن مجرد التفكير فيه، لأنه خطيئة مميتة.

.. سواء أكان خطيئة أم لم يكن، هذه المشكلة لا تُحل في السماء،
 ١. ها على الأرض. سنفعل ما هو ضروري، وسيغفهم الرب ذلك.
 .. لن نتخذ أي إجراء قبل أن نتحدث مع الأب أوربينا، قالت لورا.
 هرع الأب بيثنتي أوربينا استجابة لدعوة آل دل سولار في تلك
 الليلة بالذات. مجرد حضوره بث فيهم الطمأنينة؛ كان يشع بذكاء وحزم
 .. يعرف كيف يصارع أرواحا قلقة، ومن له اتصال مباشر بالرب. تقبل
 فلاس نبيذ أبورتو الذي قدموه إليه، وأعلن أنه سيتكلم مع كل واحد
 .. مهم على انفراد، ومبدأ بأوفيليا التي كان وجهها في أثناء ذلك قد
 نوزم، وكانت إحدى عينيها مغمضة ظل معها قرابة الساعتين، ولكنه لم
 .. توصل كذلك إلى جعلها تعترف باسم العشي، ولا أن تذرف دموعا.
 .. ليس ماتياس، لا تحلقوه المسؤولية، كزرت أوفيليا ذلك عشرين
 مرة، مثل نعمة مكرورة. كان أوربينا معنادا على تنويم أتباعه مغنطيسيًا
 بالخوف، ولكن برودة هذه الفتاة الجليدية نوشك أن تُخرجه عن طوره.
 .. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما انتهى من الحديث مع أبوي
 الخاططة وأخبرها. وقد استجوب كذلك خوانا التي لم تستطع توضيح أي
 شيء، لأنه لا شك لديها فيمن كان ذلك العشي الغامض. «لا بد أن
 يكون الروح القدس، يا أبتاه»، توصلت إلى القول بمراوغة.

استبعد الأب أوربينا اقتراح الإجهاض فوراً، لأنه جريمة أمام
 القانون، وخطيئة لا تغفر أمام الرب، المتحكم الوحيد بالحياة والموت.
 هنالك بدائل، وسوف يدرسونها خلال الأيام التالية. الأمر المهم يتمثل
 في إبقاء المسألة ضمن جدران البيت. يجب ألا يعلم بذلك أحد، ولا
 حتى أختي أوفيليا، ولا أخاها الآخر المنهمك في قياس شدة الأعاصير
 في منطقة الكاريبي. «إن للتقولات أجنحة»، مثلما اعتاد يسيدرو القول؛

والأمر المهم هو الحفاظ على سمعة أوفيليا وعلى شرف العائلة. وبعد أوربينا كل واحد منهم بنصائحهم: فنصح إيسيدرو بأن يتجنب العمه لأنه يقود إلى الخطأ، بينما المطلوب في هذه الحالة أقصى ما يمكن. الحذر! ونصح لورا بأن تواصل الصلوات والإسهام في أعمال الإحسان التي تقدمها الكنيسة؛ ونصح أوفيليا بالندم وبأن تعترف، لأن شهر الجسد ضعيف، ولكن رحمة الرب غير متناهية. وأخذ فيليبه جانباً، وماز له إن عليه أن يكون دعامة أسرته في هذه الأزمة، وأن يذهب للقاء به في مكتبه كي يتوافقا على وضع خطة.

تبين أن خطة الأب أوربينا مجرد بساطة بدائية. تُعطي أوفيليا الشهور القادمة بعيداً عن سستياخو، حيث لا يراها أحد من المعارف. وبعد ذلك، عندما لا يعود بالإمكان إخفاء تضخم البطن، تذهب إلى عزلة في أحد أديرة الراهبات، حيث ستكون في رعاية جيدة إلى أن تضع وليدها، وتتلقى المعون الروحي الذي هي بحاجة كبيرة إليه. «بعد ذلك؟» سأله فيليبه. فأجابه: «بعد ذلك، يقدم الطفل أو الطفلة لتبنته عائلة محترمة. وهذا أمر سوف أتدبره بنفسه. وسيكون عليك أنت أن تهتم بطمأنة أبويك وأختك، وأن تتولى بعض التفاصيل. وسوف تكون هنالك بعض التفقات بالطبع...». أكد له فيليبه أنه سيتولى ذلك شخصياً، وسيقدم تعويضاً لراهبات الدير أيضاً. وطلب منه فيليبه كذلك، عند اقتراب موعد الولادة، أن يحصل على إذن للخالة تيريسا، وهي راهبة من طائفة أخرى، كي تكون إلى جانب ابنة أختها.

الشهور التالية في إقطاعية العائلة كانت ماراتون صلوات، ونذوراً للقدّيسين، وتوبة وتكفيراً وأعمال إحسان من جانب دونيا لورا، بينما كانت خوانا نانكوتشو تركز في الروتين اليومي، تُعنى بالصغير، الذي

١٠. أني محطمة وضائعة، مثلما يقول الجميع، فليس هناك من يهتم
 ١١. برائي. سأكون عازبة بدينة. أصلمت نفسها بلين ليد الأب أوربيننا
 ١٢. أسرته، من دون أن تشارك في اتخاذ القرارات بشأن الطفل الذي
 ١٣. ولد. مثلما تقبلت الاختفاء في الرُيف والعيش سرّية، ورضخمت لتقيل
 ١٤. الذي انتهى الكاهن والظروف المحيطة إلى ترسيخه في ذهنها،
 ١٥. وصلت إلى القناعة بأن التّبي أمر لا مفرّ منه. وأتّه لا وجود لمخرج
 ١٦. أمر أمامها. وكانت أنها قد قالت لها: «لو أنني أكثر شبابة، لقلت إن
 ١٧. مارك هو ابني، ولكن بمقدورنا تربيته ضمن الأسرة، ولكنني في الثانية
 ١٨. الخمسين من العمر، ولن يصدّق أحد أنّه ابني». في تلك الفترة، كان
 ١٩. نسل يحول دور أوفيليا على التّفكير، فالشيطان الوحيدان اللذان
 ٢٠. تروغب فيهما هما النوم والأكل، ولكنّها في الشهر السابع تقريباً،
 ٢١. حلّت عن تخيل أنّ هناك ورم بداخلها وشعرت بصورة واضحة بحضور
 ٢٢. اللذان الأخذ بالتشكّل. كانت الحياة قبل ذلك تنبّئ لها كتحقيق
 ٢٣. ساحتي طائر مذعور، ولكنّها الآن، لدى نلّس بطنها تتمكّن من تخطيط
 ٢٤. شكل الجسد الصغير، وتحديد قدمه أو الرأس. عندئذٍ، عادت لتناول
 ٢٥. فلم الرصاص لترسم في دفاترها أطفالاً وطفلات يشبهنها هي نفسها،
 ٢٦. وبلا أيّ ملمح من ملامح فبكتور دالماو.

كلّ خمسة عشر يوماً كانت تحضر إلى الإقطاعيّة داية لفحص
 أوفيليا، يرسلها الأب أوربيننا. اسمها أوربيندا نارانخو وهي تعرف، على
 حدّ قول الكاهن، أكثر من أيّ طبيب حول الأمراض النسائيّة، وهذه
 هي التّسمية التي يُطلقها على التكاثر. وكانت تلك القابلة توحى
 بالثقة منذ الوهلة الأولى، بصليتها الفضيّ المعلق حول عنقها، وزيّ
 الممرّضة الذي ترتديه، وكانت تحمل حقيبة فيها أدوات مهنتها. تقيس

بطن أوفيليا، وتقيس ضغطها، وتنصحها بالنبرة المؤثرة لمن ينحى
 إلى محضرة. كانت أوفيليا تشعر نحوها بعدم ثقة عميق، ولأنها
 تبذل مجهوداً لبدو لطيفة، لأن دور هذه المرأة سيكون أساسياً في
 الولادة. ولأنها لم تكن تولي أهمية لحسابات دورتها الشهرية،
 لتواريخ اللقاءات مع عشيقها، لم تستطع أن تعرف متى بدأ حملها، لم
 أوريندا نارانشو قدرت التاريخ التقريبي للولادة من خلال حجم البصر
 تنبأت بأن الولادة ستكون معشرة، بالنظر إلى كون أوفيليا بكرية، ولأن
 بدانتها أكثر من المعقول، إنما يمكنها الاطمئنان، لأنها تمتلك حملاً
 كبيرة جداً، وكانت قد أخرجت إلى الدنيا أطفالاً أكثر من أن تُسع لهم
 ذاكرتها. أوصت بنقل أوفيليا إلى الدير في سننياغو، حيث توجد عبادة
 مزودة بكل ما هو ضروري، وفي حالة حدوث أي طارئ، المكان قريب
 من عبادة خاصة. وهذا ما فعلوه. هرع فيليبه بسيارة العائلة لنقل أخته.
 ووجد نفسه أمام شخص لا يُمكنه التعرف عليه! كانت بدينة جداً، مع
 يقع على الوجه، تجر جر قدمين هائلتين بياوج، وتلتحف بعباءة بونتشو
 تعبق برائحة خروف. «كون إحدانا امرأة مسألة كارثية، يا فيليبه»، قالت
 له على سبيل توضيح الحالة. كانت أمتعتها تتألف من ثوبين أوميتين
 لهما شكل الخيمة، وسترة سميكه رجالية، وعلبة ألوانها - علبة أدوات
 رسم، وحقبة بديعة نضمت ملابس كانت أمها وخوانا قد أعدتاها للوليد.
 أما القليل الذي حاكته هي نفسها، فكان مشوهاً.

بعد أسبوع من الإقامة في الدير، استيقظت أوفيليا دل سولار فجأة
 من حلم مزعج وهي مغطاة بالعرق، وبانطباع من نامت شهوياً في غسق
 مديد. كانت قد خصصت لها حجرة فيها سرير معدني، وفرشة صغيرة
 من وبر الخيول وشعرها، وبطانتان من صوف خام، وكرسی، وصندوق

«إنه العودة إلى مانياس. وأنهت الرسالة بوداع حاسم، مع تحذيره من
«إلى التواصل معها إلى الأبد.

نلقى فيكتور رسالة أوفيليا بسلام من كان ينتظرها، ومن استعد
«مبقاً. لم يؤمن قط بأنه يُمكن لذلك الحب أن يزدهر، لأنه، مثلما
«مرحت له روزر منذ البداية، أشبه بنبتة بلا جذور، وسيكون مصيره
«الحنوم هو الذبول؛ وأكدت له أن لا شيء ينمو في عتمة الأسرار،
«الحب بحاجة إلى الضوء والفضاء كي يتمدد ويتسع. قرأ فيكتور رسالة
«أوفيليا مرتين، ثم أعطاها لروزر قائلاً لها: «لقد كتب على حق، كما هي
«إعادة دائماً». اكتفت بنظرة سريعة لتقرأ بين السطور، ولتدرك أن برودة
«الوث التي كتبت بها أوفيليا تكاد تعجز عن إخفاء غضب رهيب، وظنت
«أنها قد عرفت السبب الذي لم يكن يقتصر على انعدام الأمل بمستقبل
«مع فيكتور أو على ردة فعل آنسة متقلبة. توقعت أن تكون الفتاة قد
«احتفظت من قبل أسرتها من أجل الثمن على عار خبلي غير شرعي،
«ولكنها امتنعت عن إخبار فيكتور بشكوكها، لأن عمل ذلك بدا لها
«أمرًا شديد الفسوة؛ فما الحاجة إلى تعذيبه بعزيب من الشكوك. كانت
«نشر بعزيب التعاطف والأسى تجاه أوفيليا، بالغة النقاء والسذاجة؛ إنها
«أشبه بجولييت تهرها ريح عاطفة طفولية، ولكنها بدلاً من روميو الشاب،
«نورطت مع رجل متصلب.

تركت الرسالة فوق منضدة المطبخ. أمسكت فيكتور من يده،
«واقادته إلى الأريكة، مكان الجلوس المريح الوحيد في مسكنها.
«استلقى هنا، أريد أن أحك رأسك». استلقى فيكتور على الأريكة واضعاً
«رأسه على ثنورة روزر، واستلم لعنوبة أنامل عازفة البيانو في شمره،
«وليفين أنها طالما هي موجودة، لن يكون وحيداً في عالم النكبات هذا.
«فما دامت وطأة أسوأ الذكريات تبدو له محتملة وهو معها، فسوف يكون

كذلك أيضًا الفراغ الذي سنخلفه أوفيليا في منتصف صدره. كان به، أن يعترف لروزر بالألم الذي يخنقه، ولكن كانت تنقصه الكلمات لرد لها ما عاشه مع أوفيليا، وكيف اقترحت عليه في إحدى اللحظات، يهربا معًا، وكيف أقسمت له على أنهما سيظلان عاشقين إلى الأبد. لم يكن قادرًا على قول ذلك، ولكن روبر كان تعرفه جيدًا، ومن المؤكد أنها تعرف ما يشعر به. وكانا مستغرقين في هذه الحال، عندما استبسط مارسيل من قبلولته، وراح يناديهما صارخًا.

لم تخطئ روبر الحدس في ما يملأ بشارع أوفيليا. ففي الأناج التي مضت منذ معرفتها حقيقة وضعها، راحت عاطفتها تتحول إلى غضب أصم يحرقها من الداخل. كانت تقضي ساعات وهي تحلل سلوكها، وتتفحص ضميرها، مثلما طلب منها الأب أورينا، ولكنها بدل الندم بسبب الخطيئة المزعومة، كانت تتأسف لبلايتها الجليئة لم يخطر لها أن تسأل فيكتور عما يفعلونه للحيلولة دون حدوث حمل، لأنها افترضت أنه يُخضع ذلك لرقابته، وأنه لن يحدث، لأنهما يلتقيان بصورة منباعدة وغير متواترة. وهو تفكير سحري. أما فيكتور، فلكونه أكبر سنًا وأكثر خبرة، يتحمل مسؤولية ذلك الحادث الذي لا يغتفر؛ فهي، الضحية، سيكون عليها دفع عقوبة كليهما. إنه ظلم هائل. تكاد لا تذكر سبب تشبثها بهذا الحب الذي بلا أمل، ومع رجل لا نجمعه به سوى أشياء قليلة مشتركة. فبعد أن تكون معه في الفراش، ودائمًا في مكان غير نظيف، ودائمًا بتسرع وبطريقة غير مريحة، يظلان غير راضيين، مثلما كانت الحال في الملامسات المختلطة مع ماتياس. وتوقعت أنه كان يمكن للأمر أن يبدو مختلفًا لو توافر لهما المزيد من الثقة والوقت من أجل أن يتعارفا، ولكنها لم تتوصل إلى أي شيء من ذلك مع فيكتور. لقد

. د . هي حب فكرة الحب، في الفضة الرومانسية والماضي البطولي
 . هـ . المحارب أو رجل حرب المصائب، كما اعتادت أن تسميه. لقد
 . و . أوبرا لا بد لنهايتها بالضرورة من أن تكون مأساوية. كانت تعرف
 . ز . دنور مغرم بها، على الأقل كل الغرام الذي يمكن أن يحمله قلب
 . ح . بالجراح؛ أمّا من جانبها، فكان دافقا وحسب، مجرد وهم متخيل،
 . ط . أخرى من نزواتها. كانت تشعر بعصبية شديدة، بأنها عالقة ومريضة،
 . ث . تفاصيل المغامرة مع فيكتور، حتى أشد تلك التفاصيل سعادة،
 . ج . مشوّعة بالخوف من أنها قد دمرت حياتها. كان الأمر بالنسبة إليه
 . د . بلا مخاطر، أمّا بالنسبة إليها فمخاطرة بلا متعة. والآن، في النهاية،
 . هـ . من تعاني من النتائج، بينما يستطيع هو مواصلة حياته كما لو أنّ
 . و . لم يحدث. إنها تكرهه. أخفت عنه أنها حُبلى، لأنها خشيت، إذا ما
 . ز . فيكتور ذلك، أن يطالب بدوره كآب ولا يتركها بسلام. فكلّ قرار
 . ح . بأن هذا الخبل يخصها هي وحدها، وليس لأحد الحق بإبداء الرأي،
 . ط . لاسمها هذا الرجل بالذات الذي سبب لها ما يكفي من الأذى. لم
 . ث . صحت الرسالة شيئا من هذا، ولكنّ روزر تكهّنت به.

بعد ثلاثة أشهر، توقفت أوفيليا عن التقيؤ؛ داهمها سبيل جارف
 من الطاقة بطريقة لم تعرفها من قبل قط. عندما أرسلت الرسالة إلى
 فيكتور، كانت قد أغلقت هذا الفصل، وتوقفت خلال أسابيع قليلة عن
 عذيب نفسها بذكريات وتأملات حول ما كان يمكن لها أن تكونه.
 بدأت تشعر بأنها متحررة من عشيقها، قوية، معافاة، وشهية مراهقة؛ تقوم
 بسميرات طويلة بخطوات راسخة في الزيف، تتبعها الكلاب، تدخل إلى
 المطبخ لتظهر إنتاجا غير متناه من البسكويت والخبز المخبى لتوزيعه
 على أطفال الإقطاعية، وتشغل نفسها برسم لوحات زيتية مع ليوناردو،

لطلحات ألوان مهيبة تبدو أكثر جاذبية من المناظر الطبيعية نفسها، ومن لوحات الطبيعة الصامتة السابقة، خطر لها أن تكوي ملاءات، أمام ارنبالا الفضالة وحيرتها، فكانت تقضي ساعات وسط مكايوي فحم ثقيلة، تنعز، وتبتهج. فانركوها، سوف تتجاوز هذا، قالت خوانا. وكان طيب مزاج أوفيليا يبدو صادمًا لدونيا لورا التي تنتظر رؤيتها مستغرقة في اليكام، بينما هي تحوك ملابس طفل رضيع، ولكن خوانا ذكرت أنها بأنها هي نفسها كانت قد مرّت أيضًا بأشهر من البهجة خلال فترات حبّلتها، قبل أن يصبح ثقل البطن حملًا لا يُطاق.

كان فيليب يذهب إلى الإقطاعية مرّة كلّ أسبوع ليتولّى موضوع الحسابات والنفقات، وتوجيه التعليمات إلى خوانا التي تحوّلت إلى سيدة البيت، لأنّ سببها كانت مشغولة بمفاوضات مع القديسين يأتي بأخبار من العاصمة، لا يهتمّ بها أحد، وبعبوات ألوان رسم ومجلّات لأوفيليا، ودبية من الغرو وصنوج للبيبي الصغير الذي لا يتكلّم، والذي عاد إلى الحيو. وكان يشتهي أوربينا يظهر مرّتين برائحة قداسته، مثلما تقول خوانا نانكوتشيوي، التي ليست سوى ثنانة مسوَّحة الكهنوتي الذي لا يُغل ولوسيون الحلاقة، يجيء لتقييم الوضع، وتوجيه أوفيليا في الطريق الروحاني، وحثّها على تقديم اعتراف كامل. وكانت هي تسمع لكلماته الحكيمّة بمزاج الغياب لدى أصمّ، من دون أن يُبدي أدنى تأثير حيال اقتراب موعد تحوّلها إلى أمّ، كما لو أنّ ما تحمله في بطنها مجرد ورم. فكان أوربينا يفكر: هذا يُسهّل كثيرًا مسألة التبني.

امتدّت الإقامة في الريف من أواخر الصيف حتّى الشتاء، وكانت لها فضيلة تهدئة تضرّعات دونيا لورا الجامحة إلى السماء. لم تكن تنجّزًا على طلب حدوث معجزة إجهاض تلقائي، يشكّل حلًا للمأمة

«عائلة»، لأن طلب ذلك لا يقل خطورة عن طلب موت زوجها، ولكنها
 ١١. تدخل الطلب بخفة ملتوية في تصرفاتها وصلواتها. سلام الطبيعة،
 إقامتها الثابت والهادئ، النهارات الطويلة والليالي الصامتة، حليب
 ١٢. الماشية الغائر والرغوي، الصواني الكبيرة المترعة بالفواكه وبالخبز
 السدي الخارج لتوه من الفرن الطيني، تتوافق مع مزاجها الخجول أكثر
 ١٣. من ضوضاء ستيافو. ولو كان الأمر بيدها، ل بقيت هناك إلى الأبد.
 لقد استرخت أوفيليا أيضًا في ذلك الجو الرعوي، وتحول الحقد على
 ١٤. من كنور دالماو إلى زعل خفي؛ لأنه لم يكن العذب الوحيد، فالمسؤولية
 مطالها هي أيضًا. بدأت تفكر بساتياس إيثاغيري بشيء من الحنين.

كان البيت مشيدًا بأسلوب الهندسة الكولونيالية والبناء القديم،
 ١٥. وان سميكة من اللبن الطيني، وقرميد، وعوارض خشبية وأرضية
 من الخرف، ولكنه تحلل جيدًا زلزال عام ١٩٣٩، خلافاً لبوت أخرى
 ١٦. المنطقة تحولت إلى أنقاض؛ فقد حدثت شروخ فقط في بعض
 الحدران، وسقط نصف قرميد السطح. وفي فترة الفوضى التي تلت
 ١٧. الزلزال، تضاعفت أعمال السطو في هذه الأنحاء؛ فكان هناك كسالى
 يحثون عن لقمة عيشهم، وكثيرون من عاطلين عن العمل، يسبون
 إليهم الأزمة الاقتصادية العالمية في الثلاثينيات وأزمة ملح البارود.
 عندما جرى الاستعاضة عن ملح البارود الطبيعي بأخر اصطناعي، آلاف
 ١٨. العمال تحولوا إلى عاطلين عن العمل، وكانت المعاناة من عقابيل تلك
 الأحداث لا تزال موجودة بعد عشر سنوات من وقوعها. ففي الأرياف،
 كان النصوص يدخلون في الليل، بعد أن يستحموا الكلاب، ويسطون على
 ١٩. الثمار والدجاج، ويسرقون خنزيرًا في بعض الأحيان، أو حمازًا لبيعه.
 فكان الحراس يبعدونهم برصاص البنادق. ولكن أوفيليا لم تكن تعلم

شيئا من كل ذلك. ففي أيام الصيف، وهي طويلة جدًا، كانت أومد تقضي أوقات الحرّ مستريحة في برودة الممرّات، أو وهي ترسم مشاهد من الزيف، لأنّ البيبي الصغير لم يتعدّ قادرًا على مرافقتها لتلطّيح صدقماش كبيرة بضربات فرشاة. كانت ترسم على بطاقات صغيرة العربّة التي تجرّها الجواميس والمحمّلة بالحشائش الجافّة، وأبقار الحليب الناعمة. وقنّاء الدجاج، والغشالات، وجني محصول العنب. نبذ آل دل سولار لا يمكنه المنافسة في النوعية مع أنبذة أخرى أوسع شهرة. كان إنشاءه محدودًا، ونباع الكميّة كلّها لمطاعم يرتبط بإسيدر وبعلاقات معها. كان يبيده أبعده ما يكون عن العرود التجاري، ولكنّ من المهمّ بالنسبة إليه أن يحسب ضمن أصحاب الكروم، هذا النادي الذي يضمّ عائلات معروضة

الشهر السادس من حَبَل أوقيليا تصادف مع بداية الخريف الشمس تغيب باكراً، والليالي الباردة والمظلمة تصبح أبدية؛ يتدفّأون بطانيات ومدافن فحم، ويستضيئون بشموع، لأنّ عليهم الانتظار عدّة سنوات قبل أن تصل تمديدات الكهرباء إلى تلك المناطق النائية. كان تأثير البرد عليها ضئيلاً جدًا، لأنّ راحة الشهور السابقة أفحّت المجال لمنحها ثقل لبوة بحريّة، وليس في الجسد وحده. فقد زاد وزنها خمسة عشر كيلوغرامًا، وكانت ساقاها منتفختين كفخذي خنزير، وإنّما كذلك في الرّوح. توقّفت عن الرّسم، وعن التّجول في الحظائر، وعن القراءة، وعن الحياكة والتّطريز، لأنّها صارت تغفو خلال أقلّ من خمس دقائق. ارتضت مواصلة السّعة، وأهمّلت نفسها إلى حدّ اضطرتّ معه خواتم نانكوتشيو على إجبارها على الاستحمام وغسل شعرها. وكانت أمّها تنبّهها إلى أنّها هي نفسها قد أنجبت ستة أبناء، ولو أنّها اهتمت بنفسها فرمّا كانت ستحتفظ بشيء من جاذبيّة الشباب. «وما أهميّة ذلك، يا

مع إلى أزمة الحفازات، وصار لا بد من تغذيته بملاعق صغيرة من
 ص. دة الخضار المهروسة، ومراقبة الطفلة المنكوبة - مثلما خطر لها أن
 تم أوفيليا. وكان إيسيدرو دل سولار قد استقر في البيت بمسبغوه،
 طاهرًا بأنه قد نسي المأساة التي تتطور بعيدًا بين نساء أسرته، واثقًا من
 أنه، قبله قد اتخذ إجراءات لإسكات التفتولات. كان قلقًا جدًا من الوضع
 السياسي الذي يمكن له أن يؤثر على أعماله وصفقائه. فقوى اليمين
 « هُزمت في الانتخابات، والرئيس الجديد من الحزب الراديكالي،
 وسوي مواصلة الإصلاحات التي بدأها سلفه. كان لموقف تشيلي في
 الحرب العالمية الثانية أهمية حيوية بالنسبة إلى إيسيدرو؛ فعلى ذلك
 الموقف، يعتمد تصديره لصوف الخراف إلى أسكتلندا، وكذلك إلى
 ألمانيا، من خلال السويد كوسيط. كانت قوى اليمين تدافع عن الحياد
 لمادا الالتزام مع ما يحمله ذلك من المجازفة بالخطأ! ولكن الحكومة
 والشعب بصورة عامة يؤيدان الحلفاء. فإذا ما تم اعتماد هذا التوجه في
 البعيد، فإن مبيعاته لألمانيا سوف تذهب إلى الجحيم، مثلما كان يكرر.

تمكنت أوفيليا من إرسال رسالة إلى فيكتور دالماو مع السائق،
 لئلا أن يطردوه من العمل بصورة صاخبة. أما هي، فنقلوها سجيئة إلى
 الرئيف. فتخوانا التي كانت تكره السائق، اتهمته من دون أية أدلة بأنها
 شهدت بعض اللوشوشات بينه وبين أوفيليا. «لقد قلت لك هذا من
 قبل، يا سبدي، ولكنك لم تهتم بكلامي. هذا الجلف هو المذنب.
 وبسببه، حبست الصغيرة أوفيليا. سمعت دعاء إيسيدرو دل سولار كلها
 إلى رأسه، وأحس أن رأسه سينفجر. فإقدام شئان البيت على إساءة
 استغلال الخادومات المنزليات، بين حين وآخر، أمر طبيعي، أما أن تفعل
 ابنته الشيء نفسه مع عاملٍ لديه، له شعر هندي وأثر قرحة جذرتي في

وجهه، فهو ما لا يُمكن تصوُّره بالنسبة إليه. تخيّل بصورةٍ عابرة... عارية بين ذراعي الشاق، هذا الصعلوك خبيث المولد، ابن الكلبة، م الغرفة التي فوق الكراج، فكاد يُغمى عليه. وأحسّ براحة هائلة عدد، أوضحت له خواتنا أنَّ هذا الرجل لم يكن سوى القواد، استدعاه إلى المكتبة، واستجوبه بصوت صارخ كي يعترف له باسم المذنب. هذ، بإرساله إلى السجن، كي ينتزع منه رجال الدرك الحقيقة بضربه بأعقاب البنادق وركله بالأقدام. وعندما لم يوصله هذا التهديد إلى نتيجة، حاول أن يشتريه، ولكنَّ الرجل لم يستطع أن يُخبره بأي شيء، لأنَّه لم يكن قد رأى فيكتور أبدًا. واستطاع فقط أن يُخبره بالتوقيت الذي كان يوصل به أوفيليا إلى مدرسة الفن، ويأتي بها من هناك. انتبه إيسيدرو إلى أن انت تم تكن تحضر الدروس أبدًا؛ فمن المدرسة كانت تواصل طريقها مشيًا، أو في سيارة أجرة إلى ذراعي العنق. لقد كانت الفتاة اللعينة أقلّ بلاهة مما كان يفترضه، أو ربُّما أنَّ الشُّبق هو الذي جعلها خبيثة وماكرة.

رسالة أوفيليا كانت تتضمن التفسير الذي كان عليها أن تقدّمه لفبيكتور شخصيًا، ولكنها في الملاحظات الوحيدة التي تمكّنت من الاتصال به، لم يكن موجودًا في بيته ولا في حانة وينبيغ. إنَّها معرولة في العمق؛ فأقرب هاتف موجود على بُعد خمسة عشر كيلومترًا. قالت له الحقيقة: إنَّ هذا الحب كان أشبه بتكزّة شوّشت عقلها، وأنَّها تفهم الآن ما كان يلح عليه دومًا، بأنَّ العقبات التي تفصل بينهما لا يُمكن تجاوزها. وتقبّلت بنيرة تجارية أنَّ ما شعرت به في الواقع موجة ولع طائش أكثر من كونها حبًا، وأنَّها أسلمت نفسها وانساقَت للجديد، ولكنها لا نستطيع التضحية بسمعتها وحياتها من أجله. أخبرتة أنَّها ستذهب في رحلة مع أمِّها لبعض الوقت، وبعد ذلك، وبأفكار أشدَّ وضوحًا، ستري

والنحقت بالمجتمع من دون أن تسمح لنظرات الفضول وللمشوشات
أن تظهرها بأن تُخجلها. وصلت إلى مانياس إيشاغيزي في الباراغواي
من الإشاعات، فاستبعداها على أنها مثال آخر على النفاق والتمائم
في بلاده. وحين عَلم أن أوفيليا مريضة، وأنهم أخذوها إلى الزيف،
كتب إليها مرتين.. وعندما لم ترد عليه، أرسل برقية إلى فليبه يسأله
عن صحة أخته. فردَّ عليه فليبه: «تتابع حياتها بصورة عادية». كان
يمكن لهذا الرد أن يبدو مريئا لأي شخص آخر باستثناء مانياس الذي
ام يكن أبله، مثلما كانت تظن أوفيليا، وإنما هو واحد من أولئك الرجال
الطيبين. في نهاية السنة، حصل ذلك العريس العنيد على إجازة لترك
موقع عمله مدة شهر، والذهاب في إجازة إلى تشيلي، بعيدًا عن الحر
الزطب وزرابع الرياح في أسونسيون. وصل إلى سنتياغو في يوم خميس
من شهر كانون الأول/ديسمبر. وفي يوم الجمعة، كان أمام البيت
المفترس في شارع مار دل بلاتا. استقبلته خوانا نانكوتشيو مذعورة،
كما لو أن رجال الدرك هم من ظهروا أمامها، لأنها ظنت أنه أت لتأنيب
الصغيرة أوفيليا على ما فعلته، لكن نوابا مانياس كانت مختلفة تمامًا،
إذ كان يحمل في جيبه خاتم الجدَّة الماسي. قادته خوانا عبر البيت
الغارق في شبه ظلمة، لأنهم في الصيف يبقون ستائر النوافذ الخشبية
مغلقة، وبسبب الجداد الاستباقي على الصَّغير ليوناردو. لا شيء من
الأزهار الطازجة، مثلما هي الحال دومًا، ولا رائحة دُرّاق وشَّمَام مجلوب
من الإقطاعية، والتي تعطر الجو في الأحوال العادية، ولا شيء من
الموسيقى يأتي من العدياع، ولا ترحيب الكلاب الصاحب.. لا شيء
سوى الحضور الضاغظ للأثاث الفرنسي، واللوحات القديمة في أطرها
المذهبة.

وجد أوفيليا على شرفة الكاميليا، تحت مظلة، ترسم برشة ناعمة وبالحبر الصيني، ونحتمي من انعكاس أشعة الشمس بقبة من القش. توقف لحظة لتأملها، مغرماً جداً بها كما في السابق، من دون أن يلحظ الكيلوغرامات التي ما زالت زائدة لديها. نهضت أوفيليا واقفة، وتراجعت خطوة إلى الوراء مشوشة، لأنها لم تكن تتوقع أن تعود لرؤيته. قدّرت له لأول مرة كلّه وبكامله، باعتباره الرجل الذي هو عليه، وليس باعتباره ابن الخالة المتوسّل والمتواطئ الذي سخّرت منه طوال ما يزيد على عشر سنوات. لقد فكّرت به كثيراً خلال تلك الشهور، مضيفة فقدانه إلى الثمن الذي كانت تدفعه مقابل أخطائها. مظاهر شخصيّة ماتياس التي كانت تستثير ضجراً سابقاً، صارت الآن فضائل نادرة. بدا لها متبدلاً، وأنه أكثر نضوجاً ومتانة، وأكثر وسامة أيضاً.

جاءته خوانا بشاي بارد وحلوى حليب، وظلّت وراء شجيرة الرندرة تحاول سماع ما يقولانه. فسبب موقعها في الأسرة، يجب عليها أن تكون مطلّعة بصورة جيّدة، هذا ما كانت تكرر قوله لفيليب عندما يؤثّب سعيها للتنصّت والتلصّص من وراء الأبواب. «وما حاجة أوفيليا إلى تحطيم قلب الشاب ماتياس؟ وهو الشخص الطيّب جداً؛ لا يستحقّ أن يعاني هذا الغمّ. تصوّر، يا صغيري فيليبه، قبل أن يتمكّن هو من سؤالها عن أي شيء، راحت تروي له كلّ ما حدث. وبكلّ تفصيل.. فنصوّره!»

كان ماتياس قد استمع إليها صامتاً، يمسح العرق عن وجهه بمنديل، ويبدو مثقلاً باعتراف أوفيليا، وبالحرّ وعبق تلك الورد والياسمين النافه الذي يأتي من الحديقة. وعندما انتهت أوفيليا من الكلام، احتاج هو لوقت لا بأس به كي يوثّب الانفعالات، والتوجّس إلى

- وما الذي تعرفينه أنتِ عن درجات الخطيئة، يا أوفيليا؟
- لا شيء.

- اعتراف غير كامل هو أشبه بعدم الاعتراف.

- حضرتك نموت من الفضول، أليس صحيحًا، يا أبتاه؟ ابتسمت
أوفيليا.

- لا تكوني سفيهة! واجبي الكهنّي هو توجيهك إلى طريق
الصواب والخير. وأظنّ أنّك تعرفين هذا!

- أجل، يا أبتاه، وأشكرك كثيرًا. لا أدري ما الذي كان بإمكانني
عمله في حالتي هذه لولا مساعدتك، قالت ذلك بنبرة شديدة المذلة،
نشعّ منها الشخيرة.

- ما علينا، يا ابنتي. لقد كنتِ محظوظة، على الرغم من كلّ شيء.
إنّني أحمل لك أخبارًا طيّبة. لقد قمتِ بتحرّيات مستفيضة بحثًا عن
أفضل زوجين محتملين من أجل نبيّ طفلك، ويمكنني أن أسبق الأمور
بالقول إنّني قد وجدتهما على ما أظنّ. إنّهما زوجان طيّبان جدًّا، شغليان،
وضعهما المعاديّ مريح، وهما كاثوليكيّان بالطبع. لا يمكنني أن أقول أكثر
من هذا، ولكنّ اطمئني، سوف أتولّى بنفسِي الشّهر عليكِ وعلى طفلكِ.
- إنّها طفلة.

- كيف تعرفين ذلك؟ جفل الكاهن.

- لأنّني حلمتُ بذلك.

- الأحلام هي أحلام وحسب. ليس أكثر.

- هنالك أحلام نبويّة. ولكنّ مهما يكن الأمر، سواء أكان طفلًا أو
طفلة، أنا أمّه وأنوي تربيته بنفسِي. انسى مسألة التّبني، أيّها الأب أوربينا.

ما الذي تقولينه، حيا بالرب!

تبيّن أن قرار أوفيليا حاسم، ولا رجعة عنه. حجج الكاهن وتهديداته لم تؤثر عليها. وفي ما بعد، عندما وصلت أختها وأخوها فيليب في محاولة لإقناعها، معزّزين بكبيرة الراهبات، استمعت إليهم أوفيليا بصمت، مسنمتة بعض الشيء، كما لو أنّهم يتكلمون بلغة المنافقين، ولكنّ هجمة التأنيب المتعادلة والتحذيرات الشرعية انتهت إلى التأثير عليها، أو ربّما كان السبب هو أحد تلك الفيروسات الشتائية التي تقتل كلّ عام عشرات المصنّين والأطفال. فقد سقطت منهارة بارتفاع حادّ في درجة الحرارة، نهذي بالتحدّث عن حوريات بحر، خاتمة القوى من آلام الظهر، وينهكها الشعال الذي يحول دون تمكّنها من تناول الطعام أو النوم. الطبيب الذي جاء به فيليب وصّف لها صيغة الأفيون مذابة في نبيذ أحمر، وعدة عقاقير في قوارير زرقاء بلا أيّة تسمية محدّدة، ولكنها مرقّمة. وعالجتها الراهبات بمنقوع أعشاب من الحديقة، وبلبغات من بزر الكتان من أجل الاستئقان. بعد ستة أيّام، كان صدرها محروقا من اللبغات، ولكنها بدت في حالة أفضل. استطاعت النهوض، بمساعدة راهبتين مستجذبتين تولّتا العناية بها نهائيا وليلا، وتمكّنت من الوصول بخطوات صغيرة حتّى قاعة التسلية في الدير، حيث تجتمع الراهبات في أوقات راحتهنّ، وهي حجرة مريحة، مفعمة بضياء طبيعي، وأرضيّة خشبيّة صقيلة ولاعبة، وأصص نباتات، وتصدّرها تثال لحذاء الكارمن، شفيعة تشيلي، والطفل يسوع بين ذراعيها، وكلاهما يضع تاجا إمبراطوريا من الصفيح المذهب. هناك أمضت الصباح متكوّرة على نفسها، متلخّفة ببطائيّة، نظرتها نائمة في السماء الغائمة من النافذة، ومرفوعة إلى الجنّة بمعادلة الأفيون والكحول الإعجازيّة. بعد ثلاث

ساعات من ذلك، عندما ساعدتها الراهبات المستجذبات على النهوض والوقوف، رأين اللطخة على المقعد، وخط الدم الذي يسيل على ساقَيْها.

وفقاً لتعليمات الأب أوربين، لم يتصلن بالطبيب، وإنما بأوريندا مارانجو. ظهرت المرأة بمزاجها الاحترافي وصوتها النادب، وقررت أنه يمكن للولادة أن تحدث في أي لحظة، على الرغم من أن حساباتها كانت تقدر أنه ما زال هنالك أسبوعان من الحمل. أصدرت التعليمات للراهبات بأن يُغفن المريضة مضطجعة، وساقَيْها إلى أعلى، ووضع كمادات ماء بارد على بطنها. ثم أضافت: «صليين! فالنبض يكاد لا يُسمع، الوليد ضعيف جدّاً». وبعبارة منها، عالجت الراهبات النزيف مزيج من شاي القرفة والحليب الفاتر مع بذور الخردل.

عند تلقيه تقرير القابلة، وجّه الأب أوربين الأمر إلى لورا دل سولار بأن تستقر في الدير لمرافقة ابنتها. لأن ذلك سيُشعر كلتيهما بالسعادة، على حدّ قوله، وسبّاعدهما على العصالحة. فلفتت نظره إلى أنّه لا وجود لأيّ خصام بينهما، فأوضح لها أنّ أوفيليا غاضبة من الجميع، وحتى من الربّ نفسه. قدّموا للورا حُجرة مشابهة تمامًا لحُجرة ابنتها، واستطاعت لأوّل مرّة في حياتها أن تجرّب سلام الحياة الدنيئة العميق، والذي طالما رغبت فيه. تأقلمت على الغور مع تيّارات الهواء الجليديّة في المبنى، وعلى مواعيد الطفوس الصارمة. كانت تقادر الفراش باكراً كي تنتظر بزوغ الفجر في المصلّى وهي نصلي للربّ وتمجّده، وتشارك بتناول القويان في قدّاس السابعة، وتتناول على الغداء حساء وخبزاً وجبناً مع أعضاء الأخويّة الرهبانيّة، بصمت، بينما يكون هناك من يقرأ بصوت عالٍ القراءة اليومية المقرّرة. وفي المساء، تتوافر لها ساعات خاصّة للتأمل والصلاة. وعند حلول الليل، تشارك في صلاة المساء.

ويجري المشاء بصمت أيضاً، وهو بسيط ومتشّف مثل الغداء، لكنه يُستكمل بقليل من السمك. كانت لورا تشعر بالسعادة في ذلك الملجأ النسوي، حتى إنّ تلويّات الجوع وغياب الحلويات صارت تبدو لها ممتعة لدى تفكيرها أنّها ستخفّف وزنها بذلك. أُحِبَّت الحديقة الفاتنة، والممرّات الطويلة والفسيحة، حيثُ للخطى وقع رنين كرنين صّاجات الأصابع، وأُحِبَّت شذى الشموع والبخور في الفضليّ، وصرير الأبواب الثقيلة، وصوت الأجراس، والأناشيد، وحفيف المسوح، وتمتعة الصلوات. أعفتها الأمّ الكبيرة من العمل في البستان وورشة التطريز، ومن المطبخ وغسل الملابس، كي تتفرّغ للعناية البدنيّة والروحيّة بابنتها أوفيليا. وبحب عليها، بتكليف من الأب أوربينّا، أن تُقنّع ابنتها بالموافقة على التبرّي، لأنّه يمنع الشرعيّة لهذا المخلوق الذي هو حصيلة الشبق، ويمنعها هي نفسها فرصة لإعادة تكوين حياتها. كانت أوفيليا تتناول الإكسبير الشحريّ ممزوجاً مع كأس نبيذ آخر، وتنام. مثل دمية خادمة في فراشها الذي من وبر الخيل، ترعاها الراهبات المستجّدات، ويهدل لها ترنّم صوت أمّها، من دون أن تفهم ما تقوله. وقد كان الأب أوربينّا من اللطّف بأن زارهما، وبعد أن تأكّد مرّة أخرى من عناد تلك الشابة الضالّة، أخذ لورا دل سولار لتعشّي في الحديقة حاملاً مظلة، تحت مطر خفيف جدّاً كأنّه الطلّ. ولن يعلّق أيّ منهما بشيء إلى الأبد عن الموضوع الذي تحدّثا فيه.

تحدّثا عن الولادة التي كانت، بحسب ما أخبروه، طويلة ومُجهدة، وعن الأيام التالية للولادة التي لم يبق لدى أوفيليا أدنى قدر من الذاكرة عنها، كما لو أنّها لم تعيشها، بفضل الأثير، والمورفين، وأشربة أوريندا نارانخو السريّة الغامضة التي أدخلت أوفيليا في غيبوبة حميدة استمرّت

طوال ما تبقى من الأسبوع. بدأت تستيقظ قليلاً، وكانت في حالة ضياع
 وجاب عن الوعي، نبت معها حتى اسمها. ولأن أمها كانت تصلي بلا
 توقف وهي مستحقة بالدموع، كان على الأب ييشنتي أوريينا أن ينقل
 إليها الخبر السيئ. ظهر عند أقصى سريرها، بعد أن كانت قد تخلّصت
 الآن من تأثير المخدرات والمخاقير، واستعادت الوعي بما يكفي لتسأل
 ماذا حدث وأين هي ابنتها. «لقد أنجبت ابناً ذكراً، يا أوفيليا. أخبرها
 الأسقف بأشدّ نبرة مشفقة بطلبها، ولكنّ الربّ، بحكمته، أخذه بعد
 دقائق قليلة من ولادته». وأوضح لها أنّ الطفل جاء مخنوقاً بالحبل السري
 حول عنقه، ولكنهم تمكّنوا لحسن الحظّ من تعميده قبل موته. وهكذا،
 لم ينتهي به الأمر في اللعوس، وإنما في الفردوس مع الملائكة. لقد
 جنب الربّ هذا الطفل البريء المعاناة والمهانة على الأرض، وبرحمته
 اللامتناهية يوفّر لها هي أيضاً الخلاص. «صلي كثيراً، يا ابنتي. عليك
 أن تتحكّمي بغطرستك، وتتقبّلي المعيشة الإلهية. اطلبي من الربّ أن
 يسمعك ويساعدك على حمل عبء هذا السرّ وحدك، بكرامة وبصمت،
 طوال ما تبقى من حياتك». أراد أوريينا مواساتها بعبارات من الكتابات
 المقدّسة وبخجج وبراهين استوحاها بنفسه، ولكنّ أوفيليا راحت تصرخ
 بصوت كأنه عواء ذنب، وتنفّلت من بين أيدي المنجذات اللّاتي
 حاولن تثبيتها، إلى أن أجبروها على ابتلاع كأس أخرى من النبيذ
 الممزوج بالأفيون. وهكذا، من كأس إلى آخر، عاشت وهي شبه نائمة
 طوال أسبوعين كاملين؛ وبعدهما، قدّرت حتى الراهبات أنفسهنّ أنّه
 يكفي صلوات وأشربة، وأنّه لا بدّ من إعادتها إلى عالم الأحياء. وعندما
 استطاعت النهوض على قدميها، تأكّدت من أنّها قد تضاعفت كثيراً، وصار
 لها من جديد شكل امرأة، ولم تعد تشبه منطاد زيبيلين!

ذهب فيليه لإحضار أخته وأمه من الديور. طالبت أوفيليا بروية مير
ابنها، فرجعوا بأنحاء الريف، إلى المقبرة الصغيرة في القرية المجاورة،
وتمكنت هي من وضع أزهار على المكان المحدد بصليب خشبي أبيض
يحمل تاريخ الوفاة، ولكن بلا اسم، حيث يرقد الطفل الذي لم يتوصل
إلى أن يعيش. «كيف سنتركه هنا؟ إنه بعيد جدًا من أجل المعجب».
لزيارته، قالت أوفيليا منتحية.

عند العودة إلى البيت في شارع مار دل بلانا، امتنعت لورا عن
إخبار زوجها بما حدث خلال الشهور الأخيرة، لأنها افترضت أن فيليه
يطلع على الأمور أولاً بأول، ولأن إيسيدرو يفضل دومًا أن يعرف أقل
ما يمكن، مخلصًا بذلك لعاداته في البقاء على هامش الهراء الانفعالي
لنساء عائلته. استقبل ابنته بقبلة على جبينها مثلما يفعل في أي صباح
عادي؛ وسوف يموت بعد ثلاثة وثلاثين عامًا من دون أن يكون قد سأل
أبدًا عن الحفيد. بحثت لورا عن مواساة في الكنيسة وفي الحلويات.
وكان البيبي ليوناردو قد دخل المرحلة الأخيرة من حياته القصيرة،
وصار يستحوذ بالكامل على اهتمام كل من أمه وخوانا وبقية الأسرة..
وبهذا، تركوا أوفيليا بسلام مع أحزانها.

لم يشعر آل دل سولار قط بحزج أنهم قد تجبّوا فضيحة خبل
أوفيليا، لأن الأقاويل من هذا النوع تطير عادة مثل العصافير سريعة
المبور في أجواء العائلة. لم يثد أي من أثواب أوفيليا وهي أنسة يتسع
لها، وفي مساعي شراء وطلبات تفصيل أثواب أخرى، تراخت أجواء
الحزن قليلًا. كان البكاء يداهما ليلا، حين تكون ذكرى الطفل
شديدة الرّخم، وتشعر بوضوح برفسه اللّعوب في بطنها، وينقط حليب
نقطر من حلمتها. عادت إلى دروس الرّسم، بجدي في هذه المرة،

أحفظ ملابسها ومنضدة خشبية خشنة. لم تكن بحاجة إلى ما هو أكثر، ذلك، وحمدت هذه الباطة الإسبانية المتقشفة التي تتوافق مع مالتها المعنوية. كانت للحجرة نافذة تطل على حديقة الراهبات، وفي منتصفها نافورتها الموريسكية، وأشجار هرمة، ونباتات غريبة، وصوان مبيبة فيها أعشاب طيبة، وتخرق الحديقة دروب نحيلة مرصوفة أحجار بين أقواس حديدية، تغطيها في الربيع ورود كثيفة معلقة. أيقظ أومبليا الضوء الشتائي لذلك الفجر المتأخر وهديل حمامة على النافذة. احتاجت لدقيقتين لنتبه إلى مكان وجودها وما الذي حدث لها، لأنها كانت عالقة في جبل من اللحم، ثقيل إلى حد نبدو معه عاجزة عن التنفس. دقائق الشكون تلك أتاحت لها أن تتذكر تفاصيل من الحلم الذي بدت فيه الفتاة التي كانت في السابق، خفيفة ورشيقة، وأنها كانت ترقص حافية على شاطئ رمال سوداء، الشمس تصفع وجهها، وشعرها يتلوى بفعل النسيم المالح. وسرعان ما بدأ البحر يضطرب، وحملت موجة طفلة مغطاة بالحراشف، وقذفت بها إلى الرمل، كما لو أنها مسخ حورية بحر. ظلت في الفراش عندما سمعت النافوس يدعو للصلاة. وعندما مررت، بعد ساعة من ذلك، راهبة مستجدة تطرق على مثلث معدني لتعلن عن موعد الفطور. ولأول مرة منذ زمن طويل، لم تشعر بأي شهية، وظلت متناومة طوال فترة الصباح.

في هذا اليوم بالذات، عند المساء، في ساعة الصورة بالمبحة، وصل الأب بيثنتي أورينا في زيارة. استقبلته زبوعة من المسوح السوداء والقلانس البيضاء، وصحب نساء متوحشات يقبلن يده، ويعلنن مباركته. إنه رجل لا يزال شاباً ومتكبراً؛ يبدو متحيراً بمسوح الكهنوت. «كيف حال محميتي الفتية؟» سألهن بطيبة قلب بعد أن استقر جالساً،

وفي يده فنجان من الشكولاته الكثيفة. ذهبت الراهبات بحثًا عن أوجعها التي جاءت متمايلة مثل عقاب بحر على ساقين ضحكتين. مذ لها أوجعها يده من أجل القبلية الإجبارية، ولكنها صافحتها مصافحة قوية.

- كيف تشعرين، يا بِنْتِي؟

- كيف تريدني أن أشعر بمثل هذه البطيخة في بطني؟ أجابت هي بجفاء.

- أفهم ذلك، يا ابنتي، ولكن عليك أن تتغلب على هذه الإزعاجات، إنها عادية في مثل وضعك؛ قدّمها إلى الرب كلّي القدرة. هذا ما تقول الكتابات المقدسة: الرجل عليه أن يعمل بعرق جبينه، والمرأة بالألم تلد ما أعرفه، يا ابنتاه، أنك لا تتعرق وأنت تعمل.

- حسن، حسن، أرى أنك تنقصين.

- متى سنأتي خالتي تريسّا؟ حضرتك قلت إنك ستحصل لها على نصريح كي تأتي لمرافقتي.

- سوف نرى، يا ابنتي. نقول لبي أوريّندا نارانشو إنه يُسكنا انتظار مجيء الطفل خلال أسابيع قليلة. تضرّعي إلى رب آمالنا كي يساعدك، واستعدي لهذا التطهر من الخطيئة. وتذكّري أن النساء في لحظات إخراج الوليد إلى الثور يُلْمَنُ أرواحهن للرب.

- لقد اعترفت، وتناولتُ خبز القربان منذ مجيئي إلى هنا.

- هل قدّمتِ اعترافًا كليًا؟

- أتريد حضرتك أن تعرف إذا ما كنتُ قد أخبرتُ كاهن الاعتراف باسم أب الطفل... لا أرى ذلك ضروريًا، لأنّ المهم هو الخطيئة، وليس مع من ارتكبت الخطيئة.

أَنْ شَيْئًا لَمْ يَبْذُلْ فِي الْحَقِيقَةِ! فَأَوْفَلِيَا سَتَظَلُّ الْعَرَاءُ الْأَجْمَلُ فِي الْعَالَمِ،
الْوَحِيدَةُ الَّتِي أَحْبَبَهَا دَوْمًا، وَسَيَظَلُّ يَحِبُّهَا حَتَّى نَهَايَةِ أَيَّامِ حَيَاتِهِ. حَافِلُ أَنْ
يَهْلُكَ ذَلِكَ بِمِثْلِ بِلَاغَةِ رِسَالَتِهِ، وَلَكِنَّ الْكَلِمَاتِ الزَّاهِرَةِ خَاتَمَتُهُ.

- أَرْجُوكَ، يَا أَوْفَلِيَا، وَاقِفِي عَلَى الزَّوْجِ مَتْنِي.

- وَلَكِنَّ، أَلَمْ تَسْمَعْ مَا انْتَهَيْتُ مِنْ قَوْلِهِ لَكَ؟ أَلَنْ نَأْتِي مِنْ هُوَ
أَبُو الطِّفْلِ؟

- لَيْسَ مَهْمًا. الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الْمَهْمُ هُوَ إِنْ كُنْتُ مَا تَزَالِينَ تَحْبِبِينَهُ.

- لَمْ يَكُنْ حَبًّا، يَا مَاتِيَّاسَ، كَانَ سَخُونَةً نَهِيْجًا.

- إِنَّهُ أَمْرٌ لَيْسَتْ لَهُ أَيُّ عِلَاقَةٍ بِنَا إِذَا. أَعْرِفُ أَنَّكَ تَحْتَاجِينَ لِبَعْضِ
الْوَقْتِ مِنْ أَجْلِ اسْتِعَادَةِ عَافِيَتِكَ، مَعَ أَنِّي أَتَوَقَّعُ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَعَادَ
أَيُّ شَيْءٍ بَعْدَ مَوْتِ ابْنِ، وَلَكِنَّ عِنْدَمَا نَكُونِينَ مُسْتَعْدَّةً وَجَاهِزَةً، سَأَكُونُ
بِالْإِنْتِظَارِ.

أَخْرَجَ عَلِيَّةُ الْمَخْمَلِ الْأَسْوَدَ الصَّغِيرَةَ مِنْ جَيْبِهِ، وَوَضَعَهَا يَرْفِقَ
عَلَى صِنِيَّةِ الشَّايِ.

- وَهَلْ كُنْتُ سَتَقُولُ الْكَلَامَ نَفْسَهُ لَوْ أَنَّ طِفْلًا غَيْرَ شَرْعِيٍّ بَيْنَ
فِرَاعِيٍّ؟ قَالَتْ لَهُ مَنَحْدِيَّةً.

- أَجَلْ، بِالطَّبَعِ.

- يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّ شَيْئًا مِنْ كُلِّ مَا قُلْتَهُ لَكَ لَمْ يَفَاجِئْكَ، يَا مَاتِيَّاسَ!
لَا بِذَلِكَ أَنَّكَ قَدْ سَمِعْتَ تَقْوِيلَاتٍ. سَمِعْتَنِي السَّيِّئَةَ سَتَظَلُّ تَلَا حَقَنِي أَيْنَمَا
ذَهَبْتُ. وَهَذَا سَيَذْهَبُ مَسِيرَتُكَ الدَّبْلُومَاسِيَّةَ، وَحَيَاتُكَ أَيْضًا.
- سَتَكُونُ هَذِهِ مُشْكَلَتِي أَنَا.

من وراء أزهار شجيرة الرندرة، لم نستطع خوافاً نانكوتشيو من رؤية أوفيليا وهي تتناول علبة المخمل، وتنفضها بتمغن فوق راحة يدها، كما لو أنها خنفساء مصريّة، ولم تسمع سوى الصمت. لم تتجرأ على أن تطلّ من بين أزهار الشجيرة المتشابكة، ولكن عندما بدا لها أن الضمت قد استمرّ طويلاً، خرجت من مخبئها، ومثلت أمامهما مسنعة، لحمل الطيق. عندئذ، رأت الخاتم في إصبع أوفيليا. المختصر.

إنهما يريدان الزواج من دون ضجيج أو صخب، ولكن هذا في نظر إيسيدرو دل سولار يعادل الاعتراف بالذنب، إضافة إلى أن عرس ابنته بشكل فرصة رائعة لإنجاز ألف واجب اجتماعي؛ وفي أثناء ذلك، توجه صفعة إلى خبيثي النشأة والمولد ممن يشيعون تغولات حول أوفيليا. لم يسمعها بنفسه، ولكن في أكثر من مناسبة بدا له أنهم في نادي الاتحاد يضحكون وراء ظهره. جرت التّحضيرات بحدودها الدّنيا، لأن كلّ شيء كان جاهزاً لدى العروسين منذ السنة الفائتة، بما في ذلك الملاءات والشراشف المطرّزة بالحروف الأولى من اسميهما. وعادوا إلى نشر الإعلان المناسب على الصفحات الاجتماعية في جريدة الميركوريو، وقامت الخيّاطة على عجل بإنجاز ثوب زفاف العروس، وهو مشابه للثوب السابق، لكنّه أكثر أنساقاً منه بكثير. وشرفهما الأب بيثنتي أورينا بتزويجهما بنفسه؛ وكان مجرد حضوره كافياً لترميم سمعة أوفيليا. وعند تهيئة العروسين لطقوس سرّ الزواج مع التّحذيرات والنصائح الصارمة، جرى تجاوز حساسيّة موضوع ماضي العروس، ولكنّ أوفيليا منحت نفسها متعة الإعلان عن أنّ ماتيئاس يعرف كلّ ما حدث، وأنّه ليس عليها أن تحمل هذا السرّ وحدها طوال ما تبقى من حياتها. وأنّهما سيتحملانه معاً.

قبل الذهاب إلى باراغواي، أرادت أوفيليا العودة إلى المقبرة
الزبئية، حيث كان طفلها؛ فرافقها ماتياس. قُوماً قِيلان الصليب الأبيض
الذي على القبر، ووضعوا أزهارًا، وصلّيا. وقال لها ماتياس: «ذات يوم،
سأصير لدينا مكانًا الخاص في المقبرة الكاثوليكية، سوف ننقل
طفلك ليكون معنا، مثلما يجب أن يكون».

أمضيا أسبوع شهر عسل في بوينس آيرس، قبل أن يواصلوا
إلى أسونسيون. وقد كانت تلك الأيام القليلة كافية لأن تعرف أوفيليا
أنها بزواجها من ماتياس قد اتخذت أفضل قرار في حياتها. «سوف أحبه
مثلما يستحق، سأكون وفية له وأوفر له السعادة»، عاهدت نفسها في
أعماقها. وأخيرًا، تمكن هذا الرجل العنيد والصبور مثل ثور أن يجتاز
عنة بيت، المجهز بكثير من الدقة والنقطة، حاملًا امرأته بين ذراعيه.
كانت تزن أكثر مما هو متوقع، ولكنّه كان رجلًا قويًا.

القسم الثالث

عودات وجذور

الفصل التاسع

1970 - 1948

الذائعات جميعها
سيكون لها الحق
الأرض والحياة،
ومكثدا سيكون أيضا نعيم الصباح...

بابلو نيرودا
«أغنية للخبز»، أغنيات بدائية

في صيف العام 1948، بدأ تقليد محدّد لدى آل دالماو سيستمر
لعدّة عقد من السنين. روزر ومارسيل يذهبان في شهر شباط/فبراير
إلى كوخ متاجر على الشاطئ، بينما يبقى فيكتور في عمله، ويجتمع
هما في عطلات نهاية الأسبوع، مثلما يفعل معظم الأزواج النشيطين
الذين ينتمون إلى الوسط نفسه، من يفاخرون بأنهم لا يأخذون إجازات
أدّا، لأنّه لا يستغنى عنهم في عملهم. وبحسب رأي روزر، كانت تلك
عبارة أخرى من قاموس المازوشية الكريولية المحليّة، كيف يُمكن لهم
التخلّي عن حرّية العازبين الصيفيّة التي يُمكنهم الاستمتاع بها. صحيح
أنّه سيُنظر بامتناء إلى تغيب فيكتور عن المستشفى طوال شهر كامل،
ولكنّ السبب الأساسي لديه هو أنّ شاطئ البحر يجلب له ذكريات سيئة
من مخيم اللاجئين في أرجيليه - سور - مار. لقد قرّر عدم العودة للمشي
على الرمال. وفي شهر شباط/فبراير ذاك بالتحديد، توافرت لفكتور
فرصة أن يردّ الجميل إلى بابلو نيرودا الذي اختاره للهجرة إلى تشيلي.
كان الشاعر آنذاك أحد سيناتورات الجمهوريّة، ووقع خصاماً بينه وبين
رئيس الجمهوريّة الذي كان في صراع مع الحزب الشيوعي، على الرُغم
من أنّ هذا الحزب قد دعمه في صعوده إلى السُلطة. فلم يترك نيرودا
إهانات إلا ووجهها إلى ذلك الرجل «منتج الطغيان السياسي»، وكان يعتبره

خائناً، وهـ مضاعف دماء صغير دنيء وضاراً. اتُهمت الحكومة الشاعر بالشم والافتراء، وعُزل من منصبه كسيناتور، وقامت الشرطة بمطارده حضر اثنان من قادة الحزب الشيوعي، سرعان ما سجنان خارجيين عن القانون، إلى المستشفى للتحدث إلى فيكتور. وقال له:

- أنت تعلم أن هناك أمراً باعترقال رفيقنا نيرودا.

- لقد قرأت الخبر اليوم في الصحيفة. أجد صعوبة في تصديق ذلك!

- يجب توفير منحاً أمن له طالما هو في السريّة. ونترقّ أن هذا الأمر سيحلّ قريباً؛ أمّا إذا لم يحدث ذلك، فسيكون من الواجب إخراج الشاعر من البلاد بطريقة ما.

- كيف يمكن لي المساعدة؟ سألهما فيكتور.

- بأبوانه لبعض الوقت، لن تكون الفترة طويلة، يجب أن نبدّل مكان إقامته بكثرة لتجنب الشرطة.

- طبعاً، سيكون ذلك شرفاً لي.

- لا حاجة بنا إلى القول أنّه يجب ألا يعلم أحد بذلك.

- زوجتي وابني في إجازة. بأنني وحدي في بيتي. سيكون أمّاً هناك.

- علينا أن ننتهك إلى أنّك قد تتورّط في مشكلة جدّية بنسبترك عليه.

- ليس مهمّاً، ردّ عليهما فيكتور، ويادر إلى إعطائهما العنوان.

وهكذا كان، أنّ يابلو نيرودا وزوجته الرسّامة الأرجنتينية ديليا دل كاريل، عاشا أسبوعين مختبئين في بيت آل دالماو. تخلّى لهما فيكتور عن سريره، وكان يأتيهما بالطعام الذي يُحضّر في مطبخ حاتنه، في أوعية صغيرة من أجل عدم لفت اهتمام الجيران. لم تُفَتِ الشاعر مصادفة أنّ

مشاء يأتي من حانة وينبيغ. وكان لا بدُ كذلك من ترويده بالصحف،
 ومكتب وويسكي، وهو الشراب الوحيد الذي يهذئه، وبشجعه على
 المحادثة، حيث إنَّ الزيارات كانت مقيدة ومحدودة. لقد كان شربنا
 مبذًا واجتماعيًا، بل إنَّه يحتاج إلى خصوم أيديولوجيين كي يمارس
 بارزة المناظرات الكلامية. وفي سهرات لانهائية في ذلك الحيز
 الصيق، راجع فيكتور بالخطوط العريضة قائمة أولئك اللاجئين الذين
 ملهم الشاعر من بورودو في ذلك اليوم البعيد من عام 1939، وغيرهم
 من رجال ونساء ذلك الخروج الإسباني الكبير، من راحوا يصلون إلى
 تشيلي في السنوات التالية. يثن فيكتور كيف أنَّ نيرودا بعدم امتثاله
 للأوامر باختيار العمال المؤهلين فقط، واختياره لاجئين فنانين ومثقفين
 كذلك، قد أغنى البلاد بغني من المواهب والمعارف والثقافة. فخلال
 أقل من عقد واحد من السنوات، لمعت أسماء علماء وموسيقيين
 ورشامين وكتاب وصحفيين، بل ومؤرخ كذلك يحلم بمهنة هائلة تتمثل
 في استعادة تاريخ تشيلي منذ أصوله.

بدأ ذلك الحبس يصيب نيرودا بالجنون. كان يلف ويدور، ويعيد
 ألف الدوران كوحش ضارٍ في قفص، يمشي بلا كلل بين أربعة جدران؛
 لم يكن بإمكانه مجرّد الإطلال من النافذة. أمّا امرأته التي تخلّت عن
 كل شيء، حتّى عن فنّها، لترافقه، صارت تجد مشقة في إبقائه محتبًا
 وراء الأبواب. في تلك الفترة، ترك الشاعر لحيته تنمو، وكان يقتل الوقت
 بالكتابة بعصبية وغضب في مؤلفه الشهير «النشيد الشامل». وكقابل
 لكرّم الضيافة، كان يلقي بمرته الكثيرة التي لا يمكن عدم التعرف
 عليها أشعارًا قديمة، وأخرى غير مكتملة بعد؛ فنقل إلى فيكتور الإصابة
 بعدوى لونة الشعر التي ستستمرّ معه إلى الأبد.

في إحدى الليالي، ومن دون أي إشعار مسبق، وصل شخصان مجهولان يرتديان معاطف، ويحمل كل منهما مظلة سوداء، على الرغم من أن حز الصيف كان يغلي ويعور في تلك السنة. بدا أنهما تحرّيان، ولكنهما عرفاً بنفسيهما كرفيقين في الحزب! ومن دون مزيد من التوضيح، أخذا الزوجين نيرودا إلى مكان آخر، وقد منّحا الشاعر وقتاً لا يكاد يكفي لأن يدس في حفيبتين الملابس والأشعار التي لا تزال غضة. رفضا إخبار فيكتور بالمكان الذي يمكنه الذهاب إليه لرؤية الشاعر، ولكنهما نيهاه إلى أنه قد يكون عليه أن يستضيفه مرة أخرى، لأنهم يجدون صعوبة في العثور على مخاض. فهناك فريق يضم أكثر من خمسمئة شرطي يتتبعون آثار الشاعر الهارب. أخبرهم فيكتور بأن أسرته ستعود في الأسبوع القادم من الشاطئ، ولن يكون بيته عندئذ آمناً. لقد شعر في أعماقه بالراحة لاستعادته الراحة والطمأنينة في بيته. فقد كان ضيفه قد احتل كل ركن بحضوره الهائل. وسوف يعود للقاء به بعد ثلاثة عشر شهراً من ذلك، عندما كان عليه أن ينظم، مع صديقين آخرين، هروب الشاعر على حصان، عبر معرّات في سلسلة الجبال الجنوبية، نحو الأرجنتين. خلال ذلك الوقت، كان نيرودا الذي لا يمكن التعرف عليه بلمحيتة الكثّة، قد اختبأ في بيوت أصدقاء ورفاق من حزبه، بينما كانت الشرطة تلاحقه وتصل إلى مقربة منه أحياناً. تلك الرحلة إلى الحدود سوف تترك في فيكتور آثاراً لا تمحى، مثل الشعر. انطلقوا على الخيول في ذلك المشهد البديع للغابة الباردة. أشجار معمّرة منذ آلاف السنين، جبال وعاء ماء في كل مكان، يسيل في جداول إجباريّة ما بين جذوع هرمة، يسقط من السماء في شلالات، يجرف كل شيء في طريقه كأنهار صاخبة؛ أمكنة لا بدّ للمسافرين من اجتيازها بقلب معلق بخيط. بعد سنوات طويلة من ذلك، سيذكر نيرودا

في مدركاته ذلك العبور الجبلي: «كل واحد منا يتقدم مشوّش الذهن في تلك العزلة التي بلا أضاف، في ذلك الصمت الأخضر والأبيض. (...) كل شيء كان طبيعة مذهلة وسريّة، ولكنّه يخبئ في الوقت نفسه نوعًا مبريد من البرد والثلج والمطاردة».

ودّعه فيكتور عند الحدود مع الأرجنتين، حيث كان بانتظاره فرسان غاوتشو. معهم خيول بذيلة مستريحة لمواصلة الرحلة. وقال له وهو يعانقه: «الحكومات تذهب والشعراء يبقون، يا دون پابلو. ولسوف نعود حضرك محاطًا بالمجد والمهابة. تذكر هذا الذي أقوله لك».

وسوف يخرج نيرودا من بوينس آيرس مستخدمًا جواز سفر ميغيل أنخل أستورياس، الرّوائي الغواتيمالي الكبير، والذي في بنيتة الجسديّة وملامحه شيء من الشبه مع نيرودا، فكلاهما له «أنف طويل وامتلأه في الوجه والجسد». وفي باريس، استقبله پابلو بيكاسو كأخ له، وأقيم له حفل تكريم في المؤتمر من أجل السلام، بينما كانت الحكومة التشيليّة تصرّح للصحافة أنّ ذلك الرجل مخادع نصاب، يمثل دور البديل لپابلو نيرودا، لأنّ نيرودا الحقيقيّ موجود في تشيلي، وقد حذّدت الحكومة مكان وجوده.

في اليوم نفسه الذي أكمل فيه مارسيل دالماو بروجيرا عشر سنوات من عمره، وصلت رسالة جدّته كارمي، بعد أن جالت على نصف العالم قبل أن تجد الثرسل إليه. كان أبواه قد حذّاه عن الجدّة، ولكنّه لم يكن قد رأى من قبل صورة لها، وكانت قصص العائلة الأسطوريّة في إسبانيا غريبة جدًّا عن واقعها، وكان قد صنّفها في مرتبة اللامعقول نفسها لروايات الرّعب والخيال التي يقتنيها. في تلك السنّ، كان يرفض

التكلم بالكتلائية، ويقتصر على التكلم بها مع العجوز جوردي مولب في حانة وينبيخ. أما مع بقية بني البشر، فكان يتكلم الإسبانية مع مبالغة بالكتنة التشيلية، ولغة عائمة شوارعية نستحق عليها صفعات مدوية من أمه! ولكنه، باستثناء هذا الأمر، كان طفلاً مثاليًا: فهو يتولى بنفسه أمور دراسته، ومواصلاته، وملابسه، وكذلك طعامه في أحيان كثيرة، بل ويتولى كذلك مسألة مواعيد عهده عند طبيب الأسنان وصالون الحلاقة. لقد كان يبدو شخصًا بالغًا بئطال قصير.

لدى عودته ذات يوم من المدرسة، أخرج الرسائل من صندوق البريد. وضع جانبًا مجلته الأسبوعية التي تروي قصصًا عن مخلوقات من كواكب أخرى وعن روائع الطبيعة، وترك ما تبقى فوق منضدة المدخل الصغيرة. كان معتادًا على أن يكون البيت خاويًا. وبما أن مواعيد عمل أبيه غير منتظمة، فقد أعطاه مفتاح الباب مذ كان في الخامسة من عمره، وكان يتنقل بمفرده بالترام أو الحافلات العائمة منذ بلوغه السادسة. لقد كان بارز العظام وطويل القامة، محدّد التقاطيع والعلامح، له عينان سوداوان ذاهلتان، وشعر قاس وخشن، يسيطر عليه بصعوبة باستخدام مستحضر تثبيت للشعر. وقصلاً عن تريحة منفي النافو، كان يقد فيكتور دالماو بحركاته المدروسة ومبله إلى التكلم بإيجاز وتجذب التفاصيل. كان يعرف أن فيكتور ليس أباه، وإنما هو عمه، ولكن هذه المعلومة لم تكن تعني سوى القليل، مثل أسطورة تلك الجدة التي نرجلت عن دراجة نارية في منتصف الليل، وضاعت وسط جموع يائسة. في البدء، جاءت روزر ومعها كعكة عيد ميلاد، وبعد قليل وصل فيكتور، وكان قد أمضى منوبة لمدة ثلاثين ساعة متواصلة في المستشفى، ولكنه لم ينس أن يأتيه بالهدية التي كان يحلم بها منذ ثلاث سنوات.

وقال له مازحاً وهو يعانقه: «هذا مجهر احترافي، من أكبر المجاهر، كي
 يفي معك إلى أن تتزوج». لقد كان أبوه أكثر إظهاراً لعواطفه من أمه،
 وأكثر وداعة بكثير: فهي لا يمكن شي إرادتها بأي حال؛ أمّا مارسيل
 بالمقابل فكان يعرف أكثر من عشر خدع ليفعل ما يحلو له مع أبيه.

بعد تناول العشاء، وتقطع قالب الحلوى، جاء الطفل برسائل
 البريد إلى المطبخ. «انظر، هذه رسالة من فيليب دل سولار. لم أره منذ
 شهر»، علّق فيكتور عندما رأى اسم المرسل. كان المغلف كبيراً، وعليه
 شعار مكتب محاماة دل سولار. وداخل المغلف رسالة قصيرة تقول إنّ
 الوقت قد حان لنجتمع وتناول الطعام معاً في أحد هذه الأيام، والمعدرة
 للتأخر في تسليم الرسالة المرفقة التي وصلت إلى بيته القديم، ولا بدّ
 أنّها قد جالت طويلاً قبل أن تصل إليه، لأنّه يعيش الآن في شقة قبالة
 نادي الغولف. وعلى الفور، أجفلت صرخة فيكتور كلّاً من زوجته وابنه،
 ولم يكونا قد سمعاه يرفع صوته من قبل. «إنّها من أمي! إنّها حيّة!»
 وانقطع صوته.

لم يبذل مارسيل كبير اهتمام بالخبر، وكان يفضل لو أنّ أحد
 الكائنات الفضائية قد تجسّد بدلاً من ظهور تلك الجدة، ولكنّه غير
 رآيه عندما أخبروه بأمر الرحلة. فمنذ تلك اللحظة، صار كلّ ما يجري
 هو استعدادات للقاء مع كارمي: رسائل تذهب وتجيء من دون انتظار
 أي ردّ، برقيات تقاطع في الفضاء، إهمال برنامج دروس روزر وحفلاتها
 الموسيقية وعمل فيكتور في المستشفى. لم يهتم أحد بمارسيل؛
 فالجدة المنبعثة تدرّج أنّ تضييع السنة الدراسية من أجلها، إذا تطلّب
 الأمر ذلك. سافروا على خطوط جوية بيروية مع وقفات في خمس مدن،
 قبل وصولهم إلى نيويورك؛ ومن هناك إلى فرنسا بالتسفيته، ثمّ السفر

من باريس إلى تولوز بالقطار، والوصول أخيرًا إلى إمارة أندورا، هي حافلة تسلك منزلة على طريق بين الجبال مثل ثعلب. لم يكن أي من الثلاثة قد سافر في طائرة من قبل، فأفادت تلك التجربة في الكشف عن نقطة الضعف الوحيدة التي عُرفت لدى روزر في الحياة: رهاب الأمكنة العالية. في الحالات اليومية، كالإطلال من شرفة طابق أخير، كانت تداري رعدة رهابها برباطة الجأش نفسها التي تتحلى بها أي نوع من الآلام ومشقات العيش. الضغط على الأسنان والاندفاع قديمًا بلا تململ، كان هذا هو شعارها؛ ولكن أعصابها خانتها في الطائرة، وكذلك توازنها. فكان على زوجها وابنها أن يمسكا يديها، وأن يواصياها، ويشغلا تفكيرها ويساعداها عندما تنقيا خلال ساعات لا تحصى أمضوها في الجو، وإنزالها شبه محمولة في كل مطار، لأنها لم تكن قادرة على المشي وحدها. عند وصولهم إلى ليما، محطة الهبوط الثانية في تلك الأوديسة بعد محطة أنتوفاغستا، رأى فيكتور أنها في حالة سيئة جدًا، وقرّر إعادتها إلى البيت بوا، وأن يواصل رحلته مع مارسيل، ولكن روزر واجهته بصلابتها المعهودة. «سأصل طيارًا إلى الجحيم نفسه. وإياك أن تعود إلى الحديث في هذا الأمر». واصلت الرحلة حتى نيويورك وهي ترتجف خوفًا، وتنقيا في أكياس ورقية. لقد كانت تتدرب، لأنها تعرف أنه سيكون عليها أن تسافر جوا بكثرة في المستقبل، إذا ما تمت الموافقة على مشروع الأوركسترا الموسيقية القديم الذي بدأت صياغته تحدّد.

كانت كارمي بانتظارهم في محطة الحافلات - أندورا المدينة، جالسة على مقعد، متيئة مثل خشبة، تدخن كعادتها، ترندي ثوب جِداد على الموتى، وعلى الضائعين، وعلى إسبانيا، مع قبة عشية وحقيبة فوق ركبتيها، يطل منها رأس كلب صغير أبيض. كان التعرف عليها

هلا، لأن أيا من الثلاثة لم يكن قد تغير كثيراً خلال سنوات العراق
 الأمر تلك. بدت روزر هي نفسها مثلما كانت في السابق، لكنها قد
 اتت الأسلوب المناسب لها، وقد أحست كارمي بقليل من الحميمية
 أمام هذه المرأة جيدة الملبس، المتبرجة والواثقة من نفسها. كانت قد
 ألبسها آخر موضة في تلك الليلة الزهية في الجبال، وكانت حبلية، مستزفة
 العري، وترتجف من البرد في المقعد الجانبي للدراجة النارية. الوحيد
 الذي كان متأثراً إلى حد الدموع هو فيكتور؛ فالمرأتان تبادلتا التحية
 ملة على الوجه، كما لو أنهما كانتا معاً في اليوم السابق، وكما لو أن
 الحرب والمنفى مجرد وقائع وأحداث تافهة لا معنى لها في حياتيهما.
 «أنت يجب أن تكون مارسيل. أنا جدتك. هل أنت جاتع؟» كانت هذه
 هي نحية الجدّة للحفيد، ومن دون أن تنتظر جواباً، قدّمت إليه خبزاً
 معلّى أخرجته من حقيبتها العجيبة، حيث يتعايش الكلب مع الخبز. أمّا
 مارسيل المحفون، فراح يدرس الجغرافية المعقّدة لتجاعيد وجه الجدّة،
 وأسنانها الصفراء بفعل النيكوتين، وشعرها الرمادي الذي يظهر كعشب
 باس تحت القبة، وأصابعها الملطّوة بفعل التهاب المفاصل، وفكر: لو
 أن لها أثنين في رأسها، فسوف تكون واحدة من الفضائيين.

حملتهم سيارة أجرة قديمة، يزيد عمرها على العشرين عامًا عبر
 مدينة محصورة وسط جبال، هي على حدّ قول كارمي عاصمة الجاسوسية
 والتهريب، وهما المهنتان الوحيدتان اللتان لهما مردود جيد في ذلك
 الزمان. وكانت هي نفسها تعمل في المهنة الثانية، لأن مهنة التجسس
 تتطلب اتصالات جيدة مع القوى العظمى الأوروبية ومع الأميركيين.
 كان قد مضى أكثر من أربع سنوات على نهاية الحرب العالمية الثانية،
 عام 1945، وكانت المدن المُدمّرة تُستعاد من الجوع والخراب، ولكن لا

تزال هناك مع ذلك حشود من اللاجئين والنازحين الباحثين عن مكان لهم في العالم. أوضحت لهم الجدة أنَّ أندورا كانت وكر جواسيس خلال الحرب، وهي لا تزال كذلك الآن، في أجواء الحرب الباردة، لقد كانت في السابق طريق هروب للألمان الفارين، وبصورة خاصة اليهود والأسرى الهاربين الذين يتعرضون أحياناً لخيانة المهزبر. وينتهي الأمر باغتيالهم أو تسليمهم للعدو لانتزاع أموالهم وما يحملونه من مجوهرات. هنالك العديد من الرعاة الذين تحولوا فجأة إلى أثرياء وفي كل عام، عند ذوبان الثلوج، تظهر جثث مقيّدة الأيدي من الرُسغس بأسلاك، قال لهم سائق سيارة الأجرة الذي كان يشاركهم المحادثة بعد الحرب، صار يمز عبر أندورا ضباط ألمان ومؤيدون للنازيين هاربين نحو وجهات محتملة في أميركا الجنوبية. ينتظرون المرور عبر إسبانيا، والعثور على مساعدة من فرانكو، ولكنه نادراً ما كان بمنحهم مساعدته. ثم أضافت كارمي: «أما بالنسبة إلى التهريب، فلا شيء يستحق الذكر: تبغ، ومشروبات كحولية، وأشياء بسيطة أخرى من هذا النوع، لا وجود لشيء خطير».

استقروا في الكوخ البدائي الذي تنفاسمه كارمي مع الزوجين الفلاحين اللذين أنقذا حياتها. جلسوا إلى المائدة ليأكلوا لحم أرنب مسلوق مع الحمص، ومع إيريني نبيذ أحمر، وليبادلوا رواية أحداث ما جرى لهم خلال السنوات العشر الأخيرة. فأنشاء الانحباب، عندما قرّرت الجدة أنَّ قواها لم تعد تُمكنها من مواصلة المسير، وكانت فكرة المنفى لا تُطاق، ابتعدت عن روزر وعن أيتور إيلارًا لتلقي بنفسها إلى الموت بردًا في ذلك الليل، وبعيدًا عنهم. ولكنها استيقظت على الرُغم منها في اليوم التالي، وكانت شبه مخدرة، ويأحساس شديد بالجوع،

أحسها أكثر حيوية مما كان يمكن لها أن تتمتع به. ظلت هناك بالذات، بلا
 راك، بينما جموع الهاربين تمرّ متجرجرة من حولها، وبأعداد متناقصة
 أكثر فأكثر، إلى أن وجدت نفسها عند الغروب وحيدة، منكورة على
 مسها مثل حلزون فوق الأرض الجليدية. قالت إنها لا تتذكر ما الذي
 كانت تشعر به، لكنها عرفت أنّ الموت صعب، وأنّ استدعاء الموت
 ليس سوى سلوك جبان. لقد مات زوجها، وربما يكون ابنها ميتين أيضاً،
 ولكن، روزر وابن وليام الذي تحمله في أحشائها موجودان؛ عندئذٍ،
 مررت أن تواصل، لكنها لم تستطع النهوض. بعد قليل، اقترب منها كلب
 صغير ضائع، يمضي متشققاً في أثر صفوف اللّاجئين، قالت له أن يبقى
 معها لتمنحه الدفء. فكان ذلك الحيوان نجاتها. بعد ساعة أو اثنتين،
 مرّ زوجان فلاحان، كانا قد باعا منتجات زرعهما للهاربين المتأخرين،
 ويريدان العودة إلى بينهما. سمعا لهاث الكلب، وطئاً أنّه لهاث طفل.
 وهكذا، اكتشفا وجود كارمي وساعداها. عاشت معهما، تعمل مثلهما
 في الأرض بجهد كبير وحصيلة هزيلة، إلى أن جاء ابن تلك الأسرة
 الأكبر، وأخذهم إلى أندورا. وهناك، أمضوا سنوات الحرب العالمية
 بممارسة التهريب ما بين إسبانيا وفرنسا، وكانوا يُهرّبون كل شيء، بما
 في ذلك البشر إذا ما توافرت الفرصة

- وهل هذا هو الكلب نفسه؟ سألتها مارسيل الذي كان يضع الكلب
 على ركبتيه.

- إنه هو نفسه. لا بدّ أن عمره قرابة أحد عشر عاماً، وسوف يعيش
 سنوات كثيرة أخرى. اسمه غوسبيت.

- هذا ليس اسماً. فهذا يعني جرو صغير بالكتلائية.

- هذا الاسم يكفي، ولا يحتاج لأي اسم آخر، كُثرت الجذوة بين مجتئين من سيجارتها.

مضت سنة كاملة قبل أن تصبح كارمي مستعدة للهمز والاجتماع بالأسرة الوحيدة المتبقية لها. ولأنها لم تكن تعرف أي شيء عن تشيلي، تلك الدودة الطويلة في جنوبي الخريطة، راحت تبحث في الكتب، والشؤال هنا وهناك عما إذا كان هنالك من يعرف شخصاً تشبهاً لاستجوابه، ولكن لم يمر أي تشيلي بمدينة أندورا في ذلك الحب كانت تخشى ألا تروق لها تشيلي. يقول عمي جوردي إن تشيلي مثل كثالونيا، طمانها مارسيل في إحدى رسائله.

وعندما اتخذت القرار، ودعت الأصدقاء، تنفست بعمق، وأزاحت المخاوف والقلق من ذهنها، مستعدة للاستمتاع بالمغامرة. سافرت برا وبحراً طيلة سبعة أسابيع، ومعها الكلب في حقيبة يدوية، بلا تسرع، مانحة نفسها الوقت للقيام بجولات سياحية كي تستمتع بمشاهد ولغات أخرى، ولتذوق مأكولات غريبة، وتقارن بين عادات أجنبية وعاداتها. كانت تبتعد يوماً بعد يوم عن الماضي المعروف، لتتوغل في بُعد آخر. ففي سنوات عملها كمعلمة مدرسة، درست وعلمت عن العالم، وما هي تبيين الآن أنه لا يشبه وصف النصوص المكتوبة عنه، ولا الصور الفوتوغرافية؛ إنه أشد تعقيداً وتلوّناً بكثير، وأقل رهبة. وكانت تتبادل انطباعاتها مع الحيوان الذي يرافقها، وتدونها في دفتر مدرسي إلى جانب ذكرياتها، كإجراء احتياطي إذا ما خذلتها الذاكرة في ما بعد. وكانت تجمل الأحداث، لأنها تعي أن الحياة مثل الحكايات، ولهذا لا مبرر لأن تدون توافه الحياة. المرحلة الأخيرة من تجوالها كانت رحلة الإبحار عبر المحيط الهادي نفسها التي قامت بها الأسرة في العام 1939. كان ابنها قد أرسل إليها نقوداً من أجل

«درة السفر في الدرّة الأولى، متذرعًا بأنّها تستحقّ ذلك، بعد كلّ ما
 زلّ به من العوز، ولكنّها فضّلت السفر في الدرّة السياحية، حيث
 أمّ أكثر راحة. فالحرب وسنوات حيانها كمّهزّبة جعلتها أكثر نكثًا.
 ١٠ ذنّها، فرّرت تبادل الحديث مع الغرباء، لأنّها اكتشفت أنّ الناس يحبّون
 ادل الحديث، ويكفي توجيه سؤالين لعقد صداقة، ومعرفة أشياء كثيرة.
 ١١ ملّ نحصّ له قصّة، ويرغب في أن يرويها.

أما غوسيت، الذي كان يعاني من بعض مصاعب التقدّم في
 السنّ، فقد أعادت الرحلة إليه فتوّته على مراحل. ولدى الاقتراب من
 ١٢. احل تشلي، صار يبدو كأنّه كلب آخر، أكثر نيقظًا، وقب قدر أقلّ من
 ١٣. الحة الظريّان. في ميناء البارايو، كان كلّ من فيكتور وروزر ومارسيل
 ١٤. في استقبال الجذّة والكلب. وكان يرافقهما سبد له كرش لا يتوقّف عن
 ١٥. المثرثرة، قدّم نفسه بالقول: «جوردي موليني، عند قدميك، يا سيّدتي».
 ١٦. لم أضاف بالكتلائية أنّه مستعدّ ليربّيها أفضل ما في هذه البلاد الجميلة.
 ١٧. «أوندرين أتّا في السنّ نفسها تقريبًا؟ وأنا أرمّل أبضًا»، أضاف بشيء من
 ١٨. التعلّج. في القطار إلى سنيانغو، عرفت كارمي دور الخال الجدّ الذي
 ١٩. يؤدّي ذلك الرجل على أكمل وجه، وكيف أنّ حفيدها زبون دائم في
 ٢٠. حاته، حيث يذهب كلّ يوم تقريبًا لإنجاز واجباته المدرسيّة، كيلا يظنّ
 ٢١. وحده في البيت. لم يُعدّ فيكتور يعمل في وينيغ ليلاً، فقد صار طبيب
 ٢٢. أمراض قلبيّة في مستشفى سان خوان دي ديوس، كما أنّ روزر لم تُعدّ
 ٢٣. تردّد بكثرة على الحانة، ولكنّها تتابع من بعيد الحسابات التي صار
 ٢٤. يترأّها محاسب متقاعد مقابل الرّقعة والطعام والشراب.

لقد عثرت كارمي أخيرًا على ذوبها بفضل إليزابيث إيدنيز التي
 استقرّت في فينا، متفرّغة بالكامل للمهمّة التي تولّتها على الدوام:

مساعدة النساء والأطفال. كانت المدينة قد قُصفت بهمجية؛ وعندما وصلت إليزابيث إليها، بعد قليل من انتهاء الحرب، كان الأهالي الجائعون يبتشون في القمامة بحثًا عن أغذية، ومئات الأطفال الضائعين يعيشون كالغربان بين أنقاض المدينة التي كانت ذات يوم أجمل مدراء إمبراطورية. في العام 1940، عندما كانت في جنوبي فرنسا، حققت إليزابيث مشروع الأمومة النموذجي في قصر إيلنا المهجور، حيث احتضنت النساء الحوامل كي يضعن أبناءهن بسلام. صحيح أنهم كن في البدء إسبانيات لاجئات في مخيمات التجميع، بعد ذلك جاءت يهوديات أيضًا، وعجريات ونساء أخريات هاربات من النازيين. ولأنها تحت حماية الصليب الأحمر، كان لا بد لدار الأمومة في إيلنا من أن تبقى محايدة، وأن تمتنع عن مساعدة سياسيات هاربات، ولكن إليزابيث لم تكن تتمسك كثيرًا بالأنظمة على الرغم من المراقبة، فأدّى ذلك إلى أن يُلغىها الجستابو في 1944. وكانت قد توصّلت إلى إنقاذ أكثر من ستمئة طفل.

تعرفت كارمي عن طريق الصدفة، في أندورا، على واحدة من أولئك الأمهات المحظوظات، وقد روت لها أنه تمكنت، بفضل إليزابيث، من إنجاب ابنها حيًا. عندئذٍ، ربطت كارمي بين تلك الممرضة واسم الشخص الذي كان رابطة الوصل مع أسرتها في فرنسا، إذا ما تمكنت من اجتياز الحدود. كتبت للصليب الأحمر، ومن مكتب إلى آخر، من بلد إلى آخر، من خلال مراسلات لجوجة تغلبت على العقبات والموانع البيروقراطية، واجتازت أوروبا في اتجاهات متعددة، وتوصّلت إلى الترحيبي عن مكان تواجد إليزابيث في فينّا؛ وهي من قالت لها في رسالة أن أحد ابنيها على الأقل، المدعو فيكتور، على قيد الحياة وقد تزوج من روزر،

١٤. نُجِبت المذكورة ابناً اسمه مارسيل، وثلاثتهم صاروا في تشيلي. هي لا تعرف كيف تبحث عنهم، ولكن روزر كانت قد كتبت إلى الأسرة التي احتضنتها عند خروجها من مخيم أرجيليه - سور - مار. لم يكلف الكثير التواصل مع جماعة الكويكرز الذين كانوا يعيشون في لندن. فإن عليهم أن ينشئوا في غرفة السطح كي يجدوا مُغلف رسالة روزر، والعنوان الوحيد الذي لهم: بيت فيليه دل سولار سنتياغو. وهكذا، ستأخير عدة سنوات، جمعت إليزابيث شغل آل دالمار.

ذهبت روزر إلى كاراكاس في أواسط عقد الستينيات، مدعوة من صديقها فالنتين سانتشيث، السفير الفنزويلي السابق، بعد أن تفاعد من الشك الدبلوماسي، وتفرغ ناعماً لشغفه بالموسيقى. خلال السنوات الخمس والعشرين التي انقضت منذ وصول السفينة وينبيغ، صارت أكثر تشييلية من أي مولود في هذه الأراضي، مثل معظم اللاجئين الإسبان؛ فهؤلاء لم يكونوا مواطنين تشيليين وحسب، بل أكمل كثيرون منهم حلم بابلو نيرودا بهز سبات المجتمع. لم يُعد هناك من يتذكر أنه في أحد الأيام كانت هنالك معارضة ضدهم، ولا يمكن لأحد أن ينكر المساهمة العظيمة التي قدمها أولئك الذين دعاهم نيرودا إلى تشيلي! وقد تمكنت روزر ومعها فالنتين سانتشيث من أن يؤسسا بعد سنوات من التخطيط، ومن المراسلات والرحلات المكثفة، أول أوركسترا للموسيقى القديمة في القارة، برعاية البترول، هذا الكنز الذي لا ينفد تدفقه الغزير في الأراضي الفنزويلية. وبينما هو يجوب أوروبا لاقتناء آلات موسيقية ثمينة، وينقب عن نوتات مجهولة، كانت هي تعكف على تدريب العازفين باختيارات جمالية من مرقعها الجديد كناية لعميد كلية الموسيقى في سنتياغو. كان هناك فائض من طلبات

المتقدمين للانتساب تأتي من بلدان متعدّدة، على أمل أن يكونوا جزءاً من هذه الأوركسترا البونوبية. لم تكن تشيلي تمتلك الوسائل لسنل تلك المهنة؛ فهناك أولويات أخرى في ميدان الثقافة، والمناسبات القليلة التي توصّلت فيها روزر إلى استشارة الاهتمام بمشروع ما، كان يأتي زلزال أو تغيير حكوميّ فيرمي المشروع جانباً. أمّا في فنزويلا، فكان بالإمكان تحقيق أيّ حلم إذا ما نوافر النفوذ والعلاقات المناسبة، وهي أمور لدى فالتين سانتشيث فائض منها، لأنه أحد السياسيين القليلين القادرين على البقاء طافين بلا منغصات وسط الدكتاتوريات والانقلابات العسكرية والمحاولات الديمقراطية والحكومة المهادنة الحالية التي يترأسها أحد أصدقائه الشخصيين. كانت بلاده تخوض مواجهة ضدّ حرب عصابات تستوحي نموذج الثورة الكوبية، مثل حركات ثوريّة أخرى في القارة باستثناء تشيلي، حيث بدأت ترى البور للثورة حركة ثورية نظريّة أكثر منها مقاتلة. لم يكن أيّ شيء من ذلك يؤثّر على ازدهار البلاد، ولا على حبّ الفنزيوليين للموسيقى، مهما كانت هذه الموسيقى قديمة. كان فالتين يتردّد على تشيلي بكثرة؛ ولديه هناك شقّة في سنتياغو، يقيمها مفتوحة كي يشغلها لأدنى نزوة. وكانت روزر تزوره في كراكاس، وقد جالاً معاً في أنحاء أوروبا من أجل موضوع الأوركسترا. وكانت هي قد تعلّمت الشفر في الطائرات بمساعدة المهندّات، والمواد المخدّرة والخمر.

لم تكن تلك الصداقة تستثير قلق فيكتور «الماو»، لأنّ صديق زوجته كان مثلياً معلناً، ولكنها توحى بوجود عشيق افتراضيّ. ففي كلّ مرّة ترجع فيها روزر من فنزويلا، تبدو أكثر شباباً، تأتي محمّلة بثياب جديدة، وعطر حطية أو مجوهرات رصينة، مثل قلب ذهبيّ معلق حول العنق بسلسلة نحيلة،

١٠. لن نشتره روزر لنفسها، لأنها كانت متقشعة في نفقاتها الشخصية.
 ١١. هو أكثر كشفاً بالنسبة إلى فيكتور هو عاطفتها المتجددة، كما لو أن
 هذه اللقاء به تتطلب ممارسة نوع من الأكروبات تتعلمه مع آخر. متبدو
 ١٢. مضحكة في العلاقة المتراخية التي يتقاسمانها، بل إنها شديدة
 ١٣. احبي، ولو شاء فيكتور أن يعرفها لقال إنها علاقة رفاقية. وقد تأكدت له
 مرحلة المثل الذي تقوله أمه: للغيرة لسع أقوى من لسع البراغيث. كانت
 دور معجبة بلعبها دور الزوجة. ففي الأزمنة التي كانوا فيها فقراء، عندما
 كان لا يزال مغرمًا بأوفيليا دل سولار، اشترت بأقساط شهرية، ومن دون
 أن نسأل رأيها، خاتمت زفاف، وطلبت منه أن يوافقها على استخداها إلى
 أن يتمكن من الطلاق. وانسجامًا مع اتفاق التمسك بالصدق المتفق عليه
 ١٤. البدء، كان على روزر أن تحدّثه عن العشق، ولكنها كانت تتمسك
 بأن تجاهلاً رحيماً يكون أكبر قيمة من حقيقة غير مجدية؛ واستنح فيكتور
 أنها إذا كانت تطبق هذا المبدأ على تفاصيل تافهة، فسيكون لديها مسوغ
 أقوى بأن تفعل ذلك في حالة خيانة. لقد تزوجا بالتوافق المصلحي،
 ولكن مضي عليهما ستة وعشرون عامًا معًا، ويحب كل منهما الآخر بما
 هو أكثر من الطمأنينة المتقبلة في تلك الزيجات المرتبة في الهند. كان
 مارسيل قد أكمل الثامنة عشرة من عمره منذ وقت طويل، وهذه المناسبة
 التي تشكل خط نهاية التعهد القائم بينهما على البقاء معًا حتى بلوغه
 هذه السن، لم تغد في شيء سوى تعزيز المحبة القائمة بينهما، والنية
 بالمواصلة كزوجين لعزيم من الوقت، على أمل أنهما، بالانتقال من
 تأجيل إلى تأجيل آخر، لا يصلان إلى الفراق أبدًا.

مع السنوات التي تمضي متشابهة في الأذواق والنزوات، وإن لم
 تكن كذلك في الطباع. كانت لديهما أسباب قليلة للجدل، ولم يكن

هنالك أي سبب للشجار. كانا مثقفين على ما هو أساسي، ويشعر أنهما بأنه مستريح وسعيد بحضور الآخر، كما لو أنهما وجدان. والكل منهما يعرف الآخر بعمق، وكانت ممارسة الحب أشبه برقصة سهلة. تخلف كليهما راضيا. لم يكن الأمر يتعلل في تكرار الرؤيتين نفسه، لأنها كانت ستشعر بالشجر من ذلك، وهو ما يعرفه فيكتور. فووزر العارية من الفرائش مختلفة جدًا عن المرأة الأنيفة والمثيرة فوق منصة مسرح، أو الأستاذة الصارمة في مدرسة الموسيقى. كانا قد مرًا معًا بحالات مدّ وجهر حتى الوصول إلى الحياة الهائلة في سنوات النضوج هذه، بلا مشاكل اقتصادية أو انفعالية. يعيشان وحدهما، لأن كارمي كانت قد انتقلت إلى بيت جوردي مولينيه عندما مات غوسيت، الكلب الصغير، بعد أن هرم كثيرًا، وصار أعمى وأصم، ولكنه ظل فطنًا على أكمل وجه؛ وكان مارسيل قد استقر في شقة مع زميلتين اثنتين. لقد درس هندسة المناجم، وصار يعمل موظفًا لدى الحكومة في صناعة النحاس. لم يكن قد ورث أدنى قدر من الموهبة الموسيقية من أمه أو جدّه مارسيل لويس دالماو؛ ولا مزاج أبيه المتمرس على الصعاب، أو أي من الميول الطيبة، مثل فيكتور، أو التعليم مثل جدته كارمي التي كانت معلمة مدرسة حتى وهي في الحادية والثمانين. «كم أنت غريب، يا مارسيل! أي شياطين جعلتك تهتم بالأحجار؟»، سأله كارمي عندما عرفت ما هو التخصص الدراسي الذي سيختاره. فأجابها حفيدها: «لأن الأحجار لا تبدي رأيًا ولا تردّ جوابًا».

العلاقة الفاشلة مع أوفيليا دل سولار سببت لفكتور دالماو غضبًا خفيًا وصامتًا، استمر قرابة السنتين، وتقبّله كتفسير عادل لكونه قد تصرف كشخص فظّ وقاسٍ بوقوعه في حب تلك الفتاة العذراء، وهو يعرف أنه ليس حرًا، بل لديه مسؤولية زوجة وابن. لقد حدث ذلك قبل سنوات

١٠. ومنذ ذلك الحين، كان الحنين المتأجج الذي خلّقه ذلك الحب
 ١١. راح بتلاشي ويختفي في المنطقة الرمادية من الذاكرة، حيث يأخذ
 ١٢. مشاء بالاختفاء والتلاشي. كان يعتقد أنه قد تعلّم درساً، على الرغم
 ١٣. أن مغزاه العميق كان مشوشاً. وظلّت تلك هي حالة سهو الغرامية
 ١٤. حيدة طوال سنوات كثيرة، لأنه يعيش مستغرقاً في متطلبات عمله.
 ١٥. إن يكتفي بحدوث لقاء غرامي منسرع بين حين وآخر، لا يُحسب،
 ١٦. م مموضة متساهلة؛ ويكون ذلك، بصورة عاقبة، في إحدى ورديات
 ١٧. المسابة التي تستمر يومين متتاليين في المستشفى. تلك المعانقات
 ١٨. المستعجلة لا تتوصّل قطّ إلى أن تكون مُرضية، فهي بلا ماضٍ، وتُنتهى
 ١٩. خلال ساعات قليلة. حبّه الراسخ لروزر كان مرسة وجوده.

في عام 1942، بعد قليل من تلقّيه رسالة أوفيليا الحاسمة، عندما
 كان فيكتور لا يزال يحلم بوهم العودة لغزوها، مع أنه كان يعلم أن ذلك
 سيكون أشبه برش ملح على القلب الجريح؛ وقدّرت روزر أنذاك أنه
 بحاجة إلى علاج شديد المفعول كي يخرج من حالة الاستغراق في
 التأمل، فاندسّت في إحدى الليالي في فراشه بلا دعوة منه، مثلما فعلت
 فل سنوات من ذلك مع أخيه وليام. وقد كانت تلك هي أفضل مبادرة
 في حياتها، لأنّ محصلتها تمثّلت في إنجابها مارسيل. أمّا في هذه الليلة،
 فكانت تفكر بمفاجأة فيكتور، ولكنها فوجئت بأنّه كان ينتظرها. لم يفاجأ
 حين رآها عند عتبة الحُجرة، شبه عارية وشعرها مفلت، بل تحرك بكلّ
 بساطة في السرير ليفتح لها مجالاً، وتلقّاها بين ذراعيه بتلقائية زوج.
 تقلّباً ممّا لشرط لا بأس به من الليل، في تعارف توراتي ضئيل البراعة،
 ولكن بطيب مزاج؛ وكلاهما يعي أنه كان يرغب في مجيء هذه اللحظة
 منذ المناوشات في زورق النجاة بالمسفينة وينيبينغ، عندما كانا يتهاامسان

بعثة، بينما يقف في الخارج أزواج آخرون ينظرون دورهم لسماء الحب. لم يتذكروا أوفيليا ولا وليام الذي كان شبحه المسلط يرافقه، خلال الرحلة البحرية؛ أمّا في تشلي، فانشغل بالمستجدات، وروم ينسحب شيئاً فشيئاً إلى حجيرة سرّية في قلبيهما معاً، حيث لا يسبب أي إزعاج. منذ تلك الليلة الأولى، صاروا ينمان في السرير نفسه.

كان الاعتزاز بالنفس يمنع فيكتور من التّجشّس على روزر، أو طرح شكوكه عليها. لم يربط بين ارتياحه وألم المعدة الدائم الذي يعذّبه، عزاً ذلك إلى قرحة معويّة، ولكنّه لم يفعل شيئاً لتأكيد التّشخيص، واكتفى بتناول حليب المغنيسيا بكميّات مثيرة للذعر. مشاعره تجاه روزر كانت مختلفة جداً عن العاطفة النزقة التي عانى منها مع أوفيليا، فكان لا بدّ من مرور أكثر من سنة من العذاب قبل أن يتمكّن من وضع تسمية لتلك الحالة! ولكي يشغل نفسه عن مشاعر الغيرة، لجأ إلى أوجاع مرضاه في المستشفى وإلى الدراسة. كان عليه أن يتابع تقدّم الطّبّ ومستجدّاته، وكانت مستجدّات عجائبة، حيث تسري شائعات عن إمكانية زرع القلب البشريّ بنجاح. فقبل سنتين، كانوا قد وضعوا قلب شميانزي لشخص محتضر، وعلى الرّغم من أنّ المريض لم يعيش سوى عشرين دقيقة، فقد رفعت التجربة من احتمالات وصول العلوم الطّبيّة إلى مستوى المعجزة. فكان فيكتور دالماو، مثل آلاف الأطبّاء الآخرين، يتلهّف لتكرار العائرة باستخدام قلب متبرّع بشريّ. فمِنذ أن أمسك بأصابعه قلب لاثارو، قبل حياة كاملة، تسلّط هذا العضو السّحريّ على عقله.

خارج العمل والدراسة، حيث كان يركّز نشاطه وطاقته، دخل فيكتور في واحدة من مراحل اكتتابه. «إنّك تمضي ذاهلاً، يا بنيّ»، قالت له كارمي أثناء تناول الطعام مع الأسرة في أحد أيّام الأحاد في

• حوردي مولينيه. هناك، كان الحديث يدور بالكتلائية، ولكن كرامي
 - إلى التكلّم بالإسبانية عندما يكون مارسيل حاضراً، لأنّ حفيدها
 "ي بلغ السادسة والعشرين ما زال يرفض التحدّث بلغة أسرته.
 "الحدة سحقة، يا أبي؛ فأنت تبدو كالمخبول. ماذا جرى لك؟" أضاف
 "اسبل. فردّ عليه فيكتور باندفاع مفاجئ: «إنني مشتاق لأُتّك». كان
 "ان بوحاً بالثّبة إليه. فقد كانت روزر في فنزويلا، في سلسلة أخرى
 "، الحفلات الموسيقيّة التي بدأت تبدو ليفكتور في الأونة الأخيرة
 "أها صارت أكثر تواتراً. ظلّ يفكّر في ما قاله، لأنّه حتّى اللّحظة التي
 "ساع فيها ما يعبر عن حاجته إليها، لم يكن قد انتبه بصورة كاملة لمدى
 "، لها. فهما المعتادان على التحدّث في كلّ الأمور بلا تابوات، لم
 "أرا فط عن الحبّ بالكلام، بتأثير حياء لا يُمكن تفسيره؛ فما هي
 "الحاجة للمضيّ في التصريح عن المشاعر، يكفي إثبات ذلك عملياً.
 "طالما أنّها معاً، فلا تُن كلّ منهما يحبّ الآخر، وما من حاجة لتقليب
 "مده الحقيقة البسيطة.

بعد يومين من ذلك، بينما كان لا يزال يجترّ فكرة مفاجأة روزر
 "نصريح رسميّ بحبّه لها، ويخاتم الزفاف الذي كان عليه أن يقدّمه إليها
 "لعدة سنوات، رجعت هي من جديد إلى سنّياغو (أم فنزويلا؟) volvi a
 "Santiago من دون إخبار بذلك، فظلّت تخطط فيكتور مؤجلة. وقد جاءت
 "بمنهجة، كما في رحلاتها السابقة الأخرى، بذلك المزاج من الرضى
 "الكامل الذي يستثير شكوكنا لدى زوجها، وبثوب قصير إلى ما فوق
 "الركبتين مزركش بمربعات حمراء وسوداء، مثل شرشف مطبخ، غير
 "مناسب بأيّ حال لشخصيتها الزّينة. «ألا يبدو لك أنّه قصير جدّاً لمن
 "هي في مثل عمرك؟»، سأله فيكتور بدلاً من أن يقول لها العبارات

اللطيفة التي كان قد أعدها بدقة بالغة. «عمري ثمانية وأربعون عامًا، ولكنني أشعر كما لو أنني في العشرين»، ردت عليه بمزاج طيب.

كانت المرأة الأولى التي تستسلم فيها لآخر صبيحات الموضة؛ فحتى ذلك الحين، كانت وقيّة لأسلوبها، ولا تبدّل فيه إلّا قليلًا جدًا. موقفها المتحدّي أقتع فيكتور بأنّه من الأفضل ترك الأمور على ما هي عليه، وتجنّب تصرّيات يمكن لها أن تكون مؤلعة جدًا أو نهائية وحاسمة.

لقد علم فيكتور دالموا بعد عدّة سنوات من ذلك، عندما لم يتدّ هنالك ما يهتمه بأيّ حال، أنّ عشيق روزر هو صديقه القديم آيتور إيبازا. تلك العلاقة السعيدة، رغم كونها تقوم على لقاءات متفرقة، لأنهما لا يلتقيان إلّا عندما تذهب هي إلى فنزويلا، وليس هنالك في بقية الأوقات أيّ اتصال بينهما، وقد استمرت تلك الحال سبع سنوات كاملة. بدأ الأمر في الحفل الأوّل لأوركسترا الموسيقى القديمة، وكان الحدث الثقافيّ الأبرز خلال تلك الفترة في كاراكاس. رأى آيتور في الصحافة اسم روزر برونغيرا، وفكّر في أنّها ستكون مصادفة أكبر من أن تحدث إذا ما كانت هي نفسها المرأة الحبلى التي اجتاز معها جبال البيرينيه أثناء الانسحاب، ونحسبًا لأن تكون هي نفسها التي اشترى لها بطاقة دخول قدّمت فرقة الأوركسترا عملها في القاعة الكبرى بالجامعة المركزية، حيث ألواح الفنان كالدير الطافية وأفضل إمكانيّة استماع في العالم. وعلى المنصة الفسيحة، بدت روزر صغيرة جدًا وهي تقود الموسيقيّين بآلاتهم الموسيقيّة البديعة، بعض تلك الآلات لم يكن الجمهور قد رآها من قبل قطّ. وباستخدام منظار مُقَرَّب، تفحصها آيتور من الخلف، فكان الشيء الوحيد الذي استطاع تحديده والتعرّف عليه هو عقبصة شعرها المربوطة فوق العنق، وهي العقبصة نفسها التي كانت لها في أيام

الجاب. تعرّف عليها فور استدارتها لتلقّي التصفيق، أمّا هي فوجدت سمومة أكبر في التعرّف عليه، عندما قدّم نفسه في حُجرة المعتقلين، لأنّه لم يبق إلا القليل من ذلك الشاب النحيل، المتسرّع والفروح الذي « بن له حباتها. لقد تحوّل إلى رجل أعمال مزدهر، بحركات وإيماءات «طينة، مع عدّة كيلوغرامات زائدة، وقليل من الشعر في رأسه مع شارب «ثيف، ولكنّه يحتفظ بهيكل نظرتة. كان متزوّجًا من امرأة رائعة، كانت ملكة جمال، ولديه أربعة أبناء، وعدّة أحفاد، وقد حقّق ثروة. وصل إلى «نزويلا، وليس في جيبه سوى خمسة عشر دولارًا، احتضنته بعض الأقارب، وانكبّ على العمل في مهنته التي يُتقنها: إصلاح السيارات. أدام كراج ميكانيكيّ، وبعد وقت قصير كانت له فروع في عدّة مدن؛ ومن هذا العمل، لم يكن يحتاج إلا لخطوة واحدة للتوسّع إلى تجارة السيارات القديمة لهواة جمع السيارات. لقد كانت تلك هي البلاد المناسبة لشخص مبادر وبعيد الرؤية مثل أيتور. «فرص الثراء هنا تتساقط من الأشجار مثل ثمار المانجا»، قال لروزر.

كانت ست سنوات من العاطفة شديدة الزخم في المشاعر والخفية في التعبير. اعتادا أن يقضيا يومًا كاملًا محبوسين في غرفة فندق يمارسان الحبّ كمراهقين، وهما يموتان من الضحك، مع قارورة نبيذ أبيض من نبيذ الرين Rin وخبز وجبن، مفتوتين بما يتقاسمانه من الرهافة الثقافية والشهوة اللامتناهية، وهو الحدث الفريد في حياتيهما، لأنهما لم يعرفا من قبل قطّ، ولن يعرفا في ما بعد، إحسانًا بهذه الطريقة. وقد تدبّرا الأمور للحفاظ على حبّيهما في مكان مغلق ومختوم وسريّ في حياتيهما، من دون أن يؤثرا في شيء على الزواج السعيد لكلّ منهما. فأيتور يحبّ امرأته الجعيلة ويحترمها، تمامًا مثلما تحبّ روزر فيكتور

وتحترمه . ففي البدء ، عندما كانا على وشك فقدان عقليهما حيال مفاجأة وقوعهما في الحب ، فقرروا أن تكون الثمرة الوحيدة الممكنة لذلك الانجذاب الرهيب هو بقاؤه ضمن حدود المرونة ؛ وألا يسمحا بأن يقلب حياتيهما رأساً على عقب ، ويسبب ألاماً لأسرتهما . وقد فعلا ذلك طوال تلك السنوات الشج المباركة ، وكان يُمكن لهما أن يواصلوا معاً لوقت أطول بكثير لولا صدمة دماغية حكمت على أيتور إيبازا بالشلل ، وبأن يظل في رعاية زوجته .

ولكن فيكتور لم يعرف أي شيء من ذلك كله إلى أن أخبرته به

روزر .

عاد فيكتور دالماو إلى اللقاء بإيلو نيرودا بكثرة ، عن بعد في مهرجانات سياسية ، وفي بعض الأحيان في بيت عضو مجلس الشيوخ السيناتور سلفادور ألبيندي ، الذي اعتاد أن يلعب معه الشطرنج . كما أن الشاعر نفسه قد دعاه إلى اجتماع في بيته بإسلا نيغرا ، وهو مسكن عضوي ، له شكل سفينة جانحة ، ومشيد بهندسة جنوبية ، متسلقاً / مُشبهاً على بروز مرتفع قبالة البحر . لقد كان مكان الإلهام والكتابة . «بحر تشيلي ، البحر الرهيب ، بمراكب تنتظر ، بأبراج زيد بيضاء وسوداء ، بصيادين ساحليين تعلموا الصبر ، البحر الطيبي ، الفيضاني ، اللامتناهي » . هناك كان يعيش مع ماتيلاي ، زوجته الثالثة ، والوفرة غير المعقولة بمجموعات أشياءه ، ابتداء بالقوارير المعطرة بالفبار المشتراة من سوق البراغيث ، وحتى أقنعة ودمى من التي تُثبت في مقدمة السفن ، يحصل عليها من سفن غارقة . في ذلك البيت ، كان يستقبل شخصيات بارزة من العالم بأسره ، ممن يأتون لتجشبه وليقدّموا له دعوات لزيارة بلدانهم ، وسياسيين محليين ، ومثقفين وصحفيين ، ولكن قبل

١٠٠٠. جميعهم كان يستقبل هناك أصدقاءه الشخصيين، وبينهم عدد
 لا جني وينبيغ. لقد كان شخصية واسعة الشهرة، مترجماً إلى كل
 "أعاب الموجودة في العالم؛ ولم يُقدِّم بإمكان حتى أسوأ أعدائه أن
 "درو القدرة الشعرية لأشعاره. وكان أكثر ما يرغب فيه الشاعر محب
 "الحياة الجيدة؛ هو أن يكتب بلا توقف، وأن يطبخ بنفسه لأصدقائه،
 "أن يُترك بسلام، ولكن يبدو أن ذلك لم يكن ممكناً حتى في تلك
 "المطلة الصخرية المسماة إيسلا نيغرا؛ أناس من كل الأصناف كانوا
 "يهدون ليطلقوا باب، وتذكيره بأنه صوت الشعوب المعانية والمثأمة،
 "لما كان هو بالذات يُعرف نفسه. وهكذا، جاء إليه رفاقه ذات يوم
 "مطالبته بأن يمثلهم في حملة الانتخابات الرئاسية. سلفادور ألييندي،
 "المرشح الكفؤ والأكثر أهلية لدى اليسار قد تقدّم للمنافسة على موقع
 "الرئاسة ثلاث مرّات من قبل، ولم يحقق النجاح، حتى إنه صار يقول
 "إنه موسوم بالإخفاق. وهكذا، ترك الشاعر دفاتره وقلم حبره الأخضر،
 "وخرج ليجوب أنحاء البلاد في سيارات وحافلات وقطارات، والالتقاء
 "بالشعب وإلقاء أشعاره، مرافقة كورال عمّال وفلاحين، وصيّادي سمك،
 "وعمّال سكك حديد، ومنجمين، وطلّاب وفنّانين ترتعش أرواحهم مع
 "صوته. وقد أفادته تلك الحملة الانتخابية في منح مزيد من الألق لشعره
 "المناضل، وفي إدراك أنه لم يولد للسياسة. وما إن سنحت له الفرصة
 "حتى انسحب ليدعم ترشيح سلفادور ألييندي الذي، على الرغم من
 "كل الرياح والأنواء، انتهى إلى الوقوف على رأس الوحدة الشعبية، وهو
 "تحالف مجموعة أحزاب يسارية. وكان نيرودا نائبه في الحملة الانتخابية.
 "عندئذ، كان على ألييندي أن يجوب البلاد من الشمال إلى
 "الجنوب في القطارات، مشجّعاً الناس الذين كانوا يجتمعون في كل

محطة لسماع خطابه المؤثرة، وفي قرى صغيرة متكئة بالزمل والملح وقرى أخرى مظلمة في أمطار أبدية. لقد رافقه فيكتور دالماو عدة مرات، بصورة رسمية كطبيب، ولكنه كان يرافقه في الواقع كشريك في نص الشطرنج، وهي التسلية الوحيدة للمرشح الرئاسي، لأنه لا وجود في القطار لأفلام رعاة البقر، وهذه وسيلة العلاجية الأخرى لتخفيف التوتر. كان شديد الحيوية والنشاط، حاسنا ومؤثرا، لا يمكن لأحد أن يجاربه في خطواته، فكان على مرافقيه أن يعملوا معه بالتناوب. نولى فيكتور مسؤولية ساعات الليل المتأخرة، حيث يكون المرشح الرئاسي مستغدا وبحاجة إلى أن يخرج من ذهنه ضجيج الحشود وصخب صوته بالذات، وذلك عن طريق لعب دور شطرنج، قد يمتد أحيانا حتى الفجر، أو يعلّق لمواصلة في الليلة التالية. كان ألييندي لا ينام إلا قليلا جدا، ولكنه يستغل عشر دقائق هنا وعشر دقائق أخرى هناك، لينفو هنيهة وهو جالس في أي مكان، فينبعث بعدها حيّا ونشيطا كمن استعجم للتوّ. يمشي منتصب القامة وبصدرٍ مندفع إلى الأمام، كمن هو مستعدٌ للقتال، ويتكلّم بصوت ممتلئ وببلاغة تنويري. كان يتحكم بحركاته وإيماءاته، وسريع البديهة، ولا يتراجع عن قناعاته الأساسية. وخلال سيرته السياسية الطويلة، توصل إلى معرفة تشيلي كما لو أنها فناء بيته، ولم يفقد الإيمان أبداً بقدرته على القيام بثورة سلمية، وطريق تشيلي إلى الاشتراكية. بعض محازبيه، بوخي من الثورة الكوبية، كانوا يؤكدون أنه من المحال القيام بثورة حقيقية والإفلات من الإمبريالية الأميركية بالحمس، لأن ذلك لا يمكن تحقيقه إلا بالكفاح المسلح؛ أمّا هو، فكان يؤمن بوجود مئسع مريح للثورة في الديمقراطية التشيلية الراسخة، وفي احترام الدستور. وظلّ يؤمن حتى النهاية أن المسألة كلها تتمثل في

... والشرح والاقتراح، والدعوة إلى الممارسة، كي ينهض العمال
... أو مصيرهم بأيديهم. وقد كان يعرف جيدًا كذلك قدرات خصومه
... وكشخصية عاقبة، كان يقود باعتزاز فيه قليل من الغرور،
... خصومه بالعجرفة، ولكنه في حياته الخاصة يبدو بسيطًا ومزوحًا.
... كان وفيا لكلمته؛ لا يستطيع تخيل أي خيانة، وهذا ما تسبب أخيرًا
... صباغه.

لقد فاجأت الحرب الأهلية الإسبانية فيكتور دالماو وهو فتى
... قاتل في الجانب الجمهوري. اشتغل، ثم خرج إلى المعنى بسبب
... قبل أيديولوجية فريقه من دون أن يخضعها للتأمل والنقاش. وفي
... التزم بمطلب الامتناع عن التدخل في السياسة الذي فرض
... لاجئي السفينة وينيف، ولم يناضل في أي حزب، ولكن
... اقته مع سلفادور ألييندي راحته تحدد أفكاره بالوضوح نفسه الذي
... أدت به الحرب الأهلية الإسبانية مشاعره. كان فيكتور يقدّر ألييندي
... على المستوى السياسي، كما كان يقدّره أيضًا، مع بعض التحفظات،
... على المستوى الشخصي. فصوره ألييندي كزعيم اشتراكي تناقض مع
... عاداته البرجوازية، وملابسه ذات النوعية العالية، ومغالاته في التدقيق
... أن يكون محاطًا بأشياء فريدة يمتلكها كهدايا عفوية espontáneos من
... حكومات بلدان أخرى، ومن قناتين مهمين في أميركا اللاتينية: لوحات،
... منحوتات، مخطوطات أصلية، أدوات بيئية قديمة وسابقة لاكتشاف
... أميركا.. وسوف يختفي ذلك كله في عملية النهب التي جرت في آخر
... يوم من حياته. كان يستسلم بسهولة إلى الملاطقة والنساء الجميلات،
... مكنته اكتشافهن بنظرة واحدة وسط الحشود، ويجتذبهن بشخصيته
... باستفادة من موقعه في السلطة. هذا النوع من الضعف كان يزعج

فيكتور، وقد علّق عليه مرّة واحدة فقط في حديث مع روزر، فردّت له، «يا لك من متطلّب صارم، يا فيكتور! أَلليندي ليس غاندي». كلامه، صوّت له، ولم يكن أيّ منهما يعتدّ بصدق أنّه سوف يربح الانتخابا. بل إنّ أَلليندي نفسه كان بشكّ في ذلك، ولكنّه في شهر أيلول/سبتمبر، نال أصواتًا أكثر من المرشّحين الآخرين. ولعدم نوافر أغلبية مطلقة، فرّ الكونغرس الحسم بين المرشّحين اللذين حصلّا على أعلى الأصوات. اتّجهت أنظار العالم بأسره إلى نشلي، هذه اللّطخة المتطاولة على الخريطة، والتي تتحدّى ما هو متعارف عليه!

أنصار اليوتوبيا الثوريّة الاشتراكيّة في الديمقراطيّة لم ينظروا فرار الكونغرس: اندفعوا جماعيًّا إلى الشارع للمشاركة في ذلك الانتصار الذي طال انتظاره. عائلات كاملة، ابتداءً بالجدّين وحتى الأحفاد، وجميعهم بملابس أياام الأحاد، خرجوا يغنون متحمّسين ومبهورين، ولكنّ من دون أيّ تجاوزات، كما لو أنّهم قد توافقوا بطريقة سرّيّة على الانضباط. اختلط كلّ من فيكتور وروزر ومارسيل بالجموع ملوّحين برايات، ومنشدين «الشعب الموحّد لن يُهزم أبدًا». لم ترافقهم كارمي، لأنّها وهي في الخامسة والثمانين لم تُقدّ تجد في الحياة ما يكفي للحماسة من أجل شيءٍ شديد التقلّب كالسياسة، على حدّ قولها، ولكنّها قلّما كانت تخرج في الحقيقة، إذ كانت تكرّس كلّ إمكانيّاتها للعناية بجوردي مولينيه الذي هزم وسط التوقعات وعدم الرّغبة في الشّرك من بيته. لقد حافظ على شبابه إلى أن خسر باره. فبار وينيف الذي توصّل في سنوات وجوده إلى أن يكون معلّمًا في المدينة، اختفى من الوجود عندما هدموا منطقته كلّها، ليشتدوا أبراجًا مرتفعة سوف تنتهي، على حدّ قول مولينيه، إلى الانهيار والسقوط في الزلزال القادم. أمّا كارمي، بالمقابل،

١٠٠ لا تزال معافاة ونشيطة كعادتها. كانت قد تقلصت حجمًا، تبدو
 «مصفور متخوف الريش، كومة من العظام والجلد، وقليل من الشعر
 في الرأس، وسجارة دائمة بين شفتيها. إنها لا تكل، وفقالة، جافة
 في الحب وعاطفية بصورة سرّية، تقوم بالعمل المنزلي، وترعى جوردي
 «أ» طفل عاجز. كلاهما كان يخطط لرؤية مشهد الانتصار الانتخابي في
 امريون مع زجاجة نبيذ أحمر ولحم خنزير جبليّ مقدّد. جاءت جموع
 «اس» حاملة لافتات ومشاعل. شعرا بالبهجة والأمل. «لقد عشنا هذا
 «اصح من قبل في إسبانيا، يا جوردي. أنت لم تكن هناك في العام 36،
 «الحني أقول لك إنه الشيء نفسه. عسى ألا ينتهي الأمر بصورة سيئة
 «اما حدث هناك! كان هذا هو تعليق كارمي الوحيد.

بعد منتصف الليل، عندما بدأت تنقص أعداد الناس في
 «سوارع، التقى آل دالماو فجأة بفيليبه دل سولار، الذي لا يمكن عدم
 «أعرف عليه بسترته التي من شعر الجمل، وبنتاله الجوكي الذي من
 «ملك الغزال وله لون الخردل. تعانقا كصديقين جيّدين. كان فيكتور
 «مُلاً بالمرق ومبحوح الصوت من الصراخ، وفيليبه متأنقًا لا تشوبه
 «نابية، تفوح منه رائحة الخزامى، وبلادبالاته المتألّفة التي رعاها بعناية
 «طوال أكثر من أربعين عامًا. كانت ملابسه من لندن التي يذهب إليها
 «مرتّين في السنة؛ فالبرودة البريطانية تمنحه إحساسًا بالمتعة. وكان
 «بعضه برفقة خوانا نانكوتشيرو التي تعرف عليها آل دالماو فورًا، لأنها
 «كانت هي نفسها في الحال الذي كانت عليه منذ زمن بعيد، عندما كانت
 «أنني بالتزام لزيارة مارسيل.

«لا تقل لي إنك قد صوّت للليندي! هتفت روزر وهي تعانق
 «فيليبه وخوانا.

- كيف يخطر لك مثل هذا الأمر، يا امرأة؟ لقد صوّتت للديمقراطية المسيحية، وإن كنت لا أؤمن بفضائل الديمقراطية ولا بفضائل المسيحية، ولكن لا يمكنني إرضاء ذوق أبي بالتصويت لمرشحه. إني ملكي.

- ملكي؟ بالله عليك، يا رجل! أولم تكن التقدّمي الوحيد بين عصابة عائلتك من سكان الكهوف؟ صاح فيكتور مرخا.

- خطيئة الشباب. فملك أو ملكة هو ما نحتاج إليه في تشيلي، مثلما هي الحال في إنكلترا، حيث كل شيء أكثر تحضُّراً من هنا، قال فيليه ساخراً، وهو يعض أنفاساً من غليون مطلقاً يحمله معه دوماً كمسألة أسلوب وتميز.

- ما الذي نفعله في الشارع إذا؟

- نمضي في تشجيع العائلة. لقد صوّتت خوانا لأول مرة. قبل عشرين سنة، كانت النساء يتمتعن بحقّ التصويت، وقد مارست هي حقها الآن بالتصويت لليمين. لم أستطع أن أدخل في رأسها أنّها تنتمي إلى الطبقة العاملة.

- أنا أصوّت مثل أبي، أنّها الصغير فيليه. أمّا حكاية الغوغا، المتمردين، مثلما يقول دون إيسيدرو، فقد رأيناها من قبل.

- متى؟ سألتها روزر.

- فتدخّل فيليه:

- إنّها تشير إلى حكومة بيدرو أغيري ثيردا.

- بفضل هذا الرئيس، نحن موجودون هنا، يا خوانا. هو من أحضر لاجئي السفينة وينجّع إلى تشيلي، هل تتذكّرين؟ سألتها فيكتور.

- لا بد أني في الثمانين تقريبًا، ولكن ذاكرتي لا تخونني، يافتي.

روى لهما فيليه أن أسرته كانت تقيم في شارع مار دل بلاتا،
طر انقضاى شرازم عصاباا الماركسيّة على الحيّ العالي. كانوا
« أولوا إشاعة حملة الرّعب التي خلقوها هم أنفسهم. لقد كان إيسيدرو
ل. مولار متأكدًا تمامًا من انتصار المحافظين، وكان قد خطط لإقامة
مملة كبيرة للاحتفال مع أصدقائه وإخوته في الدّين. وكان الطهارة
والدّل لا يزالون في البيت، بانتظار تدخّل إلهي يبدّل وجهة الأحداث،
يصير بإمكانهم تقديم الشمعانيا والأصداف البحريّة. كانت خوانا هي
الوحيدة التي رغبت في رؤية ما يحدث في الشارع، ليس بدافع التعاطف
السياسي، وإنما بدافع الفضول.

وقال فيليه:

- أعلن أبي أنّه سينقل العائلة إلى بوينس آيرس إلى أن يعود
الهدوء لبلاد البراز هذه. ثمّ أضاف: ولكنّ أمي لا تريد التّحرك من هنا.
لا تريد أن يبقى صغيرها البيبي وحيدًا في المقبرة.

- وما أخبار أوفيليا؟ سألته روزر مدركة أنّ فيكتور لن يتجرأ على
ذكر اسمها.

- لقد نجحت من هذيان الانتخابات. فقد عيّنوا ماتياس قائمًا
بالأعمال في الإكوادور، إنّه موظّف في الشّلك الدّبلوماسي، وهكذا
لا يُمكن للحكومة الجديدة أن ترميه في الشارع. وقد استغلّت أوفيليا
الفرصة لتدرس في ورشة الرّشام غواياسامين. إنّه انطباعي فطّيع، يعمل
بطلحات فرشاة كبيرة. العائلة تقول إنّ لوحاتها مرعبة، ولكنني أملك
هكذا منها.

- وماذا عن الأبناء؟

- إنهم يدرسون في الولايات المتحدة. وسوف يجتازون هذه الكارثة أيضًا بعينين عن تشيلي.

- وأنت، هل ستبقى؟

- حتى الآن، أجل سأبقى. أريد أن أرى ما الذي ستؤول إليه هذه التجربة الاشتراكية.

- أتمنى من أعماق قلبي نجاحها، قالت روزر.

فرَّد عليها قلبه:

- أنظري أن قوى اليمين والأميركيين سيسمحون بنجاحها؟
تذكري ما أقوله لك، هذه البلاد ذاهبة إلى الخراب.

جرت مظاهرات الابتهاج بلا تجاوزات أو أعمال عنف، وفي اليوم التالي، عندما هرع المرعويون إلى المصارف لسحب أموالهم وشراء تذاتم سفر والهروب قبل أن يغزو السوفييت البلد، وجدوا عمالًا ينطلقون الشوارع كما في كل يوم سبت عادي، وليس هنالك أي أهوج يحمل هراوة في يده ويهدد الناس المحترمين. لم يكن هناك أي تعجل في نهاية المطاف. وقدروا أن كسب الأصوات هو شيء، والوصول إلى الرئاسة شيء آخر مختلف تمامًا، فما زال هنالك شهران من أجل أن يتخذ الكونغرس القرار الحاسم، ومن أجل لي الوضع لمصلحته. كان التوتر يلمس باليد في الهواء، وخطة سب الطريق أمام ألبيندي قد وضعت موضع التنفيذ قبل أن يتولى المنصب. ففي الأسابيع التالية، دُبرّت مؤامرة يدعمها الأميركيون لاغتيال القائد الأعلى للجيش، وهو عسكري يحترم الدستور، ولا بد من إزاحته جانبًا. كان للجريمة مفعول معاكس لدى الأغلبية الساحقة؛ وبدلاً

١٠٠ دفع العسكريين إلى التمرّد، أدّت إلى غضب عام، وعزّزت تقاليد الشرعية لدى معظم التشيّلين غير المعتادين على مثل هذه الأساليب الشريرة، والمعهودة في بعض جمهوريات الموز، ولكنّ ليس بأيّ حال من تشيلي، حيث الخلافات لا تُحلّ بإطلاق الرصاص، مثلما قالت المصحف. صادف الكونغرس على تنصيب سلفادور ألييندي الذي تحوّل إلى أوّل رئيس ماركسي يُنتخب بصورة ديمقراطية. وهكذا، لم تُقد فكرة الثورة السلمية تبدو أمراً غير معقول.

خلال أسابيع النزاع تلك التي مضت ما بين الانتخابات وانتقال القيادة، لم تتوافر لفيكتور فرصة للعب الشطرنج مع ألييندي، لأنّ تلك الفترة كانت بالتّسبة إلى الرئيس المقبل مرحلة نسيات سياسية، اتّفاقيات واختلافات خلف أبواب مغلقة، مرحلة شدّ ورخي من جانب أحزاب الحكومة من أجل الحصص في الحكم والإزعاجات المتواصلة من جانب المعارضة. وكان ألييندي يتدّ عبر كلّ الوسائل بتدخّل حكومة الولايات المتحدة. كان نيكسون وكنجر قد أقصا على منع انتصار التجربة التشيّلية، لأنّها قد تشتعل كالبارود في بقية أنحاء أميركا اللاتينية وأوروبا. وعندما لم يتمكّن من التّوصّل إلى ذلك عن طريق الرشى والتّهديد، بدأ بمغازلة العسكريين. لم يكن ألييندي يستهين بأعدائه الخارجيين والداخليين، ولكنّ كان لديه إيمان غير عقلانيّ بأنّ الشعب سيدافع عن حكومته. يُقال إنّ كانت لديه «دمية» للتّصريف حيال أيّ وضع وقلبه لمصلحته، ولكنّه خلال السنوات الدراماتيكية الثلاث التالية، سيحتاج إلى مزيد من الشحر وإلى حسن الحظ أكثر من حاجته إلى دمية. تجددت جولات الشطرنج في العام التالي، عندما تمكّن الرئيس من إقرار بعض الرّوتين في حياته المعقّدة.

الفصل العاشر

1970 - 1973

ممي منتصف الليل أنساءل:

ماذا سيحدث لتشيلي؟

ماذا سيحلّ بعمطني المسكين الفاتم؟

بابلو نيرودا

«أرق»، ذكريات إيسلانيغرا

•

•

•

عادته حياة فيكتور وروزر إلى مسارها السابق، وانهمك كل منهما
 في عمله، هو في المستشفى وهي في دروسها وحفلاتها الموسيقية
 ١١ حللتها، بينما كانت البلاد تهتز بعاصفة تغييرات. قبل سنتين من
 الانتخابات، كان طبيب جراح ذهبي اليدين قد زرع قلبًا بشريًا لامرأة في
 الرابعة والعشرين في أحد مستشفيات مدينة بالبارايو. هذه المأثرة
 كانت قد تحققت مرة واحدة من قبل في جنوب أفريقيا، ولكنها كانت
 ٧ تزال تعتبر تحديًا لقوانين الطبيعة. تابع فيكتور دالماو كل تفاصيل
 الحالة، ووضع إشارات يومية على التقويم طوال المئة والثلاثة والثلاثين
 يومًا التي ظلت المريضة خلالها على قيد الحياة. عاد إلى حلم بلانارو،
 ذلك الجندي الذي أنقذه من الموت على رصيف محطة الشمال،
 قبل قليل من انتهاء الحرب الأهلية. تواتر رؤيته كابوس لاثارو حاملًا
 قلبه على طبق، تحول إلى حلم مضيء يظهر فيه الجندي الفتى ماشيًا
 بنافذة مفتوحة في صدره، حيث ينبض قلبه بكامل صحته، وتخرج منه
 إشعاعات ذهبية، مثل رسم قلب يسوع المقدس.

و ذات يوم، ذهب فليبي دل سولار ليجري له فيكتور فحسًا في
 المستشفى، لأنه يشعر بوخزة في الصدر. لقد دفعته سمعة صديقه
 للمغامرة خارج الحي الرافقي والذهاب إلى المنطقة الرمادية، حيث

يكن أناس من طبقة أخرى. «منى ستقيم عيادتك في مكان مناسب»^٢
ولا تخرج لي بهراء أن الرعاية الصحية حق للجميع، وليست امتيازاً
لأقلية ضئيلة. فقد سمعت كثيراً مثل هذا الكلام، كان هذا ما قاله فيليه
على سبيل التحية. لم يكن معتاداً على الحصول على رقم، وانتظار دور
جالسا على مقعد معدني. بعد الانتهاء من فحصه، أخبره فيكتور مبتسماً
أن قلبه سليم، وأن وخزات صدره هي وخزات سوء النية أو المجتمع
وبينما هو يرندي ثيابه، علّق فيليه بأن نصف تشيلي يعاني من سوء النية
والجشع بسبب الوضع السياسي، ولكنه يتوقع أن الثورة الاشتراكية
التي يتبجحون بها سوف تبقى في المحبرة فقط، وأن الشلل سيصيب
الحكومة بسبب ضغائن الأحزاب المؤيدة لها، ومكائد أصحاب السطوة.
فردّ عليه فيكتور:

- إذا فشلت الثورة، يا فيليه، فلن يكون من ذكرتهم هم السبب،
وإنما سيكون السبب هو تأمر الخصوم وتدخل واشنطن.

- أراهنك على أنه لن تحدث أي تغييرات جوهرية!

- أنت مخطئ. فالتغييرات بدأت تُلحظ. منذ أربعين عامًا وألبندي
يتخيل هذا المشروع السياسي، وقد أطلقه ليندفع بأقصى قوة.

فقال فيليه: - وضع الخطط شيء، وممارسة الحكم شيء آخر.
سوف ترى كيف ستحدث فوضى سياسية واجتماعية في البلاد، وكيف
سيمضي الاقتصاد إلى الإفلاس. هؤلاء الناس يفنقرون إلى الخبرة
والإعداد، يمضون وقتهم في مناقشات لا تنتهي، ولا يتوصلون إلى
التوافق على أي شيء.

فردّ عليه فيكتور غاضباً:

أما المعارضة بالمقابل، فلها هدف واحد فقط، ألاّيس كذلك؟
نظام الحكومة مهما كان الشمن. قد تتوصل المعارضة إلى ذلك، فهي
الـ موارد هائلة، وقليل جدًا من الخرج والشعور بالإثم؟

كان أُليندي قد أعلن في حملته الانتخابية عن الإجراءات
التي سيخضع لها: تأميم صناعة النحاس، وتحويل كثير من المؤسسات
المصارف إلى يد الدولة، وتأميم الأراضي. تأثير ذلك الإعلان هز
الملا، فقد أدت الإصلاحات إلى نتائج جيدة خلال الشهور الأولى،
الكنز انفلات إصدار أوراق النقد بلا ضابط أدى إلى انفلات التضخم
... عقاله، إلى حدّ لم يقدّر هنالك من يعرف كم سيكون الفارق في
مر الخبز اليوم بالمقارنة مع ما كان عليه أمس. ومثلما كان فيليب د
ولار قد تنبأ، بدأ الشجار بين أحزاب الحكومة نفسها، والمؤسسات
التي استولى عليها العمال كانت تدار بطريقة سيئة، وكان الإنتاج يتردى
شدة، والتخريب الذكي الذي تقوم به المعارضة يؤدي إلى عدم وصول
المعون. وضمن أسرة آل دالمار، كانت كارمي هي أشد المتضررين.

الخروج من أجل المشتريات صار نكبة، يا فيكتور، لا أعرف أبدًا
ماذا سأجد في السوق. أنا غير محبة للمطبخ. فمن يطبخ هو جوردي،
ولكنه كما تعرف قد تحول إلى عجوز وعديد وبكاء، لا يخرج إلى الشارع.
أنا من أقف في الدور من أجل شراء فؤوج مصاب بسوء التغذية وبالسعر
الرسمي. إنني مضطرة إلى ترك جوردي وحيدًا في البيت لساعات
طويلة، فيصيبه الرعب أثناء غيابي. تأتي إحدانا من أقصى العالم لتعود
مرة أخرى إلى الوقوف في الرتل من أجل شراء السجائر!

أنت تدخنين كثيرًا، يا أمّاه. لا تضيعي وقتك في هذا الأمر.

- أنا لا أضيع الوقت، إنني أدفع للمحترفين.

- ومن هم المحترفون؟

- يبدو واضحاً أنك تشتري من السوق السوداء، يا بني. المحترفون هم شبان عاطلون عن العمل أو مشئون متقاعدون، يحفظون لك مكاناً في الرتل مقابل مبلغ زهيد.

- لقد شرح ألييندي أسباب غياب السلع. وأفترض أنك رأيت في التلفزيون.

- وسمعت من المذيع مئة مرة إنه يقول إن الشعب يملك وسائل الشراء لأول مرة، ولكن رجال الأعمال يمنعون ذلك، لأنهم يفضلون الإفلاس لمجرد زرع عدم الرضا والتذمر. بلا، بلا، مجرد كلام.. هل تتذكر إسبانيا؟

- أجل، يا أماء، أتذكر جيداً. لدي بعض العلاقات، وسوف أرى إن كان بإمكانني الحصول على بعض الأشياء.

- مثل ماذا؟

- لفافات ورق صحف مثلاً. هنالك مريض يأتي أحياناً بضيع لفافات كهديّة.

- جيداً! إنَّها تساوي وزنها ذهباً، يا فكتور.

- هذا ما قبل لي.

- اسمع، يا بني، هل لديك اتصالات للحصول على حليب مكثف وزيت؟ يمكنني أن أبيع مؤخرتي بورق جرائد. ولكن احصل لي على سجاتر.

لم تختب المواد الغذائية فقط، بل اختفت أيضًا: قطع غيار الآلات،
 الطائرات، السيارات، وإسمنت البناء، وحفاصات الأطفال، وحليب قناني
 الصبغة، ومواد أساسية أخرى؛ وبالمقابل، كان هناك فائض من صلصة
 الصويا، والكبداء وطلاء الأظافر. عندما بدأ تقنين البنزين، امتلأت البلاد
 راجين غير بارعين بمزورين بين المشاة. ولكن الشعب واحل الشعور
 الشوة. فهو يشعر أخيرًا بأنه ممثل في الحكومة، وأن الجميع متساوون،
 فهو هنا، ورفيق هناك، ورئيس رفيق. ندرة المواد والتقنين والإحساس
 الدائم بعدم الاستقرار لم يكن جديدًا على من اعتادوا العيش دومًا على
 حاجاتهم الضرورية أو على من كانوا فقراء. كانت تُسمع في كل مكان
 أصوات فيكتور خارا الثورية، والتي كان بحفظها مارمبل عن ظهر قلب،
 على الرُغم من أنه أقل أفراد أسرة دالماو اهتمامًا بالباشة. امتلأت
 الجدران باللوحات والجداريات والأقياش، وكانت تُقدّم في الساحات
 عروض مسرحية، وتُنشر كتب نباع بمر قطعة مثلجات، كي يكون في
 كل بيت مكتبته الخاصة.

احتفظ العسكريون بالصمت في ثكناتهم، وإذا كان هنالك
 منهم من يتأمر، لم يكن يخرج أي شيء إلى النور. وظلّت الكنيسة
 الكاثوليكية رسميًا على هامش المواجهة الباشية؛ فقد كان هنالك
 كهنة جذيرون بمحاكم التفتيش، يحثون على السخط والضغينة من
 فوق منابرهم، كما كان هنالك كهنة وراهبات يتعاطفون مع الحكومة، ليس
 إيديولوجيًا، وإنما لأنها تقدّم الخدمات لأشدّ المحتاجين للمساعدة.
 صحافة اليمين تدعو في عناوينها الرئيسية: «أيها التشياليون، راكموا
 الحقول والبرجوازية المذمومة والحانقة ترشق العسكريين بحبوب الذرة،
 وتدعوهم إلى التمرد.» «أيها الدجاج، أيها المختنون، امتشقوا السلاح»

- يمكن أن يحدث هنا ما حدث لنا في إسبانيا، كانت كارمي را
هذه المعزوفة دوماً. فيحاول فيكتور طمأنتها:

- أثليندي يقول إنه لن نفع هنا أي حرب بين الأخوة، لأن الحركة،
والشعب سيمنعان حدوث ذلك.

- رفيقك هذا يخطئ التقدير. نشبلي متخمة إلى أفرقاء لا بُدَّ
المصالحة بينهم، يا بني. الأصدقاء يتشاجرون، هنالك عائلات انقسمت إلى
نصفين، ما عاد بالإمكان التحدث مع أحد إلا إذا كان يحمل الرأي نفسه. أنا
نفس لم أَعُدْ ألتقي بعض صديقاتي القديمت، كيلا أشاجر معهن.
- لا نبالغي، يا أمّاه.

ولكنه هو أيضاً كان يشعر بالعنف يطفو في الهواء. ففي إحدى
الليالي، كان مارسيل عائداً على الدراجة من حفلة غنائية ليفكتور خارا،
وتوقّف لرؤية جماعة من الشباب يرسمون جدارية حمائم وبنادق وهم
يتسلّفون سلّمين. وفجأة، ظهرت من العدم سيّارتان، ترجّل منهما عدّة
رجال مسلّحين بحدائد وعصي، وخلال دقيقتين تقريباً خلّفوا القناب
مطروحين أرضاً. وقبل أن يتمكن مارسيل من الاتيان بأي ردّ فعل،
صعدوا إلى السيّارتين اللّتين تنتظران من دون إطفاء محرّكيهما، وانحنوا
بأقصى سرعة. وصلت دورية شرطة بعد دقائق قليلة، وكانت قد تلقّت
إخباراً من أحد الجيران، وحملت سيّارة إسعاف الجرحى الذين كانوا
في أسوأ حال. اقتاد رجال الدرك مارسيل إلى مخفرهم، ليقدّم أقواله
كشاهد على الواقعة. وإلى هناك، ذهب فيكتور لإخراجه في الساعة
الثالثة فجراً، لأنّه كان في حالة من الوهن الشديد، وغير قادر على العودة
إلى البيت معتظياً الدراجة.

ظهرت حركة يسارية تدعو إلى الكفاح المسلح، بعد اليأس من
 ما أن تنتصر الثورة بالحسنى. وبصورة متزامنة، ظهرت حركة أخرى
 لا تؤمن كذلك بالاتفاقيات المتحضرة. «إذا كانت المسألة قتالاً،
 فاعمل إذًا»، هذا ما كان يقوله هؤلاء وأولئك. ومن أجل الهروب بضع
 أمات من محبة المحلّ جوردي، كانت كارمي تحضر مظاهرات حاشدة
 الشوارع بصرخات التأييد للحكومة، وتشارك كذلك في المظاهرات
 الأخرى، الحاشدة أيضًا، التي تُسيّرها المعارضة. كانت تذهب بحذاء
 اسني، ومعها ليمونة ومنديل مضغّ بالخَلّ من أجل القنابل المُسيّلة
 المزعج، وقد اعتادت أن ترجع إلى البيت مبلة جدًا باندفاع ماء الضغط
 الذي تحاول به الشرطة فرض النظام. فكانت تقول: «كل شيء مختلط
 .. سطرِب. يمكن لأي شرارة هنا أن تكون كافية لتفجير هذا البلد كله».

لم يؤمنوا بإقطاعية إيسيدرو دل سولار، ولكنّ الفلاحين استولوا
 عليها بمبادرة خاصة منهم. فاعتبرها ضائعة مؤقتًا، لأنّ اللياقة والأخلاق
 مستعادان بأسرع ما يمكن تصوّره، مثلما كان يقول ساخطّا؛ وركز
 اهتمامه على إنقاذ تجارته في تصدير الصوف قبل أن تأكل الجموع
 مواشيه. تعاقد مع بعض مصرفيي الجنوب، ممن يعرفون دروب سلسلة
 الجبال وسبلها، وأرسل أغنامه إلى بتاغونيا الأرجنتينية، مثلما أرسل
 غيره أبقارهم. ونقل أسرته أيضًا إلى بوينس آيرس، مثلما كان قد أعلن.
 ذهبوا في حشد، بمن في ذلك ابنتاه المتزوجتان وزوجاهما والأحفاد مع
 مربياتهم، وظلّت خوانا نانكوتشي في شارع هار دي بلاتا للعناية بالبيت.
 أمّا لورا، فحملوها بالقوّة، شبه غائبة عن الوعي بالمهدّدات والحلوى،
 بعد أن وعدوها بأنّ فليبي سيتولّى أثناء غيابها الحفاظ على وجود أزهار
 يانعة على قبر ليوناردو. وكان فليبي هو من بقي هناك، وواصل العمل

في مكتبه للمحاماة؛ أما المحاميان الآخران، فذهبا لفتح فرع جديد من مونتيفيديو.

في تلك الأثناء، كان فيليبي يُكثر من زيارة آل دالماو في بيتهم بحيّ نونيو القديم، حيث لا يكن أحد من طبقتهم. يتهاوى جالساً وهو يحمل زجاجتي نبيذ، وبه رغبة لتبادل الحديث. لم يُعد يجد نفسه على ما يرام مع أصدقائه المعهودين، كما أنه لم يكن يتوافق مع معارفه اليساريين القليلين، لأنهم يرتابون بأساليبه المتراخية المستسغنة عن الإنكليز، وبغموض موقفه السياسي. وكان نادي الغاضبين قد نشأت منذ زمن طويل. وانكبّ فيليبي على اقتناء أعمال فنية بأسعار زهيدة لا تُصدّق من العائلات التي بدأت تغادر البلاد، وسرعان ما لم يُعد هنالك في بيته متسع للحركة. بدأ البحث عن بيت آخر أكبر، مستغلاً أن أسعار البيوت صارت شبه مجانية. صار يسخر من نفسه، حين يرى كيف كان ينتقد في شبابه الاتساع المفرط لبيت أبويه. سألته روزر ما الذي سيفعله بكلّ تلك الأشياء والأمتعة إذا ما قرّر الرحيل إلى الخارج، مثلما اعتاد القول، فردّ عليها أنه سيحفظها في مستودع إلى أن يعود ثانية، لأنّ تشيلي ليست روسيا ولا كوبا، وأنّ الثورة الشهيرة على الطريقة التشيلية لن تستمر إلا لوقتٍ قصير جداً. وكان يبدو واثقاً من كلامه إلى حدّ أن فيكتور صار يرتاب بأنّ صديقه مطلع على أسرار مؤامرة تُدبر في الخفاء. لهذا، وعلى سبيل الاحتياط، لم يكن يُخبره شيئاً عن جولاته في لعب الشطرنج مع الرئيس ألييندي. عندما كان فيليبي يشرب الويسكي إضافة إلى نبيذ العشاء، ينفلت لسانه، ويثرثر مطلقاً اللعنات على الحياة والعالم. لم يبق لديه إلا القليل من مثالية شبابه وسخائه، لقد تحوّل إلى كلبّي. يوافق على أن الاشتراكية هي النظام الأكثر عدالة، ولكنها في الممارسة

١٠. له نفوذ إلى دولة بوليسية أو إلى دكتاتورية، مثلما يحدث في كوبا،
 ١١. من كان ضد النظام يهرب إلى ميامي، أو ينتهي سجيناً! وبسبب
 ١٢. عنه الأرستقراطية، كان يشمئز من فوضى المساراة، والكليشيات
 ١٣. الوردية، والشعارات الدغمائية، وابتذال الأساليب، واللحن الكثيفة،
 ١٤. واهدام الأسلوب الجرجري - أثاث من أغصان محروقة وبُسط من ألياف
 ١٥. الموت، وكذلك صنادل وعباءات، وصنع عقود من بذور نباتية، وتنانير
 ١٦. الكروشيه.. وباختصار، كارثة معمرة. وكان يتعلّل: «لست أفهم لماذا
 ١٧. يجب ارتداء ملابس متقوّلة؟». ولماذا الحديث عن هذا الذي يسمونه
 ١٨. ثقافة شعبية، مع أنّه يخلو من أيّ ثقافة؟ إنّهُ هؤل الواقعة السوفييتية على
 ١٩. الطريقة التشيلية، جداريات عمّال المناجم بقبضات مرفوعة وصور تشي
 ٢٠. هارا، وأصوات مغنيين واعظين بموسيقاهم الرّثية. «حتى موسيقى
 ٢١. رونروكا المايوتشييين وموسيقى كيما الكيتشوا صارت موضة رائجة!»،
 ٢٢. ولكنّه بين صداقاته المعهودة اليبية، كان يتبنّى خطاباً ساحقاً أيضاً
 ٢٣. ضدّ السادة المتحرّجين والمتأمّرين، العالقين في الماضي، من أصابعهم
 ٢٤. المعى ويصوّنون أذانهم حيال مطالب الشعب، ولا مانع لديهم من الدّفاع
 ٢٥. من امتيازاتهم على حساب الديمقراطية والبلاد. إنّهم خونة. لم يكن
 ٢٦. هناك من يتحمّله، وجرى عزله واستبعاده. كانت تثقل عليه وحدته
 ٢٧. كعازب متقدّم في السنّ، وتضاعف نوعكاته.

أمّا فيكتور الذي احتفى بالتّحسينات المستجدة في الصّحة
 العامة، ابتداء من كأس الحليب اليوميّ لكلّ طفل لتخفيف سوء التغذية،
 وحتى بناء المستشفيات، وجد نفسه أمام نقص في المضادات الحيويّة،
 ووسائل التّخدير، والإبر والحقن الطّبيّة، والأدوية الأساسية، والأيدي
 القادرة على رعاية المرضى، لأنّ عدّة أطباء غادروا تشيلي لمناهضة

الطغيان السوفيتي المخيف الذي تحدث عنه دعاية المعارضة. ولأن نقابة الأطباء أعلنت الإضراب، وامتنل للقرار الجزء الأكبر من زملائه. وأصل هو العمل بدوام مضاعف. كان ينام واقفاً ومتعباً حتى الزوح، بإحساس أنه عاش حالة مماثلة خلال الحرب الأهلية الإسبانية. بعض النقابات المهنية وجمعيات أرباب العمل وأصحاب المصانع والمؤسسات شاركوا في التوقف عن العمل أيضاً. وعندما رفض سائقو الشاحنات العمل، صار البلد المنطاول بلا حركة نقل؛ فكانت الأسماك تتعفن في الشمال، والخضار والفاكهة في الجنوب، بينما يطبو في سنثياغو القليل ممّا هو أساسي. كان ألييندي يندّد بأعلى صوت بالتدخل الأميركي الذي يمول سائقي الشاحنات ومظاهرات اليمين انضم الطلاب كذلك إلى القوضى، متخندقين في قاعات الجامعة. وعندما سدوا مدخل الكلية بأكياس الرمل، صارت روزر تتواعد مع طلابها للقاء في الحديقة الخافية، وتعلمي عليهم الدروس النظرية في الهواء الطلق، مع مظاهرات إذا تطلب الأمر؛ وكانت تجري تفقداً للحضور، وتعطي علامات وملاحظات كالعادة، معربة عن أسفها، لأنها لا تستطيع جرّ جهاز بيانو كبير إلى هناك. اعتاد الناس على تواجد رجال الدرك بملابس الميدان، وعلى لافتات وإعلانات الاحتجاج، وعلى الأقيشات المتأججة، وتهديدات الصحافة وتحذيراتها الكارثية، والصراخ المتبادل من جانب إلى جانب، الجميع ضد الجميع. ومع ذلك، من أجل التأميم الكامل للمناجم والتعدين، كان هنالك إجماع كامل.

- لقد حان الوقت، علّق على الأمر مارسيل مع جدته. النحاس هو دعامة تشيلي، وهو ما يدعم الاقتصاد.

- إذا كان النحاس تشيليًا، فلا أدري لماذا يجب تأميمه!

- لأنه كان على الدوام في أيدي شركات أميركية، يا جذني.
أما انتزعتة الحكومة، واعتبرت أن التمريض قد دُفع للشركات، وهي
سنة للبلاد بألاف ملايين الدولارات بسبب الأرباح الهائلة، والشهرة
الصربي.

فعلقت كارمي:

- لن يروق هذا للأميركيتين. تذكر ما أقوله، يا مارسيل، ستقع الواقعة.
عندما يذهب الأمير كيون من المناجم سوف يحتاجون هنا إلى
مريد من المهندسين والجيولوجيين التشيليين. وسوف أصبح مطلوباً
بالبحر للعمل، يا جذني.

- يسعدني ذلك. هل سيدفعون لك أكثر؟

- لا أدري. لماذا تسألين؟

- كي تتزوج، يا مارسيل. نحن في هذه الأسرة أربعة بالأمسين؛ وإذا
أنت لم تتعجل، فلن أتمكن من رؤية أحفاد ابني. صار عمرك واحداً
وثلاثين عاماً، وقد حان الوقت ليستقر رأسك.
- إنه مستقر.

- لا أرى وجود امرأة في حياتك، وهذا ليس طبعياً. ألم تجرب
الحب قط؟ أم أنك ستكون واحداً من هؤلاء...؟ حسن، أنت تعرف ما
الذي أعنيه.

- ولماذا أنت غير متأكدة أيتها الجدة؟

- هذا يحدث لك بسبب تعلقك بالدراجة. فهي تسحق الخصيتين،
وتسبب العجز والعقم.

- أبوه.

- لقد قرأت هذا في مجلة في صالون قص الشعر. وأنت لست
سيتن المظهر، يا مارسيل. إذا ما خلقت هذه اللحية، وقصصت شعرا!
الطويل، فسوف تبدو مثل دومينغين.

- مثل من؟

- دومينغين، مصارع الثيران، أجل. كما أنك لست أبه. عليك أن
تتشجع. تبدو أشبه براهب.

لم تتوقع كارمي أن تكون إحدى نتائج التأميم إرسال شركة
التحاس لحفبدها في منحة إلى الولايات المتحدة. فقد ترشح في رأسها
أنه إذا سافر، فلن تعود لرويته. سافر مارسيل إلى كولومبيا، إحدى المدن
الرابضة عند سفح سلسلة جبال الروكي، وكانت المدينة قد تأملت
في أزمة حصى الذهب؛ ذهب إلى هناك ليدرس الجيولوجيا. حمل
معه دراجته مفككة، لأنها كانت مصنوعة على مقياسه، وحمل كذلك
أسطواناته لأغنيات فيكتور خارا. وسافر قبل أن تتحول الفوضى إلى
أعمال عنف، ستؤدي إلى تدمير البلاد. «سأكتب إليك»، كان هذا آخر
ما قالته له جدته في المطار.

كان مارسيل قد تعلم الإنكليزية بالعناد الصامت نفسه الذي
يرفض فيه التكلّم بالكتلائية. وخلال أسابيع قليلة، استطاع التأقلم مع
أجواء كولومبيا. وصل في بدايات خريف ذهبي؛ وبعد أسابيع قليلة،
كان منهمكًا في إزاحة الثلج. وانضم إلى بعض الدراجين المنعصبين
الذي يتدربون من أجل اجتياز الولايات المتحدة من شاطئ المحيط
الهادئ حتى شاطئ الأطلسي، كما انضم إلى جماعات أخرى من

أمي الجبال. لم يذهب فيكتور لزيارته أبداً، لأنه وسط الاضطرابات.
 «مظاهرات والإضرابات والاستغراق المفرط في العمل، لم يجد
 أي وقت للقيام بالرحلة، ولكنّ روزر ذهبت لزيارته مرّتين، واستطاعت أن
 - تفتت الأسرة بأن ابنها ربّما يكون قد قال كلمات بالإنكليزية في
 «أمميا أكثر ممّا قاله بالإسبانية طوال حياته. وقد حلق ذقنه، وصار
 زح شعره مع جديلة قصيرة عند العنق. وقد كانت كارمي على حقّ،
 «هو يبدو شبيهاً بدومينغين. وبعيداً عن تصويت العائلة، وتحرّره من
 «الافات نشيلي وتعضّفاتها، انهزمك في ملاذ الجامعة الثقافية في دراسة
 الطبعة السرّية للأحجار واستكشافها، وأحسّ بالراحة في جسده لأول
 - مرة. فهو هناك ليس ابن المهاجرين، ولم يسمع أحد هناك أيّ شيء عن
 حرب الأهلية الإسبانية، وقلة هم من يستطيعون تحديد موقع نشيلي
 «على الخريطة، وأقلّ منهم من يعرفون أين تقع كتالونيا. في هذا الواقع
 «المربّب، وبلغة أخرى، عقد صداقات. وبعد بضعة أشهر، كان يمشي
 «من شقّة صغيرة مع حبه الأول، وهي شابة من جاميكا تدرس الأدب،
 «يكتب للصحف. في زيارتها الثانية، تعرّفت روزر عليها! وعند عودتها
 «إلى نشيلي، علّقت بالقول: فضلاً عن أنّها جميلة، هي فتاة مريحة وثرثرة،
 «بارعة في الحديث، على خلاف ما هو عليه مارسيل. «اطمئني، يا دونيا
 «كارمي، لقد بدأ حفيدك بالتقطّط. الفتاة الجاميكية تُعلّمه الرقص على
 «إيقاعات بلادها الكاريبية. وإذا ما رأيته يزلّو كإفريقي على إيقاعات
 «الطبول والماراكانا، فلن تصدّقي أنّه هو نفسه».

ومثلما كانت نخشى، لم تُعدّ كارمي لمعانقة حفيدها، ولم تتوصّل
 «إلى التّعرّف على الفتاة الجاميكية، ولا على أخريات صرّن صديقات
 «نه، ولا على أبناء الأحفاد الذي وسّعوا سلالة آل دالماو، فقد طلع عليها

الصباح مئة في اليوم نفسه الذي أكملت السادسة والثمانين من عمرها، بعد أن كانوا قد نصبوا الخيمة، ووضعوا المناضد للاحتفاء في الغناء. كانت قد نامت في الليلة السابقة وهي تسعل وتدخن، كمادنها دوماً، ولكنها كانت بصحة جيدة، وتسبق الاحتفال بعيد ميلادها اسنيقظ جوردي مولنيه مع بزوغ ضوء النهار المنسرب من بين ستائر النافذة، وظل يتقلب في الفراش بانتظار أن تعلن رائحة الخبز المحمص عن موعد النهوض لتناول الفطور. احتاج لعدة دقائق كي ينتبه إلى أن كارمي كانت إلى جانبه، بلا حراك وباردة كالرخام. أمسك يدها وظل ساكناً، يبكي من دون أن يتحرك، ويفكر في خيانتها الرهيبة بذهابها قبل وتركه وحيداً!

اكتشفت روزر موت كارمي في قرابة الساعة الواحدة بعد الظهر، عندما جاءت حاملة قالب الحلوى، والسيارة ممتلئة ببالونات من أجل ترتيب الموائد قبل مجيء الطاهي ومساعدته. استغربت الصمت والعتمة، التوافذ المغلقة والهواء الراكد. نادى حمايتها وجوردي من الصالة قبل البحث عنهما في المطبخ، والمغامرة بالدخول إلى حجرة نومهما. فيما بعد، عندما تمكنت من الخروج من المفاجأة، ومن الإتيان برد فعل، تناولت الهاتف وأصلت برفم فيكتور في المستشفى، ثم اتصلت بعد ذلك بعارسيل في الفندق بيونس أيرس، حيث كان بالصدفة في رحلة مع فريق من الطلاب، لتخبرهما بأن الجدة قد ماتت، وأن جوردي قد اختفى.

كانت كارمي قد قالت في أكثر من مناسبة أنها، إذا ماتت في تشيلي، تريد أن تُنقل وتُدفن في إسبانيا، حيث ترقد رُفات كل من زوجها وابنها وليام؛ وإذا ما ماتت في إسبانيا، فإنها تريد أن تُدفن في تشيلي،

هي تكون قريبة من بقية أفراد أسرتها. لماذا؟ من أجل الإزعاج، تضيق
 ساحكة. ولكنه لم يكن مزاحاً وحسب، بل هو غم الحب الإلهي، حب
 الانفصال، العيش والموت بعيداً عن ذويها. استطاع مارسيل الطيران
 في اليوم التالي إلى ستنياغو. سهروا على جثمان الجدة في البيت،
 حيث عاشت تسعة عشر عاماً مع جوردي موليني. لم تكن هناك طقوس
 دينية، لأنّ آخر مرّة وطأت فيها قدما الميّنة كنيسة كانت، وهي بنت
 صغيرة، قبل أن تقع في حبّ مارسيل لويس دالماو، ولكنّ كاهنين من
 جمعية ماريكنول التبشيرية، يعيشان على مقربة من المكان، حضرا
 من دون أن يستدعيهما أحد. لقد كانا يقدّمان لكارمي سجائر تُرسل
 إليهما من نيويورك، مقابل جاصون جبليّ وجين ماتشيفو يحصل عليه
 موردي بأصليب غير شرعية. ارتجل الكاهنان قداساً جنازياً، كان
 سابقاً إعجاب كارمي، مع عزف جيتار وغناء، حيث كان الشخص
 الوحيد الذي لم يجد عزاء هو حفيدها مارسيل، لأنّ علاقة تواطؤ كانت
 تربطه بالجدة. تناول كأسين من خمر البيسكو، وجلس يبكي على
 ما لم يستطع أن يقوله لها، وعلى الحنان الضائع الذي يشعر بالحنج
 من إظهاره، ولأنّ رفض الشكّل معها بالكتلاينة، ولأنّ سخر من طبعها
 بالغ السوء، ولأنّ لم يرّد على رسالة واحدة من رسائلها. لقد كان أقرب
 الجميع إلى قلب تلك الجدة الوقحة وكثيرة الأوامر، والتي تكتب له
 رسالة يومية منذ ذهابه إلى جامعة كولومبيا، حتّى اليوم السابق لموتها.
 الشيء الوحيد الذي سرافق مارسيل دوماً، وأبناً كان عليه أن يعيش،
 هو علبة حذاء مربوطة بخيط تضمّ الثلاثمئة وتسع وخمسين رسالة من
 الجدة. جلس فيكتور إلى جانب مارسيل، صامتاً وحزيناً، مفكّراً في أنّ
 أسرته الصغيرة قد فقدت العمود الذي كان يسندها. وفي ساعة متأخرة

من تلك الليلة، قالت له روزر في حميمية حُجرتهما. «العمود الذي ملأ بسندنا على الدوام هو أنت، يا فيكتور»، جعلته يرى ذلك. حضر الجبراء. لسهر على الجثمان، وحضر كذلك رفاق قدماء، وبعض زملاء كارمي من المدرسة التي عملت فيها لسنوات، وأصدقاء لها من الأزمنة التي كانت ترافق فيها جوردي في حانة وينيبغ، وعدد من أصدقاء فيكتور وروزر. وفي الساعة الثامنة ليلاً، جاء رجال الدرك، وحاصروا كتلة الأهباء كلها بدرأجات نارية ليفتحوا الطريق لثلاث سيارات فيات زرقاء. في واحدة منها، كان الرئيس آتيا لتقديم العزاء لصديقه في لعب الشطرنج اشترى فيكتور قطعة أرض في المقبرة لدفن أمه، مع مساحة تُسع لفيها أفراد الأسرة، ومن أجل جوردي، وربما من أجل وفاة أبيه، إذا ما استطاع نقله في المستقبل من إسبانيا. عندئذ، عرف أنه ابتداء من تلك اللحظة صار ينتمي بصورة نهائية وحاسمة إلى تشيلي. «الوطن هو المكان الذي يوجد فيه موتانا»، هذا ما اعتادت كارمي على قوله.

في أثناء ذلك، كانت الشرطة تبحث عن جوردي هولبنه. إذ ليس للعجوز أسرة؛ وأصدقاءهم أصدقاء كارمي أنفسهم. لم يره أحد. يعتقدون أنه قد ضل الطريق، لأنه يعاني بعض الشيء من عته الشيخوخة، ولا يمكنه المشي بعيداً. علّق آل دالماو إعلاناً مع صورته على واجهات متاجر الحي، وأبقوا باب البيت مغلقاً من دون إقفال، كي يتمكن من الدخول في حال عودته. تعتقد روزر أنه قد خرج بالبيجاما والنحفين، إذ بدا لها أن ملابسه كلها وأحذيته موجودة في الخزانة، ولكن لا يمكنها أن تكون متأكدة بالكامل. التأكيد جاءها في الصيف، عندما انخفض مستوى الماء في نهر مابوتشو، وعثروا أخيراً على ما تبقى من العجوز عالقاً بين بعض الأجام على حافة النهر. ولم يجدوا عليه من

١٤- إلا بعض مزق من البيجاما. مضى شهر كامل قبل أن يتم التأكد
١٥- لحديد شخصيته من دون أي مجال للشك، وتم تسليمه إلى آل
١٦- الماو كي بدفنوه إلى جانب كارمي.

على الرغم من المشاكل على أكثر من صعيد، كان التضخم يزداد
١٧- عة، والأخبار الكارثية تنشر عبر الصحافة، الحكومة تتنحى بدعم
١٨- مني، وهو ما تأكد في الانتخابات البرلمانية، حيث ارتفعت الأصوات
١٩- المزدلة بطريقة غير متوقعة. عندئذ، تبين بجلاء أن الأزمة الاقتصادية
٢٠- تساعد العداء لم يعودا كافيين للقضاء على الليندي.

- قوى اليمين تسلح، يا دكتور، قال المريض محذراً فيكتور وهو
٢١- ثم إليه لغافة ورق نوالبت. أنا أعرف ذلك، لأن هناك في المصنع
٢٢- أي أعمال فيه مستودعات أغلفت بإحكام مع مغاليق حديدية وأقفال.
٢٣- لا أحد يستطيع الدخول إليها.
٢٤- هذا لا يثبت أي شيء.

- بعض الرفاق يتناوبون على الحراسة في الليل والنهار، تحسباً
٢٥- من أعمال التخريب، أتمرف؟ وهم من رأوا إزال صناديق من بعض
٢٦- الشاحنات. ولأن الشحنة مختلفة عن البضاعة المعهودة، قرروا التحري.
٢٧- إنهم متأكدون من أن الصناديق معتكة بالأسلحة! سيحدث هنا حتم
٢٨- دم، يا دكتور، لأن شبان الحركة الثورية مسلحون أيضاً.

في تلك الليلة، علّق فيكتور حول الموضوع مع الرئيس الليندي.
٢٩- فانا ينهيان دور شطرنج، تركاء من دون استكمال قبل عدة ليال سابقة.
٣٠- البيت الذي استأجرته الحكومة ليقيم فيه الرئيس مُشيد على الطراز
٣١- الإسباني، بنوافذ مقنطرة، وأجر، مع لوحة موزايك تتضمن شعار

الوطني عند المدخل، وشجرتا نخيل طويلتان يمكن رؤيتهما من الشارع. كان الحراس يعرفون فيكتور، ولم يكن هناك من يستفز مجيئه في أوقات متقدمة من الليل. لقد كانا يلعبان الشطرنج في الصاء. حيث توجد على الدوام رقعة لعب جاهزة، بين كتب ولوحات فنية. استمع أليندي إلى فيكتور من دون إحساس بالمفاجأة، فقد كان علم بذلك، ولكن من غير الممكن قانونيًا تفتيش ذلك المصنع ولا مؤسسات أخرى، حيث يحدث الشيء نفسه بكل تأكيد. «لا نفلن، يا فيكتور، فما دام العسكريون موالين للحكومة، لا يمكن الخشب من أي شيء. إنني أتق بالقائد العام، فهو رجل نزيه وشريف». ثم أضاف: بأن أصحاب الصراخ المتطرف اليساري ممن يطالبون بثورة مثل الثورة الكوبية، هؤلاء ذوو الرووس الحامية يلحفون بالضرورة بالحكومة مثل قوى اليمين!

في نهاية ذلك العام، أقيم احتفال تكريم حاشد ليايلو نيرودا هي الملعب الوطني، وهو المكان نفسه الذي سيحول بعد تسعة أشهر إلى مركز للاعتقال والتعذيب. وكان ذلك التكريم هو آخر احتفاء عام بالشاعر الذي تلقى جائزة نوبل قبل أسابيع قليلة من يد العاهل السويدي الهرم. تخلص عن منصبه كسفير في فرنسا، واعتزل كل شيء، ليعتكف في منزله المتخفي الذي بحثه كثيرًا في إسلا نيفرا. كان مريضًا، ولكنه واصل الكتابة على منضدته الصغيرة، بينما البحر الصاحب يتفجر زبدًا قبالة نافذته. وهناك، زاره فيكتور عدة مرات في الأشهر التالية كصديق، ومرتين كطبيب. وجداء بعبادة السكان الأصليين وقبيلة البيريه، بشوشًا ونهًا، مستعدًا لأن يتشاطر مع ضيوفه سكة غراب بحر مضطحة بنبيذ تشيلي، ويبادل الحديث عن الحياة. لم يتعد ذلك الرجل اللعوب

«مازح الذي يتنكر لسلية الأصدقاء، ويكتب أشعارًا غنائية لليوم
 «مبد كانت الدُعوَات تهطل عليه كالْمَطَر، وكذلك الجوازِر، ورسائل
 «لهم من العالم بأسره، ولكن قلبه كان يُثقل عليه. كان يخاف على
 «لهم. وكان يكتب مذكراته، حيث تحتل الحرب الأهلية الإسبانية
 «الأمينة وينبغي عدة صفحات. كان يتأثر وينفعل وهو يتذكر الكثير
 «الأصدقاء الإسبان الذي جرى اغتيالهم، أو اختفت آثارهم. فكان
 «قول: «لا أريد أن أموت قبل فرانكو». أكد له فيكتور أنه سيعيش سنوات
 «البر، لأن مرضه بطيء، وهو تحت السيطرة، ولكنه هو نفسه أيضًا كانت
 «شكوك بأن الكوديو «فرانكو» خالد، فقد مضى عليه ثلاثة وثلاثون
 «إنا وهو متشبث بالسلطة بقبضة حديدية. بالنسبة إلى فيكتور، كانت
 «إربانه عن إسبانيا تصبح غائمة أكثر فأكثر. وفي كل عام، في منتصف
 «1 كانون الأول/ديسمبر، يرفع نخب احتفال بالعام الجديد والعودة
 «المرية إلى بلاده، ولكنه يفعل ذلك وحيدًا كمنقيد، بلا توهم أو رغبة
 «مبغية. كان يحدس أن إسبانيا التي وُلد فيها، إسبانيا التي عرفها وقا تل
 «في سبيلها، لم يُعد لها وجود. ففي تلك السنوات التي تحكمت بها
 «الدلات العسكرية والسرور الكهنوتية، تحولت إسبانيا إلى مكان لا
 «يمكن له أن ينتمي إليه.

هو أيضًا، مثل نيرودا، كان خائفًا على تشيلي. الإشاعات عن
 «انقلاب عسكري محتمل كانت متداولة منذ سنتين، وقد ارتفعت
 «الوتيرة. الرئيس ما زال واثقًا بالقوات المسلحة، مع أنه يعرف أنها
 «منسمة على نفسها. مع بدايات الربيع، ارتفعت وتيرة عنف المعارضة
 «إلى مستويات لم تُعرف من قبل قط، وتحول الاستياء بين العسكريين
 «إلى تحد. فالقائد العام الذي هُزم بعدم انصياع ضباطه لأوامره، استقال

متخلفًا عن منصبه. وقد أوضح لرئيس الجمهورية أنّ واجبه كجندي،
الانسحاب لتجنيب كسر الانضباط العسكري. لكنّ مبادرته لم
مجدية. فبعد أيام من ذلك، في الساعة الخامسة فجراً، بدأ الانقلاب
العسكري الذي كان يُحشى وقوعه، وتحول إلى واقع خلال ساعات
قليلة، ولم يقد أحد إلى ما كان عليه قبل وقوعه!

خرج فيكتور باكراً متوجّهاً إلى المستشفى، فوجد نفسه أمام
شوارع تغلقها الدبابات، وصفوف من الشاحنات الخضراء تنقل نواب
عسكرية، وطائرات هيلوكبتر تحوم وترنّ على ارتفاع منخفض مثل طير
شوم، وكانت هناك مجموعات جنود بمعدّات حربية ووجوه مطلية مثل
هنود الكوماتشي، يدفعون بأعقاب البنادق المديّنين القليلين الذين
يتجوّلون في تلك الساعة. أدرك على الفور ما الذي يحدث. رجع إلى
بيته اتصل برورز في كاراكاس، وبمارسيل في كولومبيا. كلاهما قال له
إنّه سيأخذ أوّل طائرة متوافرة ليرجع إلى تشيلي، فأقنعهما بأنّه عليهما
الانتظار حتّى تمرّ العاصفة. حاول من دون جدوى أن يتصل بالرئيس
وببعض القادة السياسيين الذين يعرفهم. لم تكن هنالك أيّ أخبار
الفتوات التلفزيونيّة بين أيدي المتمرّدين، وكذلك المحطّات الإذاعيّة،
باستثناء إذاعة واحدة، أكّدت ما كان هو نفسه قد توقّعه. عمليّة إسكات
البلاد التي جرى تنظيمها وإدارتها من سفارة الولايات المتّحدة، تُفكّدت
بدقّة وفعاليّة. الرقابة بدأت على الفور. قرّر فيكتور أنّ مكانه هو في
المستشفى؛ ألقي بعض الملابس الضروريّة وفرشة أسنان في حقيبة
يدويّة، وذهب في سيارته المميّزين القديمة عبر شوارع جانبيّة، مع
مذياع يحمل بالبطاريّة، وبيّن وسط صرير وأزيز تشويش صوت رئيس
الجمهورية يُنذّر بخيانة العسكريين، ويستنكر الانقلاب الغاشي، ويطلب

الأساس الحفاظ على الهدوء في أمكنة عملهم، وألا يتيحوا للمتمردين مراحم وقتلهم، ويؤكد أنه سيقبى في موقفه يدافع عن الحكومة، «إنني في معبر تاريخي، سأدفع حياتي وقاء للشعب». حالت ١٠٠ دون تمكنه من مواصلة التقدّم، فتوقّف في لحظة كانت تمرّ «بمناورات المطاردة مزمجرة؛ وعلى الفور تقريباً، سمع انفجار القنابل الأولى. رأى في البعيد دخاناً أسود كثيفاً، وعرف، غير مصدّق، أنهم «مدون القصر الرئاسي».

الجنرالات الأربعة الذين شكّلوا المجلس العسكريّ الذي حكم بمصير الوطن، بملابس الميدان، ومتوشّحين بالعلم والشعار ١٠٠، وسط عزف الأناشيد العسكرية، كانوا يطهرون عدّة مرّات كلّ من التلفزيون مع بيانهم ومطالبهم. الوضع كلّ تحت السيطرة. قالوا: «سلفادور ألييندي قد انتحر في القصر الرئاسي المشتعل، فخامرت أنوار الشكوك في أنهم قد قتلوه، مثلما قتلوا آخرين كثيرين عندئذٍ». معاً، أدرك الخطورة الحاسمة لما حدث. لا مجال للتراجع. جرى مسح الوزراء، أعلن الكونغرس في عطلة مفتوحة، وجرى حظر الأحزاب السياسية، وحرّية الصحافة، وأبطل العمل بحقوق المواطن حتّى صدور قرار جديد. وفي الثكنات العسكرية، جرى اعتقال الضباط الذين تردّدوا في الانضمام إلى الانقلاب، وجرى إعدام الكثيرين رمياً بالرصاص، ولكنّ هذا كلّ لم يُعرف إلّا فيما بعد، لأنّ على القوّات المسلّحة أن يعطي الانطباع بأنّها متضامنة في كتلة واحدة، ولا يمكن التّزلّ منها. القائد العامّ السابق هرب إلى الأرجنتين كيلا يغتاله رفاقه في السلاح أمهم، ولكنّهم بعد سنة من ذلك وضعوا له قبيلة في سيّارته، ومات ممزّقاً مع زوجته. ترأس الجنرال أوغوستو بينوشيه المجلس العسكريّ،

وسرعان ما سينحول إلى تجيد للدكتانورية. كان القمع قوريًا وصامدًا وعميقًا. أعلنوا أنه لن يبقى حجر من دون تحريكه، وأنهم سيحرقون الماركسيين من جحورهم أينما اختبأوا، سينظفون البلاد من سرطاني الشيوعية مهما كان الثمن. بينما كان البرجوازيون في الحي العالي يحتفلون أخيرًا بتناول الشعبان التي يحتزنونها منذ ثلاث سنوات تقريبًا. وفي المناطق العشائية، كان الرعب يسيطر على الجميع ثم يرجع فيكتور إلى بيته طوال تسعة أيام. أولًا، لأن هنالك حظر تجول متواصل لاثنتي وسبعين ساعة، ولم يستطع أحد الخروج إلى الشارع، ولأن المستشفى لم يعرف الراحة، كان يصل جرحى بالرصاص، وأسلأ مستودع الجثث بأجساد مجهولة الهوية. كان يأكل ما يمكنه الحصول عليه من كافيتريا المستشفى، وينام للحظات جالسًا على كرسي، ويغسل جزئيًا باستخدام قطعة إسفنج، واستطاع استبدال ملابسه مرة واحدة. وقد احتاج لعدة ساعات من أجل الحصول على مكالمات دولية اتصل بـروز من المستشفى، كي يأمرها بعدم الرجوع معها كان السبب، قبل أن يطلب منها ذلك هو نفسه؛ وطلب منها أن تنقل هذه الرسالة إلى مارسيل. كانوا قد أغلقوا الجامعة، وأخمدوا بالرصاص أي محاولة مقاومة يقوم بها الطلاب. أخبروه أن الدماء تسيل على جدران مدرسة الصحافة وكليات جامعية أخرى. لم يستطع تقديم أي أخبار لروز عن كلبة الموسيقى، ولا عن طلابها. إضراب الأطباء توقف فورًا، وعاد زملاؤه إلى أعمالهم بحماسة سميدة؛ كانت قد بدأت عمليات التطهير بين العاملين الطبيين، وحتى بين المرضى الذين كان رجال الأمن ينزعونهم من أسرهم. عيّنوا عقيدًا لقيادة المستشفى مع جنود مسلحين بمسدسات رشاشة لمراقبة الدخول والخروج، ورصد الممرات والقاعات، وحتى

درب العمليات. اعتقلوا عددًا من الأطباء اليساريين، بينما هرب آخرون،
أو طلبوا اللجوء، ولم يصلوا إلى مواقع عملهم، ولكن فيكتور واصل
العمل بإحساس غير عقلاني بأنه غير معزول للعقاب.

عندما ذهب أخيرًا إلى بيته للاستحمام واستبدال ملابسه،
وجد نفسه في مدينة مجهولة، نظيفة ومظلمة بالأبيض. فخلال تلك
الأيام القليلة، كانت قد اختفت الجداريات الثورية، ولافتات الدعوة
إلى الكراهية، والقمامة، والملتحون والنساء اللواتي يلبسن البناتيل؛
أي في واجهات المتاجر البضائع التي لم يكن الحصول عليها ممكنًا
إلا من الشوق السوداء، ولكن لم يكن هناك سوى قلة من المشتريين،
لأن الأسعار قد ارتفعت. رأى جنودًا ورجال درك مسلحين يقومون
بالحراسة. وكانت هناك دبابات عند تقاطعات الشوارع، وتمز بأقصى
سرعة سيارات مغلقة. تولول كينات أوى. لقد خيم على المدينة نظام
الانضباط الذي يسود الثكنات، وسلام الخوف المصطنع. عند دخوله
إلى بيته، حيا فيكتور جازته لسنوات طويلة، وقد أطلت في تلك اللحظة
من النافذة. فلم تردّ على تحيته، وأغلقت نافذتها بضربة قوية. كان لا
يُد لهذا الحدث من أن يفيد كتيبيه، ولكنّه اكتفى بهزّ كتيبه مفكرًا
أن المرأة المسكينة مضطربة مثله بسبب الأحداث الأخيرة. وجد بيته
مثلما تركه عند خروجه المتسرع في يوم الانقلاب، السرير بلا ترتيب،
ملابسه ملقاة على الأرض، أطباق غير مغسولة، طعام يغطيه طحلب
أخضر في المطبخ. لم يجد الحماسة لترتيب البيت. هوى على ظهره
فرق السرير، ونام أربع عشرة ساعة متواصلة.

في تلك الأيام، مات پابلو نيرودا. لقد كان الانقلاب العسكري
ذروة أسوأ مخاوفه؛ لم يتحمّله، وتفاقمت حالته الصحية على الفور.

وبينما هم ينقلونه في سيّارة إسعاف إلى عيادة طبّيّة في - ١٠١ -
اقتحمت قوّة عسكريّة بيته في إيّلا نيغرا، وبعثت أورافه وداس - ١٠٢ -
مجموعته من القناني والقواقع والحلزونات بحثًا عن أسلحة ورجال -
عصابات. زاره فيكتور في العيادة الطّيّة، حيث قام الحراس به -
وأخذوا بصمات أصابعه، وصوّروه، وأخيرًا منعه الجندي الذي به -
باب الغرفة من الدخول. وقد استغرب موت نيرودا، بسبب ما به -
عن مرضه، ولأنّه كان قد رآه في مظهر جيّد قبل شهر واحد. ولم -
الوحيد الذي خامرته شكوك تلك الظروف: سرعان ما بدأت -
إشاعات عن أنّهم قد سُمّوه. قبل ثلاثة أيّام من إدخاله العيادة الطّيّة،
كان الشاعر قد كتب الصفحات الأخيرة في مُذكراته بخية أمل -
لرؤيته بلاده منقمة على نفسها ومُخضعة، وصديقه سلفادور الذي -
يدفن بطريقة سرّيّة في مكان غير معروف، وبلا أيّ مرافقة سوى أرماء -
«... تلك الشّخصيّة المجيدة الميّنة كانت مخدفة برصاص رشاش -
جنود تشيلي الذين خانوا تشيلي مرّة أخرى»، هذا ما كتبه. وقد -
محققًا، فالعسكريون كانوا قد تعرّدوا من قبلُ ضدّ حكومة شرعيّة، والكثير
سوء الذاكرة الجماعيّة نظّف التاريخ من الخيانات القديمة. لقد كان -
جنازة الشاعر أوّل فعل ازدراء للانقلابيين، ولم تُحظر الجنازة، لأنّ عيون
العالم بأسره كانت تنظر. كان فيكتور يُجري عمليّة جراحيّة لمرضى من
حالة حرجة، فلم يستطع مغادرة المستشفى. لكنّه علم بالتفاصيل -
عدّة أيّام من خلال رجل لقاّات الورق الصّحّي.

- لم يكن هناك أناس كثيرون، يا دكتور. هل تتذكّر المشهود من
الملعب الوطني، عند الاحتفال بتكريم الشاعر؟ حسن، أستطيع القول
إنّنا في المقبرة كنّا نحو مشيٍّ شخص على أبعد تقدير.

كان الخبر قد خرج في الصحافة للتو، بعد فوات الأوان؛ قلة هم
الذين علموا بموت الشاعر، أو بدفنه.

الناس خائفون.

لا بد أن كثيرين من أصدقاء نيرودا ومحبيه كانوا مختبئين أو
مخبيين. أخبرني كيف كانت الجنازة، طلب منه فيكتور.

كنت في المقدمة، وكنت خائفاً جداً، فقد كان هناك جنود
...ملون المندسات الرشاشة على امتداد الطريق إلى المقبرة. كان
منى مغطى بأزهار. وكنا نمضي صامتين، إلى أن صرخ أحدهم فجأة:
«لزمين هابلو نيرودا!» فرد الحشد عليه: «حاضر، الآن وإلى الأبد!»

وماذا فعل الجنود؟

لا شيء. عندئذ، صرخ شخص شجاع: «الرفيق الرئيس!» فرد
الجميع: «حاضر، الآن وإلى الأبد!» كان ذلك مؤثراً، يا دكتور. وصرخ
الحشد أيضاً: الشعب الموحد لن يُهزم أبداً، ولم يفعل الجنود شيئاً،
ولكن كان هناك بعض الأشخاص يلتقطون صوراً لمن يسرون في
المركب، ومن يدري... لماذا يريدون تلك الصور!

كان فيكتور يرتاب بكل شيء؛ فالواقع صار متفككاً، والحياة تمضي
ما بين سهو، وتفريط، وأكاذيب، وعبارات تلطيف، ويتمجيد فظ للوطن
المفضال، وللجنود الشجعان، والتقاليد الأخلاقية. مُحييت كلمة «رفيق»،
لم يُقلْ هناك من يتجرأ على التخطئ بها. وكان يجري همساً تداول أخبار
من معسكرات اعتقال، وإعدامات سريعة، وعن آلاف آلاف المعتقلين،
وعن محتفين وهاربين ومنفيين، وعن مراكز تعذيب حيث يستخدمون
الكلاب لاغتصاب النساء. وكان التساؤل عن أين كان من قبل من

يمارسون هذا التعذيب، وأين كان أولئك الوشاة، الذين لا أراهم. ما
 ظهروا بصورة تلقائية خلال ساعات قليلة، وكانوا جاهرين ومنظمين، ما
 لو أنهم قد تدربوا طوال سنوات. لقد كانت نشيطي الفاشيين العمدة،
 موجودة على الدوام، تحت السطح، وجاهزة للبروز والظهور. إنه انتصار
 اليعنين المتغطرس، وهزيمة الشعب الذي آمن بهذه الثورة. عُلِمَ أن
 إيسيدرو دل سولا قد رجع مع أسرته قبل أيام قليلة من الانقلاب، مثل
 كثيرين آخرين، مستعدًا لاستعادة امتيازاته ومقاليده الاقتصادية، ولكن
 ليس السلطة السياسية التي سبقَها وبتحكم بها الجنرالات، ربما
 يعيدوا فرض النظام على الفوضى التي أشاعتها الماركسيّة في الوطن،
 على حدّ قولهم. لم يتصور أحد كم مستثمر الدكتاتورية، باستثناء
 الجنرالات أنفسهم.

كانت الجارة هي من وشت فيكتور دالماو، المرأة نفسها التي
 طلبت منه قبل ستين أن يستغل صداقته مع الرئيس لضمّ ابنها إلى قوات
 الدرك، وهي نفسها من أجرى لها عملية تركيب صمامتين في قلبها، وهي
 نفسها من كانت تتبادل السكر والرُّز مع روزر، وهي نفسها من حضرت
 حزينّة السهر على جثمان كارمي. اعتقلوه في المستشفى. كانوا ثلاثة
 رجال لا يرتدون الزي العسكري، لم يُعرفوا بأنفسهم، ذهبوا بحثًا عنه
 وهو في غرفة العمليات، ولكنهم كانوا يتعمّنون بوقار انتظاره إلى أن ينهي
 العملية الجراحية. «عليك أن ترافقنا، يا دكتور، مجرّد إجراء روتيني»، أمره
 بنبرة صارمة. وفي الشارع، دفعوه داخل سيارة سوداء، ووضعوا القيود على
 معصميه، وعصبوا عينيه. اللُكمة الأولى وُجّهت إلى معدته.

لم يعرف فيكتور دالماو أين هو موجود إلّا بعد يومين، عندما
 شعروا بالرضى عن جلسات استجوابه، وأخرجوه جرجرة إلى أحشاء

ذلك المبنى، ونزعوا العصاية عن عينيه، وفكوا قيد معصميه، وتمكن من استنشاق هواء نظيف. احتاج عدة دقائق لضبط نظره على ضوء الظهيرة المبهر، وليستعيد التوازن في وقوفه على قدميه. إنه في الملعب الوطني. «مجنّد قتيّ جداً قدّم إليه بطاينة، وأمسك به من ذراعه بلا عدوانية، واقتاده بخطوات بطيئة نحو الزواق الذي حدّثوه له. وجد صعوبة في المشي، فان حسده كلّهُ يؤلمه بسبب اللكمات والشحنات الكهربائية، وكان يشعر بعطش غريق، ولا يتمكن من تحديد الوقت ولا يتذكّر بالضبط ما الذي حدث له، يمكن أن يكون قد بقي بين أيدي جلّاديه أسبوعاً أو ضع ساعات قليلة. ماذا كانوا يألونه؟ ألبيندي، سطرنيج، الخطة زد. ما الذي تعنيه هذه الخطة زد؟ ليس لديه أية فكرة. كان هناك آخرون في لك الزنازين، وضجيج مراوح هائلة، صرخات مرعبة، إطلاق رصاص. «البنادق، البنادق»، تلعثم فيكتور.

كانوا يجلسون على مدرّجات الملعب الوطني، حيث كان قد أُلْسِر من قبل لمشاهدة مباريات كرة قدم، واحتفالات ثقافية مختلفة، مثل احتفال تكريم بابلو نيرودا! رأى آلاف الشّجناء يحرسهم جنود. وعندما انسحب المجنّد الذي اقتاده إلى هناك، اقترب منه معتقل آخر، النّاديه إلى مقعد، وقَدّم له ماء من ترمس. (اطمئن، يا رفيق، من المؤكّد أنّ الأسوأ قد انقضى.) تركه يشرب إلى أن أفرغ الترمس، ثمّ ساعده بعد ذلك كي يتمدّد، ووضع له البطاينة مطوية تحت رأسه. وأضاف: «استرح، وانتبه إلى أنّ هذا سيستمرّ طويلاً». كان عامل تعدين اعتُقل بعد يومين من الانقلاب، وقد مضت عليه عدة أسابيع في الملعب. عند العروب، عندما خُفّت حدّة الحرّ، وتمكّن فيكتور من الجلوس، أطلّعه الرجل على الزّوئين.

- يجب عدم لفت الانتباه. ابقَ هادئًا وصامتًا، فيمكن لهم أن يقتلوك ضربًا بأعقاب البنادق ^{١٠} أي سبب. إنهم وحوش.

- كلّ هذا الحقد، كلّ هذه القسوة... لست أفهم... تعتم فيك، كان فمه جافًا، الكلمات تتعثّر في حلقه!

- يمكن لنا جميعنا أن نتحوّل إير + وحوش إذا ما أعطونا ب. في. وأوامر، تدخل معتقل كان قد اقترب منهما.

- أنا ٧، يا رفيق، عارضه عامل التعدين. أنا رأيت كيف قام هؤلاء المكربون بتكسير يدي فيكتور خارا، وصرخوا به: «غنى الآن، أها، النذل».

- أهم شيء هو أن يعرف أحد من في الخارج أين أنت، فالآخر. فهكذا، يمكنهم تتبّع أنارك، في حالة اختفائك. كثيرون يختفون، ثم لا يُعرف أي شيء عنهم. هل أنت متزوج؟
- أجل، أكّد فيكتور.

- أعطني هاتف أو عنوان زوجتك. يمكن لابنتي أن تزورها. إنها تقضي الوقت خارج الملعب مع آخرين من أقارب الشجناء، بانتظار الحصول على أخبار.

ولكن فيكتور لم يعطه أية معلومة، لأنّه خشي أن يكون واثقًا وُضع هناك للحصول على معلومات.

إحدى ممرضات مستشفى سان خوان دي ديوس، شهدت اعتقال فيكتور، تدرّت الأمر لتتصل هاتفيا بزوج التي كانت في فنزويلا، وروت لها ما حدث. فور معرفتها ذلك، اتّصلت بزوجها يمارسيل لتطلعه

١٠. الخبير الشيعي، وتأميره بأن يبقى حيث هو، لأن وجوده في الخارج
 ١١. راجع له تقديم المساعدة أكثر من وجوده في تشيلي، أمّا هي فسوف
 ١٢. مم فوزاً. اشترت فذكرة سفر بالطائرة وقيل أن تسافر ذهبت لرؤية
 ١٣. من سانتشيث. «فور معرفتك بما فعلوه بزواجك، سوف ننقذه»، وعدها
 ١٤. بأنها. أعطاهم رسالة توصّلها إلى سفير بلاده في تشيلي، وهو زميل له
 ١٥. في الأمانة التي كان لا يزال دبلوماسياً؛ وفي بيته يستياغو يوجد مئات
 ١٦. المنجّين الذين ينتظرون تصريح مرور للخروج إلى المنفى؛ وقد كانت
 ١٧. هارة فنزويلا إحدى السفارات القليلة التي تحمي الهاربين. وبدأ يصل
 ١٨. كاراكاس مئات التشيليين، وسرعان ما صاروا آلافاً مؤلفة.

حطّت روزر في تشيلي في أواخر شهر تشرين الأول/أكتوبر،
 ١٩. ثم ندر حتى تشرين الثاني/نوفمبر أنّهم قد أخذوا زوجها إلى الملعب
 ٢٠. الوطني. ولكنّ عندما ذهب سفير فنزويلا للسؤال عنه، أكّدوا له أنّه
 ٢١. لم يكن هناك قط. في أثناء ذلك، كانوا ينفلون الشجناء وبورغونهم في
 ٢٢. «مسكرات اعتقال على امتداد البلاد. أمضت روزر شهرًا في البحث،
 ٢٣. حول على أصدقاء، وتصل بهيئات دولية، وتطرق أبواب سلطات
 ٢٤. مختلفة، وتنقّص في الكنائس قوائم من اختفت آثارهم. ولم يكن
 ٢٥. اسمه يظهر في أيّ مكان. لقد تبخّر!

كانوا قد أخذوا فيكتور دالمو مع معتقلين سياسيين آخرين في قافلة
 ٢٦. شاحنات، طوال يوم وليلة من السفر، إلى مخيّم في مناجم ملح البارود
 ٢٧. في الشمال، موقع مهجور منذ عقود، وقد تحوّل مؤخراً إلى مركز اعتقال.
 ٢٨. كانوا أوّل منّي رجل يشغلون تلك المنشآت المرتجلة التي كانت تأوي
 ٢٩. قديمًا عمال ملح البارود، وكانت محاطة بأسلاك شائكة مكهربة مع أبراج
 ٣٠. مراقبة عالية، وعسكريين مسلّحين ببنادق رشاشة، ودبابّة تدور في محيط

الموقع، وبين حين وآخر، تمرّ طائرات للقوّة الجويّة. فائد الموقع هو صامد من الدرك، وأسقف، يتكلّم صارخاً، ويتعرق في زيّه العسكري الصّ جذاً. لقد كان رجلاً كلّّي القدرة وخسيس القلب، قرّر إبقاء السجاء على أحرّ من الجمر بسبب الجرائم المقرّفة، والتي يفكّرون بافترائها بحسب ما أعلنه عبر مكبّر الصوت. ما كادوا ينزلون من الشاحنات حرّ أجبروا على التعرّي، وتركهم تحت شمس الصحراء عدّة ساعات بلا طعام وبلا ماء، بينما هو يمرّ عليهم واحداً فواحداً ليشتهم ويركلهم لقد فرض منذ البدء العقوبة المتعشقة لتحطيم معنويات ضحاياه، وفي يفندي به مرؤوسه. ظلّ فيكتور دالمار أنّه أفضل استعداداً من الشجاء الآخرين على التحمّل بسبب خبرته لشهور عديدة في مخبئ أرجيليه سور - مار، ولكنّ سنوات طويلة مضت على ذلك، وقد كان شاباً آنذاك إنّه الآن على وشك بلوغ السّب، ولكنّه في اللحظة التي جرى اعتقاله فيها، لم يكن يجد الوقت للتفكير في عدد سنوات عمره. هناك في الشمال، في نهارات صحراء ملح البارود المتأشّجة ولياليها الجليديّة، أراد أن يموت من التعب. كان الهروب مستحيلًا، فهو محاط بأنّساعات الصحراء اللامتناهية، آلاف الكيلومترات من الأراضي الجافّة، والرمل، والحجارة والرياح. أحسّ بأنّه عبّوز هرم.

الفصل الحادي عشر

1974 ـ 1982

الآن سأخبرك
أصبي ستكون أرضك،
أنا سوف أغزوها،
لا لأعطيك إياها وحب،
وإنما لأعطيها للجميع،
لشعبي بأسره.

پابلو نيرودا
«الرسالة في الطريق»،
أشعار القبطان

خلال الأحد عشر شهراً التي أمضاها فيكتور دالماو في مخيم الاعتقال، لم يمت من الإنهاك، مثلما كان يتوقع، بل تعززت مبادئه وذهنها. لقد كان نحيلاً على الدوام، ولكنه تقلص هناك، واختزل إلى أنباف وعضلات، ببشرة أحرقها شمس قاسية لا ترحم، والملح والرمل، وتقاطيع وجهه المجرحة كانت أشبه بمنحوتة لجياكوميتي، من مدبد خالص. لم تهزمه النمازين العسكرية العبيثة، تعاربن اللياقة، الجري تحت شمس لا ترحم، ساعات الجمود وعدم الحركة في جليد الثبل، الضرب وعقوبات النأديب وأعمال السخرة الشاقة في مهمات عبثية غير مجدية، كان منكداً، جائعاً. استلم لدوره كأسير، تخلى عن وهم التحكم بشيء من وجوده؛ إنه في قبضة معتقليه، من يتمتعون سلطة مطلقة وبأفلات من العقاب، إنه سيد انفعالاته وحسب. كان يردد لنفسه حكمة جدّه، بالانحناء أمام العاصفة ولكن بلا انكسار. لقد عاش ذلك من قبل، في ظروف أخرى. احتمى من سادية معتقليه وغيابهم بالانفلاق على دكرياته، مع اليقين بأن روزر تمضي منهمكة في البحث عنه، وأنها ستجده ذات يوم، وبصمت. قلما كان يتكلم، حتى إن المعتقلين الآخرين أطلقوا عليه لقب «الأبكم». كان يفكر بمارسيل الذي أمضى الثلاثين عامًا الأولى من حياته صامتاً، لأنه لا يجد رغبة

في الكلام. ولم يكن هو نفسه أيضًا راغبًا في الكلام، لأنه لم يكن هناك ما يقال. كان رفاقه في النكبة يتحشرون وهم يتهايمون. عن سمع الحراس ومتناولهم، بينما هو يفكر بحنين فسيح بروزن، ما عاشه مقًا، ويحبها. ولكي يَبْقِيَ ذهنه نشيطًا، كان يراجع بعض شبه مهووسة أشهر ألعاب الشطرنج في التاريخ، وهي ألعاب يعرفها ظهر قلب ويحفظها في ذاكرته، وقد لعب بعضها مع الرئيس. في المحطات، حلم بنحت قطع شطرنج من أحجار المنطقة المسماة وأن يشارك رجالًا آخرين اللعب، ولكن لم يكن أي شيء من ذلك ممكنًا تحت حراسة السجناء الصارمة. هؤلاء الذين يرتدون العسكري يتحدرون من الطبقة العاملة، عائلاتهم فقيرة، وربما نساء معظمهم مع الثورة الاشتراكية، ولكنهم يضعون الأوامر بالنصياع، أن أفعال المعتقلين السابقة هي إساءات شخصية لهم.

في كل أسبوع، يأخذون رجالًا إلى معسكرات اعتقال أو يعدمونهم، وينسفون أجسادهم بالديناميت في الصحراء، لكنهم بأنون هم أكثر بكثير ممن يغادرون. قدر فيكتور أن هناك أكثر من أربع وخمسة شخص من مناطق مختلفة من البلاد، ومن أعمار ومهن مختلفة، لا يجمع بينهم سوى شرط أنهم ملاحقون. إنهم أعداء الوطن بعضهم، مثله، لم ينتموا إلى أي حزب، ولم يتولوا أية مسؤوليات سياسية. إنهم هناك بسبب وشاية انتقامية، أو خطأ بيروقراطي.

كان الربيع قد بدأ، وكان المعتقلون يخشون مجيء الصيف، إذ يتحول معسكر الاعتقال إلى جحيم خلال ساعات الحر في النهار، عندما شهدت حالة فيكتور دالماو تحولًا مفاجئًا. أصيب قائد المعسكر بنوبة قلبية في الوقت الذي كان يوجه فيه خطبة الصباح الحماسية،

١٠١م سجنائه المصطفين في الغناء، والذين يتحملون ذلك العذاب وهم
 السراويل الداخلية وخُفّة الأقدام. هوى الضابط على ركبتيه، تمكّن من
 إطلاق شهقه، وسقط ممدداً على الأرض قبل أن يتمكن أقرب الجنود
 إليه من إسناده. لم يتحرك أي من السجناء، ولم يصدر منهم أي صوت.
 إن المشهد بالنسبة إلى فيكتور يحدث كما في كاميرا بطيئة، بصمت،
 هي بُعد آخر، كما لو أنّه جزء من كابوس. رأى أن جنديّين يحاولان
 جعل الضابط ينهض، بينما هرع آخرون لاستدعاء العمرّض، ومن دون
 أن يفكر بالنتائج، تقدّم كمنوم بين صفوف الرجال الواقفين بانتظام.
 إن الاهتمام العام موجّهاً نحو المطروح أرضاً. وعندما انتبهوا إليه، أمروه
 أن يتوقّف وأن يتبسط أرضاً، كان قد وصل عندئذٍ إلى مقدّمة الصفوف.
 إنه طيب! صاح أحد السجناء. واصل فيكتور التقدّم مسرعاً، وخلال
 ثوانٍ قليلة وصل إلى حيث القائد المغفى عليه، وجثا على ركبتيه إلى
 جانب من دون أن يمنعه أحد من ذلك. كان الجنود قد تراجعوا خطوة
 إلى الوراء، ليُفسحوا له المجال. تأكد من أنّه لا يتنفس. أوماً مشيراً
 إلى أحد أقرب الحراس إليه، وطلب منه أن يحلّ أوزار الضابط وحزامه،
 بينما انهمك هو في إجراء تنفّس قموي له، والضغط بقوة على صدره
 بكلتا يديه. كان يعرف أنّ هناك في عيادة السجن جهازاً يدويّاً لتنشيط
 بضات القلب، لأنهم يستخدمونه أحياناً لإعادة الحيويّة إلى ضحايا
 التعذيب. بعد دقائق قليلة، جاء العمرّض راكضاً، يتبعه مساعد مع عبوة
 أوكسجين وجهاز تنشيط القلب، وساعد فيكتور في عمليّة تنشيط قلب
 القائد. «اطلب طائرة هليكوبتر! يجب نقله فوراً إلى مستشفى»، طلب
 فيكتور فور تأكّده من أنّ القلب ينبض. حملوا الرجل إلى العيادة، حيث
 أبقاه فيكتور حيّاً، إلى أن جاءت الهليكوبتر، وهي جاهزة على الدوام

في أقصى المعسكر. إنهم على بُعد خمسة وثلاثين كيلومترًا من أقرب مستشفى. أمروا فيكتور بأن يرافق المريض، وقدموا إليه قميصًا، وبنطالًا، وحذاء، جميعها من الملابس العسكرية.

كان مستشفى صغيرًا من مشافي الأقاليم، لكنَّ جيّد التجهيز، وكانت تتوافر له في الأزمنة العادية الوسائل اللازمة لعلاج حالات طارئة كذلك، ولكنَّ لم يكن هناك سوى طبيين اثنين. كلاهما كان يعرف سمعة الدكتور فيكتور دالماو، وقد استقبلاه باحترام. وفي واحد من سخریات تلك الأزمنة، كان رئيس قسم الجراحة وطبيب القلب المختص قد اعتقلا، كما قيل له. لم يجد فيكتور وقتًا لیسألها إلى أين أخذوهما، إذ لم يكن أيّ منهما كما يبدو بين معتقلي معسكره. لقد كانت غرفة العمليات الجراحية مكان عمله طوال عدّة عقود. وعضلة القلب، مثلما كان يقول لطلابه، لا تنضمّن أيّ سرّ غامض؛ والأسرار التي تُنسب إليها ذاتية وغير موضوعية. خلال وقت قصير جدًّا، أعطى التلميحات الضرورية. اغسل، هيأ القائد للعملية، وبادر بمساعدة أحد الأطباء إلى إجراء المداخلة الجراحية التي كان قد أجرى مثلها مئات المرات. تأكّد أنّ ذاكرة بديّه لا تزال سليمة، وأنهما تتحرّكان تلقائيًا.

أمضى فيكتور الليل ساهرًا إلى جانب المريض، مغتبطًا أكثر منّا هو متعب. لم يكن هناك في المستشفى من يحرسه حاملًا السلاح، بل عاملوه بتميّز وتقدير، قدّموا إليه شريحة لحم مع يوريه بطاطا، وكأس نبيذ أحمر ومثلجات للتعلية. وعاد لعدّة ساعات ليكون الدكتور دالماو بدل كونه رفقًا. كان قد نسي كيف كانت الحياة قبل اعتقاله. وعند الضحى، كانت حالة المريض لا تزال خرجة، ولكنها مستقرّة، وصل طبيب قلب من الجيش، جاء في طائرة من ستيباغو. أصدروا الأمر بإعادة الجين

إلى معسكر الاعتقال، ولكن فيكتور استطاع أن يطلب من الطبيب الذي ساعده في العملية الجراحية بأن يتصل برورز. كانت مجازفة، لأن ذلك الرجل كان من قوى اليمين من دون شك! ولكن خلال الساعات التي مضت فيها مساءً بدا واضحاً الاحترام الذي كان متبادلاً. كان فيكتور متأكداً من أن رورز ستكون قد عادت من تشيلي للبحث عنه، لأن هذا ما كان سيفعله هو من أجلها لو كانت هي المعتقلة.

كان قائد معسكر الاعتقال الجديد شديد النزوع إلى القوة مثل سابقه، ولكن لم يكن على فيكتور أن يتحمله سوى خمسة أيام فقط. ففي ذلك الصباح، عندما قاموا بالتفقد، وفصلوا جانباً السجناء الذين سبأخونهم، ذكروا اسمه. كان ذلك هو أسوأ ما في كل يوم بالثبة إلى المعتقلين، إنها إمكانية نقلهم إلى مركز تعذيب، أو إلى معسكر اعتقال أسوأ، أو إلى الموت. بعد انتظار دام ثلاث ساعات من الوقوف، جرى اقتياد الجماعة إلى شاحنة. الحارس الذي يدقق الأسماء في القائمة، توقف عند اسم فيكتور قبل أن يصعد إلى الشاحنة مع الآخرين. «أنت نبقى هنا في الأسفل، أيها النذل». انتظر لساعات أخرى قبل أن يقتادوه إلى المكتب، حيث أخبره قائد المعسكر شخصياً أنه محظوظ، وأعطاه ورقة. لقد مُنح وضع الحرية المشروطة. وقال له: «لو كان الأمر بيدي، لفتح لك الباب كي تذهب ماشياً، أيها الشيوعي ابن العاهرة. ولكن هلي أن أخذك ثانية إلى المستشفى».

كانت رورز وموقف من سفارة فنزويلا ينتظرانه في المستشفى. عانق امرأته بياض تلك الشهور الطويلة من الفراق، حيث كان يفكر بها، وبالحب الذي لم يصحح به قط بصورة واضحة. «آه يا رورز، كم أحبك، وكما اشتقت إليك»، همس وأنفه في شعرها. وكلاهما كان يبكي.

الحرية المشروطة تتطلب الحضور يوميًا إلى مركز للدرك للترقيم في سجل. ويمكن للإجراء أن يتأخر كثيرًا، وهذا يعتمد على الحالة المعنوية للضابط المناوب. ووقع مرتين قبل أن يتخذ القرار بالهجوم عبر سفارة فنزويلا. لقد كان بحاجة لهذين اليوميين كي يفهم أن كونه ممنوعًا سابقًا يحكم عليه بالعزود؛ فلا يمكنه العودة إلى العمل في المستشفى أصدقائه سيتجنبونه، وسيكون عرضة لأن يُعاد اعتقاله في أي لحظة الحذر والخوف اللذان كان يعيشهما يتناقضان مع التفاوض المتحذر والعدواني من جانب مناصري الدكتاتورية. لم يكن يُذكر ما يحدث حقًا في الظلال. ولم يكن هناك من يعترض؛ العثال الذين سُحبوا وهُزموا، فقدوا حقوقهم أيضًا، صار بالإمكان طردهم من العمل في أي لحظة، ويتقبلون شاكرين أي أجور تُقدَّم إليهم، ففي الشارع أرنال من العاطلين عن العمل الذين ينتظرون أن تُقدَّم لهم أية فرصة. إنه فردوس رجال الأعمال. والشُعبة الرسمية للبلد المنظم، النظيف، الهادئ، الذي يمضي على طريق الازدهار. كان يفكر بضحايا التعذيب، بالموتى، بوجوه الرجال الذين عرفهم في السجن والذين اختفت أثارهم. لقد تبدّل الناس، صار يجد صعوبة في التعرف على البلاد التي احتضنت بين أذرعها المتعددة قبل خمسة وثلاثين عامًا، وأحبها كما لو أنها موطنه.

في اليوم التالي، اعترف لروزر أنه لن يستطيع تحمّل الدكتاتورية «لم أستطع ذلك في إسبانيا، ولن أستطيعه هنا أيضًا. لقد تقدّم بي العم على تحمّل العيش في خوف، يا روزر؛ ولكن الخروج إلى منفى آخر أمر لا يُمكن نقله، مثل بقائي في تشيلي ومواجهة النتائج». تذرّعت هي بأن الأمر سيكون مجرد إجراء مؤقت، وبأن النظام العسكري سينتهي سريعًا، لأنّ لدى تشيلي تقاليد ديمقراطية راسخة، كما يقول الجميع. وعندئذ،

سرجعان؛ لكن حجتها كانت تنهار أمام الحقيقة الجلية بأن فرانكو لا يزال في السلطة بعد أكثر من ثلاثين عامًا، وأنه يمكن لبينوشيه أن يحدو حذوه. أمضى فيكتور تلك الليلة ساهرًا يقدّر فكرة المغادرة. استلقى في الظلمة على السرير، حيث كانت روزر تتكؤر على نفسها بجانبه، كان يسمع أصوات صخب الشارع. وفي الساعة الثالثة فجراً، سمع صوت سيارة تتوقّف قبالة بيته. هذا لا يعني سوى أنهم قد رجعوا ليأخذوه؛ معلال، حفر التّجول، لا تحرك إلا السيارات العسكرية وعملاء الأمن. لا يمكن التفكير في الهروب أو الاختباء. بقي ثابتاً بلا حراك، مبتلاً بعرق بارد، مع طبل جنوني يدوي في صدره. أطلقت روزر من بين السنائر، «رأت سيارة ثانية سوداء تتوقّف إلى جانب السيارة الأولى. «البس ليايك سرعة، يا فيكتور» قالت له امرأة. ولكنها رأت عندئذ عدّة رجال يتربّجلون من السيارات بلا تسرع، وبلا تراكض أو صراخ أو أسلحة. ظلّوا يدخّنون للحظات، وينبادلون الحديث باسترخاء، وأخيراً غادروا. تعانق فيكتور وروزر مرتجفين ومتنظرين إلى جانب النافذة إلى أن بدأت بوادر الضياء بالانتشار، وأعلنت الساعة الخامسة صباحاً عن انتهاء حفر التّجول.

تدبّرت روزر الأمر بأن يقوم سفير فنزويلا بأخذ فيكتور في سيارته التي تحمل لوحة دبلوماسية. في تلك الأثناء، كان معظم الملكشين إلى السفارات قد غادروا إلى بلدان قبلت لجوءهم، وكانت إجراءات الأمن أقلّ صرامة. دخل فيكتور إلى السفارة في صندوق السيارة الخلفي. بعد شهر من ذلك، منحوه تصريح مرور، ورافقه موظفان فنزويليان حتّى باب الطائرة بالذات، حيث كانت تنتظره روزر. جاء نظيفاً، حليق الذقن وهادئاً. في الطائرة نفسها، كان يسافر منفياً آخر فكّوا قيود معصميه على المقعد في الطائرة. كان مثخناً، مشعث الشّعر ومرجفاً. بعد قليل من

تحليق الطائرة، أئجه نحوه فيكتور الذي كان قد تأمله. وقد وجد صمورا،
في بده حديث معه، وإقناعه بأنه ليس عميلاً للأمن. انتبه إلى أن الر حار.
بلا أسنانه الأمامية، وأن في يديه عدة أصابع مكسورة.

- كيف يمكنني مساعدتك، يا رفيق؟ أنا طبيب، قال له.

- سوف يعيدون الطائرة. سأخذونني من جديد إلى... وانضم

بالبكاء.

- اهدأ، لقد مصت علينا ساعة في الجو تقريباً، لن نرجع إلى
ستيغوا، أؤكد لك. هذه رحلة بلا توقف حتى كاراكاس، هناك ستكون
في أمان، سوف يقدمون لك العون. سأسعى للحصول لك على جرح
نحمر، إنك بحاجة إليها.

فقال الآخر متوسلاً:

- أفضل شيئاً أكله.

كانت روزر قد أمضت فترات طويلة في فنزوبلا مع فرقة الموسيقى
القديمة، تقدم حفلات كونشيرتو، وكان لها هناك أصدقاء. وصارت
تتحرك بسهولة في مجتمع تختلف أنظمة تعايشه عشا هي عليه في تشيلي.
كان فالتين سانتشيث قد عرفها على من يستحقون عناء التعرف عليهم،
وفتح لها أبواب عالم الثقافة. وكانت غرامياتها مع أيتور إيبازا قد انتهت
منذ عدة سنوات، لكنهما ظلّا صديقين، فكانت تزوره بين حين وآخر
لقد خلّقه المرض شبه مشلول مع شيء من الصعوبة في نطق الكلمات،
ولكنه لم يؤثر على قدراته الذهنية، ولم يضعف من حاسة سمّه على
تحليل صفقات جيدة، يقوم ابنه الأكبر بالإشراف عليها. لديه منزله في
أعالي قمم جبل كورومو، مع إطلالة بانورامية على كاراكاس، حيث يزرع

أرهار الأوركيد، ويجمع عصافير نادرة وسيارات مصنوعة يدويًا. لقد كان للبيت فناء، فسبح مغلق، وحديقة وارفة فيها عدة بيوت، محمية بسور عالٍ وحارس مسلح، حيث يعيش أيضًا اثنان من أبنائه المتزوجين وعدة أحفاد. وبحسب قول أيتور، لم يخامر الشك زوجته أبدًا بشأن العلاقة الطويلة التي أقامها مع روزر، مع أن هذه كانت تشك في أن يكون ذلك صحيحًا، لأنهما لا بد أن يكونا قد خلعا آثارًا وأدلة كثيرة خلال تلك السنوات. وانتهى إلى أن ملكة الجمال قد تقبلت بصورة ضمنية كون زوجها شخصًا نسويًا، مثل رجال كثيرين يرون في ذلك دليلًا على الرجولة، ولكنها لم تول الأمر اهتمامًا؛ لأنها هي الزوجة الشرعية، أم أبنائه، والوحيدة التي تؤخذ في الاعتبار. وبعد أن انهارت قواه بفعل الشلل، صار لها وحدها، وتوصلت إلى أن تحبه أكثر من السابق، لأنها اكتشفت فضائله الهائلة التي لم تستطع تقديرها من قبل، في خضم الأعمال التجارية وسرعة الحياة. وسهرمان معًا بانسجام تام، تحيط بهما أسرتهما. «ها أنت ترين، يا روزر، أنه لا وجود لشر إلا وينتهي خيرًا، مثلما تقول الأمثال. فعلى هذا الكرسي ذي العجلات، صرت زوجًا وأبًا وجداً أفضل مما يمكن أن أكون عليه لو أنني قادر على المشي». وأنا سعيد بهذا، حتى لو لم تصدقيني؛ هذا ما قال لها أيتور في إحدى زياراتها. وكثيرًا تذكر سلام صديقها، لم نشأ أن نخبره كم كانت مهمة بالنسبة إليها ذكرى أمميات القبلات والنبيل الأبيض تلك.

لقد تعاهد كلاهما على عدم البوح أبدًا لزوجيهما بأي شيء عن ذلك الحب الماضي - لماذا جرحهما، ولكن روزر لم تلتزم بوعدها. فخلال اليومين ما بين تحرير فيكتور من معسكر الاعتقال ولجونه إلى السفارة، تبادلوا الحب كما لو أنهما قد تعارفا للتو. كان كشفًا حزينًا.

كلاهما كان في شوق شديد. وعندما التقيا، لم يَرِ كُلُّ منهما الآخر مثلما هو، وإنما مثلما كان، وهما يتصنعان ممارسة الحب في زورق النجاة الم. السفينة وينسج، شابان وكشيان، يجدان العواصاة في تبادل الهمسات والمداعبات العفيفة. أغرمت هي بغريب طويل القامة وصلب اللبنة، بنقاطيع منحوتة في خشب قائم، وبعينين حائيتين، وبراحة ملاير، مكوية للثو، قادر على مفاجأتها وإضحاكها بحماقات، ومنحها المتعة كما لو أنه قد حفظ عن ظهر قلب خريطة جسدها، باحتضانها طوال الليل، بحيث تغفو وتسيقظ على كتفه، ويقول لها ما لم تكن تتوقّع سماعه أبداً، كما لو أن المعاناة قد قوّضت دفاعاته وحولته إلى عاطفي. وأغرم فيكتور بالمرأة التي أحبها من قبل بحب أخ مشبه. لقد كانت امرأته طوال خمسة وثلاثين عاماً، ولكنه للثو، في أيام العودة للقاء هذه، رها مجردة من شحنة الماضي، من دورها كأرملة وليام وأم مارسيل، متحوّلة إلى روبا شابة وطارزة. لقد تكشّفت له روزر، بعد سنوات من تجاوزها الخمسين، كامرأة حسيّة، ممثلة بالحماة، وباحتبائي لا ينقد من الطاقة وبلا خوف. لقد كانت تمتدّ الدكتاتورية مثله، ولكنها لا تخافها أجرى فيكتور حسابات يثبت له أنها لم تُبدِ يوماً ما بشير إلى خوفها من أي شيء، باستثناء الخوف من الطيران في طائرة، ولا حتى في الأيام الأخيرة من الحرب الأهلية. وبالصلابة نفسها التي واجهت بها المنفى آنذاك، خاضت المواجهة الآن بلا تذمّر، ومن دون النظر إلى الوراء، بعينين تنظران إلى المستقبل. من أية مادة غير قابلة للتدمير صُنعت روزر؟ كيف توافر له حسن الطالع الفسيح ذاك بامتلاكها لسنوات طويلة؟ وكيف أمكن له أن يكون فظاً، ولم يحبها منذ البداية مثلما تستحق، مثلما يحبها الآن؟ لم يتغيّر قطّ أنّه يمكن له وهو في هذه السن أن يقع في

١٠. كمرهق، ويشعر بالشهوة كنداء. ينظر إليها بانبهار، بحب. فتحت
 ماها كامرأة ناضجة كانت لا تزال سليمة تلك الطفلة التي كانت
 ١١. رور وهي ترمي المعز في أحد جبال كتالونيا، بريئة ومهيبة. يريد
 بحميتها ويعني بها، مع أنه يعرف أنها أكثر منه قوة في ساعة التوبة.
 ١٢. كلة وأكثر منه بكثير، قاله لها في تلك الأيام القصيرة من اللقاء،
 ١٣. سواصل تردده في الأيام التالية حتى موته. في سهرات الاعترافات
 ١٤. الاستعادة تلك، التي تقاسم فيها العظمة والبؤس والأسرار، حدثه هي
 من أينور إيبازا الذي لم تكن قد ذكرت اسمه قط من قبل. حين سمع
 ١٥. جنور ذلك، أحس برصاصة في قلبه قطعت أنفاسه. لكن واقع أن تلك
 ١٦. محامرة قد انتهت منذ زمن طويل، مثلما أكدت له رور، شكل مواصلة
 ١٧. سليمة. لقد كان يرتاب دوماً بأنها في رحلاتها تلك كانت تلغى بعشيق،
 ١٨. ربما بأكثر من واحد، ولكن التأكيد على حب طويل الأمد وجدّي
 ١٩. لفظ فيه شيئاً من الغيرة بأثر رجعي، وكان يمكن لها أن تقوِّض سعادة
 ٢٠. المحظة لو أنها سمحت بذلك. ولكن رور، بحسبها العقلاني الذي لا
 نك فيه، يئس له أنها لم تنتزع منه أي شيء لتقدمه إلى أينور، وأن حبها
 ٢١. لم ينقص، لأن تلك العلاقة كانت على الدوام في حجرة منفصلة من
 ٢٢. ملها، ولا علاقة لها ببقية حياتها. «في ذلك الزمن، كنا أنا وأنت صديقين
 ٢٣. مغربين، موفقين، وزوجين متواظفين، ولكننا لم نكن عاشقين مثلما
 ٢٤. نحن الآن. لو أنني أخبرتك بالأمر آنذاك، لكنك تبييت لك بقدر أقل
 ٢٥. بكثير من الازعاج، لأننا ما كنا نشعر بالأمر على أنه خيانة. وفي نهاية
 ٢٦. المطاف، أنت نفسك أيضاً كنت غير وفية لي». فوجئ فيكتور، لأن زلّاته
 ٢٧. الخاصة كانت بلا قيمة، يكاد لا يتذكرها، ولم يكن يتخيل أنها تعرف
 ٢٨. أمرها. تقبل حجتها بقليل من القناعة، ولكنه ظلّ يجتزّ مشاعره لبعض

الوقت، إلى أن انتهى إلى إدراك عدم جدوى التورط في الماضي. «
عشناه، عشناه وانتهى،» مثلما اعتادت أمه القول.

استقبلت فنزويلا فيكتور باللامبالاة نفسها التي تحتضن «
آلاف المهاجرين من أمكنة مختلفة من العالم، وآخرهم هؤلاء اللاجئون
الهاريين من دكتاتورية تشيلي، ومن الحرب القذرة في الأرجنتين
والأوروغواي، إضافة إلى الكولومبيين الذين يجتازون الحدود من دون
نصريح هرباً من الفقر. كانت واحدة من آخر الديمقراطيات المنقرضة
في القارة المحكومة بأنظمة شرسة ومجالس عسكرية قاسية، أخذت
بلاد العالم بفضل جريان لا ينتهي من البرول المتدفق من أرضها
والمباركة كذلك بمعادن منجمية أخرى، وطبيعة غنية ووفيرة، وموقع
متميز على الخريطة. كانت الموارد كثيرة، بحيث لم يكن هناك من
مضطر إلى الموت وهو يعمل، فهناك متسع وفرص لمن يريدون الإثراء
والاستقرار. فالجميع يعيشون سعداء، متقبلين من حفلة إلى حفلة،
بحرية كبيرة، وبحس عميق بالساواة. وكان يمكن لأي مسوَّع أن يكون
مناسباً للاحتفال مع موسيقى ورقص وخمر، وتبدو النقود كما لو أنها
تندفق بغزارة، والفساد يكفي الجميع. «لا نتخذهي بالمظاهر، هنالك
كثير من الفقر، لاسيما في الأقاليم. جميع الحكومات تجاهلت الفقراء،
وهذا يولد العنف، وستدفع البلاد عاجلاً أو آجلاً ثمن هذا التهاون»، قال
فالتين ساتشيث مُنَبِّهاً روزر. أمّا فيكتور القادم من تشيلي المتحفظة،
الحذرة، المتكلفة والمضموعة على يد الدكتاتورية، بدت له هذه السعادة
المنفلتة صادمة. ظنَّ أنَّ الناس سطحيون، لا يأخذون شيئاً على محمل
الجد، وأنَّ هناك الكثير من التبذير والتباهي، وأنَّ ذلك كله أني، مؤقَّت
وعابر. كان يشكو أنَّه من المحال عليه أن يتأقلم وهو في هذه السن،

وَأَنْ مَا تَبْقَى لَهُ فِي الْحَيَاةِ لَنْ يُسَمَّحَ لَهُ بِالانْدِمَاجِ فِي ذَلِكَ الْمَجْتَمَعِ وَلَكِنْ رُوِزَرُ كَانَتْ تَفْتَدِ كَلَامَهُ بِالْقَوْلِ إِنَّهُ قَادِرٌ، أَجَلٌ، وَهُوَ فِي السَّنَيْنِ عَلَى مِمَارَسَةِ الْحُبِّ مِثْلَ شَابٍ فَتَى، وَأَنْ التَّأَقُّلَ مَعَ هَذِهِ الْبِلَادِ الرَّائِعَةِ سَيَكُونُ سَهْلًا. «مَسْتَرِخٌ، يَافِيكَتُورُ. فَالْمَعْصِي مُتَبَرِّمًا عَلَى هَذَا النَحْوِ لَنْ يَفِيدَ شَيْئًا. الْأَلَمُ لَا مَفْرَ مِنْهُ، أَمَّا الْمَعَانَاةُ فَاخْتِيَارِيَّةٌ». كَانَتْ شَهْرَتُهُ كَطَبِيبٍ مَعْرُوفَةٍ، لِأَنَّ جِرَّاحِينَ عَدِيدِينَ مَثْنٍ دَرَسُوا فِي تَشْبِيلِي كَانُوا مِنْ تِلَامِيذِهِ؛ لَمْ يَكُنْ مُضْطَرًّا لِأَنَّهُ يَكْسِبُ لِقْمَةَ عَيْشَةٍ بِالْعَمَلِ كَسَائِقِ سَبَّارَةِ أَجْرَةٍ أَوْ بِخِدْمَةِ الْعَاوِلَاتِ فِي مَطْعَمٍ، مِثْلَمَا هِيَ حَالُ الْكَثِيرِ مِنَ الْمِهْنِيِّينَ الْمُنْفِيِّينَ، مَثْنٍ فَعَدُوا مَاضِيَهُمْ بِجُرَّةٍ قَلَمٍ، وَكَانَ عَلَيْهِمُ الْبَدَاءُ مِنَ الصَّفْرِ. اسْتَطَاعَ أَنْ يَعَادِلَ شَهَادَتَهُ، وَسَرَّعَانَ مَا صَارَ يُجْرِي الْعَمَلِيَّاتِ الْجِرَاحِيَّةَ فِي أَقْدَمِ مَسْتَشْفَى بَكَارَاكَاسَ. لَمْ يَكُنْ يَفْقَهُهُ أَيُّ شَيْءٍ، لَكِنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ، لَا مَفْرَ. بَاتَهُ أَجْنَبِيٌّ وَغَرِيبٌ، وَيَعْصِي مُتَابِقًا الْأَخْبَارَ لِيَرَى مَتَى سَيَتِمَكَّنُ مِنَ الْعُودَةِ إِلَى تَشْبِيلِي. أَمَّا رُوِزَرُ، فَكَانَتْ أُمُورُهَا تَعْصِي عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ مَعَ فَرَقَتِهَا الْمَوْسِيقِيَّةِ وَحَفَلَاتِهَا. وَمَارْسِيلُ الَّذِي كَانَ قَدْ أَنْهَى دِرَاسَةَ الدِّكْتُورَاةِ فِي جَامِعَةِ كُولُوصِيَا، وَصَارَ يَعْمَلُ فِي شَرَكَةِ الْبِتْرُولِ الْفَرَنْزَوِيَّةِ. كَانَا سَعِيدَيْنِ، وَلَكِنَّهُمَا كَانَا يَفْكُرَانِ أَيْضًا بِتَشْبِيلِي وَالْأَمَلِ بِالْعُودَةِ إِلَيْهَا.

بَيْنَمَا كَانَ فَيَكْتُورُ يَعْدُ الْأَيَّامَ مِنْ أَجْلِ الْعُودَةِ إِلَى تَشْبِيلِي، مَاتَ فَرَانْكَو فِي 2 نَوْفَمْبَرِ 1975، بَعْدَ احْتِصَارٍ طَوِيلٍ. وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ مِنْهُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ، أَحْسَنُ فَيَكْتُورُ بِنَوَايَةِ الْعُودَةِ إِلَى إِسْبَانِيَا، «لَقَدْ كَانَ الْكُودِيَّوْ خَالِدًا فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ»، كَانَ هَذَا هُوَ التَّعْلِيْقُ الْوَحِيدُ لِمَارْسِيلِ الَّذِي لَا يَشْعُرُ بِأَدْنَى فَضُولٍ نَحْوَ بِلَادِ أَجْدَادِهِ؛ فَهُوَ تَشْبِيلِي الرُّوحُ. لَكِنْ رُوِزَرُ أَكَّدَتْ أَنَّهَا سَتَرَافِقُ فَيَكْتُورَ، لِأَنَّ أَيَّ انْفِصَالٍ بَيْنَهُمَا، مَهْمَا كَانَ قَصِيرًا، سَيَسَبِّبُ لَهُمَا الْغَمَّ. بِدَا ذَلِكَ غَوَايَةَ لِلْقَدَرِ، فَقَدْ يَحْدُثُ أَلَّا يَعُودُوا لِلِاجْتِمَاعِ إِلَى الْأَبَدِ.

القانون العام للكون هو درجة التعادل الحراري، فكل شيء يميل إلى الفوضى، إلى التخطم الذاتي، إلى التبدد. فالتناس يضبطون. انظروا كم هم الذين ضاعوا في الانسحاب، المشاعر تخفت وتصبح باهتة، والنسب ينسل إلى الحيات كغمامة. فالحفاظ على كل شيء في مكانه ينطأ، إرادة بطولية. «إنها نبوءات لاجئين»، تقول روزر معربة عن رأيها؛ فيصيح لها فيكتور: «إنها نبوءات عاشقين». شاهدنا جنازة فرانكو في التلفزيون، الثابوت الذي تحرسه سرية من حملة الرماح على الخيول من مدريد حتى وادي الشهداء، جماهير الناس التي تُكْرَم الكوديو، نساء جانيات يتحين، الكنيسة بكل أبهة أساقفتها وبذخهم في مقاييس القداس الأكبر، سياسيون وشخصيات بارزة بملايس الجداد الصارمة، باستثناء الدكتاتور التشيلي الذي يضع عباءة أمباطور، استعراض لانهاية للقوات المسلحة. والممّال المعلق في الهواء: ما الذي سيحدث الآن لإسبانيا ما بعد فرانكو. أفنعت روزر فيكتور أن ينتظر سنة أخرى قبل محاولة العودة إلى بلده. وخلال هذه الفترة، راقبا من بعيد التحول إلى الحرية مع ملك على رأس البلاد، تبين أنه ليس دمية الفرائكة المنتظرة، وإنما قرر أن يقود البلاد إلى الديمقراطية سلمياً، متجاوزاً قوى يمينية متزمتة، ترفض أي نوع من التغيير وخائفة من فقدان امتيازاتها بعد غياب الكوديو. بينما بقيت الإسبان يدعون إلى الإسراع في الإصلاحات المحتملة، ومنح إسبانيا مكانتها في أوروبا وفي القرن العشرين.

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من السنة التالية، وطأت أقدام فيكتور وروزر دالماو أرض بلادهم الأصلية لأول مرة، منذ أيام ذلك الانسحاب القاسي. ظلّ لوقت قصير في مدريد التي ما زالت العاصمة الأباطورية الجميلة مثلما كانت على الدوام. أخذ فيكتور روزر لمشاهدة

الأحباء والأبنية التي دُمّرتها القنابل، وقد أعيد إعمارها! وأخذها إلى المدينة الجامعية لرؤية آثار الرصاص التي ما زالت موجودة على بعض الأسوار. ذهبوا إلى منطقة نهر الإيبرو حيث يُفترض أن وليام قد استشهد، ولكنهما لم يجدا شيئاً يُذكر بالمعركة الأكثر دموية في الحرب، والتي دُلّفت الكثير من القتلى. بحثا في برشلونة عن البيت القديم الذي كان لآل دالماو في حي رابال. كانت أسماء الشوارع قد تغيّرت، ووجدوا بعض الصعوبة في تحديد مكان وجودهم. كان البيت لا يزال هناك، وقد تحوّل إلى طيّلٍ مهالك. بدا من الخارج مهجورا، ولكنهم طرّفوا الباب، وبعد برهة طويلة وقرع الجرس عدّة مرّات، فتحت لهم فتاة من الهند، عيناها مُسودّتان بالكحل، وترتدي ثُورة فضيرة. وكانت تفوح منها رائحة الماربجوانا والباتشولي، وقد وجدت صعوبة في معرفة ما الذي يريد هذان الشخصان غير المعروفين، لأنّها كانت نمضي محلقة في فضاء آخر، لكنّها دعتهما أخيرا إلى الدخول. كان البيت قد احتلّ منذ وقت قريب من قبل جماعة شباب نبّوا الثقافة الهيئية متأخرين بعض الشيء، لأنّ هذه الثقافة لم تكن مسموحة في أزمنة فرانكو. جالا على الغرف بإحساس من الخواء في المعدة. كانت الجدران مقشّرة ومشققة، وكان هناك أشخاص يقرشون الأرض، يدخنون وينامون، وقمامة مرمية، وكان الحمام والمطبخ متعفنّين، والأبواب والنوافذ معلقة بصورة مزعجة بالمفصلات، وتنفوح في المكان رائحة نفّاذة من القذارة وانحباس الهواء والماربجوانا. «ها أنت ترى، بافيكتور، من غير الممكن استعادة الماضي»، أبدت روزر ملاحظتها عندما صارا خارجا.

مثما لم يتعرّفا على بيت آل دالماو، لم يتعرّفا كذلك على إسبانيا. فأربعون عامًا من الحكم الفرانكوي خلّفت أثرا عميقا، يُلحظ في التعامل

مع الناس، وفي كل مظهر من مظاهر الثقافة. أمّا كاتالونيا، الحصن الأخير لإسبانيا الجمهورية، فتعرضت للانتقام أشد من المنتصرين، ولقمع أكثر قسوة. فوجئنا بأن ظل فرانكو ما زال شديد الوطأة. كان هناك أسبا من البطالة والتضخم، ومن الإصلاحات التي يجري تنفيذها، والتي لا يجري تنفيذها، ومن سلطة المحافظين ومن فوضى الاشتراكيين. البعض يدفعون عن انفصال كاتالونيا عن إسبانيا، وآخرون يطالبون بمزيد من الاندماج بإسبانيا. كثيرون ممن خرجوا إلى الشوارع بعد الحرب راحوا يرجعون، معظمهم من المستئين وخائبي الرجاء، ولكن لم يغد لهم مكان هناك. لا أحد يتذكرهم. ذهب فيكتور إلى حانة روسيناتي، وكانت لا تزال موجودة على الناصية نفسها وبالاسم نفسه، وتناول هناك كأس بيرة على شرف أبيه ورفاقه لاعبي الدومينو، المستئين الذين غنوا في جنازته. لقد جرى تحديث الروسيناتي في تلك السنوات، لم تعد تُملق فيها أي أفخاذ لحم خنزير مقددة، ولم تعد هناك رائحة نبيذ زنتة، إنها تضم مناصد أكربليك ومراوح كهربائية. العامل في الحانة قال لهما إن إسبانيا قد ذهبت إلى الشيطان بعد فرانكو، فوضى عارمة وقظافة، إضرابات، احتجاجات، مظاهرات، عاهرات ومخشون، وشيوعيون، لا أحد يحترم قيم العائلة والوطن، ولا أحد يتذكر الرب، والملك ليس سوى أبله، يا للخطأ الذي ارتكبه الكوديو بتسميته خليفة له!

استأجرا شقة صغيرة في شارع غراسيا، حيث عاشا ستة أشهر كاملة. نهاية المنفى، هذه هي التسمية التي أطلقت على العودة إلى الوطن الذي تركوه سنوات طويلة، بدت لهما شديدة القسوة مثل منفى في العام 1939، عندما اجتازا الحدود الفرنسية، لكن هذه الأشهر الستة حملتهما على الإقرار بعدى الغربة التي يشهران بها: هو لأنه

معتزٌ بنفسه، وهي لصلابتها ورباطة جأشها. لم يجد أيّ منهما عملاً، بسبب عدم وجود وظائف لمن هم في مثل سنّهما من جهة، ومن جهة أخرى لعدم توافر أيّ علاقات لهما هناك. فهما لا يعرفان أحداً. لكنّ الحبّ أنفذهما من الاكتئاب، لأنّهما كانا يشعران بأنّهما متزوّجان حديثاً، وفي شهر العسل، بدل أن يكونا شخصين ناضجين، عاطلين ومتوحدين، يقضيان الصباحات متجولين في المدينة، والأمسيات في السينما يشاهدان أفلاماً مكررة. مطا الوهم إلى أقصى حدّ ممكن، إلى أن حدث في يوم أحد مضجر، لا يختلف في شيء عن ألبام مضجرة أخرى، أنّهما لم يعودا قادرين على تحمّل المزيد. كانا يُدفّنان عظامهما بنجان شوكلاتة كثيف وقطع بكريت في محلّ بشارع بيتريتكول، عندما قالت روزر باندفاع من يطلق حُكمًا سيحدّد خطّتهما في السنوات التالية: «لقد طفق بي الكيل ببقائنا على هذه الحال كغرياء. فلنرجع إلى تشيلي. إثنان من هناك». أقلت فيكتور تنهيدة ثنّين عالية الصوت، وانحنى لبقائها من فمها. «سنفعل ذلك فور تمكّنا من فعله، أعدك. ولكنّ علينا أن نعود الآن إلى فنزويلا».

مضت عدّة سنوات قبل أن يتمكّن من تنفيذ وعده، وكانا يقيمان في فنزويلا، حيث يعيش مارسيل، وحيث لديه عمل وأصدقاء. كانت الجالية التشيلية تتوسّع يوماً بعد يوم، بفضلًا عن المتفجّين السياسيين، جاء آخرون بحثاً عن فرص اقتصادية. ففي حينهم، حيّ لوس بالوس غرانديس، كانت تُسمع اللهجة التشيلية أكثر من الفنزويليّة. معظم من باتون يظنون معزولين ضمن جالية بلدهم، يلحقون الجراح ويتابعون الأوضاع في تشيلي، حيث لا شيء يشير إلى حدوث تغيير، على الرّغم من الأخبار المشجّعة التي يجري تداولها من فم لضم من دون أن تتأكّد

قطر. الحقيقة هي أن الدكتاتورية لا تزال راسخة بثبات. اقترحت (١٩٩٠) على فيكتور أن يُسلم نفسه باعتبارها الطريقة الوحيدة الصحيحة لقضاء الشيخوخة. كان عليهما أن يعيشا كل يوم بيومه، مستفيدين مما يقدمه إليهما ذلك البلد اللطيف، وشاكرين أنهما حصلوا على احتضان جَدٍ وعلى عمل، دونما تلذذ أو استمتاع بالماضي. العودة إلى تشيلي تظل معلقة، من دون أن تُدسر حاضرها، لأنه يمكن لهذا المستقبل أن يتأخر كثيرا. وقد حال ذلك دون تنفيذهما بالحنين والأمل، وأدخلهما في فُرْقَاء الوقت على أحسن حال من دون الشعور بالذنب، وقد كان هذا، إلى جانب السخاء، هو أفضل درس تلقياه في فتزويلا. لقد تغير فيكتور في عقد الستينيات أكثر مما تغير طوال حياته السابقة كلها. وعزا ذلك إلى العشق الراسخ، وإلى صراع روزر من أجل تشذيب تنوعات طبعه، ورفع معنوياته، فضلا عن التأثير الإيجابي لـ *despelote* الكاريبي، وهذه هي التسمية التي كانوا يطلقونها على التيبب المؤسساتي الذي قوّض البسمة الحديثة، إن لم يكن إلى الأبد، فلعدة سنوات على الأقل.

وكان أن عاد فيكتور، في هذه المرحلة، للقاء بأوفيليا دل سولا، فعلى امتداد السنوات السابقة، كان يعرف شيئا من أخبارها بصورة متفرقة، من دون أن يتوصل إلى رؤيتها، لأنها تنتمي إلى أوساط مختلفة جدا، وكانت هي قد أمضت جزءا كبيرا من حياتها في بلدان أخرى بسبب مهنة زوجها. أضف إلى ذلك أنه هو نفسه كان يتجنبها، لخشب من أن تكون هناك جمار ساخنة بين رماذ ذلك الحب المُعْبِط في شبابه، وتؤثر على نظام حياته أو على علاقته بروزر. لم يتوصل قط إلى فهم مسوغات أوفيليا لقطع علاقته بحياتها بضربة مقص، من دون أي تفسير آخر سوى رسالة مقتضبة مكتوبة بنبرة فتاة متكبرة، لم يستطع

المطابقة بينها وبين المرأة التي تهرب من دروسها لتمارس الحب معه في فندق رخيص. في البدء، بعد التحشّر وتوجيهه اللعنات سراً، وصل به الأمر إلى أنّه صار يكرهها. نسب إليها أسوأ عيوب طبقتها الاجتماعية: عديمة الإحساس، أنانيّة، متكبّرة، متحذلقّة. وبعد ذلك، راح الاستياء بغادره، ولم يبقَ لديه سوى الذكري الطيبة للمرأة الأكثر جمالاً بين من عرفهنّ من النساء، لضحككتها المفاجئة، لتفجّجها. نادراً جداً ما كان يفكر بأوفيليا، ولم يشعر قطّ بدافع يدفعه للتحريّ عن أخبارها. ففي تشيلي، قبل الدكتاتوريّة، كان يعرف تتّفاً من أخبارها وأحوالها، بصورة عامّة من خلال تعليق عابر يتقرّء به أخوها فيليب دِل سولار، وكان يلتقي به نحو مرّتين في السنة من أجل الحفاظ بصورة مصطنعة على صداقة تستند أساساً إلى اعتراف فيكتور بالجميل. وكان قد رأى بعض صورها غير المشجّعة على صفحات المجتمع في الجريدة، ولكنّ ليس في القسم الخاصّ بالفنّ! فعملها الفنّي كان مجهولاً في تشيلي. «أجل، الشّيء نفسه يحدث مع المواهب الوطنيّة، وتكون الحال أسوأ إذا كنّ نساء». أبدت روزر ملاحظتها هذه في منامية أنّها أحضرت معها من إحدى رحلاتها مجلّة تصدر في ميامي، وفيها تحتلّ رسوم أوفيليا الصفحات الأربع الوسطى وبالألوان. تفحص فيكتور صورتيّ الفنّانة المرافقتين للريبورتاج. كانت العينان عينيّ أوفيليا الشّابة، أمّا ما سوى ذلك فقد نفّر! يمكن أن تكون الكاميرا قد خانتها.

جاءت روزر بخبر أنّ هنالك معرضاً لأحداث أعمال أوفيليا دِل سولار في آتينيه كاركاس. وهل لاحظت أنّها تستخدم كنيّتها وهي عزباء؟ علقت روزر. فبيّن لها فيكتور أنّها كانت تفعل ذلك على الدوام، وهذا أمر عاديّ لدى النساء التشيلّيات، كما أنّ مانياس إيشاغيرّي قد

مات منذ سنوات؛ وإذا كانت أوفيليا لم تستخدم كنية زوجها عندما «
حيًا، فلماذا ستفعل ذلك وهي أرملة؟ فقالت روزو: «حسن، مهما يكن
الأمر. فلنذهب إلى حفل افتتاح المعرض».

كان رد فعله الآلي هو الرقص، لكن الفضول تغلب عليه. كما
المعرض مؤلفًا من لوحات قليلة، ولكنه يشغل ثلاث قاعات، لأد
كل لوحة كانت بحجم باب. لم تكن أوفيليا قد نأت عن التأثير بأعمال
غواياسامين، الرسام الإكوادوري العظيم الذي تتلمذت على يده،
وكانت لوحاتها بأسلوب مشابه لأسلوبه، لطخات قوية، خطوط قانما
وأشكال تجريدية، ولكن من دون أي أثر لرسالة الإنشائية، لا وجوه
لأي استكثار للقوة أو لاستغلال الإنسان، ولا شيء من النزاعات
الناريجية أو السياسية لزمانه. إنها صور حشوية، بعضها معبرة جدًا، لعنا
ثنائيات ملتوية أو عنيفة، نساء مستسلمات للذة أو للمعاناة. تأمل فيكتور
اللوحات مشوشًا، لأنها بدت له غير متاسبة مع الفكرة التي لديه عن
الفتاة.

إنه يتذكر أوفيليا في بداية شبابه، تلك الفتاة المدللة، الصاذجة
والمندفة التي وقعت في حبه ذات يوم، والتي كانت ترسم بالوان
الأكوارييل مناظر طبيعية وأغصان أزهار. ولم يكن يعرف عنها منذ
ذلك الحين سوى أنها في البداية زوجة دبلوماسي، ثم صارت أرملة
بعد ذلك؛ كانت امرأة تقليدية، متوافقة مع قدرها. لكن هذه اللوحات
تكشف عن مزاج متأجج، وعن صخيلة إيروتيكية مفاجئة، كما لو أن
العاطفة التي توصل إلى لمعها في الفندق البائس، حيث كانا يمارسان
الحب، قد ظلت مخنوقة في داخلها، وأن صمام الأمان الوحيد لها هو
الرياش والرسم.

اللوحة الأخيرة، المعلقة وحدها على جدار في الغاليري، سببت
 ١٠ صدمة عميقة. إنها لرجل عار يحمل بندقيّة بين يديه، بالأبيض
 والأسود والرّمادي. ظلّ فيكتور يدرس اللوحة لعدّة دقائق، مضطرباً من
 ١٠ أن يعرف السّب. اقترب ليقرأ العنوان على الجدار، رجل ميليشيا،
 ١٧٧١. (ليست للبيع)، قالها صوت بجانبه. كانت أوفيليا، مختلفة عن
 أميليا ذكرياته، وعن التي في الصور الغليظة التي رآها لها، فهي هزلة
 ١٨ هزلة، بلا لون.

هذه اللوحة هي الأولى من هذه السلسلة، وتشير إلى نهاية
 ١٩ حلة بالنسبة إليّ، ولهذا لا أبيعها.

السنة هي سنة الانقلاب العسكريّ في تشيلي، قال فيكتور.

لا علاقة لها بتشيلي. في تلك السنة تحرّرت كفتانة.

حتى هذه اللحظة، لم تكن قد نظرت إلى فيكتور، كانت تتكلّم
 ونظرها مصوّب إلى اللوحة. وعندما التفتت لمواصلة الحديث، لم تتعرّف
 عليه. كانت قد انقضت أكثر من أربعين سنة مذ كانا معاً، وكانت في
 موقع أصعب، إذ لم تُنح لها خلال ذلك الوقت فرصة رؤية صورة له. مذ
 فيكتور يده نحوها، وعرف بنفسه. احتاجت أوفيليا بضع ثوان كي تراجع
 الاسم في ذاكرتها؛ وعندما توصّلت إلى ذلك، أطلقت صرخة مفاجئة
 شديدة العفوية، أشعرت فيكتور قناعته بأنّها لم تعرف من يكون. ذلك
 الوضع الذي حمّله هو في قلبه كنكبة، لم يترك لديها أيّ تأثير. دعاها
 لتناول كأس في الكافيتيريا، وذهب لإحضار روزر. وحين رآهما معاً، لفت
 انتباهه أنّ الزمن قد عاملهما بطريقتين مختلفتين جدّاً. يمكن افتراض
 أنّ أوفيليا الجميلة، المندفعة، الثريّة، والمثقّفة، قد قاومت مرور السنوات

أكثر، ولكنها تبدو أكبر من روزر. فشعرها الرمادي يبدو محروقاً، والباقي في حالة مزرية، والكتفتان منهذلان بتأثير متطلبات مهنتها. كانت ترمي جلياً طويلاً ومغلّتا من كتّان بلون القرميد لمواراة كيلوغراماتها الزائدة وتحمل حقيبة هائلة متعددة الألوان من غوانيمالا، وتتعلل صندل ذو فرنسيكان، وكانت لا تزال جميلة جداً. عبها الزرقاوان تلمعان مثلاً، كانتا وهي في العشرين من عمرها في وجه بروزريّ لتعرضه المفرد للشمس، وتقاطع فيه بعض النجاعيد. أمّا روزر التي لم تكن ممثلة بنسها، ولم تلفت الأنظار باعتبارها جميلة قط، فكانت تصبغ شبيهاً وتطلي شفتيها، وتعني بيديها كعازفة بيانو، كما تعني بقامتها ووزنها. كانت ترتدي بنظالاً أسود وبلوزة بيضاء، بأنانقها البسيطة المعهود. حيث أوفيليا بانفتاح مرحّب، واعتذرت لأنّها لا تستطيع مرافقتهم، عليها أن تذهب طائرة إلى تدريبات في الأوركسترا. تبادل فيكتور معها نظرات متفحصة، وأدرك أنّها ترمي إلى تركه وحيداً مع أوفيليا، فداهمه لحظة هلع.

إلى متفردة في فناء الأبنية، ما بين تماثيل حديثة ونباتات تروبيكالية، قامت أوفيليا ومعهما فيكتور بمراجعة لأهم وقائع السنوات الأربعين الماضية، ومن دون الإشارة إلى العاطفة التي قلبت حياتهما ذات يوم. لم يتجرأ فيكتور على مقارنة هذا الموضوع، وأقل من ذلك أن يطلب منها تفسيرات متأخرة، لأن ذلك بدا له مهيناً. ولم تقدّم هي من جهتها أي تفسيرات، لأن الرجل الوحيد الذي احتسبته في حياتها هو مانياس إيشاغيري. وبالمقارنة مع الحب الاستثنائي الذي عاشته معه، فإن المغامرة المقتضبة مع فيكتور، لم تكن سوى تفاعضة ضئيلة، وكان لا بد لها من أن تكون منسوبة لولا ذلك القبر الصغير في مقبرة ريفيّة بتشيلى.

«هي لم تذكر ذلك أيضًا ليفكتور، لأنها اكتفت بمشاركة زوجها فقط في ذلك السر. تحملت وزر زلتها من دون إثارة أي فضائح، مثلما أمرها الأب. بنسي أورينا.

استطاعا أن يتبادلا الحديث مطولًا، كما لو أنهما صديقان جددان. احترقه أوفيليا أنها أنجبت ابنين، وأنها عاشت ثلاثة وثلاثين عامًا بمعادة مع مانياس إيثاغيري الذي أحبها بالشباب نفسه الذي لاحقها به من أجل الزواج منها. كان يحبها كثيرًا وبصورة حصرية جدًا، جعلت ابنيهما شعران بأنهما فائضان عن الحاجة.

لقد تغير قليلًا جدًا، وكان على الدوام رجلًا هادئًا، كريمًا، «تعامل معي بوقار غير مشروط؛ وكان مرور السنوات يعقّق فضائله. أعدته بأفضل ما أستطيع في مهنته. فالعمل الدبلوماسي صعب. كنا ننقل من بلد إلى آخر كلّ سنتين أو ثلاث سنوات، وكان لا بدّ من الانتقال، وترك أصدقاء، وإعادة البدء من جديد في مكان آخر. ولم يكن الأمر سهلًا على الأبناء أيضًا. والأصعب هو الحياة الاجتماعية، فأنا لا أتع في التفرغ لحفلات الكوكيتيل والولائم الممتدة لوقت طويل.

و هل كنت قادرة على الرسم؟

حاولت ذلك، ولكنني تمكّنت بصورة وسطية فقط. فقد كان هناك على الدوام ما هو أكثر أهميّة أو إلحاحًا. عندما ذهب ابنانا إلى الجامعة، قلت لمانياس إنني سأتقاعد من عملي كأُمّ وزوجة، وسوف أفرّغ للرّسم بصورة جدّية. بدا له ذلك عادلاً. تركني بحريتي، لم يُعَدّ بطلب مني أن أرافقه في اللقاءات الاجتماعية؛ وكانت تلك اللقاءات هي أكثر ما يزعجني.

ياه، رجل وحيد.

- مؤسف أنك لا تعرفه.

- لقد رأيته مرة واحدة. هو من ختم وناقى الشخصية للدور، إلى تشيلي على متن السفينة وينيبج عام 1939. لم أنسه قط. ١٩٤٠ ماتيلاس كان رجلاً قريباً، يا أوفيليا.

- كان يحتفي بكل ما يخصني. يكفي أن أقول لك إنه أخذ دوراً خاصة من أجل الشُّكْن من تقدير لوحاتي، لأنه لم يكن يفهم شيئاً من الفن، وقد مؤل معرضي الأول. لقد قضت عليه نوبة قلبية لعينة منذ سنوات، وما زلت أنام باكية كل ليلة، لأنه ليس معي - اعترفت له أوهلدا، في نوبة عاطفية أشعرت فيكتور بالخيال.

ثم أضافت إنها منذ ذلك الحين قد تحررت من الواجبات الم كانت تشغلها عن ميولها الفنية؛ وقالت إنها تعيش كفلأحة في قطع أرض على بعد مئتي كيلومتر عن سنتياغو، حيث تزرع أشجاراً منيرة، وتربي معز قزمية طويلة الأذان لبيعها كحيوانات بيتية أليفة.. ترسم وترسم فضلاً عن أنها تسافر للقاء ابنتها، في البرازيل والأرجنتين، أو من أجل معرض لها، أو لزيارة أمها مرة كل شهر، وبامتناء ذلك لا تغادر مرسىها - أنت عرفت أن أبي قد توفي، أليس كذلك؟

- أجل، ظهر الخبر في الجريدة. تصلنا هنا الجرائد التشيلية متأخرة، ولكنها تصل. لقد بنى أوهاماً كثيرة على حكومة بينوشيه. - كان ذلك في البدء. مات عام 1975. وقد تفتحت أمي بعد موته لقد كان أبي مستبداً.

أخبرته أن أمها دونيا لورا قد قلصت اهتمامها بصلوات قهر نزوات النفس، وبأعمال الإحسان. وصارت تهتم أكثر بلعب الورق وبالزوحانيات

١٠٠ م. جماعة من المعجّزات الباطنيّات اللّواتي يتواصلن مع أرواح من العالم
 ١٠١ م. وهكذا، تحافظ على تواصل مع ليوناردو، صغيرها البيبي المعبود.
 ١٠٢ م. يشتهي أوربينّا يجهل هذه الخطيئة الجديدة التي تُلطّخ شرف
 ١٠٣ م. دل سولار، لأنّ دونيا لورا تحاذر جيّدًا من الاعتراف بذلك للكاهن؛
 ١٠٤ م. عرف أنّ ذكر الموتى خطيئة شيطانيّة، ومُدانة بصورة حاسمة من
 ١٠٥ م.

كانت أوفيليا تشير إلى الأسقف بتهكّم. قالت إنّ أوربينّا الذي
 ١٠٦ م. حاور الثمانيّن يبضع سنوات هو كاهن ومدافع مفعّوه عن الأساليب
 ١٠٧ م. انتابوريّة، المسمّوعة بالكامل لحماية الثقافة المسيحيّة الغربيّة ضدّ
 ١٠٨ م. العاركيّة الأخلاقي. أمّا الكردينال الذي أنشأ مركز نبابة خاصّ
 ١٠٩ م. المظالمّين وإعداد قوائم بالمختفين، فقد اضطرّ إلى دعوة
 ١١٠ م. الأسقف إلى التزام النظام عندما راح يدافع بحماسة عن التّعذيب، وعن
 ١١١ م. إعدامات التّعسّفية. ولم يكن الأسقف يعرف الكلل في مهمّة إنقاذ
 ١١٢ م. الأرواح، وخاصّة أرواح مؤمنه في الحيّ الراقي، وكان لا يزال المستشار
 ١١٣ م. المصح لآل دل سولار، وهم أكثر سلطة ونفوذًا من البطريرك نفسه.
 ١١٤ م. وبلا لورا، وبناتها، وأصهارها، وأحفادها وأحفادها يعتمدون على
 ١١٥ م. حكمته في قراراتهم الكبيرة والصغيرة.

١١٦ م. أنا أفلّت من تأثيره، لأنّني أضجر منه. إنّهُ رجل شؤم، ولأنّني
 ١١٧ م. كنت لأوقات طويلة خارج تشيلي. وقيليه أفلّت منه أيضًا، لأنّه الأشدّ
 ١١٨ م. كاهن في العائلة، ويقضي نصف حياته في لندن.

١١٩ م. ما أخبّاره؟

١٢٠ م. دعم سنوات حكم ألييندي الثلاث، وكان واثقًا من أنّ فترة
 ١٢١ م. حكمه ستكون قصيرة، ولم يخطن في ذلك، لكنّه لم يستطع تحمّل

ذهنية الشكفة لدى المجلس العسكري، لأنه أدرك أنه يمكن له...
العسكر أن يستمرّ لزمان أبديّ. وأنت تعرف كيف يروق له كلّ ما م
إنكليزيّ. يمقت أجواء النفاق والقداسة التشيلية. يذهب في زيار
أحياناً لرواية أمي، ولتولي مسؤولية التمويل العائليّ، إذ كان عليه أن يحل
محلّ أبي.

- ألم يكن لك أخ آخر؟ ذاك الذي كان يقبس شدة الأعاص
والمواصف؟

- لقد استقرّ في هاواي، ولم يرجع إلى تشيلي سوى مرّة واحدا
للمطالبة بحصّته من الميراث بعد موت أبي. أنتذكر تلك العام
المنزلية، المدعوة خوانا، التي كانت متعلّقة بابنك مارسيل؟ إنّها ما زالت
على حالها. لا أحد، بمن في ذلك هي نفسها، يعرف كم صار عمرها،
ولكنّها ما زالت حاملة مفاتيح البيت، وتحتني بأمي التي صار عمرها
بضعة وتسعين عامًا، ومعتوهة إلى حدّ كبير. هنالك كثير من المصابير
بالعته في عائلتي. حسن، لقد قدّمت لك آخر أخبارنا. حدثني أد
الآن.

لخص لها فيكتور حياته في خمس دقائق، وتحدّث باختصار شديد.
عن السنة التي أمضاها معتقلاً، من دون التوقّف عند أسوأ التقلّبات
التي تعرّض لها، إذ رأى أنّه من غير اللائق التحدّث عنها، وافترض أنّ
أوفيليا تفضّل تجاهل تلك الأمور. وإذا كانت هي قد انتهت إلى شيء،
فقد امتنعت عن توجيه أسئلة، واكتفت بالقول في هذا الشأن أنّ ماتي
كان محافظاً في أفكاره السياسيّة، ولكنّه خدم تشيلي كدبلوماسيّ خلال
سنوات الحكم الاشتراكيّ الثلاث من دون أن يخالف واجبه؛ وفي
المقابل، كان يشعر بالخجل وهو يمثل الحكومة العسكريّة لسوء سمعتها

١٠. العالم بأسره. وأضافت أنها هي نفسها لم تكن تهتم أبداً بالسياسة،
 ١١. بهشها هو الفن، وأن تعيش بسلام في تشيلي، بين أشجار وحيوانات،
 ١٢. دون أن تقرأ الصحافة. وأن تظل حياتها هي نفسها، بدكتاتورية أو من
 ١٣. دكتاتورية.

تبادلوا الوداع مع الوعد بأن يظلّا على تواصل. مع أنهما يعرفان
 أنها ليست سوى عبارات شكلية. شعر فيكتور بالراحة: إذا لم يعيش
 ١٤. يكفي فإن الدوائر أخذت بالانغلاق. دائرة أوفيليا دل سولار أغلقت
 صورة نظيفة في كافيتريا الأتينية هذه، ومن دون أن تختلف وماذا.
 الحمار قد استنفدت، وصارت رماداً منذ زمن طويل. قرّر أنه لم يُعجب
 ١٥. شخصيتها ولا برسومها؛ الشيء الوحيد الذي يستحق الذكر هو
 ١٦. ماها بزرقتهما السماوية الغريبة تلك. كانت روزر تنتظره في البيت
 شيء من القلق، ولكن نظرة واحدة إليه جعلتها تنمجر ضاحكة. لقد
 رجع زوجها عنه عدة سنوات. نقل لها فيكتور أخبار عائلة دل سولار.
 كمحصلة لكل ذلك، علّق قائلاً إن لأوفيليا رائحة غاردينيا محتضرة.
 وطلّ يحتفظ بفكرة أن روزر قد دبّرت ذلك المقلب، وأنها أخذه من
 أهل رؤية ذلك المعرض، وتركته على انفراد مع حبه القديم. لقد بالغت
 امرأته في المجازفة؛ إذ كان يُمكن أن يحدث، بدل خيبة أمه بأوفيليا،
 أن يعود للوقوع في حبها، ولكن من الواضح أن مثل هذا الاحتمال لم
 يكن يُقلق روزر أبداً. وفكّر المشكلة معها أنها كانت تعتبرني ثابتاً، بينما
 كنت أعيش مفكراً بأنه يمكن لها الذهاب مع آخر.

الفصل الثاني عشر

1983 ـ 1991

أعيش الآن في بلدي بالغ العذوبة
أجل جلود الطيور المحترقة...

پابلو نيرودا

بلاده، جغرافية غير معجدة

.

'الخبر عن أنَّ هنالك في تشيلي قائمة حديثة تضم أسماء ألف
 وثمانمائة منفيّ يسمح لهم بالعودة إلى البلاد نُشر في جريدة الأونيڤرسال
 لأمم الأحد، وهو اليوم الوحيد الذي يقرأ فيه آل دالماو الجريدة من
 بدايتها حتّى الصفحة الأخيرة. ذهبت روزر إلى فصلية تشيلي لترى
 القائمة، وكانت ملصقة على النافذة، ووجدت فيها اسم فيكتور دالماو.
 فانتفح فراغ عند قدميها. لقد انتظروا هذا طوال نع سنوات، وعندما
 حدث لم تكن هنالك سعادة، لأنّه يعني هجر ما لديهم والتخلّي عنه،
 بمن في ذلك مارسيل، والعودة إلى البلاد التي غادروها عندما لم
 يستطيعوا تحمّل القمع. تساءلت عن مغزى العودة طالما لم يتغيّر هناك
 أي شيء، ولكنّها في تلك الليلة، عندما تحدّثت في الأمر مع فيكتور،
 قال لها إذا لم يرجعوا بسرعة، فلن يفعلوا ذلك أبداً. «لقد بدأنا من الصفر
 هذه مرّات، يا روزر. ويمكننا عمل ذلك مرّة أخرى. أنا الآن في التاسعة
 والسّتين، وأريد أن أموت في تشيلي». كانت تتردّد في ذهنه أبيات
 شعر لنيرودا: «كيف يمكنني أن أعيش بعيداً جدّاً/ عمّا أحببت، عمّا
 أحبّ؟». وقد وافقه مارسيل الرّأي، وعرض عليهما أن يذهب ليستطلع
 الأمر على أرض الواقع، وخلال أقلّ من أسبوع كان في سنّياغو. اتّصل
 بهما ليخبرهما أنّ البلاد تبدو حديثة ومزدهرة ظاهريّاً، ولكنّ يكفي حكّ

الشطح لتظهر العيوب والبؤس. هنالك تفاوت ساحق. ثلاثة أرباع الثروة في أيدي عشرين أسرة. الطبقة الوسطى تعيش بصعوبة على القروض. هنالك فقر للكثيرين ورخاء لقلّة قليلة. أحياء بائسة في مواجهة ماطحار. سحب من البلّور ومنازل فخمة مسوّرة. رفاهيّة وأمان للبعض، وبطالة، وفمغ لأخرين. المعجزة الاقتصادية في السنوات السابقة، والمسند، إلى حزبة رأس المال المطلقة وغياب الحقوق الأساسية للعُمال، أدّر إلى تصخّم أشبه بفقاعة. وقال لهما إنّه يمكن الشعور في الأجواء بأنّ الوضع سيّئ، فالتاس صاروا أقلّ خوفاً، وهنالك احتجاجات جماهيرية واسعة ضدّ الحكومة. ويعتقد أنّه يمكن للدكتانورية أن نسط بضم نقلها بالذات؛ وأنّ الوقت قد حان للمودة. وأضاف أنّه ما كاد يصل حتّى عرضوا عليه وظيفة في شركة النحاس نفسها التي بدأ العمل وهو حديث التخرّج، ومن دون أن يسأله أحد عن أفكاره السياسية؛ يعتمدون فقط على الدكتوراه التي حصل عليها في الولايات المتّحدة وخبرته المهنية. «سوف أبقى هنا، أيّها العجوزان، إنّي تشيليّ». كاد هذا هو الشيب الحاسم، لأنّهما هما أيضاً تشيليّان، على الرّغم من كلّ ما عاشاه، ولن ينفصلا بأيّ حال عن ابنهما. خلال أقلّ من ثلاثة شهور صفّى آل دالماو ممتلكاتهم في فنزويلا، وودّعوا أصدقاءهم وزملاءهم. افترح فالنتين سانتشت على روزر أن تعود مننصرة، برأس مرفوع، فهي لم تكن قطّ في القواطم السوداء ولا تحت رقابة أجهزة الأمن، مثلما هو زوجها. سترجع وسنرافقها أوركسترا الموسيقى القديمة بكاملها لإقامة سلسلة من الحفلات الموسيقية المجانيّة في الحدائق العامّة والكنائس والمدارس. أرادت أن تعرف كيف سيؤولون مثل تلك المشاريع، فردّ عليها أنّها ستكون هدبة من الشعب الفنزويلي إلى شعب تشيليّ.

.. رابثة الثقافة في فنزويلا تكفي لتخطبة الكثير، ولن يتجرأوا في تشبلي
على منع هذه الحفلات! ستكون مواجهة ذات أبعاد دولية. وهذا ما
..

كانت عودة فيكتور أصعب بكثير من عودة روزر. ترك موقعه في
المستشفى بكاراكاس وتأمينه الاقتصادي ليأتي إلى لايفينية مكان
يظهر فيه إلى العائدين من المتأفي بارتياح. كثيرون من جماعات البار
أقبروا مذبذبين بذهابهم إلى الخارج، بدل أن يناضلوا ضد النظام من
الداخل، بينما كان اليمين يثهمهم بأنهم ماركسيون وإرهابيون، ولسبب
ما جرى طردهم.

عندما ذهب إلى مستشفى سان خوان دي ديمس، حيث كان قد
عمل طوال ثلاثين عامًا تقريبًا، استقبل بالأحضان وحتى بالدموع من
حانب المعرضات وبعض أطباء ذلك الزمان السابق، ممن يتذكرونه وهربوا
من عمليات التطهير التي جرت في الأزمنة الأولى، عندما جرى استبدال
مئات الأطباء ذوي الأفكار التقدمية، واعتقالهم أو اغتيالهم. وكان مدير
المستشفى عسكريًا، وقد حياء شخصيًا، ودعاه إلى مكتبه، وقال له:

- أعرف أن حضرتك قد أنقذت حياة القومندان أوسوريو. كان
عملًا يستحق الثناء من شخص في مثل الوضع الذي كنت فيه.

- أتعني أنني كنت سجينًا في معسكر اعتقال؟ إنني طبيب، أخدم
من هو بحاجة إليّ، بلا اهتمام بالظروف. وكيف حال القومندان؟

- إنه متقاعد من زمن، ولكنه في حالة جيدة.

- لقد عملت لسنوات طويلة في هذا المستشفى، وأرغب في
العودة إليه، قال فيكتور.

- إني أفهمك، ولكن لا بد من أخذ عمرك في الاعتبار...

- لم أكمل السبعين بعد. منذ أسبوعين، كنت أترأس قسم الأمراض القلبية في مستشفى بارغاس بكاراكاس.

- للأسف الشديد، إنه بسبب سيرتك كمعتقل ومنفي سياسي، من غير الممكن توظيفك في أي مستشفى عام؛ فأنت معفى من وظائفك حتى صدور أمر جديد.

- أعني هذا أنني لا أستطيع العمل في تشيلي؟

- صدقتي.. إني متأسف. القرار غير مرتبط بي. أنصحك بأن تبحث في مستشفى خاص، قال المدير، وهو يودّعه بالضغط على يده.

الحكومة العسكرية ترى أن الخدمات العامة يجب أن تكون في أيدي خاصة؛ الصحة ليست حقاً، وإنما هي مفعة استهلاكية تُشتري وتُباع في تلك السنوات، عندما جرت خصخصة كل ما يُمكن تخصيصه، ابتداء من الكهرباء حتى الخطوط الجوية، ازدهرت العيادات الخاصة المزودة بأفخر المعدات والوسائل لخدمة من هم قادرين على الدفع. كانت سمعة فيكتور المهنية لا تزال سليمة بعد سنوات من الغياب، واستطاع الحصول فوزاً على وظيفة في أشهر عيادة طبية في سبناغو براتب أعلى بكثير مما يُمكن له أن يكسبه في المستشفى العمومي. وهناك، ذهب لزيارته فليبه دل سولار في واحدة من رحلاته المتواترة إلى تشيلي. كان قد مضى وقت طويل منذ النقيا آخر مرة، ولم يكونا صديقين حميمين قط؛ ولم يكن هنالك أشياء كثيرة مشتركة تجمع بينهما، ولكنهما تعانقا بحوذة حفيظة.

- عرفت أنك قد رجعت، يا فيكتور. تسعدني عودتك كثيراً. هذه البلاد بحاجة لأن يعود إليها الناس الثمينون.

- أنت أيضًا عائد إلى تشيلي؟ سأله فيكتور.

- أنا لا يحتاج أحد إلي هنا. إني أعيش في لندن. ألا يبدو علي ذلك؟

- أجل، يُلاحظ ذلك. يبدو لوردا إنكليزيًا.

- يجب أن أتردد إلي هنا بكثرة إلى حد ما من أجل أمور عائلية،

مع إني لا أطيق أحدًا من العائلة، باستثناء خوانا نانكوتشيو التي ربّنتي،
التي أحدها لا يستطيع اختيار أقربائه.

جلسا على مقعد في الحديقة، قبالة نافورة حديثة تنفث دقات
من الماء في زفرات كأنها لهاث حوت، ليطلعا على آخر أخبار عائلتيهما.
مرف فيكتور أن اللوحات التي ترسمها أوفيليا، المعتكفة في الريف، لا
تشرىها أحد، وأن لورا دل مولار تعاني من خرف الشيخوخة في كرسي
البحر عجلات، وأن أخوات فيليبه قد تحولن إلى سيّدات لا يُطفن.

وأضاف فيليه:

- لقد جمع أصهاري ثروات خلال هذه السنوات، يا فيكتور.
فإن أبي يزدريهم. واعتاد أن يقول إن أخواتي قد تزوجن من حمقى
بملايس جيّدة. لو كان بإمكانه أن يرى أصهاره الآن، فسيكون عليه أن
يبتلع كلامه.

فقال فيكتور:

- هذا هو فردوس الصفقات ورجال الأعمال!

- لا وجود لما هو سيئ في كسب المال إذا كان النظام والقانون
يسمحان بذلك. وأنت، يا فيكتور، كيف حالك؟

- أحاول التأقلم وفهم ما الذي حدث هنا. صار من غير الممكن

التعرّف على تشيلي!

- عليك أن تفكر بأنّها صارت أفضل بكثير. فالانقلاب العسكري
أنتفد البلاد من فوضى أألندي ومن دكتاتورية ماركية.

- للحيلولة دون قيام تلك الدكتاتورية الباردة المتخيلة، فرصوا
علينا دكتاتورية معينة لا ترحم، يا فيليب.

- انظر، يا فيكتور، احتفظ لنفسك بهذه الآراء. لبس لها أي دفع
جيد هنا. لا يمكنك أن تنكر أننا أفضل حالًا بكثير، لدينا بلاد مزدهرة.
- بكلفة اجتماعية عالية جدًا. أنت تعيش في الخارج، ونعرف
الفظاعات التي لا ينشر عنها أي شيء هنا.

- لا تأتي الآن بمعزوفة حقوق الإنسان.. بالكلام العمل، يا رجل.
- فاطمه قبله. إنها تجاوزات بعض العسكريين الأفاظ. لا يمكن لأحد
أن يتهم مجلس الحكم، وأقل من ذلك بكثير اتهام الرئيس بينوشيه بهذه
الحوادث الاستثنائية. الأمر المهم أن الهدوء مستتب، ولدينا اقتصاد لا
تشوبه شائبة. لقد كنّا على الدوام بلد ضعفاء مسرّخين، وعلى الناس
أن يعملوا الآن وأن يذلوا الجهد. نظام حرية السوق يشجع المنافسة،
ويُسمّي الثروة.

- هذا الذي يجري لبس حرية سوق، لأنّ القوة العاملة خاضعة،
وقد أُلغيت أدنى الحقوق الأساسية. أوتنظر أنّه يمكن فرض مثل هذا
النظام في بلد ديمقراطي؟

- هذه التي هنا هي ديمقراطية سلطوية ومحمية.

- لقد تغيّرت كثيرًا، يا فيليب.

- لماذا تقول هذا الكلام؟

- إني أنذرك أنك كنت أكثر انفتاحاً، كنت محطّماً أيقونات،
«هكمباً، مُخلّاً باللياقة بعض الشيء»، كنت ناقدًا، معارضاً لكل شيء
المحمي، منهكاً وساخرًا ومثلاً.

- وما زلت كذلك في بعض النواحي، يا فيكتور. ولكن مع التقدّم
من السن، لا بدّ لأحدنا من أن يحدّد موقفه. وأنا كنت مَلَكِيّاً على الدوام
انسجم فيليب: على أيّ حال، يا صديقي، كن حذرًا بأرائك.

- إني خذّر، يا فيليب، ولكنني لا أحتفظ بأيّ حذر مع الأصدقاء.

للتخفيف من شدّة الحرج الذي يشعر به بسبب تحوّل الطبّ إلى
عبادة، صار فيكتور يعمل كمطوّع في عبادة أحد الشجّعات السكيّة
الآنسة ستيافو، واحد من تلك الأحياء التي ولدت وتكاثرت بالهجرة
من الرّيف، ومن مناجم ملح البارود، قبل نصف قرن. في الحيّ الذي
يعمل فيه فيكتور، يعيش نحو ستّة آلاف شخص مكثّسين. هناك، استطاع
أن يقيس نبض الفمغ والاستبلاء، وجراحة أشدّ الناس تواضعًا ونُؤساً.
مرضى يعيشون في أكواخ من الكرتون وبعض ألواح الخشب، أرضيتها
من التراب الممّهّد، بلا تمديدات ماء جار ولا كهرباء ولا مراحيض،
ما بين غبار الصّيف ووحول الشتاء، وما بين قمامة وكلاب وجردان
وذباب.. الأغلبية بلا عمل، يكسبون أدنى أجر من أجل البقاء في أعمال
بأس؛ يجمعون البلاستيك والزجاج والورق من القمامة لبيعه؛ يقومون
بعمل شاقّ في النهار في أيّ ميدان ممكن؛ يمارسون التهريب والسرقة.
كانت لدى الحكومة خطط من أجل استئصال المشكلة، ولكنّ الحلول
تأخّر! وبعمدون في الوقت الحاليّ إلى بناء جدران عالية لإخفاء هذا
المشهد المؤسف الذي يُضفي القبح على المدينة.

- الأكثر أهمية هناك، من النساء - يقول فيكتور لروزر، إنهن عصابات على الانكسار، مضجعات، أكثر تحملاً للمصاعب من الرجال، أهدأ. أبنائهن ومن يحتضن تحت سقفهن. يتحملن إدمان الكحول، والده، وهجران الرجل العابر في حياتهن، ولكنهن لا ينحنين ولا يرصحن.

- هل بتلقين أي نوع من المساعدة على الأقل؟

- أجل، من الكنيسة، وبصورة خاصة من الكنائس الإنجليكانية. ومن مؤسسات الإحسان والمتطوعين! ولكنني أشعر بالقلق من الأطفال، يا روزر. إنهم يكبرون بأي طريقة، وكثيراً ما يتامون جانه. يذهبون إلى المدرسة عندما يستطيعون، وليس دوماً ويصلون إلى - المراهقة من دون أن يكون لديهم أي أفق سوى العصابات أو المخدرات. أو الشارع!

- إنني أعرفك، يا فيكتور. أعرف أنك سعيد هناك أكثر مما في أي مكان آخر، قالت معلقة.

وكان ما قالته صحيحاً. فبعد ثلاثة أيّام من الخدمة في تلك المؤسسة، جنباً إلى جنب مع ممرضتين وأطباء آخرين مثاليين يتأهبون الحضور، استعاد فيكتور حماسة اندفاع شبابه. كان يرجع إلى بيته بفرد مضغوط، وبسلسلة من القصص المأساوية، متعباً مثل كلب، ولكن متلهف للعودة إلى العيادة. لقد كان لحياته هدف واضح جداً، مثلما في أزمته الحرب الأهلية، حين كان دوره في هذا العالم مُسلم به ولا جدال فيه.

- لو أنك تربين كيف بتنظم الناس، يا روزر. من هم قادرون يصيفون شيئاً إلى الوجبة المشتركة التي تُطهى في قدور كبيرة على مواقد في

١٥٠. انطلق الفكرة تتمثل في تقديم طبق ساخن لكل شخص. وإن
لا تكفي الجميع أحياناً.

الآن، صرْتُ أعرف أين يذهب راتيك، يا فيكتور.

ليست الحاجة ماسة إلى الضمام فقط، يا روبرت، فهناك نقص في
١. هو أساسي في العبادة.

أوضح لها كيف أنَّ سكان الحي يحافظون على النظام، لينجسوا
حل الشرطة التي تقتحم المكان عادة بأسلحتها الحربية. وأنَّ الحلم
المتجبل يتمثل في امتلاك سقف خاص، وأرض يستقرون عليها.
من السابق، كانوا يحتلون قطعة أرض ويقاومون الإخلاء بعناد متشدد.
الاستيلاء يبدأ ببضعة أشخاص يصلون خفية، ولا يلبث أن يظهر
العربيد والعزبد، موكب متكنم لا يحصى يتقدم بممتلكاته القميلة على
حامل وعربات يدوية، في أكياس على الكتف، يجرجرون مواد نافذة
مؤفرة لتكون سقفاً: قطع كرتون، بطانيات. ويحملون الأطفال على
مهورهم؛ بينما الكلاب تمضي وراءهم. وعندما نزل السلطات بالأمر،
تكون آلاف الأشخاص قد استقروا، ويكونون مستعدين للدفاع عن
أنفسهم. كان يمكن لهذا أن يبدو جراً انتحارية في هذه الأزمنة التي
يعيشها، عندما يكون بإمكان قوات فرض النظام أن تتدخل بالدبابات،
ونستخدم البنادق الرشاشة من دون أدنى وازع.

يكفي أن يعطر لبال قائد من الجيران أن يقترح احتجاجاً أو
اعتصاماً كي تختفي آثاره؛ وإذا ما روي من جديد، فمن يكون سوى جثة
نظير عند مدخل المحيّم كتحذير للآخرين. هناك ألقوا بجسد المغني
فيكتور خارا معزقاً بأكثر من أربعين رصاصة. هذا ما أخبروني به.

كان يعالج في العيادة حالات مستعجلة؛ حروقًا، كسور عظام، جراح مشاجرات بالسكاكين أو القوارير الزجاجية، عنفاً منزلياً.. وباختصار، لا شيء، يعني أيّ تحدٍّ كبير له، لكن مجرد وجوده يمنح سكّان الحيّ نوعاً من الأمان. كان يرسل الحالات الحرجة إلى أقرب مستشفى، ولعدم وجود سيارة إسعاف، كان في معظم الأحيان ينقلهم هو نفسه بسيّارته. لذا، حذّروه من السرقات، فليس من المناسب أن يصل إلى هناك بسيّارته، إذ يمكن أن يجري تفكيكها لبيع قطعها في سوق المسروقات، ولكنّ إحدى القيادات، وهي جدّة لكتّنها لا تزال شابة، لها طباع محاربة أمازونية، حذّرت السكّان، وخاصّة المراهقين المنحرفين، بأنّ أوّل من سيلبس سيارة الدكتور سوف يوقع نفسه في مشكلة سيئة جداً. وكان ذلك كافياً. لم يتعرض فيكتور لأبّنة مشكلة أبداً. انتهى الأمر بال دالماو إلى العيش على مدحراتهم، وعلى ما تكسبه روزر، لأنّ راتب فيكتور في العيادة كان يذهب بكامله لشراء ضروريات العيادة التي لا بدّ منها. وجدته روزر راضياً حدّاً، حتّى إنّها قرّرت المشاركة معه. حصلت على آلات موسيقية تمويل من فالتين سانتشيث الذي أرسل إليها شيكاً دستاً، وشحنة آلات موسيقية من فنزويلا، وصارت تذهب إلى المخيم لتعليم الموسيقى في الأيام نفسها التي يذهب فيها زوجها إلى العيادة. اكتشفت أنّ ذلك يوحد بينهما أكثر من ممارستهما الحبّ، لكتّنها لم تقل له ذلك. كانت ترسل إلى فالتين سانتشيث معلومات وصوراً. وخلال سنة سيكون لدينا كورال أطفال وفرقة أوركسترا شبايئة. سيكون عليك أن تأتي لترى ذلك بعينيك. ولكنّا نحتاج حالياً إلى أجهزة تسجيل ومكبرات صوت جيّدة من أجل الحفلات الموسيقية في الهواء الطلق، أوضحت له، وهي تعلم أنّ صديقتها ستدبر الأمر للحصول على مزيد من الأرصدة.

كان يفكر بشيء من الحسد في الوصف الشاعرِي للحياة الريفية
التي تعبثها أوفيلبا دل سولار، فعمل فيكتور على إقناع روزر كي يستقرا
مارج المدينة، لأنّ ستيباغو ليست سوى كابوس حركة مرور، وأناس
مختلين وسيئي المراج. أضف إلى ذلك أنّ الصباح يطلع عليها بسحابة
مباب خاق. توصلا إلى ما يبحثان عنه: بيت وبقري، مشيد من الحجر
والخشب، وسقفه مغصى بالقش، وهذه نزوة من المهندس المنساحي مع
المشهد الريفي. فعندما جرى بناؤه، قبل ثلاثة عقود، كان درب الوصول
إليه أشبه بأفغوان متنوّ بين محدورات تملكها البغال، ولكنّ العاصمة
كانت تنمو وتتوسّع باتجاه أطراف سلسلة الجبال. وعندما اشتريا البيت،
كانت تلك العنطفة المغصّعة إلى قطع أرض وبساتين ضمن التوسّع.
م نكن رسائل النقل العامّ تصل إلى هناك بعد، ولا نريد كذلك
وبكنهما كانا ينامان في صمت الطبيعة العميق، ويستيقظان على كروال
العصافير. خلال أيام الأسبوع، يتهضان في الساعة الخامسة بحراً من
أجل الذهاب إلى العمل، ويرجعان بعد حلول الظلام، ولكنّ الوقت
الذي كانا يقضيه في هذا البيت يمنحهما الحماسة للصراع ضدّ أيّ
برع من عدم المواتاة خلال النهار، بكون البيت خاوياً من ساكنيه، وكان
في الستين الأوليين قد تعرّض للسرقة إحدى عشرة مرة. كان الشرفاق
نشالين بالنسب، ولم يكن هنالك ما يدعو إلى الغضب أو استدعاء
الشرطة. فقد سرقوا خرطوم ريّ الحديقة والدجاجات، وبعض أدوات
المطبخ، ومذياع بطارية، وساعة المني.. وأشياء أخرى تافهة. وقد أخذوا
كذلك أوّل تلفزيون، ثم أخذوا جهازين آخرين حلّ محلّ الأوّل؛ فقرّرا
الاستغناء عن استخدام جهاز التلفزيون. وعلى العموم، كان ما يمكن
رؤيته على الشاشة ضئيل الأهميّة. وكانا يبحثان إمكانية ترك الباب

مفتوحًا، لبتجنيبوا احتمال تكسير السارقين للزجاج كي يدخلوا...
حاء هم مارسيل بكلبين كبيرين حصل عليهما من مأوى الكلاب الله...
في البلدة؛ كانا يتبحران عالميًا، ولكنهما ودعا جدًا؛ وكلب آخر...
يعرض. فحلّ لهما بذلك مشكلة السرقات.

كان مارسيل يعثر ويعمل مع من يدعوهم فيكتور...
«المحظوظون ذوو الامتيازات»، لعدم وجود تصنيف آخر أكثر دقة. «أ»
أن مقارنتهم بمرصاء في النخب، تؤكد أنهم متميزون. كان المصداق
يزعج مارسيل، لأنه لا يمكن أن ينطبق تعميماً على زملائه كآدم،
ولكنه لا يرغب في خوض جدل بينه وبين أبيه: «أنتما لقي أم»
من الماضي، يا عجوزي، وما زلتما عالقتين في سنوات السبعين...
عليكما متابعة المصنّعات. يتصل بهما هاتفياً كل يوم، ويرورهما
أيام الأحاد من أجل حفلة التساء الإجبارية التي يفرضها فيكتور، بأن
برفقة نساء مختلفات، ولكن من الطراز نفسه، نحيفات جدًا، شعور طوباء
سبطة ومنهذلة، موهنات وبنائيات على الدوام تقريبًا، مختلفات نماء
الاختلاف عن الجامعية ذات الدم الساخن التي أدخلته دنيا الحب
فلا يتوصل أبوه إلى تمييز زائرة يوم الأحد الحالي عن سابقتها، ولا
يتوصل إلى تذكر اسم إحداهن قبل أن يكون الابن قد استبدلها بواحدة
مماثلة لها تقريبًا. وعند وصول مارسيل، كان يبادر إلى الهمس في أذن
فيكتور بالألا يتكلم عن المنفى، ولا عن عيادته في القرية، لأنه نعرف
على هذه الفتاة للتو. وهو غير متأكد من ميولها السياسية، إذا كانت لها
مثل هذه الميول. فبرّد عليه فيكتور: «تكفي مجرد رؤيتها، يا مارسيل
إنها تعثر في فقاعة، ليست لديها فكرة عن الماضي ولا عما يحدث
الآن. جيلك يفتر إلى المتألّبة». وينتهي بهما الأمر إلى الانزواء في

محررة المؤونة يتنافسان هناك، بينما تقوم روزر بالهاء الزائرة. بعد ذلك، عندما يكونان قد تصالحا، ينوئى مارسيل شواء شرائح لحم العجل لئلا يمتد، بينما يتهمك فيكتور في غلي أوراق سبانخ للفتاة ذات الشعر السطو. وغالبًا ما ينضم الجبران. ميتشه وزوجها راميرو، ومعهما سلّة عصاف طارحة من بسنتاهما ومرطبان مرمّلات مصنوعة بيتًا. وبحسب أي روزر، فإن راميرو سوف يموت في أي لحظة، على الرغم من أنه سليم صحيحًا؛ والواقع أن هذا ما جرى: صدمه سائق متعمد فسأل فيكتور وجهه عن صديق أي شياطين عرفت أنه سيموت؛ فقالت له إنها كانت ترى ذلك في عينه، لأنه كان موصومًا بالموت. «عندما تترمل، تروّج من ميتشه، هل فهمني؟» همت روزر في أذن فيكتور. «سأ أفسدك على حمامان الرجل النسكين. هُي فيكتور رأسه موافقًا. لأنه كان مساكًا من أن روزر ستعيش سنوات عديدة أكثر منه.

عمل فيكتور وروزر ثلاث سنوات كمنظّفين في المنخب؛ وكب نفقة سكانه، قبل أن تأمر الحكومة بإجلاء العائلات إلى أماكن أخرى في محيط العاصمة، بعيدًا عن الأحياء البرجوازية وفي سنياغو، وهي إحدى أكثر مدن العالم تمييزًا وتفارقة، لا يعيش فقير واحد على مرأى الأحياء الراقية. وصل رجال اندرك يتبعهم الجود، فصلوا بين الناس سلطنة السلاح، وحملوهم في شاحنات للجيش يحرسهم دور زكي عسكري على دراجات نارية، من أجل توزيعهم على عدّة بلدات أسقفية، جميعها متشابهة، بشوارع غير مرصوفة، وصقوف مساكن أشبه بعلب موضوعة على التراب. لم يكن المنخب الوحيد الذي يُجسّ. فخلال زمن قياسي، نقلوا أكثر من خمسة عشر ألف شخص من دون أن يعرف بقية المواطنين ذلك. لقد نحّول الفقراء إلى غير مرئيين. خصّصوا لكل

أسرة مكنّا أزلّيا من ألواح خشبيّة، مؤلّفا من غرفة متعدّدة الاستخدام. وحمام ومضخ، يبدو أكثر وقارًا من الأكواخ التي جاؤوا منها، ولكنهم وضعوا حدًّا لذلك المجتمع. نشئت شمل الناس، تفرّقوا، وأصبح بالإمكان الثقل منهم، والتحكّم بهم بسهولة، صار على كلّ واحد منهم أن يهتمّ بنفسه.

نُفذت العمليّة بطريقة سريعة ودقيقة جدًّا، بحيث لم يعلم بها فيكتور وروزر إلّا في اليوم التالي، عندما ذهبا للعمل كالعادة، ووجدوا المداخل الثقيلة تسوّي أرض المكان حيث كان المخيم، من أجل بناء عمارات شقق سكنيّة. وقد احتاجا إلى أسبوع من البحث لتحديد مكان بعض الجماعات المجرّنة، ولكنّ في مساء ذلك اليوم بالذات جرى تحذيرهما من قبل عملاء الأمن بأنّهما تحت المراقبة؛ وأنّي تواصل مع السكّان المقيمين سيُعتبر عملاً تحريضيّاً. كان الأمر في نظر فيكتور عملاً خبيثاً وسيّئ التواكب. لم تكن لديه أيّ نيّة للتقاعد عن العمل سيواصل تحمّل مسؤوليّة أشدّ الحالات تعقيداً في العيادة، ولكنّ لم يعد بإمكانه ممارسة عمله الجراحيّ الذي يحبه، ولم تُعدّ النقود التي يكسبها تعوّضه عن فقدانه مرصاه من سكان المخيم.

في عام 1987، وبضغوط من الداخل بسبب التذمّر الشعبي، ومن الخارج بسبب سوء السمعة التي تعاني منها الدكتاتوريّة، وُضع حدّ لحظر التجوّل، وحُفّفت الرقابة على الصحافة قليلاً، وكان الأمران سائدين منذ نحو أربعة عشر عامًا، وسمح للأحزاب السياسيّة بالعمل ويعودة من تبقى من المنفيّين. صارت المعارضة تطالب بانتخابات حرّة. وكرّد على هذه المطالبة، فرضت الحكومة استثناء لتقرير بقاء بينوشيه في الحكم أو عدم بقائه لثمانية أعوام أخرى. وفيكتور الذي لم يشارك

في السياسة من قبل، عانى من نتائجها كما لو أنه قد شارك فيها، فقدّر الآن أنّ الوقت قد حان كي يلعب بصورة سافرة، وعلى المكشوف. ترك العبادة، وانضمّ إلى المعارضة التي يجب عليها القيام بالمهمة البطولية في تعبئة البلاد لهزيمة الحكومة العسكرية في الاستفتاء. وعندما جاء إلى بيته عملاء الأمن أنفسهم الذين كانوا قد هددوه من قبل، طردهم بطريقة مهينة. وبدلاً من أن يقتادوه بعد وضع الأصفاذ في معصبيه، ونقطة رأسه بكيس، ردّوا عليه بتهديدات غير مضمّنة، وغادروا. وسوف يعودون، قالت له روزر غاضبة، ولكنّ الأثام مضت ثمّ الأسابيع من دون أن تتحقّق توقّعاتها! فكان ذلك مؤثراً على أنّ الأمور ذاهبة إلى التغيير في تشيلي، مثلما توقّع مارسيل قبل أربع سنوات. لقد بدأ إفلات الدكتاتورية من العقاب بالتحوّل إلى هباء.

جرى الاستفتاء بهدوء مفاجئ، تحت أعين مراقبين دوليين وصحافة العالم بأسره. لم يبق أحد إلّا وأدلى بصوته، بمن في ذلك كبار السنّ الذين على مقاعد ذات عجلات، ولم تتخلّف حتّى النساء اللاتي يشعرن بالآلام المخاض، ولا المرضى الذين على أسرة نقالة. وفي نهاية النهار، وبعد تجاوز أشدّ مناورات رجال السلطة دهاء، هُزمت الدكتاتورية في ميدانها الذي اختارته، وبقواتها بالذات. في تلك الليلة، وحبال النتائج التي لا يمكن إنكارها، اقترح بينوشيه، المتصلّب باعتياده على السلطة المطلقة والمعزول عن الواقع بستوات من الإفلات التام من العقاب، اقترح القيام بانقلاب عسكريّ آخر ليؤيّد وجوده على كرسي الرئاسة، ولكنّ عملاء المخابرات الأميركية الذين دعموه في السابق، والجنرالات الذين اختارهم هو نفسه، لم يجاروه. وغير مصدّق لما جرى حتّى الملمحة الأخيرة، انتهى به الأمر إلى الاعتراف بهزيمته. بعد شهر

من ذلك، سلم المنصب إلى شخص مدني، لنبداً مرحلة انتقالية إلى ديمقراطية مشروطة وحذرة، ولكنه استبقى القوات المسلحة في قبضه. والبلاد في حالة عبيثة. كان قد انقضى سبعة عشر عامًا على انقلاب العسكرين.

مع عودة الديمقراطية، ترك فيكتور دالماو العيادة الخاصة كي يتفرغ حصرياً لمستشفى سان خوان دي ديوس، حيث أعيد إلى الموقع الذي كان يشغله قبل اعتقاله. وكان المدير الجديد للمستشفى أحد تلامذة فيكتور في الجامعة، وقد امتنع عن ذكر أن أستاذه قد صار في سن تكفي لأن يتقاعد، ويستمتع بشيخوخته. وصل فيكتور في يوم اثنين من شهر نيسان/أبريل برئانه الأبيض وحقيبته المستهلكة خلال أربعين سنة من الاستخدام. ووجد معه بين قرابة خمسين شخصاً في القاعة، ما بين أطباء وممرضات وإداريين. يحملون البالونات الملونة وقالب حلوى هائل تقطر منه كريماً المارينغ، ليقبلوا له حفل الترحيب الذي لم يستطيعوا الاحتفاء به سابقاً، فما هذا، يا للهون، إنني أتحوّل عجوزاً! فكر، بينما الدُموع تصفح عينه. ثم يلبك خلال سنوات ضويلة. المحرورون القليلون من العمل الذين رجعوا إلى المستشفى استقبلوا بقدر أقل بكثير من التودد، لأن لفات الانتباه كان تهوؤاً! والشعار المضمر على المستوى الوطني، من أجل عدم استفزاز العسكريين، كان التظاهر بأن الماضي القريب قد دُفن، وعلى وشك أن يلفه النسيان، ولكن الدكتور دالماو كان قد ترك ذكرى دائمة لدى العشرات، وتقديراً بين زملائه، ولطفاً بين مرؤوسيه الذين كان يسقوهم اللجوء إليه في أية لحظة مع اليقين بأنهم سيُقابلون بالترحاب. حتى خصومه الأيديولوجيون يحترمونه، ولهذا لم يش به أحد منهم. لقد كان فيكتور مدبناً بسجته ومنغافاً لصحيته حاقدة،

نعرف صداقته لسلفادور ألييندي. وسرعان ما اتصلوا به من كلية الطب ليعطي دروسًا، ومن وزارة الصحة ليتولّى منصب معاون أمين الصحة. وافق على العرض الأول، ورفض الثاني، لأن الشرط كان الانضمام إلى أحد أحزاب الحكومة؛ لقد كان يعرف أنّه ليس حيوانًا سياسيًا، ولن يكون كذلك أبدًا.

صار يشعر أنّه أصغر عشرين عامًا، ويمشي بهيئة مفرطة. فبعد أن مرّ بتتكبل ونفي في تشيلي، وبعد أن كان أجنبيًا خلال سنوات طويلة، فاجأه الحظّ بانتقاله بين ليلة وضحاها: صار البروفيسور دالمار، مدير قسم الأمراض القلبية، والاختصاصي الأوسع تقديرًا في البلاد، القادر على تحقيق ما أثر بمبضعه لا يخطر لأخربين مجرّد محاولتها، والمحاضر الذي لا يتورّع حتّى أعدائه عن استشارته، مثلما تنبّئ في أكثر من مناسبة، عندما كان عليه أن يجري مداخلات جراحية لاثنتين من العسكريين ذوي الرتب العالية، وكانا لا يزالان في مواقع السلطة، ومن أشدّ استراتيجيتي القمع المتحمسين خلال مرحلة الدكتاتورية. وحيال ضرورة إنقاذ حياتهم، كان أولئك الرجال يأتون وذيلهم بين سيقانهم ليستشروه؛ فالخوف من الموت لا يعرف الخجل، مثلما كانت تقول روزر. لقد كانت ساعته، وكان في ذروة مسيرته، ويشعر، بصورة غريبة غامضة، أنّه يجسّد تحول البلاد؛ فالظلال قد تراجعت، وأشرق فجر الحرية، وبالتالي كان هو أيضًا يعيش فجرًا بديعًا. انكبّ على العمل؛ ولأوّل مرّة في مسيرته الإنطوائية، صار يبحث عن نيل الاهتمام، ويستنهز الفرص للظهور أمام الناس. «حذار، يا فيكتور، إنك تمضي منتشيًا بالنصر. تذكر أنّ الحياة كثيرة التعقّب»، فالتها له روزر محدّدة. وقد قالت ذلك مفكّرة في أنّه قد تحول إلى شخص مغرور. فقد راقبته بقلق. ولاحظت نبرة صوته

المتحذلق، ومزاجه السلطوي، وميله إلى التكلّم عن نفسه، وهو ما لم يكن يفعله بأيّ حال من قبل، فضلاً عن آرائه الجازمة، ومزاجه المنسرع وعديم الصبر، حتّى معها هي نفسها. لفتت نظره إلى ذلك، فردّ عليها أنّ لديه الكثير من المسؤوليات، ولا يمكن له أن يمشي في بيته بالذات كمن يمشي على نيتّ! رآته روزر وهو يتناول الغداء في كافيتريا الكلبيّة، محاطاً بطلّاب سباب يستمعون إليه بنوفير تلاميذ، واستطاعت أن تقدّر كيف يستمتع فيكتور بذلك التوفير، وخاصّة من الفتيات اللاتي يحنّفن حتّى بتعليقاته التافهة بتقدير غير مُسوّغ. أمّا هي التي تعرف قلباً وقلّاباً حتّى آخر ركن فيه، فقد فوجئت بهذا النباهي المتأخّر، ورثت لحال زوجها؛ فقد كانت تكتشف كم يكون العجوز المنزوي سريع العطب عند الإطراء عليه. ولم تكن تتخيّل أنّها ستكون هي نفسها انقلاب الحياة الذي سيخفّف من غرور فيكتور.

بعد ثلاثة عشر شهراً من ذلك، خامت روزر الشكوك بأنّ داء خفياً أخذ بنهشها ببطء، لكنّها أقنعت نفسها بأنّها لا بدّ أن تكون أعراض التقدّم في السنّ، أو مجرد تهبّؤات من مخيلتها، لأنّ زوجها لم يلحظ شيئاً. كان فيكتور مشغولاً جدّاً بنجاحاته إلى حدّ أهمل معه العلاقة بها، على الرّغم من أنّها عندما يكونان معاً يطلّ أفضل أصدقائها، والعشيق الذي يجعلها تشعر بأنّها جميلة ومرغوبة وهي في الثالثة والسّتين من العمر. وهو أيضاً كان يعرفها جيّداً خارجاً وباطناً. وإذا كانت خسارتها لوزنها، ولون بشرتها الضارب إلى الصفرة، ونوبات غثائها لم تثر قلق فيكتور، فلا شكّ أنّ الأمر يقتصر على مرض ضئيل الأهميّة. وكان لا بدّ من مرور شهر آخر قبل أن تفرّر امشارة أحد ما، لأنّها فضلاً عن الإزعاجات السابقة، صارت تستيقظ وهي ترتعش محمومة. وباحساس

عامض بالحياه، وكيلا تبدو محبة للشكوى أمام زوجها، ذهبت لرؤية
أحد زملائه. وبعد بضعة أيام، عندما أعطوها نتائج الفحص، وصلت إلى
البيت بالخبر الخبيث بأن لديها سرطاناً في المراحل النهائية. وكان
عليها أن تكرر ذلك مرتين كي يخرج فيكتور من ذهوله، وبأني برّد فعل!
منذ ذلك الشخص، تعرضت حياة كليهما إلى تبدلات كبيرة،
لأن الشيء الوحيد الذي يرغبان فيه حقاً هو أن يطبلا ويستغلا معا
الوقت المتبقي لهما. لقد فُش انتفاخ زهو فيكتور بوخزة واحدة، وهبط من
الألمب إلى جحيم الداء. طلب إذناً مفتوحاً من المستشفى، وتخلّى
عن دروسه ليكرّس نفسه بالكامل لروزر. «سنفعل كلّ ما نستطيعه لقضاء
هذا الوقت على أحسن وجه، يا فيكتور. ربّما تكون الحرب ضدّ هذا
السرطان خاسرة، ولكننا في أثناء ذلك سوف نكسب بعض المعارك». أخذها
فيكتور في رحلة شهر عمل إلى بحيرة في الجنوب، إنّها مرآة
بلون الزمرد تعكس صورة غابات، وشلالات، وجبال وقمم للجيّة لثلاثة
براكين. في ذلك المشهد الخيالي، وفي صمت الطبيعة المطبق، وبينما
هما مسنفرّان في كوخ بدائي، بعيداً عن كلّ شيء وعن الجميع، استطاعا
أن يستذكرا كلّ مرحلة من ماضيهما، منذ الزمن الذي كانت هي فيه
نلك الفتاة النحيلة المعرّمة بوليام، حتّى الوقت الحالي الذي تحوّلت
فيه إلى أجمل امرأة في العالم بعيني فيكتور. هي من أصرّت على
السباحة في البحيرة، كما لو أنّ تلك المياه الجليدية والنقيّة قادرة على
غسلها من الداخل والخارج، وتطهيرها وشفائها. وأرادت القيام بجولات
جبلية كذلك، ولكن قواها لم تنع لها أن تمشي مثلما تريد، وكان ينتهي
بهما الأمر إلى الشير ببطء، وهي متعلّقة بذراع زوجها مع عكاز في يدها
الأخرى. لقد كانت تفقد وزنها بصورة ظاهرة للعيان.

كان فيكتور قد أمضى حياته وهو يناضل ضد المرض وال...
وكان مبتدأ على الانفعالات البركانية التي نهز المريض في الموت، لأنه يُدرّس ذلك في الكلية: إنكار حتمية مصيرها، والألم، غضباً لمعاناتها، ومساومة القدر والألوهية لإطالة أمد وجودها، وال...
في اليأس أخيراً، في أفضل الحالات، والاستسلام حيال ما لا ت...
نجيب. لقد تجاوزت روزر كل المراحل الشابة، وتغيّلت منذ...
نهايتها بهدوء مذهل ومزاج طيب. رفضت اللجوء إلى أساليب العلاج...
البديلة التي اقترحتها عليها ميتشه وصديقات أخريات بطبيب نث...
شيء من الطب التجانسي أو الاعتساب الأمازونية أو المعانجيس أو...
التعزيم! «سأمت، وماذا في ذلك؟ فالجميع يموتون». كانت تستعمل...
الساعات التي نشعر فيها بالتحسن كي تسمع موسيقى، وتعزف على...
البيانو، وتقرأ الشعر بينما القطة في حصنها. هذا الحيوان الذي أهدنها...
إثاء ميتشه، له مظهر سنّوري إمبراطوري، ولكنه كان على الدوام شرساً،...
نائباً ومتوحّداً، وكان يختفي عدّة أيام أحياناً، واعناد أن يرجع حاملاً بغايا...
دامية من أحد القوارص ليضمها كقريان فوق فراش صاحبي البيت. بدا...
أنّ القطة تدرك أنّ شيئاً قد تبدّل، فنحوّلت بين ليلة وضحاها إلى قطة...
وديمة ومرهفة، ولم تعد تبتعد عن روزر.

في البدء، كان فيكتور مهووساً بأساليب العلاج الشائنة وبأساليب...
تجريبية أخرى، يقرأ تقارير طبيّة، يدرس كلّ عقار، ويحفظ ويستذكر...
إحصائيات بطريقة انتقائية، مستبعداً أشدها تشاؤماً، ويتمسك بأيّ بارقة...
أمل. تذكر لا تارو، ذلك الجندي الصغير في محطة الشمال بيرثلونة،...
والذي عاد من الموت، لأنّ لديه رغبة كبيرة في الحياة. تخيل أنّه إذا ما...
استطاع أن يحقن في نفس روزر وفي نظامها المناعي هذه الرغبة نفسها

الحياة، فسوف تتمكنُ من هزيمة السرطان. توجد حالات من هذا
 ١٠م توجد معجزات. فأنت قوية، يا روزر، لقد كنتِ قويةً على الدوام.
 مرصبي قطعاً، أنتِ من حديد، وسوف تخرجين قداماً، فهذا الذء ليس
 ١١على الدوام، كان يردّد هذا الكلام كما في تمويذة مانترا، من دون
 سمكن من أن ينقل إليها عدوى التفاؤل الذي بلا أساس. وفقد كطبيب
 ١٢أمل بمرضاه. جارته روزر إلى حيث تستطيع. ومن أجل إرضائه فقط،
 صممت للعلاج الكيماويّ والإشعاعيّ، وافقة من أن ذلك لا يعني سوى
 حالة عمليّة آخذة بالشحّول إلى مشقّة أكبر فأكبر. تحمّلت هول العقابير بلا
 ١٣ر، مذمّر، وبصبرٍ تميّزت به منذ ولادتها؛ تسافط شعرها كلّ حتّى رموشها،
 ١٤سارت ضعيفةً ونحيلةً إلى حدّ أن فيكتور كان يحملها بين ذراعيه بلا
 ١٥هد. وبين ذراعيه، كان ينقلها من السرير إلى الأريكة، وبين ذراعيه يحملها
 ١٦إلى الحمام، وبين ذراعيه يُخرجها إلى الحديقة كي ترى العصافير على
 نجيرة القوشية، والأرانب البريّة التي تمرّ بقفز سريع مستهزئة بالكلّيين؛
 فقد هزم الكلبان كثيرًا، ولم يعودا إلى إزعاج نفسيهما بمطاردة الأرانب
 البريّة. فقدت روزر الشهيّة، ولكنها كانت تُبذل جهدًا لتبتنع لغميتين من
 الأطباق التي كان هو نفسه يطبخها لها مستفبداً من كتب الطبخ. وفي
 النهاية، لم تُعد تأكل سوى الكريما الكتلائيّة، والحلوى التي كانت تُعدها
 الجدة كارمي لمارسيل في أيّام الأحاد. وفي أحد الأيام، قالت له روزر:
 «عندما أعادر، أريدك أن تبكي عليّ يومًا أو يومين، على سبيل الاحترام،
 وأن تواسي المسكين مارسيل، وأن ترجع إلى مستشفىك وإلى دروسك،
 ولكنّ بمزيد من التواضع، يا فيكتور، لأنك كنت لا تُطاق».

كان بيت الحجر والقشّ ملاذهما حتّى النهاية. عاشا فيه ستّ
 سنوات سعيدة، ولكن في ذلك الحين، عندما كانت كلّ دقيقة من

النهار أو الليل رائعة، قدّرا البيت بكلّ رحابة. لقد اشترياه عندما ..
 في حالة متردّية، وراحا يؤجّلان، بلا نهاية، عمليات التصليح والنّرم.
 الضرورية! كان لا بدّ من تغيير أياجورات النوافذ المخلّعة، وإعادة بأها،
 الحمايين وخزفهما الورديّ الذي تتخلّله أحزمة معدنيّة صدئة، وإصلاح
 الأبواب التي لا تُغلق، وإذا أغلقت لا يُمكن فتحها؛ وكان عليهما
 التخلص من قشّ السفف شبه المتعفّن، حيث كانت تعشّش الجردال،
 وتنظيف الأركان من شبّاك العناكب، والطحالب، والعنّة، ونفض البسّط
 المثقلة بالغبار. لم يكن أيّ منهما ينتبه إلى شيء من ذلك كلّ كان
 البيت يحضنهما كعناق، ويحميهما من الانشغالات غير العجدية ومن
 فضول ونأسف الآخرين. الزائر الوحيد العنيد هو الابن. كان مارسيل يأتي
 في كلّ وقت محمّلاً بأكياس من السوق، مع طعام للكلاب، وللقطة
 والببغاء التي نحييه دوماً بعبارة «مرحباً، يا جميل» نقولها بحماسة، ويأتي
 معه بتسجيلات موسيقى كلاسيكيّة لأُمّه، وبأشرطة فيديو لتسليتهما،
 وبصحف ومجلّات لا يقرأها فيكتور، ولا روزر كذلك، لأنّ العالم
 الخارجيّ ينقل عليهما. كان مارسيل يسعى إلى أن يكون متكثّفاً، فهو
 يخلع نعلته عند الباب كيلا يُخلّط ضجّة، ولكّنه يملأ الجوّ بحضوره
 كرجل كبير، وبسعادته المصطنعة. أبوابه يشتاقان إليه إذا ما مرّ يوم
 من دون أن يجي. لروّيتهما؛ وعندما يكون معهما يسبّب لهما الدّوار.
 وكذلك الجارة مينشه، تأتي صامتة لتترك طعاماً عند المدخل، وتألّهما
 إذا كانا بحاجة لأيّ شيء؛ لم تكن تبقى سوى لحظات قليلة، لأنّها تدرّك
 أنّهنّ ما يملكنه آل دالماو هو الوقت الذي يقضيهان معاً، وقت الوداع.
 وجاء اليوم الذي كانا فيه يجلسان جنباً إلى جنب على الأريكة
 التي من الخيزران عند المدخل، بينما انقطعت معهما، والكلبان عند

الدامهما، ومنظر الجبال الذهبية وسماها ما قبل الغروب الزرقاء، طلبت
«وزر من زوجها راجية أن يفلتها، أن يتركها نذهب، لأنها متعبة جدًا.» لا
«أخذني إلى المستشفى مهما كانت الأسباب، أريد أن أموت في بيتنا،
وأنا أمسك بيدك.» فما كان من فيكتور، وقد هُزم أخيرًا، إلا أن يتقبل
عجزه بالذات. لا يمكنه إنقاذها، ولا يمكنه تحيّل الحياة من دونها.
وأدرك مفزعًا أنّ نصف القرن الذي أمضياه معًا قد انقضى بعددٍ سريع.
إلى أين ذهبت الأيام والسنون؟ المستقبل من دونها هو الحُجرة هائلة
الأنساع النخاوية، بلا أبواب ولا نوافذ، الحُجرة التي تظهر له في كوابسه.
كان يحلم بأنّه يهرب من الحرب، من الدم والأجساد الممزقة، يركض
ويركض في اللّيل؛ وفجأة، يجد نفسه في تلك الحُجرة مُحكمة الإغلاق
حيث هو بمنجى من كلّ شيء، إلا من نفسه بالذات. لقد تسرّبت من
عظامه حماسة الشهور السابقة ونشاطها، عندما كان يعتقد أنّه عصيّ
على التأثير بتقدّم السنّ. المرأة التي إلى جانبه هرمت أيضًا خلال دقائق
قليلة. قبل لحظات، كانت مثلما اعتاد أن يراها دائمًا، ومثلما كان يتذكّرها
في غيابها، الشابة ذات الاثنين وعشرين عامًا وبين ذراعيها طفل حديث
الولادة، والتي تزوّجت منه بلا حب، وأحبّته أكثر من أيّ كائن في هذه
الدنيا، الرّقيقة. معها عاش كلّ ما يستحقّ أن يُعاش. وحيال اقتراب
الموت، صار زعم حبّها لا يُطاق كأنّه حرق. أراد أن بهزّها، أن يصرخ بها
ألا تفادى، دائمًا سنوات ما زالت أمامهما ليحبّ كلّ منهما الآخر أكثر من
أيّ وقت مضى، كي يبقيا معًا من دون فراق ولو ليوم واحد، ولأرجوك،
أتوسّل إليك، يا روزر، ألا تتركيني؟. لم يقل لها شيئًا من هذا كلّهُ، ومع
ذلك، كان عليه أن يكون أعمى كيلا يرى الموت في الحديقة، ينتظر
امرأته بصبره الشبحي.

كانت تسري نسمة باردة، وكان فيكتور قد دثر روزر مطا.
عطائها حتى أنفها. لم تكن تظهر من كتلتها سوى يد واحدة مطا.
تتشبث بيده بقوة أكبر مما يبدو أنها تقدر عليه: «لست خائفة،
الموت، يا فيكتور. إنني سعيدة، أريد أن أعرف ماذا هنالك فيما»،
وأنت أيضاً يجب ألا تخاف، لأنني سأظل دوماً معك في هذه الحياة»،
الحيوات الأخرى. إنها الكارما العاصفة بناء. انخرط فيكتور في الصلاة.
وبكى كطفل، مع نجيب يائس. تركته روزر يبكي إلى أن جفت دموعه
وراح يستسلم لما تقبلته هي نفسها منذ عدة شهور. «لن أسمع بأن نمار
أكثره، كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع فيكتور تقديمه إليها
نكورت هي في تجويف ما بين ذراعيه، مثلما تفعل كل ليلة، وأسلم.
نفسها للهز والتهديل إلى أن نامت. كان الظلام قد خيم. أبعد فيكتور
القطة، حمل روزر برفق كيلا يوقظها ووضعها في الفراش. لم يكن يحدث
أي شيء تقريباً. تبعه الكلبان.

الفصل الثالث عشر هنا أنتهي من القصي 1994

ومع ذلك،
ها هنا جذور حلمي،
هذا هو النور الغاسي الذي نحسب...

يابلو نيرودا
«عودة»، إبحارات وهودات

بعد ثلاث سنوات من موت روزر، أكمل فيكتور دالماو ثمانين عامًا من عمره في بيت الجبل، حيث عاش معها منذ عودتهما إلى ليبي عام 1983. لقد كانت ملكة هرمة مرنجفة ورثة الشياب، لكنّها لا ال نبيلة. أمّا فيكتور المحبّ للتضامن منذ طفولته، فكانت وطأة الترمّل وله أكبر مآ يتخيّله. لقد حصل على أفضل زواج، وهذا ما يُمكن أن نغوله أيّ شخص عرفهما ولا يعرف تفاصيل الماضي البعيد الصغيرة، وعند الترمّل لم يستطع أن يعتاد على غياب امرأته بالسرعة التي كان يُمكن لها هي نفسها أن تتأّھا له. «عندما أموت، عليك أن تتزوَّج سريعًا، لأنك ستحتاج لمن يعتني بك قبل أن تهرم كثيرًا ونصاب بالعتة. لن تكون ميسرته سيئة»، أمرته هي نفسها في النهاية، وسط زفريات آلة الأوكسجين. وعلى الرُّغم من وحدته، كان فيكتور يحبّ البيت الخاوي، إذ يبدو كما لو أنّه قد تمّدّد في عمدة اتجاهات، الصمت، فوضاء، رائحة الحجرات المغلفة، البرد وتيارات الهواء التي قارعتها امرأته بضراوة أشدّ من ملاحقتها قوارض السقف. كانت الريح قد هبّت بغضب في اليوم السابق، وكان زجاج النوافذ مطموسًا بطبقة الصقيع، وكانت النار في المدفأة محاولة مُضحكة لمقاومة هذا الشتاء كثير المطر والبرّد. كان الترمّل يبدو له غريبًا، بعد أكثر من نصف قرن من التعايش الزوجي!

إنه يشعر بشوق كبير إلى روزر، بل إنه يشعر بغيبائها أحيانًا كما لو أنه
 بدني. لا يريد أن يستسلم للشيخوخة. فما التَّقدُّم في السنّ إلّا
 وتكبير للواقع المعهود، تبدُّل الجسد وتبدُّل الظروف المحيطة، أو
 بفقدان التَّحكُّم وينتهي إلى الاعتماد على طيبة آخرين وكرمهم.
 يفكر في أن يموت قبل الوصول إلى ذلك الحدّ. المشكلة تكون أنه
 في مدى صعوبة الموت بكرامة وسرعة. يبدو الاحتمال ضئيلًا
 تنضي عليه سكة قلبيّة، لأنّ قلبه سليم. هذا ما يكرّره له طبيبه مرّة
 عام. عندما يفحصه، فيستدعي هذا التعلّق دومًا ذكرى حيّة إلى دهر
 فيكتور، إنَّها ذكرى لا تارو، ذلك الجنديّ الذي أمسك قلبه بأصابعه دار
 يوم لم يكن يتقاسم مع ابنه الخوف من المستقبل المباشر والقريب.
 دوشا. أمّا المستقبل البعيد، فسوف يهتمّ به فيما بعد.

- يمكن أن يحدث لك أيّ شيء، يا أبتاه. إذا ما وقعت أو أصابك
 صدمة أو نوبة عندما أكون مسافرًا، يمكن أن نظلّ مرميًا بلا ماعده
 لأبنا. ماذا ستفعل في هذه الحالة؟

- أموت وحسب، يا مارسيل، وأتوسّل ألا يظهر أحد ليعرّ علي
 احتضاري. لا تغلق على حيوانائي. فهي لديها على الدوام طعام وما
 لعدّة أيام.

- وماذا لو مرضت؟ من سيعني بك؟

- هذا ما كان يُقلق أمك. سوف نرى. إنني عجوز، ولكنني لست
 هرمًا. أنت لديك أوجاع أكثر منّي.

وكان محقًا. فابنه الذي في الخامسة والخمسين، استبدلوا
 إحدى ركبتيه، وتكسّرت عدّة أضلاع في صدره، وانكسر عظم الترقوة

« مرئيين، وهذا يحدث لك بسبب الإفراط في التمارين - كان يعثر
 « مكتور عن رأيه؛ من الجيد أن يحافظ المرء على لياقة بدنية، ولكن
 « الذي يخطر له أن يركض من دون أن يكون هناك من يطارده، وأن
 « قطع فازات على دراجة هوائية. عليك أن تتزوج؛ وهكذا يصبح لديك
 « أقل للدراجة وتوصكات أقل، الزواج مناسب جدًا للرجال، حتى
 « لم يكن مناسبًا للنساء». ومع ذلك، لم يكن هو نفسه مستعدًا لاتباع
 « نصيحته نفسها حول الزواج. كان مطمئنًا بصحبته. وقد طُوّر نظريته أن
 « فصل ما يمكن فعله من أجل الحفاظ على الصحة هو تجاهل إشارات
 « الإنذار التي يُرسلها الجسد والذهن، وأن تُبقي نفسك مشغولًا على
 « الدوام. وكان يقول: «لا بد أن يكون لك هدف». لقد كان يضعف مع
 « دور السنوات، وهو ما لا يمكن تجنبه؛ لا بد أن عظامه كانت شديدة
 « الصفرة مثلما هي أسنانه، وأجهزته قد استنفدت، وعقده العصبية تموت
 « شيئًا فشيئًا في دماغه، لكن هذه الدراما تتطوّر بعيدًا عن نظره. فهو يبدو
 « مظهر من لا يزال مقبولًا من الخارج، ومن ذا الذي يهتم بحال الكبد
 « ما دامت أسنانه كلها موجودة. إنه يحاول أن يتجاهل الرضوض التلقائية
 « في الجلد، والواقع غير القابل للدحض بأنه يجد مشقة أكبر كل مرة
 « في صعوده الجبل مع الكلاب، أو ضبط أزرار القميص، والتمب في
 « العينين، والصمم ورجفة اليدين التي أجبرته على التقاعد من العمل في
 « غرفة العمليات، لأنه لم يُقدّر قاترًا على إجراء عمليات جراحية. لم يكن
 « في حالة بطالة. فهو يواصل متابعة أحوال المرضى في مستشفى سان
 « خوان دي ديوس، وإعطاء دورس في الجامعة، وهي دورس لم يُقدّر بحاجة
 « إلى تحضيرها؛ إذ تكفيه سنون سنة من الخبرة، مع حساب سنوات
 « الحرب، وهي أشد السنوات قسوة. كانت كتفاه راسختين في مكانهما،

وجسده متيناً؛ وما زال في رأسه شعره، وهو يقف منتصباً كرمع ليموض
عن غرجه الخفيف، ولأنه يجد في كل يوم صعوبة أكبر في ثني ركبته
وخصره.

وكان يحاذر من الإعلان بصوت عالٍ عن أن الترسل يُنقل عليه.
كيلا يسبب إزعاجاً لابنه. لأن مارسيل كثير القلق، ولديه من هذه
الناحية طبع أم. أما بالنسبة إلى فيكتور، فالموت ليس فرأفاً لا لقاء بعده.
كان يتخيل ووجته ترحل متقدمة في الفضاء الفلكي، ربما إلى حيث
تذهب لتستقر أرواح الموتي، بينما هو ينتظر دوره ليلحق بها بإحساس
أقرب إلى الفضول منه إلى الخوف والنوحس. هناك سيكون مع أخيه
وليام، ومع أبوته، ومع جوردي مولينيه، وأصدقاء كثيرين ماتوا في جبهة
الحرب. بالنسبة إلى شخص لا أدري، عقلاني وذوي تكوين علمي مثله،
نعاني هذه النظرة من أخطاء أساسية، ولكنها تنفعه كعزاء. لقد حذرنه
روزر أكثر من مرة، ما بين جدية ومتوعدة، أنه لن يتحرر منها أبداً، لأنهما
مكرسان لأن يكونا معاً في هذه الحياة وفي أي حيوات أخرى. كانت
تقول له إنهما لم يكونا في الماضي زوجين على الدوام، ومن المحتمل
جداً، في حيوات أخرى، أن يكونا أمّا وابنها أو أخوين، وهذا يفرض علاقة
المحبّة غير المشروطة التي نجمع بينهما. فكرة التكرار اللامتناهي مع
الشخص نفسه تجعله عصيباً؛ وحتى لو كان التكرار أمراً لا مفرّ منه،
فمن الأفضل أن يكون مع روزر وليس مع شخص آخر. وعلى أي حال،
لم يكن هذا الاحتمال سوى نوع من التأمل الشعري، لأنه لا يؤمن
بالقدر ولا بالتناسخ والتجسّد ثانية، الحالة الأولى لأنه يعتبرها خدعة من
خدع الروايات التلفزيونية، وفي الثانية لكونها مستحيلة التحقق رياضيّاً.
وبحسب امرأته التي تتقبل الافتتان بممارسات روحانية من أمكنة غائبة،

مثل النبت، لا يمكن للرصاصيات تفسير أبعاد الواقع المتعددة، ولكن فيمكنور كان يرى في هذا الكلام مجرد ذرائع متحذلقه.

إمكانية العودة للزواج من جديد كانت تبعث فيه قشعريرة؛ تكفيه مرافقة حيواناته. لبس صحنًا أنه كان يكلم نفسه، فقد كان يتحاور مع الكلاب والبيغاه والقطة. أما الدجاجات فلا تُحتسب، لأنها تقتصر إلى أسماء شخصية خاصة، وهي تذهب ونجيء على هواها، وتغتنق البيض كيلا يعثر عليه. كان يصل إلى بيته ليلاً ليروي لحيواناته تفاصيل يومه، لقد كانوا محاوريه في المناسبات النادرة التي يصير فيها عاطفيًا، ويستمعون إليه عندما يخطر له أن يسمي، بعينين مغمضتين، أشياء الحديقة وأزهارها وحيواناتها. كانت تلك هي طريقته في تعرين الذاكرة وتدريب الانتباه، مثلما يقوم مسئولون آخرون بتركيب قطع ألعاب البازل. في الأمسيات الطويلة، عندما يتوافر وقت للتذكّر، يراجع قائمة غرامياته الضخيلة. كانت إليزابيث إيدنبز هي حبه الأول، وقد تعرف عليها بعيدًا جدًا في الزمن، عام 1936. عند التفكير بها، يراها بيضاء وعذبة، كحلوى اللوز. في ذلك الوقت، عاهد نفسه بأنه سوف يبحث عنها بعد انتهاء جميع المعارك. عندما تستقرّ الأقاض ويهدأ البارود على الأرض، سوف يبحث عنها. ولكن الأمور لم تجر على هذا النحو. فعندما انتهت الحروب، كان قد صار بعيدًا جدًا، متزوجًا ولديه ابن. بحث عنها بعد زمن طويل من ذلك، بدافع الفضول وحسب، وعرف أن إليزابيث كانت تعيش في قرية يسويسرا، تسقي نباتات، غير مهتمة بما يُشاع عن بطولتها. وعندما عرف أين نقيم، أرسل إليها رسالة، لكنها لم تجب عليها قط. ربما يكون قد حان وقت الكتابة إليها من جديد، بعد أن صار وحيدًا الآن. ستكون مبادرة لا تنطوي على أية مجازفة، إذ لم

تُعَدُّ هنالك أيُّه إمكانية في أن يلتقيا مجدداً. فما بين سويسرا وتشيلي مسافة ألف سنة ضوئية! نذكر أوفيليا دل سولار، حبة الثاني، حبة فقيرة ومشوية، يُفَضَّلُ عدم تذكره. الغراميات الأخرى قليلة. فهي لم تكن غراميات بكل معنى الكلمة، بل ومضات متفرقة، ولكنه اعتاد التفكير بها، تحمّلها، كي يكبح ذكريات لا يمكن السامع معها. الوحيدة التي يعتدُّ بها هي روزر.

في أحد الأيام، استعدُّ للاحتفال بعيد ميلاده ومشاركة الحيوانات وجبة الطعام المتنوعة التي يُعَدُّها دوماً في هذه المناسبة، كتكريم لأفضل لحظات طفولته وشبابه. أنه كارمي كانت خرقاء في شؤون المطبخ، فما يهشها هو التعليم الذي تمارسه طوال الأسبوع. وفي أيام الأحاد والأعياد، لم تكن تدخل المطبخ أبداً، لأنها اعتادت الذهاب لرقص السردانا قبالة كاتدرائية الحَيِّ القوطي، ومن هناك نذهب إلى الحانة لتستمتع بشرب كأس نبيذ أحمر مع صديقاتها. فكان فيكتور وأخوه وليام وأبوهما يتناولون على العشاء يومياً الخبز المطلي بمهروس الطماطم مع السردين، وقهوة بالحليب، ولكن بين حين وآخر يطلع الصباح على الأم ملهمة، فتفاجئ الأسرة بطبق تقليدي وحيد تُحسِن طهوه، طبق الرزّ الأسود الكتلاني التقليدي، والذي سيبقى شذاً إلى الأبد مرتبطاً باحتفال في ذهن فيكتور.

واحتفاءً بهذه الذكرى العاطفية، سيذهب فيكتور إلى السوق المركزي في اليوم السابق لعيد ميلاده، للبحث عن مكونات الحساء التحضيري، والحبار الطازج من أجل الرزّ. «كتلاني حشّي الممات»، هذا ما كانت تقوله روزر التي لم تشارك قط في عملية التحضير التقليدية لهذا العشاء الاحتفالي، ولكنها كانت تشارك بمعزوفة كونشبرتو على البيانو

من الصالة، أو نجلس على كرسي بلا مسند في المطبخ لتقرأ أشعاراً
 لتيرودا، ربما قصيدة غنائية ذات مذاق بحري، شيء من قبيل «في بحر
 تشيلي العاصف» يعيش الحنكليس الوردّي، ثعبان بحر عملاق تلجّي
 اللحم...، ولم تكن ثمة فائدة تُرتجى من محاولة فيكتور التوضيح لها
 مرة بعد أخرى أن الطبق المعني لا يتضمّن لحم حنكليس بحري، ملك
 المائدة الأرستقراطية، وإنما رّوس وأذيال أسماك بائسة من أجل حساء
 البروليتاريين. أو ربما، بينما يقوم فيكتور بقلّي البصل في زيت الزيتون
 مع الغفل، يضيف الكلامار المَقشّر والمقطّع في دوائر، مع الثوم، وقليل
 من الطعاطم المعروم والرزّ، وأخيرا يضاف الحساء الساخن، الأسود
 بحبر الكلامار، وأوراق الغار النظاميّة الطازجة، وكانت هي تروي له
 طرائف ونكاتا بالكنلاتيّة من أجل تلميع لغتها الأمّ الأخذة بالصدأ في
 أثناء تنقلها من مكان إلى آخر.

يبدأ طهو الرزّ على نار هادئة في صنبّة طهو الباتيا؛ تُحضّر
 الوصفة بالمكوّنات مضاعفة، حتّى لو اضطرّ إلى تناول العشاء طوال
 بقية الأسبوع من البقايا نفسها. يأخذ الشّدي الأسطوري بالتغلغل في
 البيت وفي روحها، بينما فيكتور ينتظر بطبق فيه شرائح سمك الأنشوا
 وزيتون مستورد من إسبانيا، يمكنهم الحصول عليه من أيّ متجر. وهذه
 إحدى فضائل الرّأسماليّة، يقولها ابنه لاستفزازة. كان فيكتور يُعطي
 الأفضليّة للمنتجات الوطنيّة، فلا بدّ من ترسيخ الحسّ الوطني بدعم
 الصناعة المحليّة، ولكنّ هذه المثاليّة تتراخى في موضوع بالغ القداسة
 مثل الزيتون والأنشوا. وفي الثلاجة، يجري تبريد زجاجة نبيذ وردّي
 لتبادل الأنخاب مع روزر عندما يصبح العشاء جاهزاً. كان قد وضع على
 المنضدة شرسفًا، وكان قد حصل على ستّ وردات من مشتل، وعلى

شموع من أجل تزيين المائدة. وكانت هي، المتسرعة دوماً، قد ذهبت
زجاجة النبيذ قبل وقت لا بأس به، ولكن عليها الاكتفاء في يومها
الحالي بالانتظار. وكان هنالك في السلاجة كريما كتلائية أيضاً. لم يذ
هو معروفاً بالحلويات، وسوف ينتهي الأمر بالكريما الكتلائية بين أشد
الكلاب. فاجأه الهاتف.

- عيد ميلاد سعيد، يا أبي، ماذا تفعل؟

- أتذكر وأتحسر.

- ماذا تتذكر؟

- الخطايا التي اقترفتها.

- وماذا تفعل غير هذا؟

- أطبخ، يا بني. أين أنت الآن؟

- في البيرو. في مؤتمر.

- مؤتمر آخر؟ إنك تمضي الوقت في هذه المؤتمرات.

- هل تُعدّ الطبق المعهود؟

- أجل. البيت يعيق برائحة برشلونة.

- أتوقع أن تكون قد دعوت ميتشه.

- هممم.

ميتشه... ميتشه، الجارة الغاتنة، والتي يفرضها الابن عليه، في
سقي منه لحلّ مسألة ترملة بإجراءات قصوى. يوافق فيكتور على أن
هذه المرأة جذابة بحيويتها ورشاقتها؛ بينما يبدو هو يتناقضه أشبه بفرس
نهر. فميتشه بسلوكها المنفتح والإيجابي، وبشكواتها الممثلة كامرأة
عريضة الردفين، وببستان خضرواتها، متظلّ شابة على الدوام. أمّا هو

المقابل، مع نزوعه إلى الاعتكاف، فكان يهرم بسرعة. لقد كان مارسيل بعد أمه وفكتور، ونخامره الشكوك بأن هذا الأخير ما زال يبكيها حفية، ولكنه كان مقتنعا بأن أبيه من دون زوجة سوف ينتهي متحوّلاً إلى منسوّ. ولكي يُلهمه فيكتور عن أفكاره تلك، تحدّث إليه عن نَبته في التواصل مع ممرضة عرفها في شبابه، ولكنّ مارسيل، بعد أن تمسّك بفكرة، لم يعد قادراً على إفلاتها. فميتشه تعيش على بُعد ثلاثمئة متر عنه، وتوجد بينهما قطعتا أرض لجارين تفصل بينهما صفوف من أشجار الحور، لكنّ فيكتور يعتبرها جارتها الوحيدة، لأنّه يكاد لا يتبادل التحيّة مع الجارين الآخرين، لأنّهما يتهمانه بأنّه شيعي، كان منفيّاً ويعمل في مستشفى للفقراء وكقاعدة، كان يتجنّب مرافقة غرباء، فلديّه ما يكفي من زملاته ومرضاه، ولكنه لم يتوصّل إلى ذلك مع ميتشه. إنّها المروس المثاليّة في نظر مارسيل: ناضجة، أرملّة، لها أبناء وأحفاد بلا رذائل أو عيوب مؤكّدة، وهي أصغر منه بشمانيّة أعوام، مرحّة ومبدعة، إضافة إلى أنّها تحبّ الحيوانات.

- لقد وُعِدْتَنِي، يا أبتاه. وأنت مدينٌ بأشياء كثيرة لهذه السيّدة.

- هي من أعطتني القطعة، لأنّها نعتت من المعجّء للبحث عنها في بيتي. ولست أدري لماذا تفترض أنّك يمكن لا امرأة طبيعيّة وعاديّة أن تلتفت إلى عجوز أعرج وصعب المحشر وسئوّن الملبس مثلي، اللهم إلّا إذا كانت بالسة، وفي مثل هذه الحالة، ما حاجتي إليها؟

- لا تتظاهر بالبلاهة.

تلك المرأة المناسبة تمامًا، تخبز البسكويت أيضًا وتزرع طماطم، وتأتي بها خفية لتركها في سلّة معلّقة بخطاف عند المدخل. ولا تزعل

عندما ينسى تقديم الشكر لها. حماسة هذه السيّدة التي لا بُدَّ
كبحها بدت مثيرة للريبة. كانت تحضر بنوع من الانظام حاملة مأكولا.
غريبة، مثل حساء قرع بارد أو لحم فروج بالقرفة والدراق، وهي تقام.
كان فيكتور دالماو يفترها على أنّها رشوة. فأدنى حدود الحذر ننصم
بالحفاظ على مسافة نأى حذرة! لأنّ فيكتور يفكر في قضاء سنوار.
شيخوخته بطمأنينة وصمت.

- يحزنني أن تكون وحيداً في يوم عيد ميلادك، يا أبتاه.

- لديّ من يرافقني. إنها أمك.

صمت طويل يسود الخط الهاتفيّ ممّا يجبر فيكتور على توضيح
أنّه لا يزال يحتفظ بوعبه، فحديثه عن تناول العشاء مع الصنوفة هو شيء.
أشبه بالحديث عن الذهاب إلى قدّاس الفجر في ليلة عيد الميلاد،
مجرد طقس تورية سنويّ. ليس له أيّ علاقة بالأشباح، مجرد لحظة نذكر
ممتعة وحسب. شرب نخب على شرف تلك الزوجة الطيبة، على الرغيم
من بعض المفاجآت، وهذا صحيح، إلّا أنّها تحمّلته طوال عدة عقود.

- ليلة سعيدة، يا عجوزي. نم باكراً، لا بدّ أن البرد صار شديداً
عندكم.

- اقض الليلة في العريدة، ولا تنم حتّى الفجر، يا بني. إنك بحاجة
إلى ذلك.

كانت الساعة قد تجاوزت الساعة مساءً، والظلام قد خيّم، وحرارة
الأجواء الشتائية قد انخفضت عدّة درجات. في برشلونة، لا يُمكن
لأحد أن ينعمش رزاً أسود قبل الساعة التاسعة، وفي تشيلي كانت تسود
العادة نفسها إلى هذا الحدّ أو ذاك. فتناول العشاء في الساعة السابعة

هو من أمور المسئين. استعداد فيكتور للانتظار جالساً على كرسيه المفضل، الذي يحتفظ بشكل جده في هيكله المتزعزع، ويستشق شذى الجذوع الشوكية التي تلتهمها النار في المدفأة ويستبقي متعة وجبة الطعام، ممسكاً بالكتاب الذي يقرأ فيه وكأس صغيرة من خمرة البىكو بلا ثلج وبلا أي مخفف، مثلما يروق له، وهو الشراب القوي الوحيد الذي يسمح لنفسه به عند انتهاء النهار، لأنه يؤمن بأن الوحدة تؤدي إلى إدمان الكحول. لقد كانت مكونات طبق البائية مغربة، ولكنه قرّر وقاوم الغواية حتى اللحظة المناسبة.

عندئذ، قاطعته الكلاب التي كانت قد خرجت لتقوم بجولتها الضرورية حول المكان قبل أن تأوي مع حلول الليل، لقد قاطعته بكورال نباح متوعد. «ربما هالك ثعلب صغير»، هكذا فكر فيكتور، ولكنه سمع على الفور صوت سيارة في الحديقة، وهزته قشعريرة: يا للعنة، إنها مبتشة. لم يستطع إطفاء الأنوار والتظاهر بأنه نائم. الكلاب تهوج عادة لاستقبالها في حالة هياج عظيمة، ولكنها واصلت النباح في هذه المرة. استغرب سماع صوت نغير السيارة، لأن جارته لا تضغط على زر النغير أبداً، اللهم إلا إذا كانت بحاجة لمساعدة لإزالة هدبة رهيبة ما، مثل خنوص مشوي أو عمل آخر من أعمالها الفنية. كانت ميتشه قد كرّست لنفسها اسماً في تحت تعائيل نساء بديئات عاريات، بعضها كبير جداً، وثقيل كمثل خنوص جيد. وكان لدى فيكتور عدد من تلك التعائيل الموزعة في أركان بيته، وتمثال آخر منها في العيادة، يستخدمه في مفاجأة المرضى وتهذئة توتر موعدهم الأول.

نهض واقفاً بشيء من الجهد، وكان يدمدم متأففاً؛ اقترب من النافذة وهو يضع يديه عند مستوى كليتيه، أحد أكثر نقاط جده

هناشة. كان ظهوره ضعيفاً بنائير عَرَجِه، ممَّا يضطرُّه إلى وضع ثقلٍ آخر على ساقه اليمنى. ولكنَّ الفضيَّب الحديدِيّ الذي ثَبَّتوه له بأربعة براام مع العمود الففريّ، وقراره المنصلَّب بأن يظلَّ معظهور جيِّد قد خفَّض بعض الشيء من المشكِّلة، ولكنَّها لم تحلَّها. وكان هذا سبب جيِّد آخر للدِّفاع عن ترقُّله: حرِيَّة أن يتكلَّم وحيداً، وأن يلعن ويشكو وينذر بلا شهود على الانسياءات انخاضة التي لا يُمكن أن يسمح بها لنفسه أمام الملأ. إنَّها الكبرياء. هذا ما كانت تُنهِّمه به زوجته، وكذلك ابنه في أحياء كثيرة، لكنَّ التَّصميم على الظهور كاملاً أمام الآخرين لم يكن كبرياء، وإنَّما غروراً، أو خدعةً سحرِيَّة لحماية نفسه من الشَّخوخة. لا يكفي أن يمشي منتصب القامة ويداري تعبه، بل كان يتوخَّى الحذر كذلك من الكثير من الأعراض الأخرى لتلقُّدُم في السن: البخل، عدم الثقة، سوء المزاج، الضغينة والعادات السيئة، كالشُّغْلِي عن حلاقة ذفنه يومياً، وتكرار التوادد نفسها، والتحدُّث عن نفسه، عن أمراضه أو عن أمواله.

على الضوء الأصفر لمصباحي المدخل، رأى سيَّارة متوقِّفة أمام بابه. ولدى سماعه صوت نغير السيَّارة ثانية، افترض أنَّ السَّائق يخاف الكلاب، فاستدعاها بصغير من أمام الباب. انصاعَت له الكلاب باستياء، وهي تزمجر من بين أسنانها.

- من أنت؟ صاح فيكتور.

- أنا ابنتك. أوجوك أن تكبح الكلاب، يا دكتور دالماو.

لم تنتظر المرأة أن يدعوها فيكتور للدخول. مرَّت أمامه مرَّة وخائفة، مشيرة إليه باستبعاد الكلاب. وكان أضخم اثنين بين الكلاب يتشُمَّانها عن قرب شديد؛ أمَّا الكلب الصغير، والذي يبدو غاضباً على

الدوام، فكان يواصل الزمجرة وأسيابه ظاهرة للعبان. لحق بها فيكتور متفاجئاً، ومن دون أن يفكر بذلك، ساعدها على خلع سنرتها، ووضعها فوق مقعد الصمّ. أمّا هي، فكانت تنفض نفسها كحيوان طاله بلل، وتعلق بكلام عن الفيضان، ثمّ مدّت يدها إليه للمصافحة بخجل.

- مساء الخير، يا دكتور، أنا إنفريد شناكي. أيمكنني الدخول؟

- لقد دخلت، كما يبدو لي.

على ضوء مصباح الصالة السيئ ونار مدفأة الحطب، نفحص فيكتور الدخيلة. كانت ترندي بتعال كاوبوي حائل اللّون، وجزمة رجالية وكنتزة صوفية بيضاء بافّة عالية. بلا مجوهرات ولا مكياج ظاهر. لم تكن فتاة شائبة مثلما افترض في البدء، بل هي امرأة لها تجاعيد حول العينين، لكنّها تتدعج لأنّها نحيلة، طويلة الشعر وسريعة الحركات. إنَّها تُذكره بأحد ما.

- اعذرني لمجيئي على هذا النحو، بصورة مفاجئة ومن دون إشعار مسبق. إنَّني أسكن بعيداً، في الجنوب، وقد ضللت الطريق، لا أعرف الشوارع جيّداً في سنتياغو. لم أكن أظنّ أنّني سأصل إلى هنا في مثل هذا الوقت المتأخّر!

- لا بأس، بماذا يمكنني مساعدتك؟

- هممم، ما هذه الرائحة الشهية؟

تأهّب فيكتور دالماو ليطرد إلى الشارع هذه الغريبة التي تتجرأ على المعجن ليلاً والدخول إلى بيته بلا دعوة، ولكنّ الفصول كان أقوى من ترّفه.

- إنَّها رائحة الرُّزِّ مع الحُبَّار.

- أرى أنَّكَ قد أعددت المائدة. يبدو أنَّني قد وصلت في وقت .

مناسب، يمكنني أن أعود غداً في وقت مناسب أكثر. أنت تنتظر ضوفاً.
أليس كذلك؟

- حضرتك، كما أتوقَّع. ما هو اسمك الذي قلته؟

- إنغريد شناكي. أنت لا تعرفني، ولكنني أعرف الكثير .

حضرتك. وأنا أبحث عنك منذ بعض الوقت.

- أتعجبك النيذ الوردِي؟

- يعجبني التنبُّذ بأيِّ لون. وأخشى أنَّكَ سوف تدعوني على قليل

من هذا الرُّزِّ؛ لم أكل شيئاً منذ الفطور. هل لديك ما يكفي؟

- ما يكفي. للجيران جميعهم ويزيد؛ إنَّه جاهز. هيا إلى المائدة.

ولتخبريني أيَّ شياطين تجعل فتاة جميلة تمضي باحثة عني.

- لقد أخبرتك بذلك، أنا ابتك. ولست أيَّ فتاة، إنَّني في الثانية

والخمسين، وقد استغدت من سنوات حياتي على أفضل وجه و...

- ابني الوحيد يدعى مارسيل، قاطمها فبكتور.

- صدَّقني، يا دكتور، أنَّني لم أتِ لإزعاجك، ما أريده هو التَّعرُّف

عليك وحسب.

- فلأخذ راحتنا، يا إنغريد. فعاً أراه هو أنَّ هذا الحديث سيطول

كثيراً.

- لَدَيَّ الكثير من الأسئلة. ألا يضايئك أن تبدأ بحياتك؟ بعد

ذلك، سأروي لك قصَّة حياتي، أيناسيك...

في اليوم التالي، أيقظ فيكتور مارسيل بإتصال هاتفي بعد قليل من بزوغ الفجر: «بيتي لي فجأة أن الأسرة قد تكاثرت، يا بني. لديك أخت، وزوج أخت، وثلاثة أبناء أخت. أختك، مع أنها، من أجل شرف الحقيقة، ليست أختك بالضبط، تدعى إنغريد. وسوف تبقي معي يومين، لأن لدينا كلام كثير نقوله». وبينما هو يتحدث مع مارسيل، كانت المرأة التي اندست في بيته في اليوم السابق تنام بملابسها، ومغطاة ببطانية على الصوف المخلعة في الصلاة. أما هو، المبال دوماً إلى الأرق، فلا تسبب له ليلة من السهر سوى القليل من الضرر، وهو يشعر في فجر هذا اليوم بأنه أكثر يقظة مما كان عليه في أي وقت آخر، منذ موت روزر. أما الزائرة، بالمقابل، فكانت منهكة بعد أن أمضت عشر ساعات وهي تسمع قصة فيكتور وتروي له قصتها. قالت له إن أمها كانت تدعى أوفيليا دل سولار، وأنه هو أبوها بحسب ما فهمته من أمها. وقد أمضت شهوفاً من الشحري، ولولا خبث ضمير امرأة عجوز، لأمضت حياتها من دون أن تعرف شيئاً عن الأمر.

وهكذا، عرف فيكتور، بعد مرور نصف قرن على الأحداث، أن أوفيليا قد حبلت في الفترة التي مارس فيها الحب. ولهذا السبب، اختفت من حياته، وتحولت عاطفتها إلى ضغينة، وقطعت العلاقة معه من دون أي تفسير عقلاني. «أظن أنها قد شعرت بوقوعها في ورطة، وصارت بلا مستقبل، لأنها أقدمت على خطوة متهورة. أو هذا هو التفسير الذي قدّمته لي هي نفسها»، قالت له إنغريد، وبادرت إلى تقديم تفاصيل ولادتها.

وحبال انعدام التعاون من جانب أوفيليا، تولى الأب بيشنتي أوربينا بنفسه مسألة التبني. وكانت لورا دل سولار هي الوحيدة التي

شاركت في تنفيذ الخطة، بعد التمهّد بأنّها لن تكشف السرّ مطلقاً، وإلاّ الأبد؛ إنّها كذبة رحيمة وضروريّة، تتلقّى المغفرة عليها عند الاعتراء . وتلقى تأييد السماء ورضاها. تولّت الداية المدعوّة أوريندا نارانشو نه ، تعليمات الكاهن أوريننو، وإبقاء أوفيليا في شبه غيبوبة خلال فترة . قبل الولادة، ومخدّرة ناعماً أثناء الولادة وبعدها، وسرقة الوليد بالنواصا مع الجدّة، قبل أن يتمكّن أحد ممّن في الدير من توجيه أسئلة. وبعدها خرجت أوفيليا من غيبوبتها، بعد عدّة أيّام، أخبروها بأنّها قد وضعت مولوداً ذكراً، وأنّه مات بعد لحظات من ولادته . ولكنّ الوليد كان طفله وتلك الطفلة هي أنا، قالت إنغريد لفيكتور. لقد قالوا للأُم إنّ المولود كان طفلاً كاجراء احتياطي، من أجل تضليلها، والحيلولة دون عثورها على ابنها إذا ما توصّلت في مستقبل افتراضيّ إلى الارتياح بما جرى ودونيا لورا التي شاركت في خديعة ابتنتها، تقبّلت بقيّة مراحل المؤامرة بإذعان، بما في ذلك مسخرة المقبرة، حيث وضحوا صليبا على قبره تابوت فارغ. ليست هي المسؤولة، فقد كانت المكيّدة محكمة أكثر بكثير من إمكانيّتها، لأنّ من دبرها رجل حكيم، أحد رجال الربّ، الأب أورينا.

خلال السنوات التالية، عند رؤيته أن أوفيليا قد تزوّجت، وأنجبت ابنتين معافيتين، وأنّها حسنة السلوك وتعيش حياة هادئة، دفنت دونيا لورا شكوكها في أعماق نسيان الذاكرة. لقد أخبرها الأب أورينا في البداية أنّ زوجين كاثوليكيّين من الجنوب قد تبنّيا الطفلة، وأنّهما من معارفه.. وكان هذا هو كلّ ما يمكنه قوله لها. وفيما بعد، عندما صارت تتجرّأ على سؤاله أكثر، كان يُذكّرها بجفاء بأنّه عليها أن تعبّر تلك الحفيّدة ميّنة؛ وأنّها لن تنتهي إلى أسرتهن أبداً، حتّى لو كانت تحمل الدماء نفسها.

لقد شاء الربّ تسليمها إلى أبوين آخرين. كان الزوجان اللذان تبّيا
الطفلة يتحدّران من ألمان من جانب وجانب: كلاهما طويل القامة، متين
البنية، وكلاهما أشقر، ولعيونهما زرقة سماويّة، ويعيشان في مدينة نهريّة
كثيفة الأشجار وكثيرة الأمطار، على بعد أكثر من ثمانمئة كيلومتر عن
العاصمة ستيغاغو، ولكنّ هذه التفاصيل لم نعلم بها الجدّة لورا. فعندما
فقد الزوجان شناكي الأمل بإنجاب أبناء، تلقّيا الطفلة حديثة الولادة
التي قدّمها إليهما الكاهن. بعد سنة من ذلك، حبلت تلك المرأة.
وهكذا، كان لديهما خلال السنوات التالية ابنان ألمانيان في المظهر
مثلهما، وقد كانت إنغريد أقصر قامّة، لها شعر قاتم وعينان سوداوان، تبدو
وكأنّها حصيلة خطأ جينيّ. فمنذ الصغر، أحسّت أنّي مختلفة، ولكنّ
أبوي كانا يعاملانني بكثير من الدلال، ولم يقولوا لي قطّ أنّي متبنّاة.
وحسّى الآن، إذا ما ورد ذكر مسألة التبنّي، وصارت الأسرة كلّها على علم
بها، تبدأ أُمّي بالبكاء، أوضحت إنغريد لفيكتر.

عند رؤيته لها نائمة على الصوف، استطاع أن يتفحصها على هواه.
لم تكن المرأة نفسها التي تبادل الحديث معها قبل ساعات؛ إنّها تشبه
أوفيليا في شبابهـا وهي نائمة، التقاطيع الدقيقة نفسها، غمّازتا الخدين
نفسهما، قوس الحاجبين، خطّ الشعر نفسه مثل - عند منتصف الجبين،
البشرة الفاتحة مع شيء من اللون الذهبي، ولا بدّ أنّها تكون برونزيّة في
الصيف. لا ينقصها سوى زُرقة العينين لتكون مثل أُمّها تقريبًا. عندما
وصلت إلى بيته، ظنّ فيكتور أنّه يعرفها، ولكنّه لم ينتبه إلى التشابه مع
أوفيليا. في هذه اللحظة وهي مسترخية، استطاع رؤية التشابه البدنيّ،
وأنّ بقدر كذلك اختلافات الطّباع. لا شيء في إنغريد من تفاهة نفثج
أوفيليا الشابة التي كان قد أحبّها؛ إنّها جدّيّة، رسميّة، امرأة أقلّهم بعيدة

عن العاصمة، وأجواء محافظة ومدنيّة، ذات حياة لم تعرف الصم، واليهبوط حتّى اللحظة التي عرفت فيها أصولها، وخرجت نبحث م أبيها. فكّر في أنّه ليس هنالك الكثير منه أيضًا في إنغريد، لا في نموا. قامته، ولا في أنفه الصفري، أو شعره النعش، وملامحه القاسية أو طاء. الانطوائي. إنها امرأة رقيقة؛ وفكّر في أنّها لا بدّ أن تكون أمومة وسحب حاول أن يتخيّل كيف كان يُمكن لها أن تكون لو أنّها ابنة له من دور، وتحسر لأنّها ليست كذلك. في الأزمنة الأولى، ما كانا يحتران نفسيهما متزوّجين حقًا، كانا معًا بصورة مؤقّنة بحسب اتفاق مناسب لهما، وعندا أدركا أنّهما متزوّجان أكثر من أيّ زوجين آخرين على الإطلاق، كانت قد مضت عشرون سنة، وكان الوقت قد صار متأخرًا جدًّا للتفكير بإنجاب أبناء. سيجد مشقّة في الاعتياد على إنغريد، لأنّ أسرته الوحيد حتّى البلّة الماضية كانت تقتصر على مارسيل. افترض أنّ أوفيليا دل سولار ستفاجأ جدًّا مثلما نفاجأ هو نفسه؛ فقد نزلت عليها هي أيضًا، في شيخوختها، ابنة غير متوقّعة. فضلًا عن أنّ إنغريد قد أضافت لهم ثلاثة أحفاد. فزوجها أيضًا من أصل ألماني، مثل أبويها بالتبني، ومثل أناس كثيرين في بعض مقاطعات الجنوب التي استوطن فيها ألمان منذ القرن التاسع عشر بفضل قانون هجرة انتقائيّة. كانت الفكرة أن يحتلّ الأرض أناس بيض من سلالة نقيّة، ليساهموا بإشاعة الانضباط وروح العمل بين التشيليين الذين اشتهروا بسمعة سيّئة ككسالي ومهملين. في صور أبنائها التي أرته إياها إنغريد، يظهر رجل شاب وفنانان لهما مظهر فالكيرات، عجز فيكنور عن الاعتراف بأنهم من نسله.

• ابن إنغريد متزوّج وزوجته حُبلَى. عثا قريب سأصير أبا لجدّة،

قال لمارسيل بالهاتف.

- وأما خال أبناء إنغريد. ومادا سأكون بالنسبة إلى هذا الطفل الذي سيولد؟

- أظن أنك ستكون شيئاً مثل خال وجد.

- يا للفضاعة! بدأت أشعر بأنني عجوز. لا يمكنني التوثف عن التفكير بالجدّة. أتذكّر كيف كانت تريد مني أن أنجب لها حفيداً؟ يا للعجوز المسكينة، لقد ماتت من دون أن تعرف أنّه صار لديها أحفاد كثير. حفيدة وثلاثة أبناء حفيدة!

- علينا أن نذهب لرؤية هؤلاء الأشخاص الذين من سلالة بشرية مختلفة، يا مارسيل. جميعهم ألمان. كما أنّهم يمينيون، وكانوا من أنصار بينوشيه، ولهذا سيكون علينا أن نتلع ألسنتنا أمامهم

- المهمّ أننا أسرة واحدة، يا أبي. لن نتشاجر من أجل السياسة.

- ولا بدّ لي من إقرار طريقة ما للتواصل المنتظم مع إنغريد والأحفاد. لمّ سقطوا عليّ فجأة كالنفاخ. يا للتعقيدات! ربّما كنت أفضل حالاً من قبل، وحيداً ومطمئنّاً.

- لا تتغوّه ببلاغات، يا أبي. إنني أموت فضولاً للشعرك على أختي، حتّى لو كانت منتحلة.

قدّر فيكتور أنّه لن يكون ثمة مفترق من اللقاء مع أوفيليا. لم تبدّ له الفكرة سيئة: لقد شفي منذ زمن طويل من الحنين إليها، ولكنه يشعر بفضول العودة إلى رؤيتها، وتصحيح الانطباع الخاطيء الذي نوصّل إليه عنها في الأنيسيه بكاراكاس، قبل أحد عشر عامًا. ربّما سنُتاح له الفرصة ليقول لها إنّهُ بفضلها صارت له جذور راسخة في تشيلي، جذور أكثر قوّة

من تلك التي لم يمتلكها في إسبانيا. بدا له مضحكاً أن يكون، بها،
 الحالة، على صلة قرابة بأل دل سولار، الأسرة نفسها التي عارضت به.
 هجرة إسبان السفينة وينبيغ. لقد منحته أوفيليا هدية هائلة، فقد
 له أفق المستقبل، وحولته من عجوز بلا أي رفيق سوى حيواناته، ليح
 لديه عدة أحفاد تشبيليين متحدرين منه، إضافة إلى مارسيل الذي
 يعتبر نفسه قط من أي مكان آخر. لقد كانت تلك المرأة أكثر أهميتها
 حياته مثلاً تخيلاً. لم يفهمها قط بصورة حقيقية، لقد كانت أكثر تعقيداً
 وأكثر قلقاً مما كان يظنه. فكّر بلوحاتها شديدة الغرابة، وافترض أنها
 زواجها واختيارها أن تعيش حياة عادية، في أمان حياتها الزوجية ومكانها
 في المجتمع. عزلت أوفيليا نفسها، تخلت عن مظهر جوهرتي من روحها.
 وربما تكون في نضوجها ووجدتها قد استعادته جزئياً. ولكنه نذكر عند
 ما أخبرته به عن زوجها، مانباس إيشاغيري، وتبين له أن ذلك التخلي لم
 يكن تكاسلاً ولا نفاهة، وإنما بسبب حب خاص جداً.

قبل سنة من ذلك، تلقت إنغريد شناكي رسالة من امرأة مجهولة
 تؤكد لها فيها أنها أمها. لم تفاجئها الرسالة كثيراً، فقد كانت تشعر على
 الدوام بأنها مختلفة عن بقية أفراد الأسرة. فلاحقت في البدء أبويها
 بالتبني، فأقرا في نهاية الأمر بالحقيقة. وبعد ذلك، أخذت تستعد لتلقي
 زيارة أوفيليا وقبليه دل سولار اللذين جاءا، ورفقتهما عجوز ترندي ثياب
 جدد صارمة، إنها خوانا نانكوتشيو. لم يخامر الشك أياً من الثلاثة بأن
 إنغريد هي ابنة أوفيليا الضائعة؛ فقد كان التشابه جلياً جداً. منذ ذلك
 الحين، التقت أوفيليا ثلاث مرّات مع ابنتها التي كانت تعاملها بتهذيب
 وتأدب التعامل مع قريب بعيد، لأن أمها الوحيدة التي تعرفها هي هيلفا
 شناكي؛ أما هذه الزائرة ذات الأصابع المطلخة بألوان مواد الرسم ووذيلة

التذمر، فكانت تبدو غريبة. كانت إنفريد واعية للتشابه الجسدي بينهما، وكانت نخشى أن تراث عنها كذلك عيوبها، وأن تتحول في شيخوختها إلى نرجسية مثل أوفيليا. وعرفت، بطريقة مجزأة، قصة ولادتها. وفي اللقاء الثالث فقط، تمكنت من التحرر عن اسم أبيها. كانت أوفيليا قد دفنت ماضيها، وصارت تتجنب الحديث عن تلك الحقبة. فقد انصاعت لأمر الأب أوربينا بالتزام الصمت والتشدد في الامتناع عن ذكر الطفل الميت الذي يرقد في مقبرة المخيم، إلى أن ضاع حدث شبابه ذلك في غياهب النسيان المترجع. تذكّرت باقتضاب عندما كان عليها أن تدفن زوجها، وأرادت أن تنجز الهدف الذي اتفقا عليه معاً عند زواجهما بأن يرقد هذا الطفل معهما في مقبرة ستباغو الكاثوليكية. وقد كانت تلك هي الفرصة المناسبة لنقل رفاته، ولكن أخاها قبله أفعها بعكس ذلك، لأنه سيكون عليها، عندئذ تقديم تفسيرات لأبنائه، ولبقية أفراد الأسرة.

عندما نرّدت حالة لورا دل سولار الصحفية، كانت قد مضت سنوات عديدة على عيش أوفيليا وحدها وانهماكها في الرسم في بيتها الريفي. بينما كان ابنها الأكبر يني سداً في البرازيل، وابنتها تعمل في متحف بيونيس أيرس. وكانت أمها دونيا لورا تقرب من بلوغ عمرها قرناً كاملاً، وهي تهذي من زمن. وكانت موظفتان متقنيتان تتناوبان على خدمتها ليلاً ونهاراً تحت إشراف مباشر من خوانا مانكونسيو، والتي كانت هرمة مثلها تقريباً، ولكنها أصغر منها بخمسة عشر عامًا. لقد خدمت المرأة هذه الأسرة منذ الأزل، ولديها النية بمواصلة ذلك ما دامت دونيا لورا بحاجة إليها؛ فواجبها أن تُعنى بها حتى النفس الأخير. كانت سيّدها تظّل مستلقية في الفراش، بين وسائد ريش وملاءات كثان مطرزة، وبقمصان نومها الحريريّة المسنودة من فرنسا، محاطة بالأشياء

الفاخرة التي كان زوجها يشتريها من دون أن يلتفت إلى الفقارة. موت إيسيدور دل سولار، تخلّصت دونيا لورا من الدرع الحديدية الذي كان يعني بالنسبة إليها الزواج من رجل ميطر منبذ، وتمكّنت من التفرّغ لما كانت ترغب فيه لبعض الوقت، إلى أن أودت بها الشيخوخة، إلى الشلل، وحال تقدّمها في السنّ دون تواصلها مع ليوناردو، صغيرها يبي، في الجلسات الروحانية. كانت تفقد عقلها، تضع داخل بينها، وحين تنظر إلى المرأة تسأل بذعر عمّن تكون هذه العجوز الفبيحة التي كانت في حمّامها، ولماذا تأتي كل يوم لإزعاجها. لم تعد قادرة بعد ذلك على النهوض، لأنّ ساقيها وقدميها قد تشوّمت بفعل التهاب المفاصل، ولم تعد قادرة على حملها. وباحتجازها في حجرتها، صارت تنتقل من البكاء إلى الغيوبات الطويلة، تستدعي صغيرها البيبي بغمٍّ ورعب لا يمكن تفسيرهما، فكان الطبيب يحاول من دون جدوى استخدام المهدّئات والأدوية المضادة للاكتئاب. كانت الأسرة كلّها التي ترافقها في أيام احتضارها تعتقد أنّها تتألّم لفقدان ليوناردو، ابنها الأصغر، الذي مات منذ زمن طويل، وتعاني كما لو أنّه قد مات للنز.

تحوّل فليبه دل سولار إلى زعيم العائلة منذ موت أبيه، كان قد جاء من لندن ليتولّى مسؤولية الوضع، دفع الحسابات وتوزيع الثروات. يُقال إنّّه كان متحالفاً مع الشيطان، لأنّ الهرم لم يكن بادياً عليه بوضوح، متحدّياً بذلك تنبؤاته كمصاب بوسواس المرض. فلديّه مئة علّة قديمة، وفي كلّ أسبوع يكتشف علّة أخرى! يؤلمه حتى شعره، ولكن بسبب واحدة من مظالم الحياة، لم يكن أيّ من تلك الأمراض يظهر عليه. كان يبدو سيّداً متميزاً مُتسرّغاً من مأدبة غدا. إنكليزيّة، بالسترة، وربطة العنق على شكل فراشة، وملامح ضيق وانزعاج. كان يعزو حُسن مظهره

إلى ضباب لندن، والويسكي الأسكتلندي وتبع غليونه الهولندي. جاء يحمل في حقيبته الصغيرة الوثائق اللازمة لبيع البيت في شارع مار دل بلانا - موقعه في وسط العاصمة يساوي ثروة كبيرة. كان عليه أن ينتظر إلى أن تموت أمه كي يُنهي المعاملات. أمّا دونيا لورا التي اختزلت إلى بعض الجلد الضئيل، فواصلت مناداة صغيرها البيبي إلى أن نفذ منها الهواء، من دون أن تجد السلام في الأدوية أو في الأدعية والصلوات! أطبقت لها خوانا نانكونثيو فمها وعينيها، وصلت لها صلاة يا قديسة مريم، وانحسرت مجر جرة قدميها، ومتعبة جدًا. وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، بينما كانت مؤسسة إجراءات المعاتم تُعد البيت من أجل السهر على المتوفاة، وكان الثابوت قد وضع في الصالون مع إكليل من الزهور، والشموع، وخرق وشرائط سوداء، جمع فيليبي إخوته كي يُخبرهم ببيع البيت والأملاك. ثم استدعى بعد ذلك خوانا إلى المكتبة ليخبرها بالشيء نفسه.

- سوف يهدمون هذا البيت، ليبنوا مكانه عمارة شقق، ولكنك لن ينقصك أي شيء، يا خوانا. أخبريني فقط كيف وأين تفضلين أن تعيشي.

- ماذا تريدني أن أقول لك، أيتها الطفل فيليبي؟ ليس لدي أسرة ولا أصدقاء ولا معارف. بدأت أرى أنني عقبة. أنت متضمني في ملجأ للمسنين، أليس كذلك؟

- هنالك دور إقامة للمسنين جديدة جدًا، يا خوانا، ولكنني لن أفعل شيئًا لا تربدينه. أتحبين أن نعيشي مع أوفيليا، أو مع واحدة أخرى من أخواتي؟

- أنا سأموت خلال سنة، ولا فرق لديّ أين سأكون. فالموت هو الموت، وانتهى. ويستريح أحدنا أحيراً!

- أمّي المسكينة لم تكن تفكر بهذه الطريقة...

- دونيا لورا كانت تعاني من ذنوب كثيرة، ولهذا السبب كانت تخاف الموت.

- أيّ ذنوب كان يُمكن لأُمّي أن تغترفها، بالله عليك!

- لهذا السبب كانت تبكي.

- لقد أصيبت بَعَثَ الشيوخوخة، وكانت مهووسة بليوناردو، قال فيليه.

- لليوناردو؟

- أجل، البيبي.

- لا، يا صغيري فيليه، هي لم تكن قادرة على تذكّر البيبي. لقد كانت تبكي طفل أوفيليا.

- لا أفهمك، يا خوانا.

- ألا تتذكّر أنّها قد حبلت وهي عازبة؟ لقد تبين أن ذلك الطفل لم يمت مثلاً قالوا آنذاك.

- ولكنني رأيت القبرا

- إنه فارغ. لقد كانت طفلة. وقد أخذتها تلك المرأة، لم أعُد أنذكّر اسمها - القابلة. هذا ما أخبرتني به دونيا لورا، ولهذا السبب كانت تبكي؛ لأنّها انصاعت للكاهن أوربينا، وسرقت له ابنة أوفيليا. أمضت حياتها كلّها وهي تحمل في داخلها هذه الخدعة، مثل عفونة.

كان فيليبه يحاول نسبة تلك القصة إلى هديانات أمه، أو إلى شيخوخة خواتنا نفسها، وأن يستبعدها على أنها قصة سخيصة؛ وخطر له كذلك أنه إذا ما كانت صحيحة، فمن الأفضل تجاهلها، لأن إخبار أوفيليا بذلك سيكون قسوة لا فائدة منها، ولكن خواتنا نبهته إلى أنها قد وعدت دونيا لورا بالعثور على الطفلة كي تتمكن هي من الذهاب إلى السماء، وألا فإنها ستظل عالقة في المعظم، والوعود المقدمة للمحتضرين مقدسة. عندئذ، أدرك أنه ما من طريقة لإسكات خواتنا، وأنه عليه أن يتولى مسؤولية الأمر بنفسه قبل أن تعلم به أوفيليا وبقيّة الأسرة. وعد خواتنا بأنه سيحقق في الأمر وسيقيها على اطلاع. «سنبداً بالكاهن، أنها الطفل فيليبه. وسوف أذهب إليه معك». لم يستطع استبعادها، فالتواطؤ الذي اعتادا عليه طوال ثمانين عامًا، وبقية بأنها قادرة على قراءة نواياه، أجبره على التصرف.

في تلك الأثناء، كان الكاهن بيثني أوربينو قد تقاعد عن مهماته، وكان يعيش في دار إقامة للكهنة المسنين، ترعاه وتهتم به راهبات. فكان من السهل العثور عليه، والحصول على موعد لمقابلته؛ لقد كان بكامل قواه العقلية، ويذكر بصورة جيدة جدًا أفراد رعيته القدماء، ولاسيما آل دل سولار. استقبل فيليبه وخواتنا مُبدئاً أسفه واعتذاره، لأنه لم يستطع أن يكون هو شخصيًا من يقدم المسحة الأخيرة لدونيا لورا، إذ كانت قد أُجريت له جراحة في الأمعاء، واحتاج النقاهة إلى وقت طويل. ومن دون كثير من اللُف والدوران، كرّر له فيليبه ما كانت قد روت له خواتنا. وبخبرته كمحام، كان مستعدًا لاستجواب شاق، من أجل وضع رقيس الذئير السابق ما بين السيف والجدار، وإجباره على الاعتراف، ولكنه لم يكن بحاجة لأي شيء من ذلك.

- لقد نصرّفت وفق ما هو أفضل للعائلة. وقد كنت حريصاً ،او الدوام في اختيار الأباء المتبّين. جميعهم كانوا كاثوليكيين منزماً. قال أورينا.

- أتعني أنّ أوفيليا لم تكن الحالة الوحيدة؟

- هنالك فتيات كثيرات مثل أوفيليا، ولكنّ أياّ منهنّ لم نكن بمثل عنادها. وكُن موافقات عموماً على التخلّص من الوليد. وما الذي يمكن لهنّ عمله غير ذلك؟

- هذا يعني أنّك لم تضطرّ إلى خداعهنّ كي تسرق منهنّ وليدهنّ. لا أسمح لك ياهانتي، يا فيليب! لقد كنّ بنات عائلات فاضلة وكان واجبي أن أحميهنّ وتجنّبهنّ الفضيحة.

- الفضيحة هي أنّ حضرتك، وبحماية الكنيسة، قد افترقت جريمة، أو بكلمة أدقّ، جرائم كثيرة. هذه جرائم يُعاقب عليها بالسجن حضرتك لم تُقد في سنّ مناسبة لتدفع أثمان ما فعلته، ولكنّني أطلبك بأن تُخبرني لمن أعطيت ابنة أوفيليا. سوف أصل إلى عمق هذه المسألة لم يكن بيشتني أورينا يحتفظ بسجل بأسماء كلّ أبوين متبنّيين ولا بأسماء الأطفال. بل كان يتولّى إنجاز الصّفقة بنفسه؛ وكانت القابلة أوريندا نارانشو تتولّى فقط عمليّات التوليد؛ أضف إلى ذلك أنّها قد ماتت منذ زمن بعيد. عندئذٍ، تدخّلت خوانا نانكوتشيو لتقول، إنّها سمعت ذات يوم دونيا لورا تقول إنّ الطفلة عند أسرة ألمانيّة في الجنوب. وكان هذا الكلام قد أفلت في أحد الأيّام من لسان الأب أورينا، ولم تنسه الجدة لورا.

- أنقولين ألماناً؟ لا بد أنَّهُم عائلة تعيش في مدينة بالديبيا الجنوبية، دعدم الأسقف.

- إنَّه لا يتذكَّر الاسم، ولكنَّه متأكَّد من أنَّ الطفلة وصلت إلى بيت محترم، ولا ينقصها هناك أيُّ شيء؛ إنَّهم أناس في وضع مترف. ومن خلال هذا التعلُّق، استنتج فيليه أنَّ هنالك في تلك المبادلات نقوداً تنقل من يد إلى يد؛ وأنَّ الكاهن، بكلِّ اختصار، كان يبيع أطفالاً. فتخلَّى عندئذٍ عن محاولة الحصول منه على المزيد من أجل التَّركيز على تتبع أثر الشَّرِعات التي تلقَّتها الكنيسة من خلال بيئتي أوروبنا في ذلك الحين. سيكون من الصَّعب الدُّخول إلى سجلَّات تلك الحسابات، ولكنَّه ليس مستحيلاً؛ لا بدُّ من استخدام الشخص المناسب. كان يفترض أنَّ الأموال تترك أثراً على الدوام في طريقها عبر العالم، ولم يخطئ في تبيُّ تلك الفرضية. كان عليه أن ينتظر ثمانية أشهر كي يحصل أخيراً على المعلومات التي يبحث عنها. أمضى تلك الأشهر في لندن، متأكِّداً عن بُعد برسائل قصيرة من سطرين، ترسلها إليه خوانا نانكوتشيو كي تذكِّره بمسؤوليته. كانت المرأة العجوز تكتب تلك السطور بمشقة، وترسلها بحفية، لأنَّها تعهَّدت بحفظ السرِّ إلى أن يتمكَّن فيليه من حلِّ القضية. وكان يكرِّر لها في كلِّ مرَّة القول بأنَّه عليها أن تعتصم بالصبر، بينما لم تكن هي قادرة على منع نفسها ذلك الترف بالانتظار، لأنَّها تحسب عدد الأيام المتبقِّية لها في هذا العالم، ويجب عليها، قبل أن تغادر، أن تجد الطفلة الضائعة وتُخرج بذلك دونيا لورا من المطهر. سألتها فيكتور كيف لها أن تعرف الموعد الدَّقيق لموتها، فردَّت عليه بكلِّ بساطة إنَّه يوم مؤشَّر عليه بدائرة حمراء في التقويم المعلق في المطبخ. كانت مستغرَّة في بيت أوفيليا، في حالة بطالة لأوَّل مرَّة في حياتها، تعدُّ العدَّة لجنائزتها.

بريد يوم الجمعة من شهر ديسمبر/كانون الأول حمل إلى ما ،
معلومات عن تبرعات تلقاها الأب بيشتي أورينا عام 1942. الاسم
الوحيد الذي اسرعى اهتمامه أت من المدعوين وأثر دليلاً شاملاً .
مالكا مصنع أثاث، وهو مصنع، بحسب تحرياته، ازدهر كثيراً وصار له
فروع في عدد من مدن الجنوب، يديرها أبناء الزوجين وأزواج بناتها
وكانت العائلة، مثلما قال أورينا، ثرية جداً. لقد حان الوقت للم
مجدداً إلى نشلي، ومواجهة أوقيليا.

وجد فيليب أخته تمزج ألواناً في رسمها، وهو غير فسيح وبارد
جداً، يعبق برائحة التبرنتين وموشى بشباك العناكب، وكانت أكثر بدانة
ومهلته الملايس، مع شعر أبيض ووسخ وحزام لتقويم العظام بسبب
الأم الظهر. كانت خوانا تجلس في الركن مرندية معطفاً وفازين ومطافيه
صوفية، تبدو مثلما هي على الدوام. فقال لها فيليب على سبيل التحية
وهو يقبل جبينها: «لا يبدو عليك أنك ستموتين، يا خوانا». كان قد هيا
أشد الكلمات رحمة كي يخبر أخته بأن لها ابنة، إلا أنه لم يكن شئ مبرر
للف الدوران، لأنها تصرّفت برد فعل ليس فيه سوى قليل من الفضول
الفاضض، كما لو أن الأمر يتعلق بنمائم لا علاقة لها بها. «أظن أنك
ترغبين في التعرف عليها»، قال فيليب. فأوضحت له أن عليه أن ينتظر
قليلاً، لأنها متورطة في مشروع لوحة جدارية. فتدخلت خوانا قائلة إنها
هي أيضاً سوف تذهب في هذه الحالة، لأنه لا بد لها من أن تراها بعينيها
كي تتمكن من الموت بسلام. وهكذا، ذهب الثلاثة معاً.

رأت خوانا نانكوتشيو إنغريد مرة واحدة فقط. ومطمئنة لهذه الزيارة
الوحيدة، تواصلت مع دونيا لورا، مثلما تفعل كل ليلة ما بين صلاتين،
كي توضح لها أنه قد تم العثور على حفيدتها، وأن التكفير عن خطيئتها

فقد تم، وصار بإمكانها البدء بإجراءات انتقالها إلى الفردوس. أمّا هي، فقد بقي لها أربعة وعشرون يوماً في الرزنامة. استلقت في فراشها، محاطة بتماثيل قديسيها وصور أحبائها، جميعهم من أسرة دل سولار، ونهبت للموت جوعاً. لم تُعد لتناول أي طعام أو شراب، كانت تتقبل فقط قليلاً من الثلج من أجل ترطيب فمها الناشف. وقد مضت بلا قلق ولا ألم بعد بضعة أيام أكثر مما كانت تتوقعه. «كانت مستعجلة»، قال فيليه المغموم والمبسم. أراح جانباً التابوت الذي من خشب صنوبر عادي، كانت خوانا قد اشترته وتحفظ به منتصباً في أحد أركان الحجرة، وأقام لها جنازة مع قدّاس مُغنى، وتابوت من خشب الجوز مع ماسير نيشيم يرونزيّة، ودفنها في مدفن آل دل سولار، إلى جانب أبويّه.

في اليوم الثالث، هدأت العاصفة، وطلعت الشمس متحدّبة الشّماء، وأشجار الحور التي تنتصب كحراس يحمون عفار فيكتور دالموا، طلع عليها الصباح وقد عُسلت لتوها. كان الثلج يغطي سلسلة الجبال، ويعكس اللون البنفسجيّ للشّماء الصافية. وتمكّن الكلبان الكبيران من إزاحة خدر الحبس عنهما، والتشم في الحديقة المبلّلة والتمرغ على هواهما في الوحل، ولكنّ الصغير منهما، وهو في عدد السنوات الكليّة عجوز مثل سيده، ظلّ مستلقياً إلى جانب مدفأة الحطب. كانت إنغريد شناكي قد أمضت تلك الأيام مع فيكتور، ليس بسبب العاصفة، فهي معتادة على غزارة أمطار في مقاطعتها الجنوبيّة، وأنما لتضيف وقتاً إلى هذا اللقاء الأوّل الذي كانا يتعارفان فيه. لقد خططت للقاء بدقّة طوال شهور، وواجهت زوجها وأبناءها بحزم كيلا يرافقوها. «هذا أمر يجب أن أقوم به وحدي، أنت تفهم، أليس كذلك؟ لقد تكلفت ما يكفي من المشقة، لأنّها المرّة الأولى التي أسافر فيها وحدي، ولم أكن أعرف

كيف سنقبلني حضرتك»، قالت ليفكتور. وخلافًا لما حدث لها، لم أقمها، حيث لم نستطع أن تتجاوز معها مسافة تزيد على خمسين عامًا. الغياب، تحولت هي وفكتور بكل سهولة إلى صديقين، مع إدراك أنه لم يستطع بأي حال أن يتنافس في حبها مع والتر شنّاكي، أبيها المعبود بالتبني، والأب الوحيد الذي تعترف به. «إنه عجوز جدًا، يا فيكتور، ولسوف يموت وأخبره في أي لحظة».

إنغريد وفكتور اكتشفا أن كليهما يعزف الجيتار بدافع الحاجة إلى موسيقى، وأنهما يشجعان فريق كرة القدم نفسه، ويفرّان روايات الجاموسية، وأنهما قادران على أن يلقيا من الذاكرة عدّة أبيات من أشعار نيرودا، هي من أشعار الحب وهو من أشعار الدم. ولم تكن هذه هي الأشياء الوحيدة المشتركة بينهما: كانا يشتركان كذلك في الميل إلى الكتابة التي يوقفها هو عند حدّها بانغماسه في العمل، بينما توقفها هي بمصادفات الاكتئاب وباللجوء إلى أمان الأسرة غير القابل للتبدّل. تأسف فيكتور لكون هذا الملمح وراثيًا، بينما لم توث ابنته بالمقابل روح الغنائية ولون العينين الأزرق السماوي عن أوقيليا. «عندما أكتب، تكون المحبّة هي ما يساعدني»، قالت له إنغريد، ثم أضافت أنّها لم تفقد المحبّة أبدًا، فهي المفضّلة لدى أبويها، والمحبوّة من إخوتها الأصغر سنًا، كما أنّها متزوّجة من ماركو بلون العسل قادر على حملها بذراع واحدة، ومنحها الحب الهادئ كحبّ كلب ضخّم. وأخبرها فيكتور بدوره أنّ حبّ روزر أيضًا قد ساعده على حماية نفسه من ذلك الحزن الخفي الذي كان يطارد مثل عدو، ويتنقّص عليه أحيانًا بهجمة ذكريات سيئة. لولا وجود روزر لكان قد ضاع، ولكانت قد انصطقت ناره الداخلية، ولم يبق مكانها سوى رماد حزن يجرّجه منذ نحو ثلاث سنوات. فوجئ

باعترافه الذاتي، وتقديمه بصوت كبير، لأنه لم ينتظر قط إلى تلك
 الشجرة الباردة في صدره، ولا حتى أمام مارسيل. أحسن كما لو أن الروح
 نفسها أخذت بالتقلص، وأنه يستقر في نزوات عجوز، في صمت متجمي،
 في وحدته كأرمل. كان قد بدأ التخلي عن أصدفاته القلبيين، ولم يعد
 يبحث عن رفاق من أجل لعب الشطرنج، أو من أجل عزف الجيتار؛
 وكان قد وضع حدًا كذلك لحفلات الشواء القديمة في أيام الأحاد.
 ولكنه ما زال يواصل العمل، وهو ما يجبره على التواصل مع مرضاه ومع
 تلاميذه، لكنه يفعل ذلك عن بعد لا يمكن تجاوزه، كما لو أنه يراه على
 شاشة. خلال السنوات التي أمضاها في فنزويلا كان يظن أنه قد تجاوز
 نهائيًا الجدّة الصارمة التي كانت جزءًا جوهريًا من طبعه منذ الشباب،
 كما لو أنه في حالة جِدَاد على معاناة العالم وعنفه وخبثه. كانت السعادة
 تبدو له بذامة وقحة خيال كل تلك النكبات. ففي فنزويلا، تلك البلاد
 الخضر والداقة، وبينما كان مغرمًا بـروزر، تغلب على غواية الالتحاق
 بالحزن، لأنه لم يكن دثار وقار بل ازدياء للحياة، مثلما كانت هي تكثر
 القول له. ولكن الجدّة عادت إليه بحثًا: إنه يجف في غياب روزر. لم
 يعد هنالك ما يهز مشاعره سوى مارسيل وحيواناته الأليفة.

- الحزن... عدوي، إنه أخذ يكسب المواقع، يا إنغريد. وعلى هذا
 الإيقاع، خلال ما تبقى لي من سنوات سينتهي بي الأمر بالتحوّل إلى
 ناسك.

- سيكون هذا أشبه بالموت في الحياة، يا فيكتور. تصرف مثلي.
 لا تنتظر مجي، هذا العدو كي تدافع عن نفسك، بل اخرج لملاقاته. لقد
 احتجت لسنوات كي أتعلّم هذا النوع من العلاج.

- وَاَيَّ اسباب للتعاسة لديك أنت، يا صغيرتي؟

- إنه السؤال نفسه الذي سألني إياه زوجي. - لست أدري، يا فيكتور، أتوقع أنه لا توجد أسباب، إنها مسألة طبع.

فردُ عليها:

- من الصعب جدًا تبديل الطبع. أنا أنا، فقد صار الوقت متأخرًا، لم يبقَ لي من مخرج سوى تقبل ما أنا عليه. لقد بلغت الثمانين، أكملتها يوم وصولك. هذه هي سنُّ الذاكرة، يا إنغريد. إنها السن التي نغرم أحيانًا فيها بإجراء مراجعة لحياته.

- اعذّرني إذا ما بدوت لك دخيلة وحشرية، ولكنّ أيمكنك أن تخبرني بما وجدته في مراجعتك لحياتك؟

- لقد كانت حياتي مجموعة من الإبحارات، تنقلتُ من مكان إلى آخر في هذه الأرض. كنتُ أجنبيًا من دون أن أدري أنّ لي جذورًا عميقة... وكذلك أبحرث روحي. ولكنّ يبدو لي غير مجدٍ القيام بمثل هذه التأملات الآن: كان عليّ القيام بها قبل وقتٍ طويل.

- لا أظنّ أنّ أحدًا يجري تأملات حول حياته في شبابه، يا فيكتور، ومعظم الناس لا يفعلون ذلك في أيّ وقت. فأبواي، وقد تجاوزا التسعين عامًا، لا يخطر لهما إجراء هكذا تأملات. إنهما يعبشان وحسب، يومًا فيومًا.. وبسعادة.

- من المؤسف أنّ هذا النوع من المراجعات يجري في الشيخوخة، يا إنغريد، عندما لا يكون هنالك وقت لتقويم الأمور وتصويبها.

- من غير الممكن تغيير الماضي، ولكنّ ربّما يكون بالإمكان المعضي في استبعاد أسوأ الذكريات...

- انظري، يا إنغريد، أهم الأحداث، تلك التي تحدّد المصير، تتغلّت تمامًا من تحكّمتا بها في معظم الأحيان. وفي حالتي، عندما أجزى حساباتي، أرى أنّ حياتي موسومة بالحرب الأهلية في شباطي، وبعد ذلك بالانقلاب العسكري، وبمعسكرات الاعتقال والعنف. لم أختَر شيئاً من هذا كلّهُ، لقد أصابني وحلّ بي بكلّ بساطة.

- ولكن، لا بدّ أنّ هناك أشياء أخرى اخترتها أنت. كالطَبِّ مثلاً.

- صحيح، وهذا ما منحني الكثير من الرضا والسعادة. أو تدرين ما الذي أشعر نحوه بالامتنان؟ إنّه الحبّ. لقد أثر بي أكثر من أيّ شيء آخر. فقد حالني حظّ جنوني مع روزر. ستظلّ هي حبّ حياتي إلى الأبد. منها صار لديّ مارسيل. لقد كانت الأبوة جوهرية أيضاً بالنسبة إليّ، سمحت لي بالحفاظ على الإيمان بأفضل ما في الشرط البشريّ، فمن دون مارسيل كنت سأتحوّل هباء. لقد رأيت الكثير من القسوة، يا إنغريد، أعرف ما الذي نستطيع الإقدام على اقترافه نحن معشر البشر. لقد أحييتُ أمك كثيراً أيضاً، على الرغم من أنّ ذلك الحبّ لم يدم طويلاً.

- لماذا؟ ما الذي حدث بالضبط؟

- كانت أزمّة أخرى. لقد تغيّرت تشيلي، وتغيّر العالم كثيراً خلال نصف القرن هذا. كانت تفصل بين أوفيليا وبينني هوة اجتماعيّة واقتصادية كبيرة!

- إذا كنتم متحابّين جدّاً، فالواجب يفرض عليكم أن تجازفوا...

- لقد اقترحتُ عليّ في إحدى اللحظات أن نهرب إلى أحد البلدان الدافئة، وأن نعيش حبّتنا تحت أشجار نخيل. تصوّري! كانت أوفيليا آنذاك عاطفيّة وذات روح مغامرة، ولكنني كنت متزوجاً من روزر، لم يكن

بإمكانني أن أفدّم لها أي شيء، وكنت أعرف أنها إذا ما هربت معي فسوف تندم بعد أقل من أسبوع. أكان جُبناً مني؟ لقد سألتُ نفسي هذا السؤال مرّات كثيرة. أظنّ أنّه كان نقصاً في الحاسيّة: لم أفدّر عواطف العلاقة مع أوفيليا، لقد سبّتُ لها الكثير من الضرر دون أن أتوي ذلك. لم أعرف قطّ أنها كانت حبلى، وهي نفسها لم تعلم قطّ أنها قد أنجبت ابنة، وأنّ ابنتها حيّة. لو أنّا عرفنا ذلك كلّهُ، لكّانت القصة قد اختلفت تماماً. ولكنّا لن نحصل على شيء من تغليب الماضي، يا إنغريد. وعلى كلّ حال، أنت ابنة الحب، ولا يخامرُك الشكّ أبداً في هذا.

- لسانون عامّا هي سنّ مُحكّمة بدقّة، يا فيكتور. لقد أدّبت واجبك على أكمل وجه، ويمكنك الآن أن تفعل ما تشاء.

- مثل ماذا، يا صغيرتي؟ انشسم فيكتور.

- الخروج في مغامرة مثلاً. أنا أرغب في القيام برحلة سفاري في أفريقيا. منذ سنوات وأنا أحلم بذلك. وفي أحد الأيام، عندما أتمكّن من إقناع زوجي، سوف نذهب. ويمكن لك أنت أن تحبّ من جديد. لن نخسر شيئاً، وسيكون الأمر مسلياً، أليس كذلك؟

بدا ليفكتور كما لو أنّه يسمع رورز في لحظاتها الأخيرة، عندما كانت تُذكره بأنّها نحن البشر مخلوقات اجتماعيّة، لسنا مبرمجين للوحدة، وأنّنا لنعطى ونأخذ. ولهذا، كانت تلجّ عليه ألا يقنع بالترمل، بل إنّها اختارت له عروساً. وفكّر بعذوبة مفاجئة بميتشه، الجارة ذات القلب المنفتح التي أهدته القطعة، والتي تأتيه بالطماطم وبالأعشاب من حفلها الصغير، المرأة الفضيلة التي تنحت حوريات بدينات. فقرر أنّه فور مغادرة ابنته، سوف يحمل إلى ميتشه ما تبقى من المرّ الأسود مع الحَبّار والكريما الكتلانيّة. وفكّر: إبحارات جديدة. وهكذا حتّى النهاية.

شكر

أول مرة سمعتُ فيها حديثًا عن وبييغ، سفينة الأمل، كانت في طفولتي، في بيت جدّي. وبعد وقت طويل من ذلك، عدت لسماع هذا الاسم يُذكر في محادثة مع فيكتور بيبي في فنزويلا، حيث كنّا كلانا منفيين. في ذلك الحين، لم أكن كاتبة ولم أكن أُنحَـيـلُ أنـتـي قد أكون كاتبة كذلك، لكنّ فُصّة هذه السفينة وحمولتها من اللاجئين ظلت ثابتة في ذاكرتي. والآن للتوّ، بعد مرور أربعين عامًا، تمكّنت من روايتها.

هذه رواية، لكنّ الأحداث والشخصيات التاريخية حقيقية. شخصر الرواية متخيّلون، وقد استوحيتهم من أناس عرفتهم. كان عليّ أن أُنحَـيـلُ قليلًا جدًّا، لأنني عندما قمت بالبحث المستفيض، وهو ما أفعله دومًا في كلّ كتاب، وجدت نفسي أمام فائض من المعلومات. هذا الكتاب كتب نفسه بنفسه، كما لو أنّه قد أملي عليّ. ولهذا أقدم الشكر من أعماق قلبي إلى:

فيكتور بيبي، الذي مات عن 103 سنوات، وقد حافظت معه على مراسلات مكثّفة من أجل تدقيق التفاصيل، وإلى آرتورو خيرون، صديقي في المنفى.

بابلو نيرودا الذي حمل اللّاجئين الإسبان إلى تشيلي، ولأشعاره التي رافقتني على الدوام.

ابني نيكولاس فرياس الذي قام بأول قراءة متشوّقة للكتاب، وإلى أخي خوان ألييندي الذي صحّح المخطوط صفحة صفحة، عدّة مرّات، وساعدني في البحث حول المرحلة التاريخية التي تناولتها هذه القصة، منذ العام 1936 حتّى 1994.

ماشريّ: جوهان كاستيلو ونوري اتبي.

مدقّفتي الوفية، سارا هيليشين.

وكلّاني، لويس مايكل بالوماريس، غلوريا غوتيريث ومارييل لوكي.

أنفوسو بولادو، الذي يراجع باهتمام شديد مخطوطاتي بدافع المحبة المحضة، لأنّه متقاعد، وهو يجبرني على بذل المزيد من الجهد.

خورخي مانثانيا، القارئ المتصلّب (وبحسب تعبيره: المتأنّق) الذي لا يصحّح الأخطاء المطبعية، إذ بعد أربعين عامًا من الحياة بالإنكليزية، صرّث أرتكب أخطاء نحوية، ومن أنواع أخرى.

آدم هونشيلد، لكتابه الاستثنائي «إسبانيا في قلبي»، وخمسين مؤلفًا آخرين أفادتني كتبهم في عملية البحث التاريخية.

في سنة 1939 , جهز بابنو نيرودا لرحلة السفينة وينيبغ , وهي السفينة الأسطورية التي أبحرت من فرنسا إلى تشيلي حاملة على متنها ألفي لاجئ إسباني كانوا قد فروا من نظام فرانكو القمعي.

واستنادا إلى هذا الحدث التاريخي الذي سيذكره نيرودا باعتباره “ أجمل قصائده ” , ثروي إيزابيل ألييندي الحكاية الأخلاذة لعزفة بيانو حبيبي وطبيب أجبر على مغادرة برشلونة المحاصرة آنذاك , ويحملان في الحصول على فرصة ثانية في المنفى

«إيزابيل ألييندي في ذروة قوتها الروائية، تكلمنا عن الأمل والانتماء والحب في المنافى الطويلة الأمد»...

The Independent

«لديها هنا كل ما يلزم: الأذن، والعين، والعقل، والقلب، وإنسانية شاملة لا تستثنى أحداً».

The New York Times

دار الآداب
بيروت - لبنان
مكتب: 95133-79511061033+